الكتاب: المستمعون

المؤلف: إبراهيم السعيد

تدقيق لغوي: إيمان الدواخلى

تصميم الغلاف: عبد الرحمن حافظ

تنسيق داخلي: سمر محمد

رقم الإيداع: ٢٥٠٠٣٧٨/٢٠١٦

I.S.B.N : ٩٧٨٩٧٧٥٦٤١١٠٨

المدير العام : محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس/ 01150636428

Email:P.bookjuice@yahoo.com لمراسلة الدار:

جميع الحقوق محفوظة©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

المستمعون

رواية

إبراهيم السعيد

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

تمهيد

يقول توم ماي: لا أحد يموت من لدغة الثعبان. لدغة الثعبان نفسها لم تقتل أي شخص، فهي مجرد لدغة، وحين تكون في الأدغال تلدغ طوال الوقت. إذن ما يقتلك ليس اللدغة، إنه السم الذي يبقي معك، ويدور بداخلك لفترة طويلة بعد اللدغة، وهذا السم هو الذي يدمرك، إلا إذا تعلمت أن تخرجه من نظامك.. إلا إذا اكتشفت طريقة للتخلص منه.

وإذا نظرت داخلك، فستجد الكثير من السموم المتراكمة من عشرات اللدغات التي نتلقاها طوال الوقت، حتى من أقرب الناس إلينا.. أحيانا دون أن يشعروا، وأحيانا أخرى متعمدين. تشعر بهذه السموم تغلي في عروقك، تأكلك من الداخل، وتتمني أن تخرجها من داخلك لترتاح.. ولكن من يمنحك أذنه لتصب فيها سمومك؟ لا أحد بالطبع.

أجد الكثير من المحاضرات والتدريبات حولنا طوال الوقت، تعلمنا كيف نتحدث.. كيف نتحدث مع الجمهور، كيف تتحدث مع الآخرين، مع طفلك، مع زملائك، مع كذا وكذا، ولكني لم أر محاضرة أو تدريب واحد يعلمنا كيف نستمع.. كيف تجلس مع شخص يتحدث، ولا تفعل أي شيء؛ فقط تستمع.

عندما تجهز ردا على الكلام، أو أسئلة للمتكلم، أو حتى عبارات تظهر تعاطفك معه، فأنت لا تستمع؛ فالمستمع الحقيقي لا يفعل هذا، إنه يستمع فحسب.

ولو وجدت صديقا مستمعا حقيقيا، وهذا شيء نادر، فهل أنت مستعد لتخبره بكل شيء، لتخرج السموم المتراكمة داخلك؟ بالطبع لا؛ فأنت لا تشعر بالأمان. أنت تخشي أنك لو أخرجتها فإنك لن تتخلص منها، وإنما تمنحها الفرصة لتنمو في الخارج، وتعود إليك كوحش مخيف يلتهم عنقك، لذلك

فأنت لا تحتاج إلى مستمع حقيقي فحسب، أنت تحتاج أيضا إلى ما نسميه بالمنطقة الآمنة.

المنطقة الآمنة هي اسم لحالة، أكثر منها اسم لمكان؛ فلا يهم أين هي المنطقة الأمنة، كل ما يهم هو حالة السكينة والأمن والهدوء التي تحل عليك داخلها.

ولا أستطيع التفكير في أحد يمنحنا هذا الشعور أكثر من المستمعين، فهم أبطالنا الحقيقيين، فلو قدر لهم أن يروا السموم التي يخلصونا منها، لماتوا من شدة الرعب، ولكن لحسن الحظ حتى هم لا يحملونها معهم، فهم يتخلصون منها قبل أن ينهضوا.

البعض يشكك في اختيار المستمعين، ويقول إنهم يضيعون حياتهم. وأنا أقول إنهم لا يضيعونها، بل يصنعونها لنا جميعا.

هل تستطيع التفكير في شخص تعرفه يكره عمله؟ بالطبع نعم، الكثيرين.. أنت نفسك ربما تكره عملك، ولكن هل تقول إنك تضيع حياتك في عمل تكرهه اترك ما تكرهه وابحث عن شيء تحبه؟ بالطبع لا، فأنت لم تفعلها، ولا تخبر الآخرين أن يفعلوها، بل تخبر أن علينا جميعا أن نفعل هذا لكي تستمر الحياة، ولو سنحت لك الفرصة لفعل شيء تحبه، فاستغلها، وإلا فاستمر فيما تعمله.

حسنا، المستمعون لا يفكرون بهذه الطريقة، إنهم يحبون عملهم، ويدعونها الوظيفة الأفضل في العالم، أو وظيفة الأحلام.

تصلني عشرات الرسائل والمكالمات يوميا منذ بدأت هذه الحملة- التي لا يحتاج المستمعون إليها- تخبرني عن كم الراحة والسكينة بعد التحدث مع المستمعين.. بعد إخراج السموم المتراكمة داخلهم، مع مستمع حقيقي، في المنطقة الآمنة. في المرة القادمة سأستضيف بعضهم معي، لتسمعوا منهم مباشرة.

وأختم بهذه الرسالة القصيرة التي وصلتني صباح اليوم: "لم أشعر بالراحة يوما منذ الحرب، إلا وأنا أتحدث مع مستمع. ولا أعرف حقا لماذا يريد البعض سلب هذا منا، لماذا يشعرون أن واجبهم جعل حياتنا جحيما؟ نحن نعلم ما نفعل، والمستمعون يعلمون ما يفعلون، فاتركونا وشأننا".

ياسر شوقي

لا يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة!

ارتسمت العبارة في رأس رامز وهو يتأمل الأضواء الخلفية للسيارة الهاربة، تاركة إياه ملقى في منتصف الطريق والدماء تنزف من مختلف أجزاء جسده المحطم، ساحبة حياته معها، يملؤه عدم التصديق.. لا يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة، لا يمكن أن ينتهي الأمر..

"فأنا لم أقم برحلة حول العالم، لم أقدم عرضا في باريس، لم أزر....، لم....، لم....، لم أحقق أيًا من أحلامي الكثيرة..". لن يصبح القائد المغوار الذي أراده والده أن يكونه، ولن يصبح الطبيب الذي يقدسه المرضي كما أرادت أمه.. لن يصبح أي شيء سوي ذكري باهتة.

تمتد إليه قبضة الألم وتعتصر جسده بمنتهى القوة، مؤكدة له أن ما يشعر به هو عين الحقيقة. البقع السوداء تعزو عقله وتقتحم المشهد أمامه، فيغلق عينيه لثانية، ثم يفتحهما ثانية، ولكن الظلام يظل سيد المشهد.

كان عائدا إلى المنزل، حاملا حقيبته على كتفه، يصفر لحنا منغما، ويشعر أن المستقبل مشرق أمامه، والحياة لا يمكن أن تكون أفضل.. وفي اللحظة التالية، الحياة تنسحب من جسده، هكذا دون أية مقدمات!

رأى الزهرة البيضاء ملقاة بجواره، وقد أصبحت حمراء؛ بعد أن تشربت دمائه.. سعاد، لابد أنها تنتظره في شرفتها كما تعودت؛ حيث يمر بها قبل عودته للمنزل، فيلقي لها بالزهرة، فتبتسم له، ثم يتبادلان كلمات قليلة قبل أن تختفي في غرفتها .. "سيطول انتظارك اليوم يا عزيزتي؛ لأنني لن أعود. لن نشتري ذلك المنزل الرائع في الحي الهادي الجديد، حيث يمكننا أن نراقب أطفالنا يكبرون، لن نشيخ معا، ونجلس سويا بجوار نيران المدفأة، بينما محمود وسارة –أحفادنا– يجذبان آذان الكلب النائم تحت أقدامنا".

يري الموت قادما نحوه، يمشي الهوينى.. يحاول أن يزحف مبتعدا، ولكن جسده لا يطاوعه، يتمتم بكلمات خافتة.. ثم يغلق عينه!

الجزء الأول

- ١ -

كمال

لقد أحببتها أكثر من أي شيء، وجعلت إرضاءها غاية حياتي الوحيدة. كانت ملكتي وأنا عبدها المطيع. سامحتها، وبذلت كل ما في وسعي لأجعلها تحبني كما أحبها. تسألينني لماذا قتلتها إذن؟ دعيني أخبرك ما حدث في تلك الليلة، ولتقرري أنت من المخطئ.

في ذكرانا الأخيرة، جهزت كل شيء لليلة رائعة، أعددت طعامها المفضل، ووضعت موسيقاها المفضلة، ثم أشعلت الشموع وجلست أنتظرها. عندما جاءت، ألقت نظرة سريعة عليّ وعلى ما أعددته، ثم سارت نحو الداخل، كأنها لم تر أي شيء. أسرعت خلفها، وناديتها، فلم تجبني.. جذبتها من ذراعها، فالتفتت نحوي محررة ذراعها من يدي بعنف، ثم قالت:

- أنا متعبة، وأريد أن أنام.

- ولكنني أعددت كل شي؛ فاليوم هو ذكرانا السنوية.

- ذكري سعيدة، ولكني متعبة وأريد أن أنام.

صحت بصوت أعلى:

- لماذا؟!

التفتت نحوي قائلة:

- لأنك أحمق، ولم تفهم أن كل ما بيننا قد انتهى.

- ماذا؟!!

- أيها الأحمق، أنت فقط لا تريد أن تصدق.

ذهلت، وتلعثمت، ولم أستطع أن أجيب، فانفجرت قائلة:

- أنا أكرهك، كما لم أكره أحدا من قبل، وحلمي الوحيد هو أن تختفي من حياتي.

صمت لحظة؛ لأحاول استيعاب ما قالته، ثم قلت:

- هل هذا بسبب نادر؟

- نادر أو غيره، لا يهمك أن تعرف سوى أنني أكرهك وفقط.

أسرعت نحو الداخل، فجذبتها بقوة، فالتفت نحوي وصفعتني على وجهي بمنتهى القوة. شعرت بالغضب الكامن في أعماقي يتحرر، ويغلي في عروقي النافرة، ولابد أنها رأته أيضا، فتراجعت للخلف في ذعر، متمتمة بكلمات لم أفهمها.. دفعتها، ليصطدم رأسها بالحائط، ثم تسقط أرضا والدماء تنزف من رأسها، فأخذت تسبني؛ فأطبقت قبضتي على رقبتها، واعتصرتها حتى فارقت الحياة، وجلست أبكي بجوارها حتى جاء الليل، فجررتها ودفنتها في الحديقة. الآن يمكنني أن أراها كل يوم، وأنا أعرف جيدا أنها لن تذهب إلى أي مكان.

***

سهير

كيف حالك يا صديقتي العزيزة؟ اعرف أن اليوم ليس موعدنا الأسبوعي، ولكن حدث موقف غريب، وشعرت أنني يجب أن أتحدث معك.

اجلسي، هل تشربين شيئا؟ آسفة، ولكنني معتادة على الشرب مع أصدقائي، ويحزنني كثيرا أنني لا أستطيع الشرب مع صديقتي المفضلة. هل تذكرين هدي؟ لقد أخبرتك عنها من قبل: متوسطة الطول، سوداء الشعر والعينين، نعم هي هدي عبد القوي، لقد كنا أفضل صديقتين لسنوات طويلة، حتى سافرت مع أبي للخارج في بداية الحرب، ومن يومها لم أتحدث

معها، حتى هذا الصباح.. إنني عائدة لتوي من منزلها، تسأليني كيف قابلتها ولماذا ذهبت إلى منزلها؟ سأخبرك بكل شيء، فلا تتعجلي.

كنت خارجة من المنزل، في طريقي نحو سيارتي، فوجدتها واقفة مستندة إلى إحدى السيارات الواقفة، تحمل الكثير من الأكياس، وتحاول الحصول على تاكسي للمنزل. في البداية لم أعرفها؛ فقد تغيرت كثيرا، ازداد وزنها، واسمرت بشرتها، وظهر البؤس على ملابسها.. لا تجعليني أتحدث عن ملابسها...

- هدي.

نظرت نحوي مضيقة عينيها - يبدو أن بصرها قد ضعف أيضا- تفحصتني للحظات، قبل أن تقول:

- سهير!

احتضنتها قائلة:

- نعم، إنها أنا، كيف حالك؟

- أنا بخير، تبدين رائعة.

صمتت لحظات، ثم قالت:

- ماذا تفعلين؟

- أنت تنظرين إلى أصغر مدير فرع لشركة نيوتال العالمية.. حصيلة سنوات من العمل الشاق المستمر، اثنتي عشرة ساعة يوميا، سبعة أيام أسبوعيا، دون أية إجازات.

ابتسمت قائلة:

- تستحقينها بالتأكيد، لطالما كنت مجتهدة وتحبين العمل.

- العمل هو حياتي. أفضل وقت في يومي، هو عندما أقف خلف زجاج مكتبي الواقع في الطابق التاسع والثلاثين، وأنظر إلى المدينة الواقعة تحت قدمي، هذا الشعور لا مثيل له.

- لقد استقلت من العمل منذ سنوات.

كنت قد خمنت هذا من منظرها ولكنني قلت:

- مستحيل!!

- تزوجت مدحت، واستقلت لأعتني بصغارنا.

- وأنا تزوجت العمل.

أكملت هدي:

- لدي ثلاثة أطفال الآن.

ثم رفعت الأكياس التي في يدها مكملة:

- كنت أقوم بالتسوق من أجلهم.

- وأين سيارتك؟

- ليس لدي سيارة.

- إذن دعيني أوصلك للمنزل.

- لا، لا أريد أن أثقل عليك، و...

قاطعتها في إصرار، وأنا أجذب يدها:

- تعالي، سأوصلك.

سرنا حتى سيارتي، فأشرت نحوها قائلة:

- لقد تم جلبها خصيصا من أجلي. إن كونك مديرا في شركة نيوتال يمنحك القليل من المزايا.

انطلقت بالسيارة، فغلفنا الصمت لدقائق، حتى قالت هدي:

- هل مازلت تعيشين وحيدة؟

- ماذا؟

بحثت هدي في حقيبتها، أخرجت هاتفها، وعرضت عليه صورة لها وعائلتها في إحدى الحدائق، ثم قربتها مني قائلة:

- هذا مدحت زوجي، وبجواره نور ابنتي، وبجوارها محمد، أما الصغير الواقف أمامي، فهو كريم .

- أسرتك جميلة.

- شكرا لك، قد تحصلين على مثلها يوما ما.

صمت للحظات، ثم قلت:

- أنا سعيدة جدا أنني قابلتك اليوم.

- وأنا أيضا.

- غريب هذا الأمر، كان من المفترض أن أعود من باريس - المحطة الأخيرة في رحلتي حول العالم - يوم الثلاثاء القادم، ولكنني عدت مبكرة لظروف طارئة، لو أنني عدت في موعدي، ربما لم أكن لألقاك.

- صدفة سعيدة.

- بالتأكيد.

أتعرفين، هدي صديقة سيئة للغاية، ولو قابلتها ثانية، فسأتركها تحترق تحت الشمس. لقد أوصلتها إلى منزلها، فأصرت أن أتناول قدحا من الشاي معها. كان منزلها أشبه بحظيرة الحيوانات؛ ولكن هل أخبرتها بهذا؟، بالطبع لا؛ فأنا صديقة جيدة، لقد ابتسمت قائلة: منزل جميل.

أما هي فراحت تتحدث عما تملكه هي، ولا أملكه أنا. كلما حاولت أن أتكلم عن أي شيء، تحدثني عن أطفالها، وكم هم رائعون: نور حصلت على المركز الأول العام الماضي، محمد فاز في مسابقة كذا، كريم تم تكريمه في لجنة كذا. خرجت من عندها مع وعد - أعلم جيدا أنني لن أنفذه - بلقاء آخر قريب، من ذا يريد لقاء صديقة سيئة مثلها مرة أخرى.

ليست المرة الأولى التي تعاملني فيها واحدة من صديقاتي بطريقة سيئة، رغم أنني أحبهن، وأعاملهم بمنتهى الود، كما لو كن إخوتي، فهل تعرفين لماذا يعاملونني بهذه الطريقة؟!!

***

ريهام

اجلسي يا بنيتي؛ هل تشربين قدحًا من الشاي معي؟ لا، حسنا، لا أفهم إصرارك الغريب على ألا تتذوقي أي شيء معي. أتمنى أن تتذوقي هذه الفطائر، لقد أعددتها للتو، ستجدينها أشهى فطائر تذوقتِها في حياتك كلها. لا لست أضيف مكونا سريا، أو شيئا من هذا القبيل، ولكنني أحصل على كل مكوناتها طازجة من حديقتي الخاصة.. أزرعها بنفسي، وأعتني بها كما لو كانت طفلتي الصغيرة؛ حتى تنبت لي أفضل المزروعات؛ لأنني أسقيها بحبي. لم ترِي حديقة أمام المنزل؟! حسنا، ومن قال إنها أمام المنزل؟ حديقتي تقع في مكان سري، لن أخبر أحدا به. أكذب!.. لا أسمح لك بقول هذا، ويجب أن تعتذري عن وصفي بالكاذبة. حسنا، لقد قبلت اعتذارك، هكذا أفضل، ولكن لا تكرريها ثانية؛ فربما لن أسامحك المرة القادمة.

هل تعرفين من كان يحب هذه الفطائر بجنون؟ ابني أشرف، كان يأكلها في الصباح، وفي الظهيرة، وفي المساء؛ لم يكن يكتفي منها أبدا. ابني اشرف هذا كان أفضل ولد يمكن أن تتمناه أم. لا تخطئي فهمي.. ابني الآخر ليس سيئا،

ولكن أشرف كان مختلفا.. كان الأفضل. لن أشرح لك كيف، حسبك أن تعرفي أنه الأفضل وكفي.

أعرف أنك تريدين لقاءه، ولكن لا يمكنك.. فأنا لا أعرف مكانه.. لا أحد يعرف مكانه. ولكني أنتظره، وأعرف أنه سيعود.. حتما سيعود إليّ، فلا يوجد له مكان إلا بجواري، وبين أحضاني. أجلس كل يوم بجوار النافذة، أتطلع إلى الشارع الممتد أمامي، وإلى الرائحين والغادين، وأعرف يقينا أنني سأجده قادما نحوي، يتهادى في مشيته كعادته.

لا يبدو أنك تصدقينني أنت الأخرى؛ فأنت مثل هشام، تظنين أنني مجرد عجوز خرفة. حسنا، يمكنك أن تقوليها، لا تخفيها في صدرك أكثر، هيا قولي: "أنت عجوز خرفة". لن تقوليها؟ حسنا، هكذا أفضل، فلو قلتِها، لصفعتك على وجهك.

أنت وهشام وغيركم تظنون هذا، لأنكم لا تعرفون أشرف كما أعرفه أنا. لا يمكن أن يترك والدته هكذا أبدا مهما حدث، وسيعود لي ثانية، وسأسير متأبطة ذراعه في الشارع، ونمر على الذين قالوا لن يعود، فينظرون له غير مصدقين، فيبتسم لهم فتذوب وجوههم من الخجل، فأمسح على رؤوسكم قائلة كل ما حدث لا يهم، المهم أن أشرف قد عاد.

تسألينني ما الذي حدث، وأين ذهب أشرف؟ لماذا يا بنيتي تصرين على فتح الجراح القديمة؟ حسنا، سأخبرك.. في بداية الحرب، تم حصار حيِّنا من الجانبين. حيُّنا كان مسالما يا بنيتي، ولم يوجد به مسلح واحد، لذلك لا أحد يعرف لماذا اختاره المسلحون أرضا لمعاركهم. ربما لو كان بعض رجالنا مسلحين، لما جرى ما جرى.

ظللنا محاصرين وسط القتال لأكثر من عشرين يوما، لا يجرؤ أي شخص على الخروج من منزله إلا وأصابه أحد القناصة المتربصين. بل إن المرء لم يكن يجرؤ على السير منتصبا داخل المنزل، وإلا أصابه قناص عبر النافذة.

كان الرعب والجوع والعطش والألم رفقاءنا طوال هذه المدة، وأصوات الرصاص والانفجارات والصراخ سيمفونية لا يتوقف عزفها، ورائحة الجثث المتعفنة والمنازل المحترقة تملأ الجو.

وذات يوم، توقف القتال، ثم سمعنا صوتًا يخبرنا عبر مكبرات الصوت أن الحي تم تأمينه، ومن يريد المغادرة ينزل الآن. لم نصدق أنفسنا، ونظرنا فرأينا سيارات نقل وسط الشوارع بدأ الناس يصعدون إليها. فنزلنا مسرعين، يهنئ بعضنا بعضا بالنجاة، عندما هوت القذيفة الأولى لتنسف إحدى السيارات بمن فيها، ثم انهمر الرصاص من كل جانب. وانطلقنا نركض في كل اتجاه، بينما أسرعت السيارات حاملة من استطاع الركوب. وضع زوجي هشام ابننا فوق إحدى السيارات، ثم ساعدني لأصعد خلفه ومعي ابنتنا أمل. حمل أشرف طفلا آخر فوضعه على السيارة بجوار أمه، ثم هم بالصعود، عندما أصابت زوجي رصاصة، فأسرع أشرف نحوه يسانده ليقف، ولكن الرصاصة التالية أصابت رأسه؛ ليسقط فوق أشرف، ويسقط الاثنين أرضا.

كنت أراقبهما والسيارة تتحرك بنا. حاولت النزول، ولكن الباقيين أمسكوا بي، فالنزول معناه الموت الأكيد. كان آخر ما رأيته، قبل أن أفقد الوعي، هو أشرف الملقى أرضا بجوار جسد أبيه الميت.

***

- ٢ -

- الإنسان يجب أن يكون دائم السيطرة على حياته، لا يجب أن يفقدها ولو للحظة واحدة.. يجب أن يفعل كل شيء بإرادته الحرة.

- إن نظام المستمعين لا يتعارض مع سيطرة الإنسان على حياته، بل يمنح المزيد من الحرية.

- وماذا تسمي تجول المستمعين في الشوارع كالموتى الأحياء، لا يعرفون إلى أين يذهبون، ولا ماذا يفعلون؟ إن لم يكن هذا فقدان تام للسيطرة، فأنا لا أعرف ما هو فقدان السيطرة إذن.

- المستمعون لا يتحركون كالموتى الأحياء بلا هدف، بل يتحركون وفق نظام دقيق، لا يوجد به أي مجال للخطأ، ويستحيل اختراقه أو العبث به.

- نظام دقيق، لا يوجد به أية مجال للخطأ: ويستحيل اختراقه أو العبث به.. أين سمعت هذه الكلمات من قبل؟ أليس هذه ما قاله صبحي حسين عن نظامه الجديد "تك ١٢٠٠"، قبل أن يسحقه نادر فهمي؟

ضحكت أسيل، واحتقن وجه الدكتور علام - مندوب المستمعين -، جراء ضربات دكتور أحمد، الذي جلس هادئا في مقعده. شردت أسيل تفكر، متى كانت آخر مرة علت ضحكتها بهذه الطريقة؟ إنها لا تستطيع التذكر، فحياتها منذ رحيل رامز، فقدت طعمها ولونها وراحتها، وأصبحت بلا معنى.. الخواء التام يغطي كل شيء، ويأكل كل شيء داخلها، لتتحرك بآلية تامة، منتظرة اليوم التي ستجتمع فيه مع رامز.

أعادها صياح الدكتور علام إلى أرض الواقع، واستقبله الدكتور أحمد بهدوء تام، قال:

- نظام المستمعون لا يمكن اختراقه؛ فماذا عن مراد عثمان؟

صمت علام للحظات، ازداد خلالها احتقان وجهه، قال:

- لا أصدق أنك تذكر حادثة مراد، فأنت تعرف جيدا أن ما حدث لم يكن خطأ المستمعين. لقد قام منافس مراد بوضع أجهزة التجسس داخل مكتبه، وسجل محادثاته مع المستمعين، ثم نشرها؛ فما الخطأ في نظام المستمعين؟ لا تقل لي إن مسئوليتنا أن نؤمن من يطلب المستمعين.

قال أحمد:

- معك حق يا دكتور علام، إن تأمين كل شخص هو مسئوليته الشخصية.

- بالضبط.

- فما الذي يضمن أن ما حدث لن يتكرر؟

- ماذا؟!!

ابتسم أحمد قائلا:

- لم أقصد هذا، ولكن لدي سؤالًا أخيرا. يا دكتور علام، ماذا سيحدث لو تم اختراق نظام المستمعين؟

- نظام المستمعين لا يمكن اختراقه.

- أعرف، نظام المستمعين مختلف ولا يمكن اختراقه. ولكن لو افترضنا نظريا أنه تم اختراقه، فكيف ستكون النتائج؟

همست أسيل:

- لا تجبه، تمسك بقولك نظام المستمعين لا يمكن اختراقه.

صمت الدكتور علام للحظات ثم قال:

- مشكلة كبيرة بل كار...

انتبه لخطأه، فأسرع يستطرد:

- ولكن نظام المستمعين لا يمكن اختراقه.

- كلمتك وليست كلمتي "كارثة".. هذا ما سيحدث بسبب نظام المستمعين.

طرق الباب، فنهضت أسيل وفتحته، لتجد هند..

- هند، تفضلي يا عزيزتي.

خطت هند للداخل قائلة:

- كيف حالك؟

ثم ألقت نظرة على شاشة التلفاز مكملة:

- دكتور أحمد! أشعر أنه مقيم دائم في التلفاز.

- إنه يحاول كسب الرأي العام لصالحه.

جلست هند على الأريكة قائلة:

- أحيانا أتخيله جلب أغراضه وأصبح يعيش فعليا داخل التلفاز، فأطرُق على التلفاز قائلة كفاك مكوثا داخل هذا الصندوق، اخرج يا رجل وعش حياتك.

ابتسمت أسيل..

- هل تظنين أنه سيربح؟

- لا.

- من أين أتيت بهذه الثقة؟! أعتقد أنه سيربح..

قاطعتها هند:

- لقد حاول الكثيرون قبله، ولم يستطيعوا فعل أي شيء.

- دكتور أحمد مختلف.

- كان يجب أن تري دكتور سيف، لقد كان أفضل بكثير. أذكر أنه جعلني أشعر بالخوف مثلما تشعرين أنت الآن. كنت وقتها مستمعة من المستوى الثالث مثلك.

- أتمنى أن تكوني محقة.

- ثقي بي؛ إن برنامج المستمعين هام جدا للحكومة، ولن يسمحوا بإيقافه مهما حدث.

سمعتا صوت الباب يفتح، ثم دخل شريف - زوج أسيل - ونظر إليهما..

- أهلا هند، كيف حالك؟ وكيف حال مهند؟

أكمل طريقه للداخل، بينما ترد: بخير، حمدا لله.

ثم نهضت، واتجهت نحو الباب قائلة لأسيل:

- أراك غدا في العمل.

- حسنا إلى اللقاء.

غادرت هند، بينما دخلت أسيل لتجهز الطعام وهي تنظر إلى شريف الذي ألقى بجسده على الأريكة، وأغمض عينيه وسكن جسده، فبدا كالجثة بالضبط. تتخيله يقف بجوارها وهي تعد الطعام، يساعدها ويقص لها قصصه المسلية عن عمله، ويسألها كيف كان يومها. لو قدر لتلك الأريكة التي ترقد عليها جثة شريف الآن أن تتكلم، لحكت عن جلساتهم وضحكاتهم العالية، وهم يتابعون مسلسلهم المفضل ويحزران ما سيحدث تاليًا. كم تفتقد ابتسامته ودفء كلماته، وتعلم جيدا أنه لن يعود إليها، طالما يتناول أقراص الازرولدين اللعينة كما أخبره دكتور نوح.

الازرولدين، الريبوت، قاتل الألم، السماء السابعة، كلها أسماء لذلك المخدر الذي يتناوله شريف. إنه يقتل كل المشاعر البشرية، ويحوله إلى جثة تتنفس، تأكل، تشرب، تتكلم، ولكن تفتقد الروح. لقد تم تطويره في معامل وزارة الدفاع كعقار محفز للجنود في ساحات القتال، ولكن تم تهريبه ،

وإنتاجه والترويج له، ونسجت الكثير من الأساطير حوله، وأصبح تجارة متاحةً للجميع. عندما عرف شريف بوفاة ابنهما رامز، لم يحتمل الصدمة فحاول الانتحار، وعندما أفاق بعد إنقاذه، أخبرها دكتور نوح أنه سيفعلها ثانية؛ لذلك كان الازرولدين هو الحل الوحيد.

الآن أصبحت حياتها نفقًا ضيقًا من الوحدة المظلمة، تعبره بصحبة الألم، ولا يبدو أنها ستري طرفه الآخر أبدا. هند جارتها هي من ساعدتها كثيرا، ولولاها -بعد الله- لربما انتحرت أسيل ولحقت بابنها.

انتهت من إعداد الطعام، فوضعته على الطاولة ثم نادت:

- شريف... شريف.

لحظات، ثم نهض من مكانه، وسار ببطء نحو الطاولة. ترى لماذا تتأخر إجابته؟ هل يسرح بخياله في حياتهم السابقة كما تفعل هي، أم سلبه العقار القدرة على التذكر أيضا؟ جلس على مقعد أمامها ، فقالت:

- كيف كان يومك؟

- جيد.

لا يتحدث إلا قليلا، وبكلمات مختصرة جدا، تتمني أسيل أن يتحدث معها أكثر، قال شريف، وهو يلتهم قطعة من اللحم:

- هل تعرفي بما يذكرني منظر هذا اللحم الغارق في الصلصة الحمراء؟

توقفت أسيل عن تناول الطعام، أهي أمنيتها تتحقق ويتحدث معها؟! قالت:

- بماذا؟

- في إحدى المرات، رأيت بقايا رجل انفجرت فيه قنبلة. كان منظر اللحم الغارق في الدماء يشبه منظر هذا اللحم بالضبط.

جاهدت أسيل حتى لا تتقيأ أمامه. تذكرت مقولة "احذر مما تتمناه".. ربما كان الأفضل أن يصمت شريف حتى ينتهيا من الطعام. أغلقت عينيها،

وهي تزفر بقوة، لتمحو المشهد من حولها، ثم يظهر مشهد آخر في نفس المكان، وعلى المقعد الفارغ جلس الشخص الذي منح الحياة لهذا المنزل، رامز ابنهم. يقول رامز:

- حسنا لغز آخر بسيط، أتمنى أن تستطيعوا إجابته هذه المرة.. ثلاثة عبروا جسرا، الأول رأى الجسر ومشى عليه، والثاني رأى الجسر ولم يمش عليه، والثالث لم ير الجسر ولم يمش عليه. كيف حدث ذلك؟

ينتظر للحظات ثم يقول:

- امرأة حامل مع ابنها الصغير على كتفها، كيف لا تعرفونه؟!

يقول شريف: كنت أعرف، ولكنك لم تترك لنا فرصة للإجابة.

تقول أسيل:

- هات واحدًا آخر، ولكن أسهل هذه المرة.

فيقول رامز:

- حسنا، من الذي يرى عدوه وصديقه بعين واحدة؟

فتقول أسيل: الأعور.

- رائع.

ثم يعلوا ضحكهم، فيمسح شريف على رأسه قائلا: هذا هو ابني.

عادت للواقع على صوت شريف : سأذهب لأنام.

نهض، بينما بقيت أسيل ترفع الأطباق عن المائدة، وهي تهمس: متى تعود لي يا شريف؟

***

-٣-

ما الذي يحدث في العمل؟

لثلاث سنوات –فترة عملها كمستمعة- ظلت أسيل تسأل نفسها هذا السؤال، دون إجابة. كل ما تعرفه عن العمل هو حارس الأمن جمال، تمر من البوابة، فتلقي التحية عليه، تدخل، وتمر بنظام الفحص الأمني، تكمل طريقها حتى تصل إلى الغرفة الزرقاء، فتجلس وتجذب الخوذة لتغطي رأسها، تغمض عينيها، وفي اللحظة التالية تجد نفسها ترفع الخوذة عن رأسها في الغرفة الحمراء، وقد مرت ثماني ساعات كاملة.

حاولت كثيرا تخيل كيف يبدو داخل المركز، ولكنها لم تستطع. أحيانا تتخيله غابات كثيفة مما قبل التاريخ، تحيط بها المستنقعات، بينما تزأر الديناصورات، وهي تتقاتل فيما بينها.. وأحيانا أخرى تتخيل أنها ترتدي ثيابا سوداء، وتصبح العميلة الخاصة (بي٢)، أفضل عميلة خاصة لمكافحة الجاسوسية.

تسألها هند: لماذا (بي٢)؟!

- لا أعرف، ولكني أعتقد أنني أبدو كـ (بي٢).

وعبثا حاولت هند إقناعها انه لا شيء يحدث في الداخل، ولكن أسيل ظلت متعلقة بقصصها الغريبة، ثم أصبحت هند تشاركها هي الأخرى، وتسألها في نهاية كل يوم عمل: ماذا فعلت اليوم؟

فتجيب أسيل، وهي تشير إلى ثيابها:

- لقد طاردت دبا ضخما لمسافات طويلة، حتى استطعت قتله، وصنعت منه هذه الثياب.

ثم تتثاءب قائلة: لقد كان يوما صعبا.

عندما أخبرتها هند في البداية أن العمل كمستمعة قد يكون الطريق للخروج من الحالة التي تشعر بها، علقت أسيل قائلة:

- اعرف أن فقدان ثماني ساعات يوميا قد يكون شيئا جيدًا لمن يقضي يومه مثلي في تجرع الأم الماضي؛ ولكني لا أعتقد أنني سأكون جيدة كمستمعة.

- هذه الوظيفة بالذات لا تتطلب أية مقومات، وحتى لو كانت تتطلب، فأنت تملكينها. لقد كنت معلمة رياض أطفال ممتازة، مما يجعلك مستمعة ممتازة، لأن كل إنسان في حقيقته طفل صغير.

ابتسمت أسيل، وقد أعادت عبارة هند لمحات من ماضيها السعيد، قالت: مازلت لا أعرف.

وصمتت لحظة ثم سألت: ماذا تفعلين في هذه الوظيفة بالضبط؟

- كل ما عليك فعله هو الحضور في ميعادك إلى المقر، تخضعين للفحص الأمني، تدخلين إلى الغرفة الزرقاء، تضعين الخوذة على رأسك، وفي اللحظة التالية تجدين نفسك ترفعين الخوذة عن رأسك في الغرفة الحمراء، وقد مرت ثماني ساعات كاملة.

- هكذا فقط!!

- نعم هكذا فقط، ولكن بالطبع هناك مقابلات في البداية؛ لتحديد صلاحيتك للعمل، ثم عملية تثبيت البرنامج داخل رأسك...

قاطعتها أسيل: تثبيت برنامج داخل رأسي! يبدو أمرًا مخيفا.

- ليس مخيفا على الإطلاق، فأنت لن تشعري بأي شيء. تثبيت البرنامج يتم على ثلاث جلسات، مدة كل جلسة ساعتين، ثم تصبحين مستعدة للعمل كمستمعة.

- وماذا يفعل هذا البرنامج؟

- البرنامج لتنسيق العمل بين عقلك وبرنامج المستمعين. فعندما تضعي الخوذة على رأسك، تقوم بتثبيت زوج من الكمبيوترات الصغيرة بين عينيك وأذنيك، وهذان الكمبيوتران يجعلانك تعملين كمستمعة إلى ما يقوله أولئك المتكلمون، ثم لا تتذكرين أي شيء منه، ولا تتذكرين أي شيء يخص العمل في نهاية اليوم.

- لا أتذكر أي شيء!!

- لا تتذكرين أي شيء، لا جلسات الاستماع، ولا ما يحدث في العمل.

صمتت أسيل للحظات، ثم قالت:

- ولكنني سأكون مسلوبة الإرادة هكذا. سأكون غير قادرة على أي شيء، على الدفاع عن نفسي مثلا لو حدث شيء أثناء الجلسة.

- البرنامج مزود بجزء خاص للطوارئ، تفعِّله أفعال، وكلمات معينة؛ فيقوم الكمبيوتر بإرسال رسالة إلى المركز الرئيسي، فتجدي رجال العمليات فوق رأسك في لحظات معدودة؛ ولكن لم تحدث أية حادثة من قبل.

- أدخل إلى العمل، يتم تثبيت الكمبيوترين، ثم انتظر حتى يطلب أحدهم مستمعة، فتحملني سيارة إلى هناك، فأجلس وأستمع إليه.. هكذا فقط!!

- نعم هكذا فقط.

- يبدو الأمر في غاية السهولة!

- ومن قال غير ذلك!

- ولكن من يحتاج إلى مستمع ليخبره بما يشعر؟

تطلعت إليها هند للحظات ثم قالت:

- الجميع، الجميع يحتاج إلى مستمع يتحدث إليه.

وصمتت لحظة أخرى، ثم قالت:

- ألم تشعري يوما أنك تحتاجين إلى شخص تتحدثين معه؟ شخص لا يناقشك، ولا يحكم عليك، ولا يبدي رأيه؛ فقط يستمع إليك.. تتحدثين بلا تنسيق، ولا ترتيب، ولا تغيير في الكلام، ولا تهتمين هل سيفهم أم لا، فمهما كان ما تقولينه سيستمع لك.

- يبدو رائعا!

- هل تعرفين ماذا أفعل في يوم راحتي، عندما يذهب نور عند أقارب والده؟

- ماذا؟

- أعد لنفسي كوبًا من الشوكولاته الساخنة، وأطلب مستمعة أتحدث إليها.

- عن ماذا تتحدثين إليها ؟

- لا أستطيع أن أخبرك، فهذا بيني وبين مستمعتي.. أقصد بيني وبين نفسي؛ فكما يقولون كل سر يمكن أن يخرج، إلا ما بينك وبين مستمعك.

- لا أعتقد أن لدي ما أقوله لمستمعة!

- أنت تظنين ذلك، ولكن ما إن تجلسي في مكان آمن، حتى تفاجئك نفسك بما لديك لتقوليه. نحن أطفال الحرب نحمل ألمًا عظيمًا داخلنا، نتمنى أن نصرخ فلا نستطيع، نحمل كما هائلا من الكراهية التي تأكلنا من الداخل، ولا نعرف كيف نخرجها.. نحن...

قاطعتها أسيل قائلة:

- ليس عبارات أطفال الحرب ثانية.. إنك تكررها طوال الوقت حتى أصبحت أحفظها.

- حسنا.

"وظيفة تبدأ وتنتهي في نفس اللحظة!! ولا تفعل فيها أي شيء، فقط كمبيوتر خاص جدا يتولى كل شيء، تبدو أجمل من أن تكون حقيقية؛ فهي خالية من المنغصات، ولا يمكن أن تكون الحياة كذلك". تذكرت أسيل هذه العبارة، وهي تضغط النفير لتبعد المتظاهرين من أنصار الدكتور أحمد من أمام السيارة. كانوا يقفون صامتين، ويحملون لافتات مكتوب عليها:

(إذا كنتم مستمعون فنحن صامتون)

دكتور أحمد نبت من العدم فجأة، أو هكذا ظنت. مع هدف واحد هو إيقاف برنامج المستمعين. يجمع الناس حوله، ويخبرهم أن المستمعين هم أسوأ شيء حدث منذ الحرب، بل ربما أسوأ من الحرب. ومع اقتراب جلسة المجلس التي ستحدد هل سيستمر المستمعون أم لا، زاد دكتور أحمد من هجومه، ليكسب المزيد من الأصوات.

وصلت أسيل إلى بوابة المركز؛ ففتحت لها. دخلت وهي تشير للحارس قائلة: مرحبا جمال.

جاوبها جمال بهزة من رأسه دون كلام.. هبطت من السيارة، سارت نحو البوابة الداخلية، حيث خضعت للفحص الأمني، ثم واصلت سيرها نحو الغرفة الزرقاء. جلست على مقعدها ، ثم جذبت الخوذة لتغطي رأسها وهي تهمس: أراك بعد لحظات في الغرفة الحمراء.

***

هولاء القوم يتمتعون بإرادة قوية.

غمغمت أسيل بالعبارة، وهي تتطلع إلى المتظاهرين الذي واصلوا وقفتهم أمام مركز المستمعين، بينما تقود سيارتها بعد انتهاء العمل. مرت بجوار الشخص الذي يحمل لافتة(إذا كنتم مستمعون فنحن صامتون) فابتسمت

له واضعة سبابتها أمام فمها في إشارة للسكوت؛ فرماها الرجل بنظرة غاضبة، فقادت مبتعدة.

وصلت أسيل المنزل، ففتحت التلفاز لتشعر أن هناك آخرين معها، ثم صعدت غرفتها حيث أبدلت ثيابها، ونزلت إلى المطبخ تعد الطعام. لم تكن جائعة، بل إنها لم تعد تشعر بالجوع، وشريف كذلك لا يهتم بالطعام، ولكنه الشيء الوحيد الذي يشعرها أنهما مازالا بشرًا طبيعيين، لم يتحولا إلى جثث بعد.

كان التلفاز يعرض برنامج كلام نساء مع المذيعة خزامى سامي، مستضيفة امرأتين، إحداهما نحيلة من المؤيدين للمستمعين، والأخرى بدينة من المعارضين المطالبين بإلغاء البرنامج، حتى كلام نساء وخزامى سامي! لقد تحطمت وظيفة الأحلام بمنتهى السرعة، انهمكت في إعداد الطعام، وهي تتخيل أنها الضيفة الثالثة في البرنامج، تتخيل ما ستقوله، ستجلس بجوار البدينة قائلة:

- هؤلاء المستمعون، أنا لا أعرف كيف يفكرون! هل تعرفين أن إحداهم قالت إن الحساء الذي أعده سيء.

فتقول النحيلة بسرعة:

- المستمعون لا يأكلون ولا يشربون، إنهم يستمعون فقط.

فتقول أسيل بنفس سرعتها:

- لم تتذوق الحساء، وتقول إنه سيء؛ هل رأيت مثل هذا من قبل؟!

فتقول البدينة باشمئزاز: مستمعون، ماذا تنتظرين منهم؟!

تنتقل أسيل لتجلس بجوار النحيلة قائلة:

- المستمعون هم أفضل شيء حدث لنا، يمكنني أن أتحدث معهم لساعات، وأعرف أنهم لن يخبروا أي شخص. يمكنني أن أتحدث معهم عمن أريد من أصدقائي، وأعرف أنهم لن يهرعوا ليخبروه بمجرد

خروجهم من عندي، كما فعلت صديقتي سارة التي تنقل كلامي إلى باقي الأصدقاء.

ثم تنظر إلى الكاميرا مباشرة مكملة:

- نعم يا سارة أعرف أنك من نقل الكلام لسعاد، وسأريك.

تقول المرأة النحيلة:

- معك حق يا عزيزتي، هولاء النسوة أمثال سارة ملعونات حقا.

ابتسمت أسيل وهي تقول لنفسها: ستكونين ضيفة رائعة للبرنامج

عادت تتابع البرنامج الأصلي، كانت المرأة البدينة تقول:

- لا أصدق ما حدث. بعد كل هذا الوقت الذي أمضيناه سويا، وكل ما أخبرتها به، حتى أنها تعرف عني أكثر من أهلي، أقابلها في أحد المحلات التجارية، فتتجاهلني تماما. ذهبت إليها وكلمتها، فنظرت نحوي قائلة معذرة، ولكن من أنت؟! بعد كل هذا تقول لي معذرة من أنت؟!! معذرة من أنت؟!!

قالت النحيلة: أنت تعرفين أن المستمعين لا يتذكرون....

قاطعتها خزامى قائلة: دعيها تكمل.

أكملت البدينة: تتذكر أو لا تتذكر، لقد كسرت قلبي.

ثم تطلعت إلى الكاميرا مباشرة بعينين دامعتين مكملة:

- لقد أحببتك، وأنت كسرت قلبي.

قالت النحيلة: أنا أشعر بك، ولكنك تعرفين أن المستمعين لا يتذكرون...

مسحت خزامى دمعة وهمية من عينها ثم قالت:

- ألا يمكنك أن تصمتي للحظة؟ ألا ترين ما تعانيه؟ لقد كسر قلبها.

احمر وجه النحيلة، فمسحت دمعة وهمية من عينها هي الأخرى، ثم قالت:

- آسفة جدا، أنا أعرف جيدا ما تشعرين به، فقد تعرضت أيضا لخيانة الأصدقاء، أقرب الأصدقاء. ولكنني أحب المستمعين، فهم الوحيدون الذين لم يخذلوني. أقرب أصدقائي تخلوا عني بعد الحادث، إلا المستمعة، ظلت تحضر، وتستمع إليّ، كأن شيء لم يحدث.

ثم تطلعت إلى الكاميرا مباشرة هي الأخرى:

- يا مستمعتي العزيزة، أينما تكونين، أرسل لك محبتي.

قالت أسيل:

- رائع، أشعر أن الدموع ستفر من عيني.

دق الهاتف، فخفضت أسيل صوت التلفاز، ثم التقطته، فجاءها صوت فارس - صديق شريف وزميله في العمل - قائلا:

- أهلا أسيل، كيف حالك؟

- بخير، حمدا لله، كيف حالك أنت؟

- بخير

قالها وصمت، فقالت أسيل: دعني أخمن.. تتصل لتخبرني أن شريف سيبقى في العمل ولن يعود للمنزل اليوم.

- آسف يا أسيل، ولكنك تعرفين العمل.

- حسنا، شكرا لك.

أغلقت الهاتف وهي تزفر في ضيق. يوم آخر تقضيه وحيدة في المنزل، تستمع إلى أنينه وهمساته، وأحيانا صراخه، الذي يصبح أعلى كلما كانت وحيدة، كأنه يخاف من جثة شريف التي تتناول أقراص الازرولدين. أحيانا

تمسك علبة الأقراص، وتتحدث معها قائلة: لماذا تفعلين هذا بنا؟ لماذا سرقتِ شريف مني؟ ألم يكفيك ما أعانيه من الألم؟

تجيبها الأقراص: أنا لم أسرق شريف، لقد أنقذته. هل شريف الذي تعرفينه يغلق باب الحمام ثم يقطع شريانه؟ لقد منحته السكينة التي يبحث عنها.

تصمت أسيل لحظات، تقول: شكرا لك.

أطفأت الموقد، تركت ما في يدها وخرجت من المطبخ.. إذا كان شريف لن يحضر لتناول الطعام معها، فلماذا تعده؟

- هل انتهى إعداد الطعام يا أمي؟

تجاهلت الصوت، وألقت بجسدها على الأريكة، ووضعت وسادة صغيرة على رأسها، بينما عاد الصوت يقول: إنني جائع.

ثم سمعت صوتها يجيب:

- اهدأ يا رامز، سنتناول الطعام عندما يعود والدك.

- ومن قال إنني لن آكل معكما ثانية عندما يعود والدي؟!

ذكريات كثيرة للغاية تطاردها في كل ركن من المنزل. تحاول تجاهلها، ولكنها تقفز نحوها، تتعلق بها، تفتح عينيها بالقوة، وتصرخ في أذنيها.. هنا كنتِ تساعدين رامز لعمل واجبه المنزلي.. هنا كان رامز يقف ويؤدي بعض الفقرات المسرحية بينما تصفقين له، ويا ليتك ما فعلتِ. يا ليتك نهيته عن هذا التمثيل، فهذا سيكون نواة لأكبر شجار خضتِه معه أنت ووالده، انتهى برامز يخرج ويصفع الباب خلفه، وعاد بعدها جثة هامدة. الشجار الأخير، تسمع كلماته تترد بوضوح، كأنها مسجلة على جدران المنزل، تتكرر وتتكرر؛ فتنهض باحثة عن البقعة الصامتة، كما أخبرتها هند:

- عندما تشعرين أن المنزل يصيح بك، ابحثي عن مكان لم تعتادوا الجلوس فيه، مكان لا يحمل أية ذكريات، هذه هي بقعتك الصامتة، تمسكي بها.

اتجهت نحو طرف الصالة خلف الباب. لم تعتد الجلوس هنا، ولا يحمل أية ذكريات، ولكن هل ستتركها الذكريات هنا حقا؟

اقترح عليها البعض بيع المنزل، والحصول على بداية جديدة، ولكنها رفضت بطريقة أرعبت صاحب الاقتراح، فلم يكرره ثانية، فالعيش وسط ذكريات رامزوإن آلمتها، أفضل من العيش في سلام بدونه.

استلقت على الأرض، ضمت يديها هامسة:

- يا رب امنحني القوة.

***

- ٤ -

وماذا عن المستمعين أنفسهم؟ هؤلاء الأشخاص الذين يفقدون ثلث حياتهم؟ هل تتخيلون؟ ثلث حياتهم لا يعرفون ماذا يفعلون فيه، أو يتذكرون أي شيء عنه! إنهم يتحدون سنن الكون التي تقول إن الإنسان يجب أن يعيش كل لحظة من حياته، كل لحظة، وليس أن يفقد ثلث يومه بهذه الطريقة. أعرف أنهم يفعلون هذا بإرادتهم الحرة، ولم يجبرهم أحد.. وكذلك مدمن المخدرات، يتناولها بإرادته الحرة، فلماذا نمنعه؟ لأنه يدمر نفسه. إذا فالأولى أن نمنع من يهدر أعظم منحة منحها لنا الخالق جل في علاه، وهي الحياة.

ضغط دكتور أحمد زر كتم الصوت، وهو يتطلع إلى شاشة التلفاز التي تعرض صورته وهو يتحدث إلى وجه إعلامي شهير. بعد تلك الحلقة صافحه الإعلامي بقوة، وهو يقول:

- لقد كسبت شخص آخر إلى معسكرك يا دكتور أحمد.
- ليس لدي معسكريا سيدي، ولكني أحاول توضيح الحقيقة فحسب.
- ولقد قمت بهذا على أفضل وجه. أعتقد أن الجميع يعرف الآن لماذا يجب أن يصوت المجلس ضد المستمعين.

ابتسم أحمد؛ فهو يعرف جيدا أن الرجل يقول هذا الكلام لكل ضيوفه، وقد قال الكلام نفسه لياسر شوقي، عندما قدم حلقة عن لماذا يجب أن يصوت المجلس بنعم للمستمعين. يطلقون عليه الحرباء، وهو لقب يستحقه عن جداره، ويفخر به، عبارة واحدة ظلت تتردد في رأس أحمد:

أنا أحاول توضيح الحقيقة فحسب.

وسؤال واحد صمم على حذفه من قائمة الأسئلة قبل بداية اللقاء:

لماذا تكره المستمعين؟

لم يستطع الإجابة، وظل يراوغ حتى هرب من السؤال، ثم طلب حذفه من قائمة الأسئلة التي ستلقى عليه في الحلقة. إنه مقتنع تماما بما قاله، ولا يتحدث إلا بالحقيقة، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أنه يكره المستمعين فعلا.. إنها ذكريات بعيدة من طفولته أثناء الحرب، كان ينظر إلى والده من شق الباب، وهو يتحدث مع أصدقائه، والدخان يحيط بهم، كثيفًا لا ينقشع كأنه جزء من المنزل. يقول والده وهو يعد الأموال:

- لقد صنعنا أموالا كثيرة، لقد كان يوما عظيما.

يقول رجل: لولاك ما فعلناها يا أبو أحمد.

فيقول آخر، يلقبونه بالمعلم أبو عوف:

- أبو أحمد نِعم الرجال، قلبه ميت، ويفعل أي شيء.

يقول والده: إننا نفعل ما يجب علينا فعله.

يربت أبو عوف على كتفي والده قائلا:

- بالطبع، نحن نفعل كل ما يمكننا، لننجو من هذه الحرب اللعينة.

تعجب أحد الرجال: ولكننا نفعلها من قبل الحرب بكثير!

تطلع إليه أبو عوف للحظات، ثم انفجر ضاحكا؛ فضحك باقي الرجال إلا واحد، يلقبونه بالأخرس، يجلس صامتا دون أن يشاركهم لا في حديثهم ولا في ضحكهم، فقط يستمع إليهم . ولكنه ليس أخرس، فقد سمعه أحمد يتكلم من قبل.

لم يكن والده هكذا طوال الوقت. كان سيئا، ولكنه لم يكن بهذا السوء. كان والده يمتلك محلا للأدوات الكهربائية في أحد الشوارع الشهيرة، يدر عليه ربحا جيدا؛ مما سمح لهم أن يعيشوا حياة جيدة، لم يعكر صفوها سوي استجابة والده لرفقائه بين الحين والآخر، فيذهب معهم في سهراتهم المميزة،

أو ليلة من ألف ليلة وليلة كما يدعونها، وعندما يعود قبل الفجر بقليل مترنحا والخمر تفوح منه، تعاتبه زوجته الساهرة في انتظاره، فيصيح بها، ثم يضربها، وإن خرج أحمد يضربه هو الآخر، ثم يصيح بهما: أنا أفعل ما أريد.

ثم يسقط كالحجر لينام في أي مكان، ولا يستيقظ حتى منتصف اليوم التالي، بذكريات مشوشة عما فعله بالأمس، وإن كانت الآثار على جسد أحمد وأمه تؤكد له أنه قد فعل ما يحاول إنكاره، فيقبل على زوجته يكلمها، ويقبل يدها ويعتذر لها، ويقسم أن أصدقاء السوء هم الذين خدعوه واصطحبوه معهم، ويعدها ألا يتكرر ما حدث، وأنه سيقطع علاقته بهم، ويظل يلح عليها حتى تبتسم وتسامحه، فيقبل على أحمد قائلا:

- اعذرني يا بني، إنها الخمر اللعينة تفقدني السيطرة على نفسي، فلا أشعر بما أفعل.

ويظل يدلله هو الآخر حتى يرضي عنه، ثم يعده أن ما حدث لن يتكرر ثانية.. أبدً، ولكنه يتكرر... دائما.

حين تستقيم أموره، يعود للمنزل مبكرا، يحمل هدايا وحلوى وطعام كثير، ثم يجلس مع أحمد ويقرأ له كتابه المفضل حتى ينام، ثم يجلس مع زوجته، فيسمع أحمد ضحكهما.. ولكنه تعلَّم أن هذا لا يدوم طويلا، فسرعان ما يتكرر كل شيء.

ظل حبيس هذه الدائرة الجهنمية، حتى عاد والده إلى المنزل في أحد الأيام بعد بدء الحرب، وقد اسود وجهه، وغارت عيناه، ثم ألقى نفسه على الأرض متمتما: لقد احترق المحل بالكامل. كل شيء احترق، كل شيء راح.

ومع ارتفاع أسعار السلع بسبب الحرب؛ راحت أغراض المنزل تختفي واحدة تلو الأخرى، ووالده يبحث عن عمل، ولا فائدة؛ فقد توقف كل شيء مع الحرب. وبآخر نقود لديه، اشترى والده بعض الأشياء الخفيفة، وجلس يبيعها على فرش في الشارع، فداهمه بعض الرجال، ضربوه وسرقوا بضاعته ونقوده.

كان والده يشرب الخمر بصورة يومية منذ بدء الحرب، وخاصة بعد احتراق محله. وكانت والدته تتجنب الاحتكاك به، لأنها تعرف الألم الذي يعانيه. لكنها لم تستطع الاحتمال أكثر، فانفجرت فيه، وراحت تصب على رأسه كل الألم والخوف والمرارة التي تشعر بها، فلم يجبها أو يعنفها هذه المرة، فقط غادر المنزل في صمت، هام على وجهه دون أن يعرف له وجهة، وهو يجرع آخر ما بقي في زجاجته، ثم ألقى بها لتتحطم على الأرض، وهو يركز بصره على رجل قادم نحوه يحمل عددا من الأكياس السوداء. اقترب والده منه قائلا بصوت متحشرج غليظ: ماذا تحمل؟

فحاول الرجل إخفاء الأكياس خلفه، وهو يجيب بصوت ضعيف، جعل والده أكثر شجاعة: لا شيء إنه طعام ل...

تقافزت الشياطين في وجه والده وهو يصيح:

- طعام.. أعطني ما معك الآن، وإلا قتلتك مكانك.

حاول الرجل الاعتراض، ولكن قبضة والده تفجرت في وجهه؛ فصرخ ألما، ثم تفجرت الأخرى في أنفه فحطمته، وسقط الرجل فاقدا للوعي. التقط والده الأكياس، فتش في ثياب الرجل حتى عثر على نقوده، فأخذها، ثم وقف يتطلع للرجل غير مصدق.. طعام ونقود بهذه السهولة، بهذه السرعة! بصق على الرجل: لديك طعام ونقود، وعائلتي جائعة.

حمل غنيمته، وعاد للمنزل، فسألته زوجته:

- من أين أحضرت هذه الأشياء؟
- لقد حصلت على عمل.
- أي عمل؟
- في حراسة أحد المخازن، وقد أعطاني صاحب العمل نقود ليضمن أن استمر معه في العمل؛ فأنت تعرفين نقص العمال بسبب الحرب.

لم تعهده زوجته سريع البديهة، لذلك خمنت أنه يقول الحقيقة ولا يكذب. كما أنها كانت جائعة، والجوع يقتل الرغبة في معرفة الحقيقة. أما هو، فكان منتشيا بالقوة التي اكتشفها داخله، والتي جعلته قادرا على فعل ما يريد.

أصبح والده يخرج للتجول في الشوارع، ثم يعود ويتحدث عن المخزن الكبير الذي يحرسه، حتى نفذت النقود؛ فأدرك أن الوقت قد حان للصيد مجددا. وقف في الشوارع يراقب العائدين، حتى اختار ضحيته.. تبعه لبعض الوقت، ثم انقض عليه من الخلف، فصرعه بسرعة، ثم وقف يلهث بجواره. وقبل أن يمد يده ليخرج نقوده، شعر بيد توضع على كتفه، فاستدار ليجد رجلًا ضخم الجثة يقف خلفه والشر يحتل وجهه ويقطر من كلماته:

- ماذا تفعل هنا؟ ألا تعرف أن هذه المنطقة تخصني؟

- ماذا؟!

- هل أنت أصم؟ هذه المنطقة تخصني.

نقل والده بصره بين الرجل الساكن أرضا وبين الضخم، ثم قرر التراجع، فسار مبتعدا وهو يقول: حسنا.

ولكن الرجل جذبه من ذراعه قائلا:

- ليس بهذه السهولة؛ يجب أن تدفع ثمن الاعتداء على أرضي.

- ليس لدي أي نقود.

- ليست هذه مشكلتي، كان يجب أن تتذكر هذا قبل أن تصطاد في أرض الضبع أيها الأحمق.

- لقد أخطأت يا معلم، ولن أعود إلى هنا ثانية، فأرجو أن تسامحني و...

شعر بمعدته تقفز إلى فمه مع قبضة الضبع التي تفجرت فيها وهو يقول:

- سأجعلك عبرة للآخرين.

رأي الضبع يخرج سكينا طويلا، فاستجمع قوته، وركله بين ساقيه، فعوى من شدة الألم، فعالجه بلكمة قوية تفجرت لها أنفه، وسقط أرضا، فراح يركله في صدره حتى خرج الدم من فمه، فبصق عليه، ثم انحنى ليأخذ نقوده؛ ولكنه سمع صوت رجال قادمين، فلاذ بالفرار.

عاد إلى المنزل خائفا.. هل رآني رجال الضبع؟ لم يروني، بل رأوك، سيقتلك الضبع بالتأكيد، سيجعلك عبرة للآخرين. تجسدت مخاوفه مع الطرقات العنيفة على باب البيت قبل الفجر بقليل، فنهض الجميع مفزوعين، ولكنه صاح بهم: لا تفتحوا الباب.

ولكن الباب انكسر مع الضربات المتتالية عليه، ودخل المعلم أبو عوف وخلفه اثنين من رجاله والأخرس. أدار أبو عوف عينيه في أرجاء المنزل، ثم توقف عند والده قائلا: إذًا فأنت من أحال الضبع إلى التقاعد.

اسود وجه والده ولم ينطق، بينما شهقت زوجته في فزع وقد خمنت أن شيئا رهيبا على وشك الحدوث، بينما فرك أحمد عينيه وهو يظن أن ما يراه تكملة لكابوسه الذي كان يحلم به. ولكن أبو عوف مد يده قائلا:

- يبدو أنك رجل بحق، قلبك ميت، ونحن نحتاج أمثالك بشدة، فقد راح معظم الرجال في الحرب.

تجمد والده للحظات، ثم مد يده نحو يد أبو عوف الممدودة، فالتقطها أبو عوف، وضغط عليها بقوة مكملا: قابلني صباح الغد على قهوة فلوكة.

غادر أبو عوف ورجاله، فسقطت والدته مغشيا عليها، بينما جلس والده على أقرب مقعد غير مصدق ما حدث. أما أحمد فسأل: ماذا حدث؟

عادت الحياة تدب في المنزل من جديد، وظهرت قطع أثاث جديدة أفضل من القديمة، وعاد الطعام والشراب أكثر مما يحتاجون، والشجار أيضا أصبح مقيما دائما، جلب معه البكاء والأنين.

أيقظته والدته ذات يوم، ثم جذبته من يده للخارج هامسة:

- سنهرب من هنا.

لم يكونا قد ابتعدا –على الرغم من ركضهما- عندما سمعا صوت والده ورجال أبو عوف يبحثون عنهما. ركضا أسرع، ولكن الأخرس لحق بهم؛ فتوسلت والدته: أرجوك دعنا نذهب.

ظل الأخرس يحدق بهما دون أن يفعل شيئا؛ فركضت والدته؛ ولكن والده ظهر أمامها. حاولت التراجع، ولكنها وجدت رجلين يسدان الشارع أمامها، وقفت مكانها، بينما اقترب والده قائلا:

- تريدين أن تهربي مني.. تأخذي ولدي وتهربي؟.

صفعها بمنتهى القوة، فتفجر الدم من فمها، ثم جذبها من يدها حتى المنزل وهو يسبها ويلعنها ويدفعها للداخل صائحا:

- مرة أخرى، وسوف تجربين حظك في الشوارع، وسط هؤلاء الذين تحبينهم وتشفقين عليهم، ولن تدخلي هذا البيت أو تري أحمد ثانية.

وامتثلت والدته، وأصبحت تتجرع آلامها وأحزانها في صمت، حتى جاء يوم دخل والده مع المعلم أبو عوف ورجل آخر، وخلفهم الأخرس، ومعهم شاب مقيد والدماء تنزف من جراحه، وسمعتهم يقولون إنه سيبقى هنا حتى يدفع أهله فديته، أو يقتلوه، جاءت والدته من الداخل صائحة:

- ماذا تفعل، ومن هذا الشاب؟

قال والده: ليس الآن

عاودت الصياح؛ فقفز من مكانه، وأسرع نحوها وصفعها بمنتهى القوة قائلا: أخبرتك ألا تتدخلي فيما أفعله.

ثم صفعها مرة ثانية، وخرج مع الباقين قائلا: نساء ملعونات.

مضت الأيام، وأضيف أنين الشاب المقيد إلى سيمفونية الرعب التي يعيشها المنزل. حتى جاء والده مع أحد رجال أبو عوف، فحملوه للخارج،

والرجل يقول: لم يتصل بنا أحد من أهلك، لذلك سنعيدك إليهم،.... بلا رأس.

ارتبك الشاب، وازداد هياجه، وعلا صراخه المكتوم وهو يحاول التخلص من قيوده، فضرب الرجل برأسه في أنفه، فتفجرت الدماء منها، بينما جاهد والده ليسيطر عليه. ولكن الرجل نهض والشر يتطاير من عينيه، ثم غرس سكينه في صدر الشاب حتى مقبضه.

ارتفع صراخ والدته مع رؤية الحياة تفارق الشاب، ثم هوت فاقدة الوعي بجوار أحمد، الذي راح يصرخ هو الآخر بكل قوته، حتى صفعه والده، ثم طلب من الأخرس أن يأخذه للخارج حتى ينتهي تنظيف المكان.

الأخرس في هذه العصابة، لا يفعل أي شيء، لا يضرب أحدًا ولا يسرق شيئًا، ولا يأكل حتى أو يشرب، فقط يجلس معهم، ويستمع لهم مثل الشيطان الأخرس.

مرت الأيام ثقيلة كئيبة، في حياة يبدو الموت معها راحة لا تدرك، والدته طريحة الفراش، لا تبكي أو تشتكي أو تتكلم أو تعترض على تصرفات والده، وتحول البيت لوكر لعصابة أبو عوف، وتحولت هي لخرساء أخرى.. حتى استيقظ أحمد ذات يوم، فلم يجدها!

بحث عنها في كل مكان، وسأل والده عنها، فأخبره أنه لا يعرف. ظل بجوار الباب ينتظرها لعدة أيام، ولكنها لم تعد. سأل والده ثانية فقال له:

- لقد أخبرتها ألا تخرج، ولكنها لم تستمع لي. لقد ماتت الآن بالتأكيد، وجسدها ملقى في الشوارع لتأكله الكلاب.

انسحبت روحه منه، ولكن والده لم يهتم به، وتركه قائلا:

- لقد نالت ما تستحقه.

وتحول أحمد لأخرس هو الآخر، يراقب أحوال والده التي تتدهور يوما بعد يوم؛ حتى سمعه يتحدث مع الأخرس، وهو يشرب من زجاجته:

- كل شيء ضاع.. المعلم أبو عوف ضاع، قتله الضبع اللعين. لقد ظن أن أبو عوف هو من استأجرني لقتله، فلم يكن صمته إلا ليخطط ويستعد لتوجيه ضربته، وها هي جثة أبو عوف ملقاة في الشوارع مثل كلب ضال. أعتقد أن هذه هي النهاية الطبيعية لحياتنا، أتعرف، أنا لم أكن هكذا طوال الوقت، لقد كنت فيما مضي رجلا صالحا، وجارا جيدا، أساعد جيراني في أعمالهم، وأحمل عنهم أشياءهم الثقيلة، أتبادل معهم الزيارات والهدايا.. ولكنها الحرب اللعينة هي التي فعلت بنا كل هذا. لعنة الله على من أشعلها؛ انظر ماذا جنينا من ورائها. ضاع، المحل والبيت وزوجتي، وحتى أحمد. إنه يكرهني، ولا ألومه، أعرف أنه يتمنى موتي، بل ربما يتحين الفرصة لقتلي، ولكن عليه أن يصبر، فالضبع قادم لأجلي، وسيقوم بهذه المهمة؛ أنا أعرف هذا فلا تحاول أن تخبرني بالعكس، آه يا زوجتي العزيزة، أتمنى لو كنت بجواري الآن، لقد وعدتِ أن تكوني بجواري دائما، ولكن كيف تكوني بجواري؟ وقد ذبحتك بيدي هاتين!

رفع الزجاجة على فمه، فسقط أكثر ما بها على وجهه وصدره، وهو يواصل:

- أكان يجب أن تهربي، وتذهبي إلى عدوي؟! أكان يجب أن تبصقي في وجهي وتخبريني أنك أخبرت الضبع بكل شيء، أكان يجب أن تصرخي بي أنني لست رجلا ولا أستطيع أن أفعل شيئا، حتى بعدما رأيت السلاح في يدي؟!

هل تصدقني يا.... أتعرف أنني لا أعرف لك اسما حتى الآن؟! ولا أظن أنك تعرف أنت الآخر.

شعر أحمد بالغرفة تدور به، سقط أرضا، زحف تحت الفراش، وهو يكتم صرخات تمزق صدره. لقد قتلها... لقد ماتت!... لقد أصبح وحيدا!

أعاده إلى واقعه صوت جهاز الكمبيوتر الخاص به معلنا استقبال رسالة جديدة. نظر فيه، فوجد نافذة حوارية مفتوحة، تحمل صورة زوجته بيلسان:

- أحمد، كيف حالك؟ لماذا لم تتصل بي كما اتفقنا؟

كتب أحمد: آسف جدا يا عزيزتي، لقد انشغلت ببعض الأمور.

- لقد نسيتني ثانية.

- قريبا جدا سينتهي كل شيء، ونكون معا للأبد.

- أتمنى أن يأتي هذا اليوم سريعا.

ضغط أحمد عدة أزرار، لينتقل إلى قناة الاتصال المؤمنة، ثم كتب:

- هل كل شيء جاهز؟

- نعم، لقد تأكدت من كل شيء بنفسي.

- جيد جدا، وهل جاءت الإشارة من الرقم سبعة؟

- نعم، يقول إن علينا أن نكون جاهزين للتنفيذ عند إشارته.

مرت لحظات لم يكتب خلالها أحدهم شيئا، ثم كتبت بيلسان:

- هل تعتقد أنه سينجح؟

- لا أعرف؛ ولكن لو أن أحدًا لديه فرصة أمام المستمعين، فأعتقد أنه الرقم سبعة.

- أتمنى أن نستطيع القضاء على هولاء الشياطين الخرس.

***

- ٥ -

خطت أسيل إلى غرفة المكتب، وقفت أمام المكتبة التي تحتل جدارًا كاملًا من الغرفة، مرت بعينيها على الكتب المتراصة، ثم اتجهت نحو المكتب وجلست على مقعد خلفه. فتحت أحد الأدراج، وأزاحت بعض الأوراق جانبا، والتقطت ذاك الدفتر الصغير المكتوب عليه بخط مزخرف:

(حياتي الجميلة)

الدفتر يحوي مذكرات وخواطر، كتبتها أسيل بطريقة خاصة علمتها إياها هند، حيث تذكر الأشياء الجيدة، وتطيل في شرحها وتزيد في وصف أحاسيسها به ساعتها. وتمر مرور الكرام على المواقف الصعبة، فتكتبها بطريقة مختصرة جدا، أو حتى تكتفي بالإشارة لها ولكن لا تتجاهلها تماما.

تقول هند:

- بهذه الطريقة ستشعرين أن حياتك عبارة عن سلسلة من الأحداث السعيدة المتتالية، وأن الأحزان لم تكن سوى لقطات سريعة على شريط الحياة. ابحثي عن السعادة في كل مكان، حتى في قلب الألم، وسوف تجدينها؛ فأشد المواقف ألما يحتوي على بذور السعادة.

هذه الطريقة بالفعل ساعدتها كثيرا، لذلك استحقت هند فصلا كاملا من فصول حياتها الجميلة.

تطلعت أسيل إلى الدفتر للحظات.. الحقيقة أنها لم تستطع الالتزام بالطريقة حرفيا. فرغما عنها، تسللت بعض الأحزان مسهبة إلى الدفتر، واحتلت مساحة أكبر من المسموح.

فتحت أسيل الدفتر، تقرأ الصفحة الأولى.

(الفصل الأول)

(منزلي السعيد)

يقع منزلي الصغير السعيد وسط مروج خضراء جميلة، تبدو كأنها ممتدة إلى ما لا نهاية، مزهوة بالفراشات الملونة الجميلة، التي كنت أطاردها، بينما ضفائري الصغيرة المربوطة بشرائط حمراء تتطاير خلفي في الهواء. آه يا منزلي السعيد، كل شيء حولي يغني في سعادة وسرور.. العصافير، الأشجار، الزهور العشب الأخضر، كل شيء حتى المنزل.

والدي الجميل يعود من العمل فأعدو نحوه، فيحملني ويبتسم قائلا:

- كيف حال أميرتي الجميلة؟

يدور بي في الهواء لدورتين، يضعني على الأرض ويخرج شيئا من جيبه قائلا: انظري ماذا أحضرت لك.

دائما يحضر لي شيئا ما؛ لم يحدث أبدا أن نسي....

***

إلا يوم واحد، كان بداية النهاية، سمعته يتحدث مع والدتي، يتحدث عن الحرب المشتعلة، وفهمت أنه خائف للغاية، وتحدث عن ترك المنزل والرحيل إلى مكان أكثر أمنا. هل يوجد مكان أكثر أمنا من منزلنا السعيد!

كنت جالسة أمام المنزل أنتظر عودته من العمل، ألعب مع فراشاتي الملونة وأسألها: هل تعرفين يا فراشاتي ماذا سيحضر لي والدي معه اليوم؟

وخرجت والدتي من المنزل والدموع تنهمر من عينيها ، فحملتني ودخلت المنزل وأغلقت الباب بأحكام، ثم احتضنتني وهي تبكي بشدة.

(ثم عبارة "كانت آخر أيامي السعيدة" ومشطوب فوقها، ثم مكتوبة ثانية، ومشطوب فوقها ثانية)

***

بعدها عرفت ما حدث. مسلحون هاجموا مقر الشركة التي يعمل بها والدي.. مذبحة لم ينجو منها إلا القليل، ولم يكن والدي منهم.

لقد كانت حقا آخر أيامي السعيدة.. (والعبارة مشطوبة للمرة الثالثة)

***

حتى الآن لا أستطيع أن أصدق أنني لن أرى والدي ثانية. مازلت أنتظر اللحظة التي سأسمعه يناديني فيها، فأسرع نحوه، يحملني ويدور بي في الهواء، يضعني أرضا، ثم يقبل رأسي قائلا: أنا بخير يا أميرتي.

***

حياتي جميلة ولا يمكن أن تكون أفضل.

***

(الفصل الثاني)

(مستشفي الأمل السعيد)

بعد وفاة والدي، أخذتني والدتي لأعيش معها في مستشفي الأمل لعلاج الأطفال المصابين في الحرب، حيث كانت تقضي يومها في العناية بالأطفال، بينما أقضي يومي في العدو في طرقات المستشفى، والحديث مع الأطفال والأطباء.

***

كيف تحضرين ابنتك الصغيرة إلى هذا المكان؟ أليس لديك مكان آخر بعيدا عن الدم والموت؟

ألا تري ما يحدث في الخارج؟ هنا هو المكان الوحيد حيث ستكون آمنة.

***

والدتي أفضل طبيبة في العالم، كانت قد تركت عملها لتعتني بي وبوالدي، ولكنها عادت إليه أثناء الحرب؛ لتعتني بالأطفال الجرحى.

- هل نحن في حرب يا أمي؟

- نعم يا صغيرتي، نحن في حرب.

- من الذي يقاتلنا؟

- لا أحد، نحن نقتل أنفسنا.

- ماذا؟! كيف نقتل أنفسنا؟!

- يسمونها حربا أهلية، لأن الأهل يقتلون بعضهم البعض.

- وهل سننتصر؟

- في الحرب الأهلية لا يوجد منتصر، الجميع يخسر.

أمي الجميلة بثوبها الأبيض مثل الملاك، تدور على الأطفال الراقدين على الأسرة في المستشفى، فيصمت الباكون، ويبتسم العابسون، ويهدأ المتألمون. أعرف أن الأطفال يحبونها حبا جما، ويحسدونني لأنها أمي.

***

أدور على الأسرة، وأتكلم مع الأطفال الراقدين في ألم، أستمع إليهم، وأهمس في أذنهم أن كل شيء سيكون على ما يرام.

أعتقد أنني ولدت لأكون مستمعة.

أجمع الأطفال، ونجلس سويا في حلقة، أطلب منهم أن يغلقوا أعينهم، وأن يحكي كل منهم عن حياته، وأسرته قبل الحرب.

تقول ريم: أنا أكره الحرب، لقد تحطم منزلنا وقتل والداي.

تقول سارة:

- وأنا أيضا أكرة الحرب، لقد رأيت جارنا عمو حسن يحمل سلاحا ويطلق علينا النار، ويقول إننا من أتباع الخائن، ولا يجب أن نعيش.

وقبل أن يواصل الآخرون التحدث عن الحرب أقول: سأبدأ أنا.

ثم أحكي لهم عن منزلي السعيد، ووالدي الجميل، فأرى نظرات الانبهار في أعينهم، فأشعر بالسعادة الجمة.. هذا هو والدي.

***

لماذا يحدث هذا؟

لا أعرف؛ لا أحد يعرف.

وبعد كل هذه السنوات، أعترف أنني مازلت لا اعرف، ولا أعتقد أن أحدًا يعرف.

***

هناك قابلت شريف –زوجي- للمرة الأولى.. (وعدد من القلوب الصغيرة مرسومة بجوار هذه العبارة)

طفل جريح صامت جاء مع عمه، تلقى العلاج ثم غادرا سريعا، على الرغم من محاولات الأطباء إقناع عمه بالبقاء حتى يكمل شريف علاجه ويستعيد قوته، وأن المستشفى أفضل مكان يبقيان فيه الآن، ولكن عمه قال: يجب أن نخرج من هنا.

ثم حمله وخرج، وسط همهمات الأطباء وتعجبهم من حمق الرجل، الذي سيضيعه هو وطفله الصغير.

في الدقائق التي تركه عمه فيها وذهب لعلاج جراحه، اقتربت من الفراش الذي يرقد عليه شريف. كان غارقا في دموعه، وعلى وجهه قناع الذهول والخوف والألم المميز لأطفال الحرب. اقتربت منه وأمسكت يده، ثم انحنيت نحوه وهمست في أذنه: كل شيء سيكون على ما يرام.

توقف عن البكاء، ثم نظرلي مضيّقًا عينيه، وهمس:

- كل شيء سيكون على ما يرام.

***

وقفت أنظر إليه، وهويغادرمع عمه، سألت والدتي:

- هل تعتقدين أن شريف سيكون بخير؟

- الأجواء مشتعلة للغاية في الخارج، ولكني أعتقد أنه سيكون بخير.

***

في الصباح التالي، تأكدنا أن الرجل كان محقا. كان يجب أن نخرج جميعا من هنا، فقد هوت القذائف على المستشفى!

***

لا أعرف ما الذي حدث بالضبط، كل ما أعرفه أنني استيقظت لأجد نفسي في مستشفى أخرى، والجميع يهنئونني بالنجاة، ويخبرونني أنني واحدة من قلة قليلة نجت مما أسموه مذبحة مستشفى الأمل للأطفال. ماتت والدتي خلال القذف. يقولون إنها رفضت الخروج؛ حتى تخرج الأطفال أولا، وظلت تخرج الأطفال، حتى قتلتها قذيفة مع مجموعة من الأطفال.

***

لم أصدق أن والدتي قد رحلت هي الأخرى ولن أراها ثانية؛ فهربت من المستشفى، وركضت حتى مكان مستشفي الأمل. هالتني الحطام التي رأيت، ولم أستطع أن أصدق أن المكان الذي شهد حياتي أنا وكل هذا العدد من الأطفال والأطباء قد اختفى لهذه الدرجة!

ما هو الشى الموجود في المستشفى، ليدفع شخصًا إلى تدميرها بهذه الوحشية؟!!

جلست أبكي هناك، ولا أعرف من التقط صورتي على هذا الحال، هذه الصورة التي شقت طريقها فيما بعد لتصل إلى ياسر شوقي، الذي ضمها إلى ما أسماه مائة صورة من الحرب الأهلية.

قام ياسر بجمع مائة صورة تمثل أهوال الحرب الأهلية، ثم كتب تحت كل صورة قصة قصيرة تمثل الصورة. كانت القصص حقيقية للغاية ومؤثرة للغاية. يقولون إن هذه الصور كانت من عوامل إيقاف الحرب.

***

وضع ياسر صورتي وأنا جالسة بجوار أنقاض المستشفى، وكتب تحتها:

«ما الذي فعلناه؟! ما هو الخطأ الرهيب الذي ارتكبه الأطفال أو الأطباء ليتم هدم المكان على رؤوسهم هكذا؟!

أحضرتني أمي هنا، وأخبرتني أنها ستداوي جراحي وسنكون في أمان، فلا أحد يريد إيذاء الأطفال. كنت خائفة، ولكن الأطباء عاملونا كأن أباءنا الذين فقدناهم قد بعثوا فيهم من جديد،

كل الأطفال كانوا مذعورين مثلي، ولكننا معا بدأنا نشعر بالأمان، وننبذ الخوف. عادت الابتسامة تزوروجوهنا ثانية ونحن نلعب معا. ما لم ندركه أن سعادتنا وأمننا جريمة رهيبة، نستحق العقاب عليها؛ ولذلك انهالت القذائف على المستشفى من كل مكان.

ماتت والدتي، ومات أصدقائي، ولا أعرف لماذا بقيت أنا! لذلك فقد قدمت إليك ثانية، فمن فضلك أطلق قذيفتك الأخيرة عليّ لألحق بهم؛ فلم يعد لي مكان هنا»

لا أعرف كيف فعلها ياسر!! ولكنه حكى ما شعرت به بالضبط، كأنه كان داخل رأسي في تلك اللحظة.

***

قلبت أسيل صفحات الدفتر، حتى وصلت إلى:

(الفصل الخامس)

الرئيس الجديد ينهي الحرب.

لا أعرف كيف فعلها، ولكنه أنهى الحرب التي استمرت ثلاث سنوات. الأفراح تعم البلاد، والجماهير ترقص في الشوارع، فلا تعرف أين المتقاتلين.!

***

الفصل السادس

(خالتي ليلى)

أخيرا عدت إلى موطني، بعد فترة عصيبة قضيتها في ملجأ النور للأطفال خارج البلاد. سأذهب للإقامة في منزل خالتي ليلى، خالتي ليلى تحبني كثيرا، وتقول إن كلتانا تعوِّض الأخرى، فهي أيضا فقدت كل عائلتها في الحرب.

***

الحياة جميلة وسعيدة في منزل خالتي، ولكنها لا تقارن بحياتي في منزلي السعيد.

***

اشعر أن منزل الخالة ليلي سيكون منزلي السعيد الجديد.

***

قلبت أسيل الصفحات وهي تمر بعينيها على عناوين باقي الفصول.

الفصل الثامن

(مدرسة الهدى)

حيث أصبحت معلمة لرياض الأطفال، فقد ورثت حب الأطفال من والدتي، وحيث قابلت شريف للمرة الثانية... (عدد من القلوب الصغيرة مرسومة بجوار العبارة)

***

الفصل التاسع

شريف (وعدد كبير من القلوب الصغيرة والقلوب الكبيرة التي تخترقها الأسهم، تحيط بالاسم)

***

الفصل العاشر

(رامز)

وورق هذا الفصل بدأ يذوب بفعل الدموع الكثيرة التي سقطت عليه.

***

الفصل الحادي عشر

"هند" ، منقذتي.. مهما كتبت، لا أستطيع التحدث عما فعلتِه من أجلي.

***

واصلت أسيل التقليب، ووقعت عيناها على عبارات متفرقة كتبتها في آخر الدفتر، وأحاطتها بإطار مزدوج:

نحن أطفال الحرب، نحمل ألم حيوات كثيرة زهقت، وحياة قصيرة لعينة يجب أن نحياها بلا أمل.

نحن أطفال الحرب، نحن نحمل ألمًا عظيمًا داخلنا، نتمنى أن نصرخ فلا نستطيع، نحمل كمًّا هائلا من الكراهية التي تأكلنا من الداخل، ولا نعرف كيف نخرجها.

نحن أطفال الحرب، نحمل هموم حيوات طويلة لم نعشها، وحياة قصيرة نموت فيها ألف مرة، ولا نملك أية سيطرة عليها.

نحن أطفال الخوف، فالخوف هو الشيء الوحيد الذي ربانا ولازمنا ولازال معنا، لم ولن يتركنا.

نحن أطفال النار المشتعلة التي لا تخمد، ولا نعرف كيف؟ ولا لماذا اشتعلت؟

نحن المشوَّهون، وكل أملنا أن نُخرِج جيلًا نقيًا، لا نسقيه سمومنا، ولا نعرف كيف يمكننا أن نفعل ذلك.

***

في نهاية الدفتر، هناك عدة صور تظهر أسيل في مختلف مراحل حياتها. تنظر إليها، وتحسد الطفلة الصغيرة الواقفة مع والدها ووالدتها في منزلها السعيد القديم.. لم تحصل على مثل هذه السعادة ثانية. صور مع الخالة ليلى في منزلها.. في منزلها، كانت سعيدة، ولكن شيئا ما انطفأ فيها مع رحيل والديها، ولم يعد ثانية.

صور كثيرة مع الأطفال في مدرسة الهدى، ومع زملائها المدرسين. صور مع شريف.. مع شريف في حفل الزفاف، وفي مناسبات أخرى، صور بهتت أوراقها، وذهبت ألوانها من كثرة الدموع التي سقطت عليها، تظهرها مع رامز ابنها.

***

شعرت بالتعب والإرهاق؛ فأعادت الدفتر إلى مكانه، وذهبت إلى غرفتها. استلقت على فراشها، وأغمضت عينيها هامسة:

رامز تعال لتزورني، كما تفعل كل يوم.

***

- ٦ -

مكان سعيد.

واحد من أسباب كثيرة دفعت أسيل لحب هند هو تعرفيها بهذا المكان، بل وترشيحها للانضمام، بعد رحيل إحدى العضوات، وتحدي الجميع من أجلها. مكان سعيد هو لقاء أسبوعي تنظمه سيدة الأعمال الشهيرة شيرين أبو النور، في فيلتها الخاصة. وهو اجتماع لسبعة نساء، حول آلة غريبة الشكل، قاعدتها سداسية الأضلاع. يعلوها جزء نصف كروي، تمتد منه ثمانية أذرع، أحدها ينتهي بخوذة سوداء اللون، تسميها شيرين الخوذة ألفا، ويضعها الشخص الذي يدير الرحلة، وسبعة خوذات رمادية اللون، هي الخوذات بيتا، يضعها الباقون، وخوذة حمراء صغيرة هي الخوذة أوميجا، ويضعها الخادم، مهمته الوحيدة هي المراقبة، وإنهاء الرحلة في حالة حدوث أية خطأ.

تقول هند:

- زوج شيرين هو من أحضر لها هذه الآلة؛ لا أحد يعرف كيف، ولكنهم يقولون إنه دفع في مقابلها ثروة كبيرة، ليلهيها بها؛ فتكف عن حديثها الممل عن الملل، وتتركه وشانه.

تجلس السبع نساء حول الآلة، تمر الخادمة "تالا" بصينية ذهبية عليها أكواب شراب وردي اللون حلو الطعم، يبعث على الاسترخاء، تتناول سهير كوب منها قائلة: إذا طردتك السيدة شيرين كما قالت، فسأكون سعيدة بأخذك للعمل عندي.

تبتسم تالا، ثم تكمل دورتها. تنتظر حتى يتناول الجميع شرابهم، تجمع الأكواب، تمر عليهم بأوراق مكتوب عليها أغنية غريبة بكلمات عربية، تطلب منهم شيرين أن يرددوا الأغنية معا.

تقول هند:

- لا أحد يعرف معنى كلمات الأغنية إلا شيرين، وهي ترفض إخبارنا بها، تقول إن هذا سيفقدها سحرها.

عندما أخبرتها أسيل أنها شعرت بحزن شديد وهي تردد الأغنية معهم، وأوشكت على البكاء، ورغم أنها لم تفهم شيئا، لكنها شعرت بالكلمات تمزق قلبها، قالت هند:

- تقول شيرين إن هذا جزء من العملية، فالطريق للسعادة يبدأ بالحزن، ولكي تشعري بالسعادة التامة، عليك أن تسمحي للحزن أن يغسل روحك أولا.

تجلس قائدة الرحلة، وتضع الخوذة ألفا على رأسها. تضع باقي النساء الخوذات بيتا، وتضع الخادمة تالا الخوذة أوميجا فوق رأسها.. ثم تبدأ الرحلة.

أميرات.. أميرات.. أميرات.. كانت هذه هي الرحلة الرئيسية التي يحصلن عليها قبل انضمام هند للنادي. تضع ألفا الخوذة فوق رأسها، تتخيل نفسها أميرة جميلة، خارجة من حكاية خيالية، تعيش في قلعة جميلة أو في قصر منيف، تحيط به المروج الخضراء الممتلئة بالطيور الملونة، والجنيات الصغيرة التي تحلق حول الأميرة أثناء سيرها، وكلما مرت على مجموعة راحوا يثنون عليها ويدعون لها، وأي كان ما تشاهده ألفا وتشعر به من سعادة، فإنه ينتقل بالكامل إلى بيتا، حيث تجعلهن الآلة شخصا واحدا.. أما أوميجا، فلا تشعر بأي شيء، فمهمتها الوحيدة هي المراقبة فقط.

عندما حان دور هند لتضع الخوذة ألفا للمرة الأولى، لم يجدن أنفسهن في قلاع ولا قصور، وإنما في جزيرة صغيرة، تتحطم الأمواج الهادئة على شاطئها، حيث تجلس هند وزوجها وابنها الصغير مهند على مقاعد من الخوص، يراقبون غروب الشمس، وألوانها الجميلة المنعكسة على سطح البحر. علقت سهير:

- نحن لا نهرب من حياتنا المملة، وندخل هنا لنجدها أمامنا.

ولكن السعادة التي شعرن بها مع هند فاقت كل ما شعرن به من قبل في قلاعهن وقصورهن، فحصلت هند لنفسها على مكان دائم في النادي.. يدعونها: المملة السعيدة.

وعندما سافرت إحدى العضوات للخارج، اقترحت هند أسيل لتحل محلها، عارضت سهير:

- في البداية تأخذنا إلى عالمهما الممل، والآن تريد أن تحضر صديقتها أيضا.

ردت شيرين:

- لقد قلتِ إن عالمها الممل هذا منحك سعادة لم تشعري بها من قبل!

فهزت سهير كتفيها: ولكن هذا لا يمنع أنه ممل.

لم تصدق أسيل قصص هند عن السعادة الخيالية التي تمنحها الآلة، كانت تعتقد أنها مبالغة؛ لكنها جاءت معها، وجلست ووضعت الخوذة بيتا على رأسها هامسة: أتمنى أن يكون الأمر صحيحًا .

أسيل ليست من المحبات للقصص الخيالية، ولكن رؤيتها لهذا العالم عبر عيني شيرين كان مختلفا. شعرت بالسعادة تتدفق داخلها وهي تتجول داخل القصر، وهي تعدو وسط الخضرة، وهي تتحدث مع الجنيات الصغيرة، وتمد يدها لتقف عليها الجنيات وتغنين لها.

سألتها هند في طريق العودة: ما رأيك؟

- لا أعرف كيف أشكرك، لقد شعرت بسعادة لم أشعر بمثلها منذ وقت طويل.

ومرت فترة، ثم طلبت أسيل من هند أن تدخلها ثانية؛ ولكن العضوة صاحبة المكان قد عادت واكتمل العدد، ولم يعد من الممكن إدخال أسيل، فاقترحت هند إدخالها بدلا منها، ولكن الاقتراح قوبل بالرفض.

قالت شيرين:

- أنا أشعر بالأسى تجاه صديقتك، صدقيني أعرف أن الجميع يريدون دخول مكان سعيد، ولكن لدينا سبعة أماكن فقط، وإذا كنتِ تريدين الاحتفاظ بمكانك؛ فعليك أن تكفي عن دعوة الناس إلى هنا.

وقالت سهير:

- وأنا أيضا أشعر بالأسى؛ صدقيني. وعندما أبدأ رحلتي حول العالم، سأمنح مكاني لصديقتك، فلا يبدو أنكما تذهبان لأي مكان.

ظلت أسيل بعيدة عن مكان سعيد، تحلم بعالمه الجميل، حتى توفيت إحدى العضوات في حادث، فعقدت شيرين اجتماعا للباقيات لاختيار بديل لها، قالت هند: أسيل.....

ولكن سهير قاطعتها قائلة: ليست صديقتك المملة ثانية.

قالت شيرين: أعتقد أننا أغلقنا هذا الحوار.

قالت هند:

- امنحنها فرصة واحدة، وستمنحكم سعادة لم ترين مثلها. تخيلن أكثر مرة شعرتن فيها بالسعادة، ستمنحكن أسيل أضعافها.

ثم تطلعت إلى عيني شيرين مباشرة، وقالت بصوت خافت:

- فقط فرصة واحدة.

ردت شيرين:

- حسنا، سنمنحها فرصة واحدة، وهذا كل شيء، لو لم تعجبنا، فلن تذكري اسمها ثانية.

وأكملت سهير: وسترحلين معها أنت الأخرى.

فقالت هند: موافقة.

وإذا كانت سهير تظن أن هند مملة بجزيرتها الهادئة وشمسها الغاربة، فإنها كانت على موعد مع ما يمل الملل نفسه منه. فما إن وضعت أسيل الخوذة ألفا على رأسها، حتى راحت الأفكار تتدفق عبر رأسها، والذكريات تتداعى أمامها، ثم توقفت عند صورة واحدة. غرفة المعيشة في منزلها، حيث يجلس شريف ورامز على أريكة أمام التلفاز، تقف هي في المطبخ تجهز أكواب العصير، وأطباق من المسليات، يرتفع صوت رامز قائلا:

- أسرعي فالفيلم سيبدأ.

يقول شريف: مازال هناك وقت، لا تنسي الشطائر الخاصة بي.

فيقول رامز:

- وأعدي لي بعض الشطائر أيضا، مازال هناك الكثير من الوقت قبل أن يبدأ الفيلم.

تبتسم أسيل قائلة: لقد أعددت كل شيء.

وتدخل حاملة الصينية، تضعها على المنضدة أمامهما، ثم تجلس في وسطهما؟ يلتقط شريف شطيرة قائلا:

- كما ترين، يجب أن يشارك الرجل زوجته في أعمال المنزل، هي تعد الطعام، وهو يأكله.

يكمل رامز: هي ترتب المنزل، وهو يفسده.

فيقول شريف: بالضبط.

تقول أسيل: لا تفسد ابني.

فيقول شريف:

- أنا لا أفسده، أنا أعلمه ليكون سعيدا في حياته الزوجية مثلنا.

ثم يقبل يدها قائلا: ألا ترين أننا أسعد زوجين في العالم.

تبتسم أسيل قائلة: بالطبع، أنا أسعد امرأة في العالم.

يتابع ثلاثتهم الفيلم وسط سيل من الدعابات المتبادلة، حتى ينتهي الفيلم، وقد نام شريف ورامز على كتفي أسيل المبتسمة في سعادة.

انتهت الجلسة، فرفعت أسيل الخوذة ألفا عن رأسها، وراحت تتطلع إلى الأخريات اللاتي غلفهن الصمت لدقائق. نهضت سهير قائلة:

- أنا لا أعرف ماذا... أنا...

جاء صوت شيرين حاسما الأمر: مرحبا بك معنا في مكان سعيد.

فيما بعد، سألت أسيل هند:

- كيف عرفت أنني سأمنحهن كل هذه السعادة؟

- لقد رأيتها تلمع في عينيك كل ما حدثتني عن رامز وشريف.

- لا أصدق أنك غامرتِ بمقعدك في مكان سعيد من أجلي.

- كنت ستفعلينها من أجلي، فهذا ما يفعله الأصدقاء.

غادرتا الفيلا، ثم سارتا نحو سيارة أسيل.. قالت هند:

- لقد أخذتنا سهير في رحلة رائعة إلى عالم الأميرات الجميل.

- رحلة تختلف عن التي أخذتنا إليها في المرة السابقة، والتي قبلها، والتي قبلها.

- يبدو أنها الخيال الوحيد الذي تعرفه.

- والعجيب أننا نشعر بالسعادة في كل مرة.

ركبتا السيارة وانطلقت بها أسيل، بينما قالت هند:

- غدا ميعاد عملية المسح الشهري.

- أنا أكره هذه العملية.

-٧-

انطلقت أسيل بالسيارة نحو مركز المستمعين، لحضور عملية المسح الشامل، وبجوارها هند. انبعث صوت الدكتور أحمد من مذياع السيارة:

- إذا أردت أن تتحدث إلى شخص ما عن مشكلة لديك، أو أمر يزعجك، أو أي شيء أخر، فعليك أن تبحث عن صديق يستمع إليك، ويفهمك، ويقدم لك النصيحة الصادقة.. صديق يهمه أمرك، وليس شخصًا يستمع إليك، ويهز رأسه موافقا أيًا كان ما تقوله؛ إذا أخبرته أن والدك توفي يهز رأسه، وإذا أخبرته أنك ستتزوج في الغد يهز رأسه، وإذا أخبرته أنك سترتكب جريمة، فخمن ماذا سيفعل؟

قالتا في وقت واحد، وهما تهزان رأسيهما: سيهز رأسه.

أكمل أحمد:

- لقد ساعد المستمعون على زيادة الغربة التي نشعر بها في حياتنا، تلك الغربة التي نحاربها منذ انتهاء الحرب، ونعمل على تقريب الجميع معا. تخيل شخص ما يجلس معك دائما، تحكي له كل شيء عن نفسك وعائلتك، كل شيء، وعندما تقابله، يسألك في بساطة من أنت؟! من أنا! بعد كل هذا الوقت تسألني من أنا!

قالت أسيل:

- يبدو أن دكتور أحمد يستمع إلى خزامى سامي.

- تمزحين.

- القصة التي يذكرها عن المرأة التي انهارت عندما قابلت مستمعتها فلم تعرفها، ذكرتها خزامى سامي في برنامجها بالأمس.

- مازلت تستمعين إلى هذا البرنامج!

- أحيانا أشعر أن عقلي في حاجة إلى الراحة، إلى شيء بسيط للغاية، لا يجعلني أفكر.

- وخزامى تمنحك هذا الشعور !

- بالطبع.

- يالك من مسكينة!

مرت السيارة بمتظاهرين من المطالبين بإلغاء المستمعين، واقفين أمام المركز، فمدت هند يدها وأغلقت المذياع قائلة:

- لن يكون في السيارة، وأنصاره خارج السيارة، إنه في كل مكان.

- لأن الجميع يحبه.

- أشعر أنك أصبحت مدمنة للدكتور أحمد. أخشي أن يأتي يوم تخبرينني أنك لا تنامين إلا على صوته.

لم تجبها أسيل.. ظهر التوتر على وجهها، وهما تقتربان من البوابة، فقالت هند: لا تقلقي، لو تحول عقلك إلى صفحة بيضاء، فسآخذك لأربيك، وأعلمك كل شيء.

على الرغم من عملها كمستمعة لثلاث سنوات، إلا أنها مازالت تشعر بالخوف والتوتر عند القيام بعملية المسح الشهري؛ تقول:

- ماذا لو حدث خطأ ما؟ ماذا لو مسحوا ذكرياتي الخاصة؟

وعبثا حاولت هند إفهامها أن العملية في جوهرها هي عملية مراقبة وتطوير ومعالجة، لا تتعرض للذكريات، وإنما للجزء الخاص ببرنامج المستمعين.. يقوم الجهاز بالتأكد من عمل البرنامج، وتطويره، وتأكيد حذف كل ما مر بالمستمع أثناء جلساته. ولكن أسيل لم تقتنع، وراحت هند تجاريها، وتتحدث معها عن اليوم الذي سيحدث فيه خطأ، يحذف كل ذكريات عقلها، ويجعل عقلها صفحة بيضاء تماما. ما لم تجرؤ أسيل على التصريح

به -حتى لنفسها- هو أن هذا الخاطر المرعب كان يزورها أحيانا -في أوقات ضعفها- فيجد لديها استحسانا له. ماذا لو حذف كل شيء؟ ألن تحصل على بداية جديدة بعد أن تنسي كل شيء؟.. ثم يصدمها الأمر؟؟ تنسي كل شيء! رامز! هل تستطيعين أن تنسي رامز يا أسيل؟

أحيانا كانت تصفع نفسها بقوة، لمجرد مرور هذه الفكرة في رأسها. كيف تجرؤ على التفكير هكذا، ولو لجزء من الثانية؟! إن الحياة في العذاب مع طيف رامز أهون ألف مرة من الراحة بدونه. ارتبطت عملية المسح بالصراع المعتمل في أعماقها؛ فأصبحت تكره العملية، وكل ما يرتبط بها. مرت السيارة بجوار رجل يحمل لافتة مكتوب عليها:

(أتمني ألا تسير عملية المسح على ما يرام)

قالت هند: هناك من يشاركك خواطرك.

اجتازت السيارة البوابة، رفعت أسيل يدها بالتحية لحارس الأمن، هبطت من السيارة، فسمعت صوت الدكتور أحمد ينبعث من المذياع الموضوع أمام الحارس:

- إن أفضل ما يمكن أن يطلبه الإنسان هو صديق حقيقي، يكون بجواره، يشاركه أفراحه وأحزانه، يهتم لأمره، وليس كذبة مبتدعة تفسد كل شيء.....

جذبتها هند من ذراعها قائلة: ليس لدينا وقت لهذا.

سارتا للداخل، قالت هند:

- حارس أمن المستمعين يستمع للدكتور أحمد. لو فعلت هذا قبل سنوات لشنقوك على البوابة، أما الآن فنحن في عصر الحرية.

سارت أسيل بضعة خطوات، التفتت إلى هند قائلة:

- هل تعتقدين أنه محق؟ هل تعتقدين أننا نزيد الشعور بالغربة؟

- هل تشعرين أنك تزيدين الشعور بالغربة؟

- لا.

- إذًا فهو مخطئ.

مرتا بإجراءات الأمن، ثم انفصلتا؛ سارت أسيل نحو الغرفة رقم ثلاثة الخاصة بمستمعي المستوى الثالث، بينما سارت هند نحو الغرفة رقم سبعة الخاصة بالمستوى السابع.

جلست أسيل على مقعدها، راح صوت معدني يتلو عليهم التعليمات:

- يرجي من الجميع الجلوس في أماكنهم المخصصة، فالعملية ستبدأ بعد قليل.

جذبت أسيل نفس عميقا، زفرته ببط، وهي تستحضر صورة رامز، وتهمس له: سنلتقي بعد قليل، لن أنساك أبدا.

قال الصوت المعدني:

- يرجي جذب الخوذة الخاصة فوق رؤوسكم، والاستعداد لبدء العملية.

جذبت أسيل الخوذة، ثم عدت: واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. ثم غابت عن الوعي.

***

- ٨ -

هل سيستطيعون فعلها؟ هل سيستطيعون القضاء على المستمعين؟ هل سيفعلها الرقم سبعة حقا؟ هل سينتهي كل شيء؟

بركان من الأسئلة تفجر في عقل أحمد وهو يتطلع إلى فريقه المستعد أمام أجهزة الكمبيوتر، منتظرًا إشارة الرقم سبعة لبدء العمل. إذا كان أحد لديه فرصة ضد المستمعين، فإنه هو وفريقه بالتأكيد.. لديه أفضل مخترقي الكمبيوتر في العالم: بيلسان زوجته أو ضوء القمر كما تحب أن تسمي نفسها عندما تضع قبعة الاختراق وتقرر أن تثير الجنون في أنظمة العالم الإلكترونية، علاء (الأسد الذهبي) أسطورة الاختراق الذي يردد دائما:

- أنا الوحيد الذي اخترق شبكة المكتب التاسع.

فيقول نادر (الشفرة) العضو الثالث في الفريق:

- أنت تكذب، لا أحد يستطيع اختراق شبكة المكتب التاسع.

- ولكنني فعلتها.

- إذًا أفعلها ثانية، أمامنا هنا، الآن.

- اختراق شبكة المكتب التاسع ليس بالأمر الذي تفعله مرتين في حياة واحدة.

- إذًا فأنت تكذب.

ويستمر الجدال بينهما بلا فائدة، حتى يمل أحدهما فيغادر المكان، أو يمل الجالسون فيصيحوا بهم ليصمتوا.. وأخيرا، لديه التوأم الغامض: بدرودجى الأنياب والمخالب. ولكن كل هؤلاء لم يكونوا ليفعلوها بدون الرقم سبعة، الذي اتصل بهم عبر نادر، وأخبرهم أنه سيساعدهم على اختراق المستمعين. سأله أحمد: كيف سنفعلها؟ لا أحد يستطيع اختراق المستمعين.

قال الرقم سبعة: أنا أحد مهندسي المستمعين.

في البداية، ظن أحمد أنه فخ أعده له المستمعون، ولكن بعد لقائه معه، والمعلومات التي أمدهم بها، تأكد أحمد أنه بالفعل المفتاح لاختراق المستمعين. كان الرقم سبعة يطلب من باقي المخترقين مساعدته في وضع أجزاء من البرنامج الذي سيستخدمه لاختراق المستمعين، ولكنه لم يسمح لأحد برؤية الصورة الكاملة للبرنامج. تقول بيلسان:

- لا أحد يستطيع معرفة الصورة النهائية للبرنامج. صحيح أننا نساعده، ولكننا لا نعرف شيئا، إنه كمن يطلب منا إعداد مجموعة من القطع الخشبية، هذه القطع قد تستخدم لإعداد مقعد، منضدة، أي شيء، لا أحد يعرف، فقط هو يرى الصورة الكاملة.

يقول أحمد:

- لقد تحدثت معه، وأنا أثق به، وعليك أن تثقي به أنت أيضا، وتدعيه يقوم بالأمر بالطريقة التي يريدها.

تهز بيلسان رأسها في عدم اقتناع، تقول: حسنا، كما تريد.

نظر أحمد للساعة الكبيرة على الحائط، بقيت دقائق فقط على موعد الإشارة، وإذا لم تأتهم فستلغى العملية، وينتظرون تحديد الرقم سبعة لموعد آخر.

في بداية حملته على المستمعين، كان أحمد مصممًا على توضيح الحقيقة فحسب، وعدم القيام بأي شيء أخر، فقط الحقيقة. أصبح ضيفا مميزا في وسائل الإعلام، يخبر الناس بحقيقة المستمعين، ويتناظر مع المؤيدين لهم في لقاءات تتهافت عليها القنوات، ويتابعها الجمهور؛ ولكنه لم يشعر أن المستمعين يأخذونه بالجدية الكافية، فهم يتعاملون معه بطريقة روتينية، حتى أنهم لا يهتمون بمن يرسلونه للحديث معه. ولكنه لم يهتم، كان يقول:

- خطوة خطوة، وسيعرفون ما الذي يواجهونه.

حتى ثبت عكس اعتقاده تماما، فالمستمعون يأخذونه بجدية شديدة، أكثر مما توقع بكثير.. كان يتمشى عائدا إلى منزله، عندما شعر بمن يسير خلفه.. أسرع الخطى؛ فأسرع الرجل خلفه.. تأكد أنه يتابعه، وأن عليه الهرب. أبطأ خطواته، ثم توقف قليلا فتوقف الرجل، تظاهر أنه يلتقط شيئا سقط منه، ثم بدأ الركض؛ فركض الرجل خلفه، ولكن أحمد نجح في تضليله في أحد الشوارع الجانبية، وعاد إلى شقته، فتح باب الشقة، ولكنه تجمد أمامها.. هناك شيء مختلف! هم بالتراجع، ولكن قبضة قوية جذبته وألقته أرضا. رأى رجلًا في ثياب سوداء، وقناع على وجهه، يقف أمامه مصوبا مسدسه إليه، وهو يقول:

- تريد أن تتحدى المستمعين؟ ستنضم إلى الصامتين للأبد.

أغلق عينيه متخيلا ما سيشعر به عندما تخترق الرصاصة رأسه، ولكنه فتحهما عندما سمع صراخ الرجل، فوجد بيلسان ترش رذاذًا حارقا في عينيه، ثم جذبت أحمد من يده، وهرعا للخارج.

ظل أحمد يدور في منزلها حول نفسه طوال الليل، وبيلسان تتابعه بعينيها، حتى طلع الصبح فقالت: يجب أن تهدأ لنعرف ماذا سنفعل.

قال أحمد: لقد عرفت ما سنفعله.

- ماذا؟

- أريدك أن تجمعي لي أفضل المخترقين الذين تعرفينهم، وتثقي بهم.

- لماذا؟

ضرب أحمد قبضته براحة يده الأخرى قائلا:

- يريدون قتالا، سأمنحهم قتالًا لم يتخيلوه، سأجعل المستمعين يتذكرون.

- تجعل المستمعين يتذكرون!، كيف هذا؟ وحتى لو حدث، ماذا سنفعل عندما يتذكر المستمعون؟

- لن نفعل شيئا، هم من سيقومون بكل شيء، سيفعلون أفضل ما يجيده البشر، يتحدثون، يتحدثون عن كل شيء سمعوه ورأوه طوال عملهم، هذا سيقضي على المستمعين تماما.

واصل أحمد حملته الإعلامية كأن شيئا لم يتغير، حتى جمعت له بيلسان أفضل أربعة مخترقين تعرفهم وتثق بهم، التقى بهم أحمد، وأخبرهم بما يريد. قالت دجى:

- المستمعون يتذكرون، ستكون عملية أسطورية تخلد من يقوم بها.

أكمل بدر:

- هناك عقبة واحدة صغيرة.. إنها مستحيلة، بل أبعد من المستحيلة.

قال علاء:

- هكذا قالوا عن المكتب التاسع قبل أن أخترق شبكته.

صاح نادر:

- كف عن الهراء، أنت لم تخترق المكتب التاسع، ولا أحد يمكنه اختراق المستمعين.

هم علاء بتبادل الصياح معه، ولكن أحمد أشار لهم ليصمتوا، ثم قال:

- لا أحد فعلها من قبل، ولكن لدي ثقة كبيرة أنكم ستفعلونها.

ولكن هذه الثقة أخذت في التلاشي مع مرور الأيام، يومًا بعد يوم دون أن يتمكنوا من تحقيق أي شيء. دب اليأس في قلب أحمد الذي قال:

- لا أصدق أنني أقف عاجزا هكذا، بينما أشعر بهم حولي في كل مكان. لقد قللت من ظهوري الإعلامي، ولكني مازلت أشعر بهم حولي.

قالت بيلسان: لقد اعتاد والدي أن يقول:

عندما تتعقد الأمور، سيكشف الحل عن نفسه.

وبالفعل كشف الحل عن نفسه، في صورة اتصال مهندس المستمعين، الذي طلب منهم أن يدعوه بالرقم سبعة، عن طريق نادر، وأخبرهم أنه سيساعدهم على إنهاء المستمعين.. والآن ينتظرون الخطوة الأخيرة.

- لقد صدرت الإشارة.

صاحت بيلسان بالعبارة وهي تتطلع إلى الشاشة أمامها؛ فانطلق الجميع يعملون على الأجهزة أمامهم، وأحمد يراقبهم هامسا:

فلتكن النهاية؛ من أجل الجميع.. والدتي ووالدي، ومن أجلي وبيلسان، ومن أجل الأخرس.

***

-٩-

- كل شيء يسير بدقة.

- نسبة التحميل ٢٥ %، وتزداد.

- معدل الطاقة.. تم.

- مراقب الموجات المخية.. تم.

تبادل المهندسون الأربعة الجالسون في غرفة إدارة عملية المسح في مبني المستمعين العبارات، بينما تتعلق أعينهم بالشاشات الكثيرة التي تحتل جدارين كاملين من الغرفة وتظهر عليها بيانات عملية المسح، تعدو أيديهم فوق الأجهزة وشاشات اللمس الممتدة أمامهم، ويجلس أيمن ثابت -نائب مدير المستمعين- على مقعد خلفهم يراقب العملية، ويتطلع إلى شاشة صغيرة بجواره، نقلت صورة كريم عادل- كبير مهندسي المستمعين- وهو يقول: غرفة الإدارة جاما، كل شيء على ما يرام.

كان التوتر هو السمة السائدة على وجوه المهندسين الأربعة؛ ليس لدقة العملية التي يقومون بها، وعدم وجود أي مجال للأخطاء، فقد قاموا بها مئات من قبل، ولكن لوجود أيمن ثابت معهم في نفس الغرفة.

أيمن ثابت هو نائب المدير، ولكن لا أحد يعرف من هو المدير، ولم يقابله أحد من قبل، لذلك فكل ما يعرفونه هو أن أيمن على قمة هرم المسئولية، وهو ليس بالشخص الذي يحب العبث معه، فأي خطأ في العمل يتصرف معه بمنتهى الشدة والحزم، ومهما كان الخطأ صغيرا، فإن صاحبه يجد أن أيمن قد عرفه، وقادمًا لتوقيع العقاب.

يقولون إن في المستمعين قاعدة أساسية: "أيمن في كل مكان، ويعرف كل شيء"، ويطلقون عليه فيما بينهم داغر الأسود، نسبة إلى واحد من أشهر

سفاحي الحرب الأخيرة، والمسئول عن مقتل أكثر من عشرة آلاف شخص، وقد وصل اللقب إلى أيمن فهز رأسه قائلا:

- طالما أنهم يقومون بأعمالهم، فلا يهم.

ارتفع صوت المهندس الأول: نسبة التحميل ٥٠ %.

جاء صوت كريم: الغرفة جاما، كل شيء جيد.

قال أيمن: جيد.

همس المهندس الثالث: مائتين وثلاثة.

كانوا يعدون الكلمات التي نطق بها أيمن منذ بداية العام، يتكلم مرتين في كل عملية: مرة عندما تبلغ النسبة ٥٠%، يقول: جيد، وعندما تنتهي العملية، يقول: عمل جيد، ثم يغادر المكان، وربما بضع كلمات متفرقة في مناسبات أخرى.

جاء صوت كريم: هناك خطأ في العملية....

وقبل أن يكمل كلامه أخذت النسبة في التناقص ٥٠.. ٤٩.. ٤٨..

هتف المهندس الأول: ما الذي يحدث؟

صاح الثاني، وهو يراقب القراءات التي أصابها الجنون، فراحت تعلو حينا وتهبط حينا آخر: لدينا مشكلة كبيرة.

قفز أيمن من مقعده بسرعة، جذب أقرب المهندسين من مقعده، ودفعه للخلف؛ فتراجع الرجل خطوات محاولا السيطرة على نفسه، ولكنه فشل فسقط أرضا. احتل أيمن مقعده، وبدأ العمل وهو يتطلع إلى الشاشة التي أظهرت إشارة تحميل جديدة تزداد ١%.. ٢%.. ٣%، قال كريم:

ما الذي...

.... يحدث؟

اقتحم الغرفة مكملا عبارته، فنهض أحد المهندسين بسرعة مفسحا له المجال، حتى لا يلقى أرضا هو الآخر، فجلس كريم على المقعد، وواصل العمل.

ولو خرج كريم إليهم في ظروف أخرى، لكانت مناسبة تستحق التعليق، فهم يطلقون عليه الدودة في الشرنقة، لأنه لا يغادر الغرفة جاما منذ حضوره وحتى انصرافه، يقولون:

- لو حدث حريق في المبني، فلن يغادر كريم الغرفة جاما حتى موعد الانصراف.

ولكنهم الآن يواجهون أكبر كارثة في تاريخ المبنى، فلا وقت للتعليق. هتف كريم: التحميل الجديد، أحدهم يحاول إضافة شيء للنظام.

صاح المهندس الثاني: تحميل النظام عاد إلى ٢٥% ثانية.

قال الرابع: لدينا مشكلة كبيرة.

رماه أيمن بنظرة جعلت بقية الكلمات تموت على شفتيه؛ فإذا كان هناك شيء يمقته أيمن أكثر من العبث معه، فهو الحديث الخطأ في الوقت الخطأ. فتحت نافذة أمامهم، وظهر دكتور حاتم كبير أطباء المستمعين، سأله أيمن:

- هل يمكن إيقاف العملية؟

- لا يمكن إيقاف العملية دون التأثير على المستمعين المتصلين.

قال أيمن: اعرض صور المستمعين، وبيانات التحميل لديهم.

ظهرت نافذة أخرى تعرض صور المستمعين، وبحوارهم نافذة صغيرة توضح نسبة التحميل لديهم. كان برنامج المستمعين الأصلي قد تراجع تحميله حتى وصل إلى ١٥%، بينما ازداد تحميل البرنامج الجديد حتى وصل إلى ٢٥%. رفع كريم يده قرب فمه صائحا عبر جهاز الاتصال:

- أين أنت أيها القرد؟

مرت لحظات، ثم جاءه صوت نائبه وسام بندر:

- أنا في غرفة الطوارئ زيتا.

صاح كريم: اقطع الاتصال عندما أخبرك.

قال أيمن:

- يجب علينا إيقاف تحميل برنامج المستمعين، حتى نتمكن من السيطرة على البرنامج الدخيل.

قال كريم: حسنا.

واصل العمل.. هبطت نسبة تحميل برنامج المستمعين بسرعة حتى وصلت للصفر.. ازدادت نسبة البرنامج الدخيل بسرعة.. قال أيمن:

- سأقوم أنا بعزل إشارة البرنامج عن المستمعين، بينما تقوم أنت بقطع الاتصال.

لحظات ثم توقفت نسبة التحميل، فقال حاتم:

- يمكنك قطع الاتصال الآن.

فصاح كريم: اقطع الاتصال الآن.

خيم الصمت للحظات بعد قطع الاتصال حتى قال حاتم:

- هل أقوم بإيقاظ المستمعين؟

قال أيمن: لا، انتظر.

أظهرت الشاشات تحميل ٣٣% من البرنامج الغريب، فقال أيمن:

- يجب أن نقوم بمسح البرنامج الغريب أولا.

قال كريم: تم إيقاف تحميل البرنامج، يمكنك الدخول للنظام ثانية.

قال أيمن: سنقوم بإعادة توصيل المستمعين ثانية لحذف البرنامج الدخيل، قم بإعادة الاتصال ثانية عند إشارتي، ثلاثة، اثنان، واحد، الآن.

قال كريم: عاد الاتصال ثانية، سأقوم بتشغيل برنامج الحذف.

قال حاتم: يمكنك البدء، الأمور مستقرة.

أظهرت الشاشات بدء عمل برنامج الحذف، ظلت النسبة ثابتة عند ٢٢% للحظات، ثم راحت تتناقص بسرعة حتى وصلت للصفر. زفر كريم قائلا: رائع، لقد فعلناها.

قال أيمن: حقا!

ثم نهض من مقعده قائلا: إلى غرفتي الآن.

***

وقف كريم وحاتم ووسام والصمت يغلفهم داخل غرفة أيمن، الذي رأوه يفقد أعصابة للمرة الأولى، فقد حمل مقعد ورفعه عاليا، وراح يهوي به على الأرض حتى تحطم. ألقى بقاياه بعيدا، وهو يتطلع إلى مكتبه الذي جلس شخص آخر خلفه، خمن الباقون أنه المدير، وقد ظهر للمرة الأولى. قال كريم: هل سنقوم بعملية مسح أخرى بدل التي لم تتم؟

زفر أيمن بقوة، ثم قال:

- المستمعون دقيقون كالساعة، هذا أمر يعرفه الجميع. لم يعد هناك وقت لإعادة العملية، ولا نستطيع إبقاء المستمعين أكثر من الوقت المحدد لعملية المسح.

قال حاتم: هل سنقوم بإيقاظ المستمعين؟

قال وسام: ولكننا لا نعرف ما حدث لهم؛ يجب أن نقوم بإعادة العملية.

تطلع إليه كريم قائلا: لماذا أنت هنا؟

دوت صفارات متقطعة من جهاز بجوار المدير، فضغط أزراره، لتنقل الشاشة صورة لغرفة المستمعين، وقد بدءوا الاستيقاظ. قال حاتم:

- مستحيل، لا يمكن أن يستيقظوا هكذا دون تدخلنا.

تطلع كريم إلى الشاشة قائلا: كل شيء ينهار.

ضغط المدير أزرار الجهاز أمامه، تحدث عبر جهاز الاتصال:

- مرحبا بكم أيها السادة، معكم قيادة المستمعين.. لقد قمنا بتقصير عملية المسح هذه المرة، حتى يتسنى لنا عقد جلسات استماع قصيرة معكم قبل مغادرتكم في وقتكم المحدد.. الرجاء البقاء في أماكنكم حتى يصطحبكم رجالنا إلى الغرف المخصصة للاستماع.

التقط أيمن جهاز الاتصال الآخر بسرعة، قال:

- أريد أن يتم تجهيز كل الغرف المتاحة لجلسات الاستماع الخاصة، أريد كل موظف متوفر لدينا للقيام بالعملية، أمامكم خمس دقائق فقط.

قال المدير: سنتابع الجلسات من غرفة المراقبة الرئيسية.

توجه الجميع نحو الغرفة، ووقفوا يتطلعون إلى الجدار المغطى بشاشة عملاقة، تنقل لهم صور كاميرات المراقبة في الغرف الخاصة، وقراءات الأنظمة الحيوية للمستمع بجوارها. قال أيمن:

- إذا جعلنا كل جلسة استماع خمس دقائق، فسيكفي الوقت المتاح لعمل جلسات الاستماع لكل المستمعين الموجودين هنا اليوم.

قال المدير عبر جهاز الاتصال:

- ستسألون بمجموعة معينة من الأسئلة لمعرفة إذا كان المستمع يعاني من أي شيء، كما ستقوم الأجهزة بالتأكد من إشاراته الحيوية.

دخل المستمعون إلى غرف الاستماع، يجلس المستمع على مقعد، ويضع يديه على بقعتين مضيئتين، يجلس الآخر على المقعد المقابل، لحظات ثم أظلمت البقع المضيئة، بعد إجراء الفحص الطبي، لتعلن أن المستمع لا يعاني من أية مشاكل طبية، تبدأ جلسة الاستماع، قالت أسيل:

- من الجيد أن يجلس المرء على مقعد المتكلم، ويحصل على مستمع كتغيير.

ابتسم المحاور قائلا:

- أنا لست مستمعًا يا سيدتي، فهذه جلسة استماع خاصة لا تتم مع مستمع.

هزت أسيل رأسها، قالت:

- هل لي أن أعرف السبب في هذه الجلسة المفاجئة؟

- لا شيء محدد، أردنا أن نستمع لكم، ونعرف لو لديكم أي شيء تريدون أن تخبرونا به.

- هل لهذه الجلسة علاقة بما يقوله دكتور أحمد؟

- لا، ما يدور داخل مبني المستمعين يخص المستمعين وحدهم، وليس لأي شخص خارجي علاقة به؛ دكتور أحمد أو غيره.

- بالطبع.

- والآن، هل لديك أي شيء تريدين أن تخبريني به؟ يمكنك التحدث عن أي شيء.

صمتت أسيل لحظات، قالت:

- لا شيء، كل شيء على ما يرام.

- كيف سارت جلسة المسح القصيرة؟ هل تشعرين بأي فرق بينها وبين الجلسات المعتادة؟

- لا، لا فارق، فقط أشعر ببعض الصداع، ولكنني أعتقد أنه يخصني ولا علاقة له بالجلسة.

- جيد.

قالها المحاور، التقط بعض البطاقات الصغيرة من أمامه قائلا:

- سأعرض عليك بعض البطاقات، وأريدك أن تخبريني إن كانت تذكرك بأية شيء.

رفع البطاقة الأولى أمامها، قالت أسيل:

- لا شيء.

ثم رفع الثانية والثالثة، حتى انتهى من البطاقات وهو يحصل على نفس الإجابة: لا شيء.

- سأسلك عدة أسئلة، وأريدك أن تجيبي بسرعة وبدون تفكير.

- حسنا.

أجابت أسيل الأسئلة بسرعة حتى انتهت، نهض المحاور قائلا:

- شكرا لك يا سيدتي، يمكنك الانصراف الآن.

قالت أسيل، وهي تنهض لتنصرف:

- لقد تحدثت كثيرا بالنسبة لجلسة استماع.

- جلسة استماع خاصة، لذلك فهي مختلفة.

تابعوا الجلسات حتى انتهت، وانصرف جميع المستمعين، قال كريم:

- يبدو أن الأمور بخير.

رماه أيمن بنظرة لو كانت سهما لاخترق جسده، ونفذ من الناحية الأخرى، قال حاتم: ماذا سنفعل الآن؟

صرت همهمات بينهم، حتى قال المدير:

- فريق خاص سيقوم بفحص أنظمة المستمعين، لمعرفة كيف حدث الاختراق، والضرر الذي تسبب به، والتأكد عن عدم تكرر الأمر، وحتى يتم هذا، سيتم إغلاق المبنى، ولن يغادر أي شخص ممن لهم صلاحية الدخول للنظام.

قال كريم: أنت لا تظن أن....

قاطعه المدير قائلا: أنا لا أظن يا سيد كريم، أنا متأكد أن هذا الاختراق لم يحدث إلا بمساعدة شخص من الداخل.. من داخل المستمعين.

***

- ١١ -

تقول أسيل:

- أنت أفضل أخت يمكن للمرء أن يحصل عليها، ولا أستطيع تخيل حياتي بدونك، أنت ضوء السماء الذي جاءني في أحلك أوقات حياتي، لا أعرف ماذا كنت سأفعل بدونك، أنت واسيتني وساعدتني وعلمتني، فلذلك أنا مدينة لك للأبد، فلا يوجد أي شيء أفعله لأشكرك عما فعلتِه من أجلي، كنت أظن أن حياتي انتهت، ولكنك علمتني أن أواصل، علمتني أنني يجب أن أواصل من أجل الذين نحبهم؛ الراحلين والباقين، علمتني أننا لا يجب أن ننسى أحبائنا الذين فقدناهم، ولكننا يجب أن نتذكرهم بالطريقة الصحيحة، فهم لا يريدون تدمير حياتنا بالحزن عليهم، بل يريدون أن يكونوا بجوارنا، يساعدوننا خلال رحلتنا حتى نصل إليهم، أنا متأكدة أن رامز كان سيحبك كثيرا، ويدعوك الخالة هند، ربما كنت سأشعر بالغيرة لأنه سيحبك أكثر مني.

تتساقط الدموع من عيني هند، وتشعر بسياط من نار تلهبها، مع كل مرة تُسمعها أسيل فيها هذا الكلام. ماذا لو عرفت أسيل الحقيقة؟.. السبب الحقيقي لانتقالها بجوارهم.. هل يمكن أن تسامحها؟ هل يمكن أن تجد في قلبها الكبير المملوء بالحب مكانا لتسامحها؟ وحتى لو سامحتها، هل ستظل تدعوها بأختها الحبيبة ضوء السماء؟

غريب أمر هذه الحياة، تخطط لفعل شيء ما، وتسعى نحوه؛ ولكنك تجد نفسك تفعل شيئا آخر تماما لم تكن تتوقعه، ولا في أكثر أفكارك جنونا.

انتقلت هند إلى منزلها الجديد - بجوار أسيل - تقودها الكثير من الأفكار المشوشة، وتبحث عن شيء لم تكن واثقة أنه موجود، وإن كان موجودًا فليست واثقة أنها ستجده، وإن وجدته فهي لا تعرف ماذا ستفعل. مثل كلب يطارد عربة الرش، لا يعرف لماذا، ولا يعرف ماذا سيفعل إذا توقفت العربة

أمامه. لم تعرف ماذا تفعل، فقررت الرحيل، ولكنها وجدت أسيل أمامها، ضعيفة وحيدة ضائعة، لا تعرف ماذا تفعل، مثلها بعد فقدان زوجها، لذلك قررت البقاء ومساعدتها، أحيانا تشعر أنها لم تقرر، وأن قوة غريبة غامضة لا تعرفها أجبرتها على البقاء ومساعدة أسيل.

لم تعرف هند أيضا ماذا تفعل بعد فقدان زوجها، شعرت أنها فقدت قوتها سندها وحماها، وأصبحت وحيدة ضائعة في رحلة الحياة المخيفة. أخذت ابنها ودخلت إلى المخبأ الآمن أسفل المنزل، وأحكمت إغلاقه. جلست تحتضن ابنها والدموع تنهمر من عينيها، لا ينقصها إلا صوت الرصاص والقذائف المنهمرة في الخارج، ليصبح الأمر نسخة من طفولتها التي قضت أكثرها مختبئة مع والدها أسفل المنزل.

يقول والدها: أنت ابنة الرصاصة.

لا تفهم هند ما يقصد، تسأله عما يعنيه، فيرفض الإيضاح لها، حتى أخبرها صديقه محمود في عيد ميلادها الثامن، آخر عيد ميلاد احتفلت به، فقد اشتعلت الحرب بعده بأشهر قليلة، كان والدها ضابط في المخابرات العامة، كرس كل حياته لخدمة الوطن، حتى كبر سنه، وأصدقاءه يلحون عليه أن يتزوج، حتى لا يظل وحيدا، ولكنه يقول:

- لقد وهبت حياتي كلها للوطن، ولم يبق شيء لأشاركه شخص آخر.

ولكن كل هذا تغير، وأدرك والدها أن لديه الكثير ليشاركه منذ اللحظة التي قابل فيها أمها. كانت خبيرة خارجية، استعان بها الجهاز في إحدى المهمات. كتم والدها مشاعره، ولم يفعل أي شيء حتى المهمة التالية. حينها أصيب برصاصة في ساقه، أجبرته على التقاعد؛ فذهب يسعى خلف والدتها، ولم يمض أكثر من ستة أشهر حتى تزوجها في حفل جميل. هنأه محمود بزواجه، ومال على أذنه قائلا:

- سرك في أمان معي، أعرف أنك عدوت نحو الرصاصة لتخرج.

استنكر والدها بشدة:

- كيف لك أن تقول هذا؟ لقد أجبرتني الإصابة على التقاعد، لم أعد قادرا على الحركة كسابق عهدي، لقد حطمتني.

يقول محمود وهو يبتعد: ولكنها منحتك زوجتك.

يكمل لها محمود:

- بعد هذا اليوم بسنتين، جاءني والدك قائلا: أتعرف ماذا؟ ربما تكون محقا، أعتقد أنني ربما عدوت نحو الرصاصة.

بعد حفلة عيد ميلادها، عاد والدها إلى صومعته السرية، الممتلئة بالكثير من الأوراق وقصاصات الأوراق والجرائد المثبتة على الحائط، ومملوءة بالعلامات الملونة، وعشرات الخيوط الملونة تصل بينها. وقفت هند تتطلع إليها، وهي تحمل دميتها الصغيرة، ثم التفت والدها نحوها قائلا:

- لقد أريتهم كل شيء، ولكنهم يقولون لا تقلق، كل شيء بخير. كيف لي ألا أقلق وأنا أرى سحب الدم تتجمع في الأفق؟!

يشير نحو الأوراق المعلقة مكملا:

- وكيف يكون كل شيء بخير، وكل هذا يحدث؟! هل فقدوا القدرة على الفهم والتمييز.

بعد أيام قليلة، اصطحبها والدها إلى منزل آخر، له قبو محصن أسفله، جدرانه من الخرسانة الصلبة، حيث أصبحت هند تقضي معظم وقتها، مع القليل من ألعابها التي أحضرتها من المنزل القديم. تسمع صياح والدها، وهو يجري عشرات المكالمات الهاتفية، تنتهي به يغلق بشدة حتى يوشك أن يحطم الهاتف، وهو يلهث على نحو عنيف، يهتف: إنهم لا يفهمون، لماذا لا يفهمون؟!

ينظر نحو هند مكملا: لماذا لا يستمع أحد؟!!

يحمل أوراقه مكملا: ربما لو أريتهم هذا وهذا وهذا.

يغلق الباب، ويغادر حاملا رزمة ضخمة من الأوراق، يعود بدونها، ولكن بأضعاف الضيق الذي خرج به.

جاء محمود لزيارته، سأله عن أحواله وأحوال هند، ثم انتحى به ركنا قبل أن يغادر، وهمس في أذنه:

- إنهم يقومون بدراسة الأوراق التي أحضرتها، وسوف نخبرك بما نصل إليه، فلا داعي للمزيد. إن الإدارة قلقة بشأنك، وربما.....

قاطعه والدها قائلا:

- ربما تلقون بالمجنون في أحد المستشفيات؛ لتتخلصوا من صداعه.

قال محمود:

- لا تخطئ فهمي، ولكن الأمور تغيرت كثيرا عن الفترة التي عملت فيها معنا، وأنا أؤكد لك أن القيادة ترى كل شيء بمنتهي الوضوح.

سار نحو الخارج ثم استدار مكملا: عليك أن تتوقف من أجل هند.

شعرت هند أن والدها قد شاب فجأة وهو يتطلع إلى محمود، الذي غادر في هدوء دون أن يلتفت ثانية. بقي في مكانه لساعات دون حراك، تكلمه فلا يرد عليها، حتى جاء الصباح فأسرع إلى القبو قائلا:

- إذا كانوا يرفضون التحرك؛ فسأعرض الأمر على الجميع، سأجعل الحجر والشجر يعرف بما هو قادم.

لكن لم يحتج والدها إلى هذا؛ فقبل انتهائه من وضع خطته لإعلان الأمر، اشتعلت الحرب، وسمع بها الجميع، حتى الحجر والشجر.

التزمت هند مع والدها المخبأ المؤمن أسفل المنزل، الذي ملأه والدها بما يحتاجونه للبقاء لفترة قد تطول. ولكن الطعام والشراب نفدا، ولم تنتهِ الحرب، فحتى والدها الذي تنبأ بها قبل بدايتها، لم يتخيل أنها ستستمر كل

هذا الوقت. أصبح والدها يخرج لإحضار ما يستطيع، يعود مسرعا إلى القبو، يستمع الأخبار مع هند قائلا: كان يمكن منع هذا لو أنهم فقط يستمعون.

تسأله هند: هل نحن في حرب؟

- نعم.

- إذا لماذا تختبئ هنا، ولا تحارب؟

تري الدموع تهرب من عينيه، يشير إلى سلاحه المستند على الحائط قائلا:

- هل تستطيعين أن تحملي هذا السلاح وتقتليني؟

- لا.

- كذلك أنا، لا أستطيع القتال ضد أهلي.

اشتدت الحرب، وأصبح الحصول على مستلزمات الحياة أصعب. أصبح خروج والدها أكثر وأطول، وكثيرا ما يعود خالي الوفاض.. يحتضن هند، وينامان سويا والجوع ثالثهما، وأحيانا يعود بجراح تساعده هند في العناية بها. يقول:

- في الخارج ما يكفي الجميع، لو حصلنا على ذرة صغيرة من التنظيم، ولكنهم مصممون على دفع الأمور حتى الهاوية.. لا أحد يستمع، لا أحد يستمع.

يركل والدها الطاولة، فتسقط أرضا.. يصيح:

- إن القيادة ترى كل شيء بمنتهى الوضوح.

تسمعه يقول، كأنه يغني:

- عشرة أشخاص خرجوا من المنزل في الصباح، خمسة لم يعودوا، وأربعة عادوا فلم يجدوا المنزل الذي خرجوا منه، وواحد عاد وجلس مع أسرته فانفجر بهم المنزل، والحادي عشر قال لقد رأيت هذا قبل أن

يحدث، فقال الثاني عشر أنت مجنون، هذا لا يمكن أن يحدث، وقف الثالث عشر يسخر من الاثنين، وهو يجهز سلاحه، ولكن الرابع عشر قتله وهو يقول: يجب أن تكون مستعدا دائما.

تسأله هند: طالما أنك لم تقاتل، فلماذا لم نغادر مع من غادر؟

يتطلع إليها للحظات، ثم يجيب:

- لم أستطع الهرب؛ فالمقاتل لا يهرب أبدا، ظللت أنتظر اللحظة التي يعودون فيها إلى رشدهم، ويستمعون إليّ.

لم تفهم هند كيف يكون مقاتلا، لا يهرب، وهو لا يقاتل.. ولكنها لم تسأله ثانية، فقد أخبرتها دموعه بما تريد.

تفكر هند في والدتها التي لم ترها -فقد ماتت وهي تلدها- وماذا كانتا ستفعلان سويا بينما والدها في الخارج، يحاول الحصول على بعض الطعام. كانت والدتها ستحتضنها، وتغني لها حتى تنام، وعندما تستيقظ تحكي لها قصة، وتخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن والدها سيعود سريعا، ومعه الطعام، تسألها هند: هل سيمكنني الخروج ثانية يا أمي؟

- بالطبع يا حلوتي، قريبا جدا ينتهي كل شيء، وتصبح الشوارع آمنة.

- هل سأستطيع اللعب بدراجتي دون الخوف من القناص المترصد بنا؟

- قريبا يا حلوتي.

- وهل سأستطيع...

- قريبا جدا يا حلوتي تفعلين كل شيء.

تنام هند وهي تحلم بهذا القريب الآتي قريبا، تستيقظ لتجد رجلا آخر غير والدها يقترب منها، فتصرخ بكل قوتها وهي تغطي وجهها بيديها، ولكنها تسمع صوت محمود صديق والدها: هند، لا تخافي يا هند، إنه أنا.

تفتح عينيها قائلة: أين والدي؟

- والدك بخير، وقد أرسلني لأحضرك لأنه يريد أن يراك.

- ولماذا لم يعد للمنزل كما أخبرني؟

فيمسكها محمود من يدها قائلا: تعالي، سنذهب إليه الآن.

لم تصدق هند نفسها وهي تخطو داخل المستشفى. لم تعد المستشفى مكان جميلا بجدرانه البيضاء النظيفة، كما اعتادت أن تراه عندما تأتي مع والدها، تقابلها طبيبة باسمة في معطف أبيض، تخبرها أن كل شيء بخير ويجب ألَّا تخاف، تصطحبها إلى غرفة الفحص بابتسامة جميلة، وتمنحها الحلوى عند مغادرتها. أما اليوم، فاللونان الأحمر والأسود يغطيان كل شيء، وصرخات الجرحى، وصياح أهاليهم يوشك أن يحطم رأسها الصغير، فلا تجرؤ أن تسأل ماذا يفعل والدها هنا. يسير بها محمود عبر الممرات الغارقة في الدماء، والأشلاء والأطراف ملقاة مجمعة في أحد الأركان، فتلتصق بمحمود أكثر، وتهمس: أبي.

يسرع محمود الخطى حتى يصلا إلى إحدى الغرف، فيدفع بابها ويدخلان، لتجد والدها راقدًا على أحد الأسرة في وهن، ومحاليل كثيرة تتصل بجسده. تسرع نحوه هاتفة: أبي!

يفتح والدها عينيه هامسا: هند، من الذي أحضرك إلى هنا؟

تشير نحو محمود، فيصيح والدها به:

- ماذا فعلت أيها التعس؟ وكيف دخلت إلى المنزل؟

يتلعثم محمود: لقد... أخذت مفاتيحك .... بينما كنت... فاقد الوعي... لقد ظننت أنك تريد هند بجوارك.

فيقول والدها: أريدها هنا!! هل أنت مجنون؟!!

ثم يرفع يده مكملا: استمع لي جيدا، أريدك أن تأخذ هند وتعيدها للمنزل الآن، هل تفهمني؟ الآن.

فيقول محمود: حسنا، حسنا، سأعيدها للمنزل الآن.

ولكن هند تقول:

- لن أعود للمنزل، أريد أن أبقى بجوارك لأعتني بك وأنت مريض، كما تفعل معي.

فيجذبها إليه، ويقبل رأسها قائلا: حسنا يا جميلتي ستبقين بجواري، ولكن والدك يحتاج أن تحضري له شيئا هاما من المنزل. ستذهبين مع محمود لتحضريه، وتعودي سريعا، حسنا.

- حسنا.

لا تذكر هند ما هو الشيء الذي طلب منها والدها أن تحضره، ولكنها ذهبت، فكانت آخر مرة تراه فيها. ففي الصباح التالي، سمعت خبر تدمير المستشفى بمن فيه، ثم بيان المقاتلين أنهم فعلوها ردا على تدمير مستشفى الأمل للأطفال.

غرقت هند في أحزانها، وانتقل محمود للإقامة معها في القبو الواقع أسفل منزلها، كانت تسمعه يقرأ أوراق والدها، وهو يصيح ويضرب على جسده ووجهه، وأحيانا يضرب رأسه بالحائط قائلا:

- كيف لم نر هذا؟! لماذا لم نستمع له؟! لماذا؟!

استيقظت هند، وذهبت لتوقظه، ولكنها وجدته ميتا، وهو يمسك بصورة لوالدها في يده. ظلت تبكي بجواره لفترة وقد صدمها الأمر.. لقد أصبحت وحيدة الآن وسط الحرب المشتعلة، ولا تعرف ماذا تفعل، وقد نفد الطعام واستبد بها الجوع؛ فقررت أن تجرب حظها في الخارج.

أفاقت هند من خواطرها مع دخول مهند يعدو نحوها قائلا:

- أمي، أمي لقد عدت.

أسرعت نحوه هي الأخرى، واحتضنته. أخرج شيئا من جيبه قائلا:

- انظري ما أحضرت لي خالتي أسيل اليوم.

تطلعت هند للهدية، وللفرحة البادية على وجهه، يبدو أنها من ستشعر بالغيرة لأن مهند يحب أسيل أكثر منها. قالت:

- قوم بإنهاء واجباتك حتى أجهز لك الطعام.

- حسنا.

قالها مهند، واتجه نحو الغرفة الآمنة أسفل المنزل، واتجهت هي نحو المطبخ. على الرغم من انتهاء الحرب منذ سنوات طويلة، وعدم وجود ما يشير إلى أخرى قادمة، إلا أن هند لا تسكن منزلا إلا وبه غرفة أمنة أسفله، حيث تقضي معظم وقتها فيها. في البداية كان مهند يسأل:

- لماذا نترك المنزل بأكمله ونجلس هنا؟!

فتقول هند: سيأتي يوم لن ترى فيه سوى هذه الجدران لفترة طويلة.

ومع الوقت، اعتاد مهند الأمر، بل أحب الغرفة، وأصبح يقضي معظم وقته فيها، ويقول إنه يحبها.

أصدر هاتفها نغمة قصيرة، فالتقطته، ووجدت رسالة جديدة على قناة الاتصال الخاصة: مازلنا على موعدنا الليلة.

كتبت هند: بالطبع.

- أنا متأكد أننا سنسحقهم قبل أن يعرفوا ماذا أصابهم.

- جيد.

أغلقت القناة، ووضعت الهاتف بجانبها. جانب آخر مظلم في حياتها، لا تستطيع أن تخبر أحدا بشأنه.

***

-١٢-

صداع رهيب ذلك الذي اجتاح رأسها، حتى أنها كانت تسمع صوت المطارق التي تطرق داخل رأسها باستمرار، وكلما تناولت دواء للصداع، يختفي الألم لوقت قصير، ثم يعود ثانية. تقول هند:

- هذا الصداع راجع لأسباب نفسية، لذلك لا يزول بالأدوية، يجب أن تعرفي سببه حتى يزول.

فتبتسم أسيل قائلة:

- والآن تتحدثين في الطب أيضا. أتمنى أن يأتي اليوم الذي يقدر فيه العالم مواهبك المتعددة.

- وأنا أيضا أنتظر هذا اليوم.

تناولت أسيل حبة أخرى للصداع ثم استلقت على الأريكة وأغمضت عينيها، والألم يزداد داخل رأسها. تشعر أن هناك شيئا محبوسا داخل عقلها، يمزق طريقه للخارج. تقول هند:

- مطارق داخل رأسك، أم شيء يحاول الهرب، أم أن الشيء يحاول الهرب من المطارق؟

- لا أعرف؛ والغريب أنني أشعر أن هذا الصداع يذكرني بذكرى بعيدة مبهمة، شيء رأيته منذ زمن، ولا أستطيع تذكره بوضوح، ولكني أتذكره الآن.

- لا تستطيعين تذكره بوضوح أم تتذكريه؟

- لا أعرف، كأنني اسمع أصوات عرض مسرحي يتم في صالة مظلمة، أعرف أنني رأيت هذا العرض من قبل، ولكني لا أتذكره، أحتاج إلى لمحة من الضوء لأتذكره.

تتقلب أسيل على الأريكة وهي تضغط بيديها على جانبي رأسها، في محاولة يائسة لطرد الصداع. تحاول أن تستعيد بعض ذكرياتها السعيدة، لتنسيها الألم.. كانت جالسة تقرأ الجريدة، عندما جاء رامزوجلس على المقعد المقابل لها قائلا: أمي أريد أن أخبرك....

شعرت بالصداع يمسك بالصورة التي تحاول استحضارها في عقلها، ثم يمزقها ويلقيها قائلا بصوت مرعب: هل ظننت أنك ستهربين مني بهذه السهولة؟

سألتها هند: متى بدأ الصداع؟

- في اليوم التالي لجلسة الاستماع القصيرة.

- تبحثين عن سبب آخر لكراهية جلسات المسح، وهذا ما جعل عقلك يستغل التغيير في جلسات المسح، وبدأ هذا الصداع ليدعمك.

- لديك تفسير جاهز لكل شيء دائما؟

- بالطبع.

- وهو صحيح دائما؟

- بالطبع

سألت أسيل: هل لديك فكرة لماذا قصروا جلسة المسح، وقاموا بعمل جلسة الاستماع القصيرة هذه؟

- لا شيء محدد، مجرد إجراء عادي.

- إجراء عادي! إن هذا الأمر لم يحدث من قبل طوال سنوات عملي، وهولاء القوم لا يغيرون نظامهم فجأة من أجل إجراء عادي.

- ولماذا تظنينها حدثت أيتها العبقرية؟

- أراهن أن للأمر علاقة بالدكتور أحمد.

- دكتور أحمد!.. دكتور أحمد ومائة مثله لن يحركوا ورقة شجر في حديقة المستمعين، أنت لم تفهمي مع من تعملين بعد.

- ولكن دكتور أحمد....

- إنه ليس رائعا إلى هذا الحد. هل سمعتِ ما قاله ياسر شوقي في حلقة الأمس؟ لقد أفحم دكتور أحمد تماما.

- ياسر شوقي هو بطلي المفضل، أعتقد أنه ساحر حقا.

وصمتت لحظة ثم قالت: حسنا أيتها الخبيرة، دعينا منهم، وأخبريني ماذا أفعل للشيء الذي يحاول الخروج من عقلي.

- إذا كان هناك شيء داخل عقلك، فعليك محاولة الاتصال معه، عليك بالاسترخاء كما علمتك، والاستماع إلى ما يريد عقلك قوله.

اعتدلت أسيل في جلستها متخذة وضع القرفصاء، وواضعة يديها الممدودتين على ركبتيها، مع ضم السبابة والإبهام معا في حلقة، وفرد باقي الأصابع للخارج، ثم همست:

- شكرا لك يا هند، أنت أعظم هدية حصلت عليها يا صديقتي العزيزة.

حاولت التركيز وتصفية عقلها لتعرف ماذا يريد أن يخبرها.. في البداية كانت تجد الأمر صعبا، وسرعان ما تشتتها عواصف الأفكار المستعرة داخل عقلها؛ ولكن مع تكرار التجربة أصبحت تجيد الأمر. أخذت عدة أنفاس عميقة، أخرجتها ببطء وانتظام، راحت تعد من عشرين عكسيا حتى واحد.. شعرت بعقلها يصفو، وأفكارها تصبح أكثر وضوح.

رأت وجه رامز يحتل تفكيرها، كأنه يقف أمامها مباشرة ويحرك شفتيه بلا صوت. ثم راح يبتعد، لتظهر تفاصيل جسده. كان يشير بيده نحو اليسار، فالتفتت إلى حيث يشير، ولكنها لم تر شيئا، بقعة من الظلام غير واضحة المعالم.

أفاقت من أفكارها على صوت شريف وهو يخطو داخل الصالة، فنهضت، وسارت نحوه قائلة: شريف، كنت أنتظرك.

لم يعلق شريف، فقالت: كيف كان يومك؟

كانت تتوق للحديث معه، أي حديث، أية كلمات، فقط شيء يشعرها أنه مازال معها؛ ولكنه أجاب بكلمة واحدة: جيد.

سار نحو غرفته، فتجمدت أسيل في مكانها للحظات، ثم ذهبت خلفه.. وجدته ممسكا علبة أقراص الازرولدين، ويستعد لأخذ قرص، فأمسكت يده قائلة: شريف أحتاج أن أتحدث معك.

حرر يده منها، ورفع القرص نحو فمه، لكنها أمسكت يده ثانية وهي تقول: أحتاج للحديث معك بدون هذه الأقراص.

حرر يده ثانية، نظر في عينيها، فلمحت في عينيه طيف شريف القديم للحظة واحدة، قال: لن يسرك الحديث معي.

ابتلع القرص، وارتشف من قدح الماء الموجود أمامه. سار نحو الفراش، بينما ظلت أسيل واقفة تنظر لصورتها المنعكسة في المرآة للحظات، ثم التقطت علبة الدواء المنوم، الذي تتناوله في بعض الليالي عندما يجافيها النوم، فابتلعت حبة ثم رشفة ماء هي الأخرى، وألقت جسدها بجواره.

دقائق قليلة وجاءها النوم، فحملها إلى عالم الأحلام. رأت ما رأته سابقا.. رامز يشير لها نحو الظلام. سارت إلى حيث يشير دون أن ترى شيئا؛ ولكنها سمعت همسات رجل يتكلم، دون أن تميز الكلمات. اقتربت أكثر وهي تصغي السمع، فبدأت بعض الكلمات تتضح، وإن ظل أكثرها مبهما:

.. ا.... ب... ن.. ك.... ق.. ت.. ابنك.. ق.. ل.. ابنك... ابنك... قتلت.. ابنك!

***

-١٣-

مدت أسيل يدها لتشغل مذياع سيارة هند، التي انطلقت بهما نحو فيلا شيرين أبو النور لحضور جلسة مكان سعيد؛ فأمسكت هند بيدها قائلة:

- لن نستمع إلى دكتور أحمد اليوم، سيارتي قواعدي.

- كنت أريد الاستماع إلى ياسر شوقي، ولكن كما تريدين.

تراجعت في مقعدها مكملة:

- قريبا سيزول هذا الصداع بإذن الله، وأقود سيارتي، وأستمع إلى ما أريد.

- لم يزُل الألم بعد؟

- يأتيني بصورة متقطعة، أحيانا تزداد قوته حتى أشعر أن عقلي سينفجر، وأحيانا لا أشعر به، ولكني أعرف أنه موجود، ولا تسأليني كيف.

- عندما تنجحين في الاتصال مع ذاتك الداخلية، ستعرفين كل شيء.

- ربما كنت سأفعلها، لو كانت لدي معلمة أفضل.

- وحتى تجدين هذه المعلمة الأفضل، أنت عالقة معي.

تطلعت أسيل إليها، ربتت على يدها قائلة:

- أنت أفضل صديقة ومعلمة يمكن للمرء أن يتمناها يا أميرتي.

صمتت هند للحظات ثم قالت:

- هل تعرفين لماذا تصر سهير على أخذنا إلى عالم الأميرات السعيد في كل مرة؟ أخبرتني إحدى صديقاتها المقربات إن هذه هي الذكرى الوحيدة

لديها عن والدتها.. كانت تضعها في فراشها، ثم تقرأ لها قصص الأميرات حتى تذهب في النوم.

- وماذا حدث؟

- القصة المعتادة، ماتت والدتها أثناء الحرب، هربت مع والدها إلى الخارج، ولم تعد إلا بعد الحرب.

- مسكينة.

- كلنا مساكين يا عزيزتي؛ فنحن أطفال الحرب نحمل ألمًا...

قاطعتها أسيل: وماذا عن شيرين؟

- هل تعرفين ما كنا نقوله أثناء الحرب: عشرة أشخاص خرجوا في الصباح، خمسة لم يعودوا، وأربعة عادوا فلم يجدوا المنزل الذي خرجوا منه، وواحد عاد وجلس مع أسرته فانفجر المنزل بهم.. حسنا، شيرين هي الشخص الحادي عشر. قامت عائلتها بتحويل كل ممتلكاتهم للخارج، وسافروا جميعا، ولم يعودوا إلا بعد انتهاء الحرب بسنوات.

توقفتا أمام الفيلا، وهبطتا من السيارة، سارتا للداخل، ففتحت لهما تالا الباب، وعلى وجهها ابتسامة ترحيب: تفضلا.

دخلتا غرفة الآلة، فوجدتا الباقيات جالسات حولها؛ قالت سهير:

- لو تأخرتما لبدأنا بدونكما.

قالت هند: ولكننا لم نتأخر، لقد أتينا في الموعد.

قالت سهير:

- لهذا قلت لو تأخرتما، يا إلهي أنت مثل موظفي "لا أحد يستمع لي".

مالت أسيل على كتف هند هامسة:

- لولا أنك أخبرتني بقصة أمها، لسرت إليها، وصفعتها على وجهها الأحمق.

كتمت هند ضحكتها، وجلست في مكانها، وجلست أسيل أمام الخوذة ألفا، فقد كان دورها. مرت الخادمة تالا بأكواب الشراب، فشعرت أسيل بالاسترخاء الشديد بعد تناوله.. شعرت بالشيء المحبوس داخلها، وقد أصابه الجنون، وراح يمزق طريقه للخارج بأنيابه ومخالبه، حتى إنها كانت تسمع صوت اصطكاك الأسنان، بينما توزع الخادمة أوراق أغنية البداية عليهن. رددت الأغنية معهن، ولكنها كانت مختلفة هذه المرة، شعرت أنها انتقلت إلى عصور سحيقة، تسمع مرددي الأغنية للمرة الأولى بأصواتهم العذبة القادمة من فجر التاريخ، وهم يقفون في حلقة واسعة محتضنين أيدي بعضهم البعض، وينظرون نحو قرص الشمس الدامي. استغرقت في تأملاتها، فلم تشعر بانتهاء الأغنية إلا بنداء هند: أسيل.. أسيل.

قالت بصوت ضعيف، كأنها تخاف أن تكسر الصورة المرتسمة أمامها:

- آسفة، لم أشعر بنفسي؛ فقد أخذتني الأغنية بعيدا.

قالت شيرين وهي تشعر بالفخر كأنها من كتب الأغنية:

- لا عليك يا عزيزتي، إنها أغنية أخاذة.

وضعت أسيل الخوذة ألفا فوق رأسها، فتبعها الباقون.. ضغطت زر البدء في جانب الخوذة وهي تحاول السيطرة على أفكارها المتناثرة مثل أوراق في مهب الريح، فرأت شريط حياتها يمر أمامها بسرعة أكبر من المعتاد، فأبطأت تنفسها، وهمست لنفسها:

- ركزي على ما يجعلك سعيدة، فقط ركزي على ما يجعلك سعيدة.

شعرت بالأفكار تهرب من بين أصابعها، دون أن تتمكن من القبض على أي شيء، فهمست ثانية: فكري في رامز، فقط فكري في رامز.

رأت رامز واقف في الصالة يلوح بيديه في الهواء، وشريف واقف أمامه، والغضب يملأ وجهه، وتقف هي في الخلف صائحة بشيء ما، فعرفت المشهد.. إنه أقوى شجار خاضوه في حياتهم، الشجار الأخير، توفي رامز بعده دون أن يجدوا الفرصة للتحدث عما حدث. همست: ليس هذا، أي شيء إلا هذا.

قفزت بسرعة في المشهد الذي تلاه، وجدت نفسها واقفة مع شريف ورامز في أحد محلات الملابس، ورامز يحمل قميصا أمام صدره قائلا:

- ما رأيكم في هذا؟

فيهز شريف رأسه قائلا: قبيح، إنه أسوأ من اختيارك السابق.

فيقول رامز: هذا رابع قميص تقول إنه قبيح، يبدو أننا دخلنا إلى مركز الملابس السيئة.

فيقول شريف:

- الملابس ليست سيئة، ولكنها تبدو سيئة عليك، أنت من يفسدها.

فيبتسم رامز قائلا: ربما ولدت لأكون عاريا.

- ربما.

تلتقط أسيل أحد القمصان، تناوله له قائلة:

- لا تستمع له، اذهب وارتدي هذا، وتعال لتريني.

التقط رامز القميص، وسار خطوتين للداخل، ثم توقف في مكانه، وتغير وجهه، ورفع يده مشيرا إلى ركن مظلم. همست أسيل لنفسها:

- هذا لم يحدث من قبل.

ولكن رامز ظل يشير إلى الركن، كأن المشهد تجمد على هذا الوضع، فسارت أسيل نحوه، وهي تشعر بالآخرين وقد فقدوا الاتصال معها، وأصبحت تعيش المشهد وحيدة!

تقدمت نحو الركن المظلم، فبدأ الظلام يرتفع شيئا فشيئا، وجدت نفسها تسير في ممر لا تعرفه، وتدخل غرفة غير واضحة المعالم، لم تميز فيها سوى مكتب ضخم، وظل رجل يجلس خلفه. جلست أمامه وهي تحاول اختراق الظلام لتري وجهه، دون فائدة. بدأ الرجل يتكلم، فلم تفهمه.. كانت حروف متقطعة في البداية، ثم اتضحت الكلمات:

.. ا.... ب... ن.. ك.... ق.. ت.. ابنك.. ق.. ل.. ابنك... ابنك... قتلت.. ابنك!

****

كان الهدوء الظاهري يغلف كل شيء في غرفة قيادة المستمعين؛ أما داخل رؤوس الجالسين، فتصارعت عشرات الأفكار، فلو قدر لأحد أن يستمع إليها، لولّى هاربا من شدة دويها. كيف حدث هذا؟ كيف تم اختراق النظام؟! إن نظام المستمعين يختلف عن أي شيء آخر، فكيف تمكن أحدهم من اختراقه، وماذا يفعل بالضبط هذا البرنامج الغريب؟ هل أثر البرنامج على المستمعين؟ هل نجحوا في إيقافه حقا؟ ماذا سيفعلون الآن؟!......

ولكن أفكارًا مختلفة تماما كانت تدور في رأس الرقم سبعة.. ماذا سأفعل الآن؟ يجب أن أجد وسيلة للخروج من هنا؛ لقد أمر المدير بإغلاق تام للمبنى حتى انتهاء الفحص، فهل سيجدون شيئا يدل عليَّ؟.. لقد مسحت كل آثاري، ولكن مع التكنولوجيا الحديثة لا شيء يذهب للأبد، كل شيء يمكن أن يعود. كيف سأخرج؟ أي عذر يمكن أن أستخدمه ليسمحوا لي بالخروج؟ ماذا سيفعلون بى عندما يعرفون؟ أعتقد أن شنقي على البوابة سيكون أقل ما يفعلونه!

تجمدت الأفكار في رؤوسهم، وتطلعوا إلى المدير الذي دخل الغرفة، وبجواره آخر شخص يتمنون رؤيته في هذا الوقت، نيروز رئيس المكتب التاسع.

من وسط وكالات الأمن والاستخبارات الكثيرة التي أنشئت بعد الحرب، يبرز المكتب التاسع مثل مارد غامض مخيف، لا يعرف أحد قدراته. إن لديه مهمة واحدة، هي مراقبة الوكالات الأخرى، أو بالأحرى التجسس عليها. قال نيروز:

- في الوقت الحالي يقوم فريق من الخبراء بفحص النظام لمعرفة كيف تمت عملية الاختراق ومعرفة الشخص الذي ساعد عليها.

وصمت لحظة تأمل خلالها وجوههم، ثم أكمل:

- وفريق آخر يقوم بفحص الجزء الذي استطعنا الحصول عليه من الملف الدخيل، لمعرفة ماذا يفعل بالضبط.

جلس نيروز على أحد المقاعد، وتطلع إلى أيمن، فعرف الباقون أن عاصفة أخرى على وشك الاشتعال، فهناك عداء خفي بين أيمن ونيروز، لا يعرف أحد سببه، ولكنه كافٍ لجعل الدماء تتناثر في كل مرة يلتقي الرجلان. قال نيروز: هل لدى أحدكم أية فكرة عما حدث هنا أيها السادة؟

صمت لحظة واحدة، وأكمل:

- هل تعرفون ماذا كنت أجد عندما أبحث عن تصنيف المستمعين على قوائم المخترقين في كل أنحاء العالم؟

قال كريم: يستحيل اختراقه.

قال نيروز:

- لا شيء.. لأن مركز المستمعين غير موجود على قوائم المخترقين، لأنه ببساطة مركز أسطوري قادم من عالم آخر، هم غير قادرين على فهم قواعده أو التعامل معها.

صمت لحظة ركز فيها بصره على أيمن، ثم أكمل:

- والآن هل لديكم فكرة عما فعله بنا هذا الهجوم؟

قال وسام: ولكننا أوقفنا الهجوم، وهذا سيؤكد قوتنا....

رماه نيروز بنظرة حادة، فابتلع باقي كلماته.. قال نيروز:

- أنت لا تؤكد قوتك بوقف الهجوم، أنت تؤكد قوتك بألا يهاجمك أحد.

قال كريم: لقد فعلنا كل ما يمكننا.

قال نيروز: كل ما يمكنك لا يكفي.

طرق المدير على المكتب أمامه طرقتين، فعاد الصمت يغلف كل شيء، حتى قطعه بقوله:

- كلنا يدرك حجم الأمر الذي حدث هنا، ونحاول التعامل معه للخروج بأقل قدر من الخسائر والعمل على ألا يتكرر ثانية.

نظر نيروز إلى أيمن قائلا: سيتكرر ثانية طالما مازال المسئول في موقعه.

احتقن وجه أيمن، حتى ظنه الباقون سيقفز نحو نيروز ليلكمه في وجهه، ولكنه ظل ثابتا في مكانه، فقال حاتم:

- نتائج الفحص الأولية واختبارات بطاقات الذاكرة كلها جيدة، لا يوجد أي تأثير على المستمعين.

سمعوا طرقات على الباب، ثم دخل أحد رجال نيروز، ومعه أوراق مدها نحوه، فقال نيروز: أخبرني بالنتائج النهائية.

صمت الرجل للحظات ثم قال:

- لقد كنت محقا، هناك شخص من الداخل ساعد في عملية الاختراق.

صاح كريم: من هو؟ من هو هذا اللعين؟

أكمل الرجل:

- ولكن هذه ليست المشكلة الكبرى، المشكلة الكبرى في البرنامج الذي حاول إدخاله للنظام.

- لماذا؟ ماذا يفعل؟

- إنه لعكس تأثير برنامج المسح...

صاح وسام: إنه لجعل المستمعين يتذكرون أيها الحمقى.

***

-١٥-

شعرت أسيل بيد تضرب على وجهها برفق، وصوت هند يناديها ممتزجا برائحة جميلة: أسيل... أسيل.

فتحت عيناها ببطء، لتجد الباقيات تحطن بها، وقد بدا الذعر جليا على وجوههن. حاولت الاعتدال، ولكنها شعرت بالدوار، فظلت على حالها. جاءت تالا بكوب من العصير، تناولته شيرين منها، ووضعته أمام أسيل قائلة:

- لقد اتصلت بالطبيب، إنه قادم الآن.

تحاملت أسيل على نفسها، ونهضت وهي تتكئ على هند قائلة:

- لا داعي لذلك، أشعر أنني بخير، شكرا لك، وآسفة على إفساد جلستكن.. أريد أن أعود لمنزلي.

رشفت رشفة صغيرة من كوب العصير، لتتغلب على الطعم المر الذي ملأ حلقها،ثم قامت تترنح متجهة للخارج، حين سمعت سهير تقول:

- كنت أعرف أن شيء ما سيحدث منذ جاءت الفتاة الجديدة، هذه الفتاة فأل سي.

ساعدت هند أسيل على ركوب السيارة، وقالت:

- هل أنت بخير؟

- نعم، أنا بخير.

- هل تريدين أن أتصل بشريف؟

- لا.

- هل تريدين أن نذهب إلى المستشفى قبل العودة للمنزل؟

- لا داعي، أشعر أنني أفضل، أريد العودة للمنزل والاستلقاء قليلا.

- حسنا.

انطلقت هند بالسيارة قائلة: ما الذي حدث في الداخل؟

- لا أعرف، في لحظة كنت أعيش مع شريف ورامز، وفي اللحظة التالية وجدتني ملقاة على الأرض، وأنت تناديني لأستيقظ برائحة جميلة.

- إنه عطر شيرين، استخدمناه عندما فقدت الوعي. كل شيء كان يسير على ما يرام، وفجأة شعرنا باضطراب غريب، و انفصلنا عنك لنصبح خارج العملية.. رأينا جسدك يهتز بشدة كأنك تعانين ألما قاسيا، فصحنا بتالا أن تقوم بإنهاء العملية.

التقطت أسيل نفسا عميقا، وقالت: الحمد لله.

مدت هند يدها نحو المذياع قائلة: تريدين أن تستمعي إلى دكتور أحمد.

فعلت ضحكة أسيل متفاجئة، وهي تقول: ليس الآن.

- يا إلهي، أنت مريضة فعلا.

وصلتا للمنزل، فساعدتها هند على الدخول والاستلقاء على الأريكة، قالت: هل تريدين شيئا آخر؟

- شكرا لك،أريد أن أستريح قليلا، وسأكون بخير.

جلست هند على الأرض بجوارها، فأمسكت أسيل يدها، وأغمضت عينيها.. همست هند: لا تقلقي يا صغيرتي، فأنا بجوارك.

جاهدت أسيل لتجمع أفكارها المتناثرة، وتنظمها معا كما علمها شريف، لترى الصورة الكاملة لما يحدث معها .. جلسة المسح القصيرة.. جلسة الاستماع القصيرة غير المجدولة.. الصداع العنيف الذي التهم عقلها.. شيء ما يحاول الخروج من عقلها.. تعرفه ولكنها لا تعرفه... الأحلام الغريبة.. ما حدث في نادي سعيد.. الشخص المجهول.. أنا قتلت ابنك.. أنا قتلت ابنك.

هناك خيط واحد يربط كل هذه الأفكار معا، يستحيل حدوثه، ولكن عند وضعه تشعر بكل شيء يسقط في مكانه الصحيح، والقطع تتجمع لتكون الصورة الكاملة.

دخل شريف للمنزل، فتطلعت إليه هند للحظات، ونهضت من مكانها. قال شريف: مرحبا هند كيف حالك؟ وكيف حال مهند؟

- بخير

سارت للخارج قائلة لأسيل: سأذهب الآن، كلميني إذا احتجت أي شيء.

ردت أسيل: شكرا لك.

خرجت هند، واتجه شريف للداخل، فنهضت أسيل متحاملة على نفسها، وأسرعت خلفه. وجدته يستعد لأخذ قرص الازرولدين، فأمسكت يده قائلة: أحتاج للتحدث معك.

ولكن شريف حرر يده قائلا: لقد خضنا هذا الحديث من قبل.

أمسكت أسيل يده قائلة: الأمر هام جدا.

ثم تطلعت إلى عينيه مكملة: أنا أعرف من قتل ابننا.

تجمد المشهد للحظات.. ثم تراجع شريف للخلف، وجلس على طرف الفراش، وسقط القرص من يده. خمنت أسيل أنه يحتاج وقتًا ليستوعب الأمر، فجلست صامتة بجواره حتى قال:

اتصلي بفارس، يجب أن أوقف الازرولدين.

***

هل سيتمكنان أخيرا من الوصول إلى قاتل ابنهما؟ بعد ثلاث سنوات!

تحركت العبارة داخل عقل أسيل، وراحت تصدمه في كل مكان مثل كرة ملتهبة ثائرة، وهى تجلس على الأريكة، مسندة رأسها إلى كفيها، منتظرة شريف أن يتحرر من الازرولدين، بعد تناوله العقار المضاد الذي أحضره فارس. العملاء الميدانيون يحصلون على جرعات دائمة من الازرولدين والعقار المضاد، لاستخدامه في المهام المختلفة، لذا فهو يمتلكه. في البداية، اعترض فارس قائلا:

- لا يمكنك أن توقف الازرولدين هكذا دون الرجوع للطبيب، أنت تعرف ما يمكن أن يحدث بدونه.

- لن يحدث شيء، أعدك بهذا، يجب أن تساعدني، أحتاج أن أوقفه الآن.

- حسنا، سنستشير دكتور نوح، ونرى رأيه.

- لا يمكنني استشارة أحد، فلا يمكن أن يعرف أحد، وأنا أحتاج أن أوقفه الآن، وأعرف أنك الوحيد القادر على مساعدتي، فلديك العقار المضاد.

- لماذا تريد أن توقفه بهذه الشدة؟ ولماذا السرية؟

- لا يمكنني أن أخبرك، ولكنني سأقوم بشيء ما، لا أستطيع فعله والازرولدين داخل رأسي.

- إذا كان الازرولدين يوثر على تفكيرك، فعليك أن تخبر دكتور نوح.

- إنه لا يوثر على تفكيري، ولكنه يضع قضبانًا على عقلي، وما أنا على وشك القيام به يحتاج إلى طاقتي الكاملة.

- إنه يضع قضبانًا على عقلك حتى لا تؤذي نفسك.

صاح شريف:

- لا تظن أنك أو نوح أو أي شخص تعرفون ما أحتاج أكثر مني.. أنا من ذهب إليه منذ البداية، وأنا من أخبرك الآن أنني أحتاج لإيقافه، فهل ستساعدني أم لا؟

استمر الحوار بينهما، حتى رضخ فارس وأعطاه العقار المضاد، وأخبره أنه سيحتاج لست ساعات من الراحة التامة، حتى يوقف تأثير الازرولدين نهائيا. نظرت أسيل في ساعتها.. مرت ثلاث ساعات وبقيت ثلاث، ثم يبدءان البحث عن القاتل.

***

الجزء الثاني

- تريد أن تعرف لماذا فعلت هذا؛ حسنا سأخبرك.

نطق وسام بالعبارة، وهو يتطلع إلى أيمن الواقف أمامه، وبجواره نيروز، داخل غرفة الاستجواب الخاصة في مبني المستمعين. أكمل:

- لقد فعلت هذا لأنني لم أستطع أن أرى جريمة أخرى تمر بدون عقاب. ليس بعد كل ما رأيت، ليس بعد هروب سمير فهمي وأعوانه، هل رأيت النظرة في عيني مراد عثمان في التسجيلات التي أذاعها منافسه؟ هذا الرجل لم يكن يبحث عن السكينة والهدوء، هذا الرجل كان فخورا بما فعل، ويستعد لتكراره ثانية، والعشرات غيره يفعلون نفس الشيء. هل لديك فكرة كم شخص طلب المستمعين ثم اتضح أنه مجرم؟ بالطبع لديك؛ فأنت تعرف كل شيء، ولكن هل تهتم؟ لا أعتقد.

قال أيمن:

- وجعل المستمعين يتذكرون، والفوضى الناتجة عن ذلك سيحل هذا، ويمنحك السلام الذي تبحث عنه؟ أنت لن تحصل على السلام أبدًا؛ لأنك لا تستحقه.

قال وسام:

- لا تتحدث كأنك تعرف ما أستحقه، وما لا أستحقه؛ فليس لديك أية فكرة عما مررت به. ليس لديك فكرة عن رؤية والدتك تقتل أمامك، والعيش مع الرجل الذي قتلها، بل وحبه لإنقاذ حياتك مرات ومرات وسط جحيم الحرب المستعرة، التي تعلم جيدا أنك لن تنجو فيها لدقيقة واحدة.. ليس لديك أية فكرة عن كم الجرائم التي رأيتها تمر بدون عقاب، ولن أدع الأمر يحدث مجددا.. ليس وبإمكاني تغييره.

قال أيمن:

- كلنا مررنا بالكثير، ورأينا أهوالا لا تحتمل، ولكننا لا نريد تدمير كل شيء لمنح أنفسنا سلامًا زائفا.

قال وسام:

- ومن تحدث عن تدمير أي شيء؟! دعني أخبرك بما كان سيحدث بالضبط لو تذكر المستمعون.. كنتم ستطلقون إشارة الطوارئ، تختلقون أية قصة عن أمر ما يحدث، ثم تستجوبون المستمعون عن كل ما رأوه، بل تعتصرونهم عصرا حتى آخر قطرة، وتنطلق فرقكم الخاصة للقبض على جميع من اعترفوا بجرائمهم. أترى؟ لن تكون هناك أية فوضي، فأنتم أيها القوم دقيقون كالساعة، وأراهن أن لديكم عشرات الخطط للتعامل مع كل شيء.

قال أيمن:

- وماذا عن إطلاق إشارة الطوارئ، وقتل كافة المستمعين الذين تذكَّروا؟

قال وسام: لن تفعلها.

قال أيمن:

- هل تظن أن المستمعين عبارة عن مجموعة من الأشخاص يتحدثون، وآخرين يستمعون لهم فحسب؟ إذا كنت تظن هذا، فدعني أخبرك أنك لم تتعلم شيئا طوال عملك معنا.

قال نيروز:

- حسنا، دعنا من هذا الكلام واخبرنا كيف فعلتها، ومن هم شركاؤك، فنحن نعلم أنك لم تفعلها بمفردك.

قال وسام:

- ولماذا يكون لدي شركاء؟! أعرف أنك تجده صعب التصديق، أن وسام بندروسام، القرد كما تحبون أن تدعوه أذكى منكم جميعا، وأذكى من

خبراء المكتب التاسع الذين تحضرونهم دائما لفحص نظام المستمعين، ثم يخبرونكم أن النظام مؤمن تماما، ولا يوجد به أية ثغرات. في المرة القادمة أخبرهم أن القرد قد فعلها.

قفز أيمن من مقعده، وجذبه من تلابيبه صائحا:

- هل تعرف ماذا سأفعل بك أيها القرد اللعين؟

حرر وسام ملابسه، واعتدل في مقعده قائلا:

- أنا لست خائف منك.. هذا صحيح؛ أنا لست خائفا من المرعب داغر الأسود، ومستعد لأي شيء.

قال نيروز: وماذا عن دكتور أحمد؟

صمت وسام للحظات ثم قال: ماذا عنه؟

قال نيروز: نعرف أنه ساعدك في العملية بما فعله.

قال وسام: أنت لا تستمع أبدا.

قال نيروز:

- سيتم إرسالك إلى أحد السجون الخاصة حيث لن ترى الشمس ثانية، لذلك يجب أن تبدأ الحديث.

قال وسام:

- وهل تعتقد أنني لم أعرف هذا، بل وتمنيته؟ إنني لم أعد أستطيع أن أرى جريمة أخرى تمر دون عقاب، حتى لو كانت جريمتي.

قال نيروز: سترى ما سنفعل بك أيها المجرم الخائن.

قال وسام:

- لست خائنا، فأنا لم أفرط في أي من المعلومات التي أعرفها، والبرنامج المستخدم لا يعرفه أحد غيري، كانت نسخة واحدة تم حذفها بعد

الهجوم. وأما مجرم، فأنا أعرف أن ما فعلته كان جريمة، ولكني لست نادما عليها، فقد كانت لأسباب أعظم.

قال نيروز: هكذا تكلم كل الخونة.

وأكمل أيمن: وستتلقى عقابا لم تحلم به في أسوأ كوابيسك.

قال وسام:

- دعوني ألخص لكم كل شيء، حتى لا نظل ندور في دوائر مفرغة، وليكن هذا آخر ما أقوله.. قمت بعمل البرنامج وحدي؛ لأنني أذكى منكم جميعا، وليس لدي شركاء، ولم أخرج أية أسرار، ولم أفعل ما فعلت إلا ليحصل كل شخص على ما يستحقه.

نهض نيروزوأيمن، وسارا للخارج، وقال أيمن:

- وأنت أول شخص سيحصل على ما يستحقه.

غادرا وهما يسمعان وسام يتمتم بأغنية من طفولته، تتحدث عن الحرب، ويحرك إبهامه فوق باقي أصابعه في حركة تشبه التسبيح.. شاهده المديرعبركاميرات المراقبة، فضغط أحد الأزرارأمامه قائلا:

- استدعوا يوسف حمزة

***

-١٨-

وقف يوسف أمام قبر زوجته يتطلع إليه، ثم اقترب منه، ومسح بيده عليه قائلا:

- اليوم هو ذكرى زواجنا، وعيد ميلاد ريناد السابع.. لقد قدَّر الله لي أن أحصل على فتاتيَّ المفضلتين في يوم واحد.

هربت دمعة من عينه، مسحها بيده، وأكمل: وأُخذتا مني في يوم واحد، لحظة واحدة كانت الفرق بين كل شيء. كان يتحدث مع وزوجته عبر الهاتف، وهي عائدة مع ريناد من تسوُّقهم في المركز التجاري، يتذكر كلماتها الأخيرة: نحن في الطريق،.....

وانقطع الاتصال، وعرف بعدها أن سائق سيارة نقل دهس السيارة بهما فقتلهما في الحال. قالوا إن السائق كان مخمورا، وأنه هرب، ولكنهم سيبحثون عنه، وأشياء أخرى كثيرة لم يسمعها، فقد مثلت أمامه حقيقة واحدة: لقد فقد زوجته وطفلته، وأصبح وحيدا ثانية.

وحيد، هذه هي الكلمة التي تصف حاله دائما.. حتى مع الآخرين يشعر أنه وحيد، لا يفهمهم ولا يفهمونه، ولا يستطيع الاندماج معهم كما يراهم يفعلون بمنتهى السهولة.. حتى قابل زهرة، فتغير كل شيء.. كانت تفهمه دون أن يتكلم.. تعرف ما يريده قبل أن يعرف هو أنه يريده. ولكن زهرة جاءت بعد تغير يوسف، أصبح لديه الكثير من الأسرار، التي لا يستطيع التحدث بها حتى بينه وبين نفسه.. تسأله زهرة عن عمله، فيجيبها:

- أنا أعمل في أحد الشركات الخاصة.

ولكنها لا تصدقه، وتظل تلح عليه، فيقول: هل تثقين بي؟

- هل هذا سؤال!!

- إذا فكفِّي عن سؤالي، حتى لا أضطر إلى قول المزيد من الأكاذيب.

ولكنها عرفت جزء كبيرا من الحقيقة بمصادفة بحتة. كانت تسير معه في أحد الشوارع، عندما استوقفهم ثلاثة أشخاص، يحمل اثنان منهم المِدْي، ويشير الثالث نحوهما بمسدس قائلا: أخرج ما معك من مال بسرعة.

لم يبد يوسف خائفا أو مهتما؛ قال:

- أنصحك أن تترك سلاحك، وتذهب بعيدا الآن بينما يمكنك هذا.

- ماذا؟!

قالها الرجل وتبادل ضحكة ساخرة مع رجاله، وانقض على يوسف الذي قابله بلكمة واحدة حطمت أنفه، فسقط فاقد الوعي. تبادل الآخران النظرات، وانقضا عليه، فتغلب عليهما بنفس السرعة، ولم يكن هذا هو الأمر الغريب في هذه الليلة، فبعد مرور دقائق قليلة، ظهرت مجموعة من الرجال في ملابس سوداء، كأنهم برزوا من العدم، اطمأنوا على يوسف، وحملوا الثلاثة، وذهبوا، عادا للمنزل، فلم تتكلم زهرة، فاقترب يوسف منها قائلا: حسنا سأخبرك بالحقيقة، أنا أعمل في المكتب التاسع.

- ما هو المكتب التاسع؟ ولماذا لم تخبرني بهذا منذ البداية؟

- يكفيك أن تعرفي أنه وكالة أمنية على أعلى درجات السرية، لا يعرف بشأنها إلا القليل، وقد أخفيت هذا الأمر عنك لحمايتك.

- حمايتي وأماني أن أكون بجوارك، أشعر أنك تشاركني حياتك، ولا تخفي عني شيئا.

ابتسم يوسف، وقبَّل يدها ورأسها قائلا: لم تكن لي حياة حتى قابلتك.

والآن رحلت زهرة، ومعها قرة عينه ريناد، وتركتاه وحيدا، يتجرع ألم وحدته في صمت.. وحده.

جرب ذات مرة، بعد نصيحة عدد من الأصدقاء، وقبل لقاء زهرة، إخراج مشاعره على الورق في صورة رواية، تتحدث عما عاشه ورآه. أمسك قلمه، وجلس يكتب، ويكتب، ويكتب.. شعر بينابيع غريبة من الطاقة تتفجر داخله، وتسري عبر عروقه، ثم عبر قلمه، إلى الورق الذي سوَّد الكثير من صفحاته. وبمساعدة بعض أصدقائه، نشر الرواية، وجلس ينتظر آراء القراء. ولكنه لم يتصور ما كان قادما نحوه.. سيل من التعليقات السيئة انهمر عليه بطريقة أعجزته عن الرد، فكتب:

- لقد عرفت أنها سيئة، ولن أكررها.

ولكن السيل لم يتوقف، بل ازدادت قوته، فكان يسأل نفسه، لماذا لا يتجاهلها القراء؟! لماذا لا يسمع القارئ أنها سيئة فيتركها؟ لماذا يقرأها هو الآخر، ثم يصفعه بسبة أخرى؟!.....

عندما يتذكر هذا الأمر، يشعر بالدهشة الشديدة، فقد أخذته الرواية السيئة إلى مكان لم يعلم حتى أنه موجود، وقابل أشخاصًا لم يتصور أنهم حوله، وأخرجت قدرات لم يكن يعرف أنه يملكها..

كان يجلس في منزله، عندما سمع طرقات على الباب، فنهض ليفتح، فوجد عملاقين في ثياب سوداء أمامه، تطلعا إليه للحظات ثم قال أولهم:

- أنت مطلوب.

قال يوسف: ماذا؟ أنا! لماذا؟ أين؟

قال الثاني:

- جهة أمنية عليا، ستعرف كل شيء هناك، والآن تعال معنا من فضلك.

من فضلك! قالها الرجل، ولكنه واثق أنه لم يعنِها.. إنه لا يملك الاختيار في أن يذهب معهما. ركبوا سيارة سوداء معتمة النوافذ إلى جهة لم يعرفها، غادروا السيارة وساروا لداخل المبني، اقتاداه عبر سلسلة من الممرات المعقدة، ثم تركاه أمام أحد الأبواب المغلقة بعد أن طرقه الأول.

- ادخل

دخل يوسف، وكان هذا لقاءه الأول مع الرجل الغامض، صانع الفجوات، الظل، أو أي اسم من الأسماء التي يدعونه بها. عندما سمع يوسف كمية الأساطير المنسوجة حول الرجل، لم يصدق أنه جلس معه مرتين.

غرفة واسعة تحتوي على مكتب ضخم، وعلى مقعد خلفه يجلس الرجل، ولكن إضاءة الغرفة منخفضة، فلا يمكنه تمييز ملامحه. ولكن يوسف ميز نسخة من روايته على المكتب أمامه!، أشار له الرجل بالجلوس؛ فجلس على مقعد أمامه، فقال الرجل: مرحبا بك معنا يا سيد يوسف، أشعر أن لديك الكثير لتقدمه.

تنحنح يوسف للحظات، خرج صوته ضعيفا:

- أقدمه لمن؟ أنا لا أعرف أين أنا؟

قال الرجل: ستعرف كل شيء في حينه.

ثم التقط الرواية، وأشار بها نحو يوسف الذي فكر، لا يمكن أن يكون الرجل استدعاه إلى هنا ليخبره أن روايته سيئة هو الآخر! قال الرجل:

- أنت جيد.

جاهد يوسف ليبتسم، قال: أنت تعتقد أنت الرواية جيدة!

هز الرجل رأسه نافيا، قال:الرواية سيئة، إذا لم تكن قد فهمت هذا مع كل التعليقات التي جاءتك، فأنت في مشكلة حقيقة.

ابتلع يوسف ريقه دون تعليق، ولكن الصداع القديم عاوده.. لست أول ولا آخر من يكتب رواية سيئة، فلماذا يفعل الجميع معي هكذا؟! لماذا يتصرفون كأني عدوٌ للدولة، وواجبهم المقدس تحطيمي؟.. قال الرجل:

- أنت جيد والرواية الأصلية جيدة؛ ولكن هذه الرواية الموجودة أمامي سيئة للغاية.

سأل يوسف: أي رواية أصلية؟! لم أكتب غير هذه الرواية.

أشار الرجل إلى رأسه قائلا:

- بعد انتهائك من كتابة الرواية، هل شعرت بوجود فجوة كبيرة بين المشاهد في عقلك وعلى الورق؟ المشاهد في عقلك بالتأكيد أفضل بكثير منها على الورق، تتمنى لو تستطيع أن تُري القراء المشاهد كما تراها أنت، ولكنك لا تستطيع.. هناك فجوة كبيرة بين عقلك وورقك.

لم يجب يوسف، ولكن النظرة على وجهه أكدت أن الرجل يخطو في الاتجاه الصحيح. واصل الرجل:

- حسنا، أنا فعلت.. لقد عبرت الفجوة بطريقة عكسية، ورأيت الرواية الأصلية داخل عقلك، وهي جيدة جدا، كما إني أعتقد أن لديك ما هو أفضل بكثير.

قال يوسف: أنا حقا لا أفكر في كتابة رواية أخرى.

قال الرجل: ومن تحدث عن كتابة رواية أخرى؟ هل لأن لديك طريقة جيدة في جمع الأجزاء معا حتى المتنافر منها، وتستطيع خلق شخصيات من العدم، تمنحهم حياة خاصة، تلقي في طريقهم العقبات، وتقودهم حتى النهاية التي تريدها، تعتقد أنك خلقت لتكون كاتبا؟

لم يجد يوسف ما يقوله، فأكمل الرجل:

لقد سرقت الكتابة حياة كثيرين فكروا بهذه الطريقة. ظنوا أنفسهم فنانين، ولكنهم لم يعرفوا أن مسرحهم الحقيقي ليس الورقة والقلم، وإنما مسرح مختلف تماما. أنت مثلا يا يوسف فنان حقيقي، وأعتقد أنه مقدر لك أن تفعل أشياء عظيمة، ولكن عليك أولا أن تجد مسرحك الحقيقي.

استجمع يوسف شتات نفسه، وسأله: وما هو مسرحي الحقيقي؟

قال الرجل: هذا ما ستعرفه عندما تقابلني للمرة الثانية، ولكن عليك أن تثبت نفسك أولا عبر الكثير من المراحل لتصل هنا ثانية.

نهض الرجل معلنا انتهاء اللقاء، ففتح الباب، وأشار أحد الضخمين ليوسف بالخروج. وظل يوسف في منزله لا يأكل أو يشرب أو يفعل أي شيء، أو ينام حتى.. فقط يفكر في هذا اللقاء، ويسترجع كل كلمة قالها الرجل، ويفكر في معناها عشرات المرات، حتى جاءه الاتصال يخبره بالتوجه إلى مكان خاص لدورته التدريبية الأولى!

خاض يوسف التدريبات بحماس شديد؛ ليقابل الرجل، ويعرف ماذا قصد. ولكن الرجل لم يظهر، حتى أخبره مدربه أنه سينتقل للعمل في المخابرات العامة. توقع يوسف أن الرجل سيظهر في أية لحظة، ولكن مرت ثلاثة أعوام دون أن يظهر. ثم صدر الأمر بنقله للمكتب التاسع، بعد عمله المميز الذي أثبت فيه دقة اختيار الرجل، فجهز يوسف للحظة التي سيقابله فيها، ولكن عامان آخران مرا، حتى أن يوسف سأل نفسه هل حدث الأمر حقا، هل قابل الرجل وجلس معه، أم أنه يتخيل!.. بالطبع يتخيل، ولكن زيارة الضخمين أقنعته أن الأمر حقيقي للغاية، وتغيرت حياة يوسف تماما بعد اللقاء الثاني؛ فقد عثر على مسرحه الحقيقي، وعرف الدور الذي خلق من أجله.

لا يصدق يوسف أنه احتفظ بكل هذا في صدره، لم يخرجه لأي شخص، حتى لزهرة، إلا بعد أن ماتت؛ فأصبح يأتي إلى قبرها، ويجلس أمامه، ويحكي لها كل شيء، بصوت داخلي لا يسمعه باقي الأموات، ولكنه يعرف أنها تسمعه.. فدائما كانت تسمعه، حتى دون أن يتكلم. تهرب عبارة واحدة من فمه: أنا الفنان، فنان جماعة المحركين، رأى سيارة سوداء مميزة تقترب منه، توقفت بجواره، وفتح بابها، وخرج أحد الضخمين قائلا: يريدونك.

ابتسم يوسف، وركب في المقعد الخلفي بجوار الضخم الثاني، وانطلق الأول بالسيارة.

-١٩-

يجب أن أخرج من هنا.

ارتسمت العبارة في عقل شريف، ففتح عينيه، وتأمل المكان حوله.. كان يرقد على فراشه في غرفته، التي تغيرت تماما عما يذكر قبل البدء في تناول الازرولدين. يذكر أنها كانت تحوي الكثير من المفروشات والستائر الملونة، ولكنها الآن تحوي لونين فقط، الأبيض والأسود.. حتى جو الغرفة نفسه أصبح ثقيلا كئيبا، كأن الهواء يجثم على صدره. نهض من فراشه، فشعر بالدوار يحيط بعقله؛ فجلس ثانية. أخبره فارس أن هذا الدوار من أعراض انسحاب الازرولدين، وأنه سيزول بعد فترة قصيرة.

فقدت الغرفة الكثير.. اختفت اللوحات والزينات من على الحوائط، واختفت أدوات التجميل الخاصة بأسيل من أمام المرآة، اختفى كل مظهر للحياة من الغرفة؛ فأصبحت قبرًا تأوي إليه جثتين في المساء، وتخرجان في الصباح، جثة اختارت الهرب بعيدا، وجثة ثانية تشعر بكل شيء، وتتجرع آلامها لحظة بلحظة. تمتم شريف: أسيل، يا لك من مسكينة!

نهض مغالبا الدوار الذي بدأ يزول، وسار نحو الحمام الملحق بالغرفة، فتح بابه، ووقف يتأمله.. هنا وقف يتطلع إلى صورته في المرآة ويبكي ويخبرها أن رامز ابنه الوحيد قد مات.

- يجب أن أخرج من هنا، ولكن لم يعد هناك طريق للخروج..

فتجيبه الصورة: بقي طريق واحد.

رأي يده تخرج من المرآة، وتلتقط موسي الحلاقة تناوله له، وتشير إلى يده إشارة واضحة.. فالتقط الموس، وأمسكه بيده اليمنى، وقبض يده اليسرى، وهوى عليها بضربة واحدة سريعة، فقطع شرايينها.. فعل المثل مع يده اليمنى، وجلس تاركا الحياة تنسحب منه.

لم يعرف ما حدث بعدها، ولم تتحدث أسيل عنه ثانية.. استيقظ، ليجد نفسه راقدا في الفراش في إحدى المستشفيات التابعة للمكتب التاسع. لم يتكلم كثيرا؛ كان يجيب القادمين بكلمات قليلة ليصرفهم سريعا، وفي داخله يعرف أنه سيفعلها ثانيا وثالثا، لن يتوقف حتى يخرج من هنا، من الحياة كلها. ولكن دكتور نوح جاء ومعه الخلاص، ممثلا في عقار الازرولدين. تناول العقار غير مصدق أنه سيغير أي شيء، ولكنه كان مخطئا، فمع أول قرص شعر بهمومه كلها تختفي، شعر بآلامه وأحزانه تتلاشى مثل الدخان، لم يعد يهتم بما حصل عليه أو خسره، فقط يعيش حياته بطريقة آلية، ويمارس عمله بمنتهى الدقة كما اعتاد؛ فالعقار يؤثر على المشاعر فقط، أما قدرته على العمل فبقيت كما هي لم تتأثر، والآن، مع توقف العقار، يرى ما فاته، وما وصل إليه حالهم منذ وفاة رامز.

غسل وجهه، ودفع رأسه تحت الماء.. راقب الماء المنساب أمام عينيه، وخرج. سار نحو خزانة الملابس وفتحها؛ ليجد اللونين الأبيض والأسود قد زحفا على كل ملابس أسيل.

- يجب أن أخرج من هنا.

ارتسمت العبارة في عقله ثانية، ومعها عاصفة من الذكريات. يشعر شريف أن هذه العبارة هي التي حددت مسار حياته بأكملها، مذ سمعها أول مرة.. كان يجلس مع والده ووالدته؛ يتابعون نشرة الأخبار في صالة منزلهم، ويتابعون أخبار الحرب المشتعلة في البلاد، وظهر وجه عسكري على الشاشة، يلقي على المواطنين تعليمات السلامة اللازمة، ويخبرهم بضرورة تجنب بعض المناطق، وذكر بعض المناطق الآمنة التي لم يمتد القتال إليها، ومنها منطقتهم، فتنهدت والدته في ارتياح؛ ولكنه فوجئ بوالده ينهض قائلا:

- يجب أن نخرج من هنا.

استنكرت والدته: لماذا؟! لقد سمعت الرجل، لا يوجد قتال في منطقتنا.

جذبه والده من ذراعه، وأشار لوالدته قائلا: يجب أن نخرج من هنا.

لم تجادل والدته، ونهضت قائلة: حسنا، سأحزم أغراضنا.

قال والده: لا يوجد وقت، يجب أن نخرج بسرعة.

أسرع شريف نحو الباب، فعلى الرغم من صغر سنه كان يعلم أن والده محق، وطالما قال يجب أن نخرج من هنا بسرعة؛ فهذا يعني أن هناك كارثة على وشك الحدوث. يعمل صحفيا في واحدة من أشهر الجرائد اليومية، واشتهر بتحقيقاته النارية، ومقالاته التي يتنبأ فيها بالكثير من الأمور؛ حتى أطلقوا عليه العراف. أكثر من مرة ذهب معه لحفل لتكريمه؛ فسمع أحد الأشخاص يسأله: ألن تخبرنا بسرك؟ كيف تعرف الأخبار قبل وقوعها؟

أسرع والده للخارج، وقفز داخل سيارته، وأدارها، ونادى شريف ووالدته؛ فأسرعا نحوه، وقبل أن يصلا، هوت قذيفة على السيارة؛ فنسفتها به. لقد فشل العراف في معرفة أهم خبر في حياته، خبر وفاته!

دفع الانفجار شريف ووالدته للخلف، تغطيهما الشظايا الناتجة عن انفجار أجزاء من واجهة المنزل، وعلا صوت مزيد من القذائف في الخارج، تبعها سيل من الرصاصات؛ فنهضت والدته، والدماء تنزف من جراح متفرقة في جسدها، وجذبته، فنهض مقاوما آلامه وجراحه، وسألها: ماذا يحدث؟

لم تجبه والدته وهي تعدو نحو الباب الخلفي للمنزل، لتخرج بسرعة. فتحت الباب، فانطلق الرصاص نحوها، فتراجعت مغطية شريف بجسدها، وسقطت بجواره والدماء تنزف من أماكن الرصاصات في صدرها، الذي طالما ضمته إليه وربتت على رأسه قائلة: كل شيء سيكون على ما يرام.

ترى، هل اخترق الرصاص قلبها الكبير المملوء بالحب؟ سيخرج الحب منه، ويفيض ليملأ المكان؛ فيتوقف المقاتلون عن القتال، ويعطي كل منهم للآخر زهرة، ويسيروا معا.

لم يعرف شريف كم مر عليه وهو جالس بجوار جثتها يتطلع إليها غير مصدق، غير قادر على البكاء، ولا استيعاب ما حدث، فكأن والده قال "يجب أن نخرج من هنا" وسقط ميتا، فتبعته والدته. رأى الرجل العسكري الواثق

الهادي يتحدث أمامه بمنتهى الهدوء، ويحدد المناطق الهادئة والمشتعلة، كأنه يحدد من يعيش ومن يموت.. انكفأ على وجهه يبكي بجوارها، حتى شعر بذراعين يحملانه؛ فرفع بصره، ليجد عمه يضمه إلى صدره، فتمسك به بكل قوته، وانكسرت صمامات الدمع في عينيه، يخشى أن يفقده هو الآخر.

حمله عمه للخارج؛ فأبصر شريف حيه الهادئ وقد تحول إلى قطعة من الخراب، تملأها النيران والدخان والدماء، وتغطي أرضها جثث لا تجد من يحملها، وصوت طلقات الرصاص المتبادلة بين المسلحين لا ينقطع. وضعه عمه في المقعد الخلفي، وجلس على مقعد القيادة، وانطلق بالسيارة، مرت لحظات من الصمت، ثم قال عمه:

- لقد سمعتك يا بني، لقد شعرت بك، وعرفت أنك تحتاجني.

انطلقت الرصاصات خلف السيارة؛ فزاد عمه من سرعتها قائلا:

- يجب أن نخرج من هنا بسرعة.

قال شريف: لقد مات أبي وأمي و....

غلبه البكاء فأذاب باقي عبارته؛ فلم يفهم منها عمه سوى كلمة واحدة: "لماذا؟"!

مسح عمه دموعه قائلا: لقد بدأ الجنون يا بني، وسَيَلتهِم كل شيء.

قال شريف: أتمنى أن يموتوا كلهم.

قال عمه: اطمئن يا بني؛ سيفعلون، وبأيدي أقرب الناس لهم؛ فكل شخص شارك في هذه الحرب سيقتل أقاربه ومعارفه، أو يقتله أقاربه ومعارفه حتى لا يبقى أحد.

صمت شريف لدقائق، ثم تذكر شيئا: أين عمتي أمل؟

زفر عمه في إحباط: لحقت بوالديك.

- لم يبق سوانا!

- لم يبق سوانا؛ أنا وأنت فقط يا بني، ولن أدع أي شيء يحدث لك، هل تفهمني؟ لن أدع أي شيء يحدث لك.

لم ينجب عمه؛ لذلك يعتبره طفله الوحيد، يصطحبه معه في كل مكان، وها هو عندما اشتعلت الأمور جاء بحثا عنه مخاطرًا بحياته.. كم يحبه شريف، ويتمنى ألا يفقده هو الآخر.

لم يعرف شريف كم من الوقت ظل عمه يقود السيارة؛ فقد غلبه النعاس. توقف عمه أمام مستشفى الأمل للأطفال، وقال:

- سندخل هنا حتى نطمئن عليك.

استقبله الأطباء في غرفة الفحص، ووضعوه على أحد الأسرة، واقتربت منه طبيبة كالملاك قائلة: كيف حالك يا صغيري؟ لا تخش شيئا، أنت بخير.

لم يجب شريف.. طلب الأطباء من عمه الخروج إلى الغرفة الأخرى، ليعتنوا بجراحه، ولكنه رفض تركه، فألحوا عليه حتى وافق، وخرج معهم وهو يطمئن ابن أخيه: سأعود حالا.

انتهت الطبيبة من العناية بجراح شريف، وذهبت لتعتني بأطفال آخرين، فاقتربت منه أسيل، ووقفت تتطلع إليه للحظات، ثم أمسكت يده، ومالت نحوه، وهمست في أذنه: كل شيء سيكون على ما يرام.

فشعر بنفسه تهدأ، وكرر خلفها كالمسحور: كل شيء سيكون على ما يرام.

عاد عمه، فأخبره أنهم سيذهبون. طلب منه الأطباء البقاء، ولكنه رفض بشدة، فطلبوا منه البقاء حتى الصباح، ولكنه قال: يجب أن نخرج من هنا.

حمل شريف، وأسرع للخارج؛ ليواصلا رحلتهما نحو المجهول؛ فلم تكن لديه أية فكرة عن وجهته. كان ينطلق بالسيارة مبتعدا عن الدمار الذي يلتهم كل شيء بلا رحمة؛ ولكن رحلته بدت بلا نهاية. أوقفهما المسلحون عند أحد الحواجز، فظل عمه يبكي، ويقسم أنه معهم، ليس ضدهم، دون أن يعرف مع أي طرف هم، ولكن كبيرهم أوقفه قائلا:

- أنا لا أهتم مع أي طرف أنت، لا أهتم لو كنت أنت من أشعل الحرب، لا أهتم لو كنت الشيطان ذاته. سنأخذ سيارتك وما معك، ونتركك تذهب.

توسل إليهم عمه أن يتركوا السيارة؛ فقال كبيرهم: سنأخذ السيارة لا محالة، أما أنت، فإما أن تذهب الآن ولا تنظر خلفك، أو أمنحك ثقبا في رأسك، وأتركك وهذا الصغيريبكي بجوارك.

جذبه عمه من يده، وسار مبتعدا في خطوات أقرب للعدو، فقال الرجل:

- جيد.

ظلا يتجولان في الشوارع، حتى وصلا إلى أحد ملاجئ الأطفال، فأخبره القائمون عليه أن شريف يمكنه البقاء، ولكن يجب أن يرحل هو. توسل إليهم عمه ليتركوه معه، وأخبرهم انه يمكن أن يعمل أي شيء في الملجأ، ولكن الرجل قال: وجود الكبار هنا يعني أن يصبح الملجأ هدفا للمقاتلين، أما الأطفال فلا أحد يستهدفهم.

- ولكنكم كبار، وتقيمون هنا.

- الجميع يعرف أننا نقوم برعاية الأطفال فحسب، ولا ننتمي إلى المقاتلين.

- يمكنني أن أرعي الأطفال معكم، وأنا أيضا لا أنتمي للمقاتلين، ولم أحمل سلاحا أبدا،

زفر الرجل في ضيق، قال: اسمعني جيدا.. يمكنه أن يبقى، أما أنت فلا، وإذا لم تُرِد تركه؛ فيمكنكما الرحيل سويا؛ نهاية النقاش.

- حسنا.

انحنى عمه وأمسك بكتفيه قائلا: اسمعني جيدا يا بني، أنت ستكون في أمان هنا، أنا مضطر للذهاب، ولكني سآتي لأخذك ثانية، هل تفهمني؟

قال شريف: لا، لا تتركني، لقد وعدتني.

قال عمه: أحبك يا بني.

أشار للرجل بالموافقة، فحملوا شريف للداخل وهو يقاتل ليفلت منهم. أسرع مبتعدا، كأن هناك سلاحًا موجه إلى رأسه، وظل يهمس: سأعود.

وانتقل شريف من ملجأ إلى آخر، حتى انتهت الحرب. ملاجئ قضي بها أوقات طويلة، وملاجئ لم يكمل فيها يوما واحدا ويتم نقله إلى آخر في حراسة بعض المسلحين.. ذاق العذاب ألوانا، ولكنه ظل قطعة واحدة حتى انتهت الحرب. ظل يعيش في الملاجئ، حتى فوجئ يومًا بشخص يحتضنه من الخلف، فالتفت؛ ليجد عمه أمامه، فاحتضنه غير مصدق: لقد كبرت يا بني.

هتف شريف: لقد عدت كما وعدتني.

- بالطبع عدت؛ فلم أكن لأترك ولدي الأوحد وحيدا.

انتقل شريف مع عمه للإقامة في شقة صغيرة في أحد الأحياء الجديدة، وبدأ فصل جديد من حياته، انتظمت خلاله أموره. ولكنه لم يستطع أن ينسي ما مربه، خاصة الوجه العسكري الهادئ، وعبارة:

"يجب أن نخرج من هنا"

كان يستيقظ في منتصف الليل شاعرا بالعبارة تدوي في رأسه، يحاول تجاهلها، ولكن دويّها يزداد ،حتى يشعر بجسده يهتز، وبالعرق الغزير يغطي جسده، فيهرب من المنزل.. فيبحث عمه عنه في كل مكان، حتى يجده ويعيده للمنزل، ويعده شريف ألا يكررها.. ولكنه يفعلها ثانية. حتى جاء صديق عمه، وقدمه إلى عالم الكمبيوتر المثير، فسأله عمه: لماذا؟

قال الرجل: شريف في حاجة إلى شيء يشغله، إلى تحديات في حياته، يركز تفكيره عليها.. ولا يوجد أفضل من الكمبيوتر ليفعل هذا.

تعلم شريف بسرعة أذهلت الرجل نفسه، حتى أنه سمعه يقول لعمه:

- إنه يتعلم أسرع من أي شخص رأيته في حياتي.. يتعلم بسرعة تعادل أضعاف الشخص العادي!

جاء الرجل ليزوره –كعادته- وما إن نظر إلى الكمبيوتر أمامه حتى توقف مذهولا: مستحيل، كيف فعلت هذا؟

جاء عمه على صوت الرجل، قال: ماذا هناك؟

أشار الرجل إلى الشاشة قائلا:

- يستحيل أن يكون شريف قد اخترق هذا الموقع بمفرده.

قال عمه: شريف، أخبرني بما حدث.

صمت شريف للحظات، ثم قال:

- لقد سمعت البيانات تخبرني أنها حبيسة الجدار الناري القوي، وتريد أن تخرج.. سمعتها تهمس يجب أن نخرج من هنا؛ فأخرجتها.

مرت السنوات بعد هذه الحادثة، وعالم المخترقين الغامض هو أكثر ما يجذب شريف، وأصبح الرجل الذي علَّمه في البداية يأتي لاستشارته في بعض الأمور؛ ولكنه حذر عمه قائلا: شريف على وشك الوقوع في أمور خطيرة، يجب أن توقفه قبل أن يتورط فيها.

وجلس عمه معه، وأرغمه على أن يقسم أن يترك جماعة المخترقين التي انضم إليها وألا يعود لها ثانية. ولكن مهاراته العالية أثارت انتباه جهة أخرى، فتلقى شريف وعمه زيارة من أحد الأشخاص من جهة أمنية عليا، أخبرهما أنهم يحتاجون شريف معهم، فهم يجمعون النوابغ أمثاله من أجل إعادة البناء... وانضم شريف كمخترق للمخابرات العامة الجديدة.

شعر شريف أنه قد حصل أخيرا على ما يريده. كان يحكي لعمه عن قدراته العالية التي تفوق الجميع- دون الدخول في تفاصيل العمل- فأخذ قلق عمه يتصاعد، حتى قال له: اسمعني جيدا يا شريف.. لا يمكنك أن تكون أكثر من جيد للغاية، فهذا يجعلك تمثل تهديدا وقلقا للصديق قبل

العدو. أريدك أن تعدني أن تكبح جماحك، وتهدئ من استعراض نفسك؛ هل فهمتني؟

لم يفهم شريف وقتها، لكنه قال: نعم يا عمي، أعدك.

وعلى الرغم من تعمد شريف التقليل من قدراته، إلا أنه نجح في الانضمام إلى المكتب التاسع قبل الجميع.

ارتدى ملابسه، واتجه للأسفل حيث تنظره أسيل ومعها المفاجأة الرهيبة.. إنها تعرف قاتل ابنهما.. تعرف الرجل الذي فعل بهما كل هذا. وجدها جالسة على الأريكة، فلم يصدق أنها هي! يكاد يقسم أن هذه ليست أسيل التي تزوجها، ليست أسيل ملاكه الحارس.. هذه صورة باهتة لها لا تحمل زهرة الحياة داخلها! أسرع نحوها، احتضنها قائلا:

- آه يا ملاكي، لا أصدق ما حدث لك.

احتضنته أسيل قائلة: أخيرًا أنت معي.

- ولن أتركك ثانية أبدا.

- هل تعدني؟

- أعدك أنني لن أتركك ثانية.

قبل شريف يدها، ثم قال بجدية: أريدك أن تخبريني بكل شيء.

حكت له أسيل كل شيء، عن جلسة المسح القصيرة، وجلسة الاستماع الغريبة، مرورا بالصداع الرهيب، والأحلام الغريبة، حتى جلسة مكان سعيد الأخيرة حيث رأت الرجل.

قال شريف: هل أخبرت أي شخص بأي شيء من هذا؟

- لا أحد.

- حتى هند؟

- لقد أخبرتها بشأن الصداع الغريب، ولكني لم أخبرها بأي شيء آخر.

تطلع إليها شريف بنظرة خاصة، يجيدها رجال المكتب التاسع؛ فقالت أسيل في ضيق: أقسم لك، لم أخبر أي شخص بأي شيء.

زفر مستاءً من نفسه، ثم ترك تلك الفرعيات وراءه وبدأ يرتب الأمر..

- حسنا، مما حكيت لي، لا أخرج سوى باستنتاج واحد، على الرغم من استحالته. أنت تذكرت ما رأيتِهِ أثناء جلسات استماعك.

وصمت لحظة ثم أكمل: إن الرجل الذي قتل ابننا لم يكتف بهذا، بل طلبك في جلسة استماع، وحكى لك ما فعله!

هوى شريف بقبضته على الحائط في عنف؛ فاندفعت أسيل تحتضن قبضته وعينها ترجوه ألا يضيع منها ثانيةً. أشفق على الرعب الذي رآه في عينيها، فربت عليها مطمئنا، فسألته في خوف: ماذا سنفعل الآن؟

- أول شيء يجب ألا نخبر أي شخص بما حدث، فلو وصل الأمر إلى المستمعين، فليس لديك أية فكرة عما يمكن أن يفعلوه لإخفاء الأمر.

- بالتأكيد، وماذا عن الرجل؟

- هل عرفت من هو؟

- لا، لقد كان المشهد مظلما؛ فلم أتعرفه، أو أتعرف المكان، ولكني واثقة أن الإجابة داخل عقلي.

- حسنا، سـ.....

قاطعته أسيل قائلة: الإجابة داخلي، ويجب أن نخرجها مهما تكلف الأمر.. سنصل إلى هذا الرجل، ونجعله يدفع الثمن، أليس كذلك يا شريف؟ يجب أن يدفع الثمن.

ضمها شريف إلى صدره، ومسح على شعرها قائلا: لا تقلقي يا عزيزتي، سأصل إليه، سأصل إليه حتى لو كان هذا آخر ما أفعله في حياتي.

-٢٠-

استرخى يوسف في مقعده بجوار الضخم، وانطلقت بهم السيارة نحو هدف لا يعرفه، فطوال سنوات عمله لم يذهب له سوى مرتين -غيَّرتا حياته تماما- دون أن يعرف مكانه.

في المرة الأولى، كان يشعر بالخوف والترقب والتوتر من الضخمين، ومما ينتظره هناك. ولكن في المرة الثانية، كان الحماس يتقاطر منه، فأخيرا أصبح مستعدا، وسيخبره الرجل عن مسرحه الحقيقي، عن الأمر الذي خلق ليفعله.

دخل الغرفة، فشعر أنها قد أصبحت أكثر اتساعا، وهناك شاشة عملاقة مقسمة إلى نوافذ صغيرة، تعرض أشخاص يتحدثون بأشياء كثيرة. تطلع يوسف للنوافذ للحظات، وضربه الحل كسوط من اللهب:

- تتجسسون على المستمعين!!

لم يتحرك الرجل من مقعده، ولم يبد عليه الاهتمام بما قاله يوسف.. أشار له ليجلس؛ فجلس، وواصل الرجل الاستماع صامتا، قال يوسف:

- ولكن هذا مستحيل، فبرنامج المستمعين يستحيل اختراقه، وحتى لو فعلتم، فهو لا يسجل ما يمر به المستمع.

قال الرجل: جيد، لقد علموك جيدا، ولكنك نسيت شيئا واحدا.

ضغط الرجل زرا أمامه؛ فأظلمت الشاشات، وقال: نحن لم نخترق المستمعين، نحن بنينا المستمعين، أو يمكنك أن تقول نحن هم المستمعون.

لم يستطع يوسف الكلام مع المفاجأة التي ضربت عقله. أضاء الغرفة للحظات كضوء فلاش؛ فرأى يوسف مجموعة من لأشخاص يجلسون في

الجزء الخلفي المظلم من الغرفة، ولكنه لم يتبين ملامحهم مع الظلام الذي حل سريعا، وأكمل الرجل: وأنا أمنحك الفرصة للانضمام إلينا.

حاول يوسف أن يقول أي شيء، ولكنه لم يستطع أن يجد كلمات تعبر عما يريد قوله، فصمت.. أكمل الرجل:

- لقد رأيت هذا في عينيك، منذ أول مرة قابلتك، أنت واحد منا.

قال يوسف: من أنتم؟ وماذا تفعلون؟

- لدينا الكثير من الأسماء، ولكن يمكنك أن تدعونا بالحراس.

- وما علاقتكم بالمستمعين؟

التقط الرجل عدة ملفات تحوي الكثير من الأوراق، ناولها ليوسف، الذي جرى بعينيه على عناوينها، قلب محتوياتها سريعا، قال الرجل:

- هل تعرف ما الذي أسقط كل الأنظمة السابقة؟ ما الذي سبب كل الكوارث التي لحقت بالوطن؟ ما الذي أفسد كل شيء؟

لم يجب يوسف، فقال الرجل:

- لا أحد يستمع، لا أحد يستمع.. كل شيء حدث، هناك من رآه قبل حدوثه.. حتى الحرب نفسها، هناك من رآها قادمة، ولكن هل استمع أحد؟ بالطبع لا، لذلك أقسمنا أن نغيِّر كل شيء، أقسمنا أن نستمع لكل شخص لديه شيء ليقوله.

- ولهذا أنشاتم المستمعون، للاستماع إلى الآخرين.

قال الرجل:

- دعني أشرح لك ما يحدث، وستفهم لماذا أنشانا المستمعين. بعد أن يذهب المستمع إلى الشخص المطلوب، يتم تسجيل كل شيء بواسطة برنامج المستمعين الخاص، ثم يتم رفعه إلى خادم خاص جدا، لا يملك سوى ثلاثة أشخاص صلاحية الدخول إليه، ثم يتم تسليم المعلومات

الموجودة على الخادم إلى ثلاث مجموعات تسمى مجموعات العقل، كل مجموعة تدار بواسطة واحد من الثلاثة الذين لهم حق الدخول للخادم الخاص. تقوم المجموعة بفرز المعلومات الموجودة وتقسيمها إلى فئات: جرائم، تهديدات إرهابية، أماني، معلومات، مذكرات، شكاوى، رؤى مستقبلية، وهكذا.

- يبدو أن لديكم الكثير من الفئات.

- لدينا أكثر من مائة فئة، وتزداد، كما أن كل فئة تقسم في داخلها إلى: عاجل، لاحقا، بعد فترة، ونهائيا.

صمت يوسف للحظات عد خلالها على أصابعه محاولا تصور الأمر، قال: ثم ماذا؟ ماذا تفعلون بكل هذه المعلومات؟

- يتم تسليم المعلومات إلى مجموعات التنفيذ الخاصة المسماة بالمحركين، ومهمة هذه المجموعات التعامل مع هذه المعلومات بعيدا عن المستمعين.

- كيف هذا؟

- لو افترضنا أن شخص ما اعترف بجريمة معينة للمستمعين، يتم تسليم قضيته إلى مجموعة المحركين المختصة، فتقوم بوضع سيناريو لتحريك الرجل في الطريق الذي يكشف جريمته دون أن يشعر الرجل أن لاعترافه الذي أدلاه للمستمعين أي دور في هذا، وهذا هو المسرح الحقيقي للفنانين من أمثالك، الحياة.

- الحياة هي مسرحنا الحقيقي!

قال الرجل:

- عندما ترى شخصًا ارتكب الجريمة الكاملة، ثم قبض عليه؛ فأعلم أننا كنا هناك.. عندما ترى حياتك تستقيم فجأة، والقطع تأخذ مكانها كقطع البازل لتكون الصورة السعيدة لحياتك، فانظر جيدا، وسترى

بصماتنا على القطع. عندما تتمنى أمرا مستحيل، ثم تستيقظ لتجده تحقق، فانظر جيدا، وسترانا أمامك.. حتى عندما تجد كارثة قادمة نحوك بمنتهى السرعة، ثم تتفاداها بطريقة سحرية، فاعلم أننا من دفعها بعيدا. نحن لسنا قضاة وجلادين نستمع إلى المجرمين للقبض عليهم فحسب، ولكننا أحيانًا نجعل الأحلام حقيقة أيضا.

- يا إلهي! إن مجرد التفكير في حجم العمل الذي تقومون به، وعدد الأفراد الذين تديرونهم بهذه السرية وهذا النظام يشعرني بالصداع الشديد.

- حماية الوطن ليست عملية سهلة، ولهذا نحتاج إلى أمثالك معنا.

- لماذا؟! ما الذي يمكنني أن أضيفه لهذا النظام الرهيب؟

قال الرجل: كما أخبرتك من قبل؛ لأنك فنان حقيقي، كما أنك نجحت في كل الاختبارات التي واجهتك.

- ولكن كثيرين اجتازوها غيري، ولست أراهم هنا.

- لا أتحدث عن الاختبارات المجدولة، بل عن الاختبارات التي تلقيها الحياة في وجهك وعليك التعامل معها.. بعضها يحمل بصمتنا؛ لنعرف أي الرجال أنت، وهل ستصلح لحمل الراية أم لا.

فكر يوسف، اختبارات لا أعلم بشأنها، وعليّ التعامل معها.. لقد كانت الرواية واحدة منها، قال الرجل: لا تفكر حتى، روايتك سيئة بالفعل.

ابتسم يوسف، وأكمل الرجل:

- والآن، هل أنت مستعد لبدء عملك مع مجموعة المحركين؟

قال يوسف: أعتقد أنك تعرف الإجابة جيدا منذ اللحظة التي اخترتني فيها.

صفق الرجل بيديه، فرأي يوسف رجلا آخر قادما نحوه؛ قال الرجل:

- أقدم لك الساحر، قائد مجموعة المحركين (أ٧-م-ف٤)، سيقوم بتدريبك، وإعدادك للعمل.

صافح الساحر يوسف قائلا: هل أنت مستعد؟

قال يوسف: طوال حياتي، وأنا أستعد لهذه اللحظة.

***

في الفترة التالية، خضع يوسف لتدريبات مختلفة تماما لإعداده للعمل، ثم سمح له الساحر بمراقبة عمليات باقي أفراد المجموعة، ليتعلم منهم كيف يتم الأمر، ثم سمح له الساحر بمراقبة عملياته شخصيا، فعرف يوسف لماذا يلقبونه بالساحر؛ فالرجل ساحر حقيقي، يدفع بالشخص المطلوب نحو هدفه بمنتهى الدقة والسرعة. يقول الساحر:

لدينا أشخاص في مختلف المراكز الهامة، بعضهم يتعاون معنا بطريقة مباشرة، وبعضهم يتعامل معنا عبر وسطاء، والبعض لا يعرف أنه يتعامل معنا، وكما تعلم بالطبع لا أحد يملك الصورة الكاملة، كل شخص يعرف ما يحتاج إليه فقط.

يقول الساحر: البساطة هي أهم شيء، وكلما كانت الخطة بسيطة كان نجاحها مبهرا.

ويقول: أفضل الخطط هي أقلها في عدد الأفراد المشتركين، وأفضل خطة هي التي تتم دون أفراد.

قاعدة أخرى تعلمها يوسف.. لا يوجد عمل فردي حتى مع الساحر نفسه، كل خطة يضعها أحد الأعضاء، يجب أن يراجعها عضوان آخران، ويوافقا عليها، ويتابع أحدهما تنفيذها معه.

ظل يوسف يرتوي من علم الساحر حتى قال الساحر:

- لقد أصبحت مستعدا.

أعطاه ملفًا يحوي تفاصيل عمليته الأولى.. شخص يدعى كمال، اعترف بقتل زوجته ثم دفن جثتها في الحديقة، وعلى يوسف تحريكه حتى تظهر الجريمة. فكر يوسف في القضية كقصة سيكتبها.. أحضر ورقة وقلما، كتب في أعلى الورقة كمال، وفي أسفلها محاكمته لقتل زوجته، وبدأ يفكر في الطريق الذي سيسلكه من قمة الورقة حتى نهايتها، دون أن يمر بالمستمعين. فكر كثيرا، وجمع كل المعلومات الممكنة عن كمال وعائلته وزوجته المقتولة وعائلتها، ووضع خطته، وذهب بها للساحر. قال يوسف:

- انظر إلى فتحي ابن عم القتيلة يمكنه أن...

قاطعه الساحر: لا.

وضع خطة أخرى، وعاد للساحر قائلا: حسنا، جارهم...

قاطعه الساحر: لا، ليست بسيطة.

عاد يوسف للمرة الثالثة قائلا:

- انظر إلى خريطة شبكة المياه في المنطقة، إذا أصابها عطل في هذا المكان، سيغرق المكان، ونضطر للحفر لترميمها، وعندها ستظهر الجثة، أو سيحاول كمال نقل الجثة خوفا من كشف أمره، ولكن شخصا ما سيراه، ويكشف كل شيء.

قال الساحر: جيد جدا، بسيطة وتؤدي المطلوب.

مرت عملية يوسف الأولى بنجاح، وتوالت بعدها العمليات والنجاحات، لتثبت أن صانع الفجوات كان محقا، وأن يوسف فنان حقيقي.

وصلت السيارة إلى وجهتها؛ فهبط يوسف منها، وقاده الضخمان حتى غرفة صانع الفجوات. حياه الرجل ثم قال:

لدي مهمة خاصة من أجلك يا يوسف.

لم تكن هذه هي الطريقة المعتادة لسير الأمور؛ فمهمات يوسف لا تأتي من هنا، وإنما تأتي من الرجل الثالث. ولكن يوسف ابتلع خواطره، فأكمل الرجل: مهمتك هذه المرة مختلفة، وهدفها غير اعتيادي، لذلك أريدك أن تترك كل ما في يدك، وتتفرغ لها فحسب.

قال يوسف: كما تأمر.

ناوله الرجل ملفا يحوي أوراق كثيرة، وقال:

- هنا ستجد كل تحتاجه عن الهدف.

نهض يوسف من مكانه، وصافح الرجل. خرج، وسار عدة خطوات، ثم غلبه فضوله، ففتح الملف ليلقي نظرة على هذا الهدف الهام. كان الهدف شخصًا اعتاد رؤيته كثيرا في الآونة الأخيرة.. دكتور أحمد!

***

- ٢١ -

اعتدل يوسف على مقعده أمام مكتبه الضخم، وتطلع إلى صورة أحمد المعلقة على الحائط أمامه. عاد ببصره إلى الورقة الموضوعة أمامه، والمكتوب في أعلاها دكتور أحمد، ولا شيء في أسفلها؛ فلا يوجد شيء ليكتبه.

عملية هذه المرة مختلفة تماما عن كل ما اعتاد القيام به. دائما يكون هدفه مذنبا، هاربا من العقاب، فيأتي هو ويهبط على رأسه مثل مطرقة العدالة. ولكن هذه المرة لم يفعل هدفه شيئا.. أو أنه فعل وهم لا يخبرونه؟ لقد تعلم أن يثق في قياداته، وينفذ أوامرهم بلا مناقشة، وطالما يريدون أحمد، فقد فعل شيئا يستحق العقاب عليه، ولكن ماذا سيفعل هو؟ إنه لا يملك نقطة انطلاق ليبدأ منها سعيه خلف أحمد، ولا يمكنه تلفيق أي شيء له، وبالتأكيد لم يعن الرجل هذا. همس لنفسه مؤكدا:

- بالتأكيد لم يريدوا أن تلفق له شيئا، فهذا ليس منهجهم.. لقد وثقوا أنك قادرٌعلى فعلها دون اللجوء إلى هذه الطريقة.

ضغط يوسف عدة أزرار على لوحة المفاتيح؛ ليعرض مقاطع من تسجيلات مختلفة لأحمد:

- أقول إن الإنسان يجب أن يكون دائم السيطرة على حياته، لا يجب أن يفقد السيطرة؛ ولو للحظة واحدة. يجب أن يفعل كل شيء بإرادته الحرة.

- إذا أردت أن تتحدث إلى شخص ما عن مشكلة لديك أو أمر يزعجك، أو أي شيء، فعليك أن تبحث عن صديق يستمع إليك.

- لقد ساعد المستمعون على زيادة الغربة التي نشعر بها في حياتنا، تلك الغربة التي نحاربها منذ انتهاء الحرب، ونعمل على تقريب الجميع معا.

استعرض مقتطفات من محاضرات دكتور أحمد، تتحدث في مجملها عن سيطرة الإنسان على حياته، وتهاجم المستمعين، ومهما كان موضوع المحاضرة بعيدا عنهم، يجد أحمد دائما طريقة للزج بهم في المحاضرة، والهجوم عليهم. في إحدى المحاضرات لم يتحدث عنهم، فرفع أحد الحضور يده، قال: وماذا عن المستمعين؟ ألن نتكلم عنهم اليوم؟

قال أحمد: وهل تكون محاضرة بدون المستمعين؟ سنتحدث عنهم الآن.

شعر يوسف ببذور الفكرة تنبت في عقله، وإن كانت لا تزال تحتاج إلى المزيد من العمل، لتنمو وتأخذ شكلها النهائي. فكر في واحدة من أصعب العمليات التي قام بها.. الهدف كان منير الطحان، رجل الأعمال الشهير.. التهمة.. اعتقد يوسف أن الرجل قد فعل كل شيء، لا ينقصه سوى الاعتراف أنه من أشعل الحرب. ولكن الرجل شديد الحرص والحذر، ولم يترك أي دليل خلفه مهما كان صغيرا. فكر كثيرا، حتى توصل إلى الحل أثناء كتابته لإحدى رواياته، (فهو لم يتوقف عن الكتابة، كما ظن الجميع بعد روايته المشئومة، ولكنه فقط لم يعد يعرض إنتاجه على أي شخص. زهرة كانت قارئته الوحيدة، وقد رحلت، فأصبح هو قارئه الوحيد).

سيعمل على القضية بطريقة اعتاد استخدامها في كتابة الرواية ١+١=٣، فعندما تكون لديه فكرة، ويضع معها فكرة ثانية، يجد نفسه لديه ثلاثة أفكار مرتبطة معا، يعمل عليها. جمع الكثير من المعلومات حول رجال الأعمال أمثال منير، وبخاصة الذين اشتركوا معه في عمليات سابقة، واستعد لتنفيذ خطته.

وعبر مدير مكتب مراد عثمان، تم تسريب معلومة إلى أحد منافسيه أن مراد يتجسس عليه، ويسعى للإطاحة به. فقام المنافس بالتجسس على مراد، وتسجيل لقاءه مع المستمعة واعترافه بالعديد من الجرائم مع العديد من الأشخاص. ابتسم عند هذه النقطة: فالقضية التي شغلت الرأي العام لفترة طويلة كانت من إخراجه هو. ومع سقوط مراد، انهالت عليه القضايا

من كل جانب، حتى من بعض الأشخاص الذين تحدث عنهم في التسجيلات؛ فلم تكن لديه أدلة على ما قال.

ارتبك منير بشدة؛ فقد اشترك مع مراد في بعض الأعمال، ويعرف أن المنافس الذي أطاح به قد اشترك معه في بعض الأعمال هو الآخر، ولكن مراد لم يملك دليلا على هذا؛ فخرج المنافس سالما، وسقط مراد وحده.

سرب يوسف معلومة صغيرة إلى مدير الشركة الأجنبية ، الذي يستعد منير لعمل صفقة جديدة معه، ، والذي يعشق رواية ريون نالفون ويعشق الحديث عنها. وسرب نفس المعلومة إلى منير عن مدير الشركة الأجنبية. بدأ الرجلان جلستهما لتوقيع العقود بالحديث عن ريون نالفون وسعيه نحو القوة المطلقة بكل الوسائل، وبذله كل ما يمكنه، حتى امتلك مجموعة من أكبر الشركات، وتكونت لديه ثروة هائلة، ولكن بعض شركائه السابقين سعوا خلفه للإطاحة به، متوهمين أنه هدف سهل، ولكنه فأجا الجميع بأنه قد احتفظ بكل شيء وقال لهم: إذا سقطت فسآخذكم جميعا معي.

وفي نهاية اللقاء، قال مدير الشركة الأجنبية:

- أعتقد أنك أقوى مما يعتقد الجميع، لقد أخبرني أحدهم أنك لن تبقى طويلا، ولكني أعتقد انه مخطئ.

انصرف الأجنبي، واشتعلت النيران في عقل منير.. هناك من يسعي خلفه، ويؤكد ظنونه ضابط المباحث الذي حضر إلى مكتبه للتحدث معه في بعض الأمور بطريقة ودية. إنه يشعر بالحبل يلتف حول رقبته، ولكنه لن يكون هدفا سهلا. سيقاتلهم بكل قوته، لن يأكلوه لقمة سائغة سيكون مثل ريون.

جمع منير وثائق تدين الجميع؛ ظنا منه أنه يؤمن نفسه. ولكنه كان يتبع خطة يوسف بالضبط، فكانت الضربة الأخيرة هي تسريب الوثائق الهامة؛ ليسقط منير، ومعه عدد من شركائه، ويؤكد يوسف مرة أخرى أن صانع الفجوات كان محقا في اختياره.

يسأل يوسف: لماذا تطلقون عليه صانع الفجوات؟

يجيب الساحر: لأن الرجل دائما يظهر لنا الكثير من الفجوات في تفكيرنا، بل في عقولنا ولكننا لم ننتبه لها، ويساعدنا في عبورها.

ضغط أحد الأزرار، فعمل الفيديو الخاص بدكتور أحمد ثانية. ظهر أحمد بعد انتهاء المحاضرة، وقد التف حوله عدد كبير من الأشخاص، يحاولون الحصول على توقيعه على كتابه، والظفر بكلمة أو اثنين معه. فكر يوسف.. لو أزحنا دكتور أحمد، فماذا عن هولاء الأشخاص؟ ماذا عن تابعيه الذين يتظاهرون أمام مركز المستمعين؟ لقد أصبح أحمد بالنسبة لهم فكرة يؤمنون بها، ومن الصعب، بل من المستحيل، قتل فكرة. يجب أن يسقط من قلوبهم وعقولهم.. يجب أن تكون الخطة محكمة، بحيث تقضي على أحمد تماما، الشخص والفكرة معا. لا يمكنك قتل فكرة، ولكن يمكنك جعل أنصارها يتبرءون منها ومن صاحبها، ولكن يجب أن تأتي بشيء يكرهه الجمع أكثر من أي شيء.. شيء لا يمكن النقاش فيه، مثل فجوة سوداء تبتلع كل ما يقترب منها.

السؤال الأهم لفهم شخصية أحمد، هو ما الذي يريده أحمد أكثر من أي شيء؟ الإجابة منحه لها أحمد، القضاء على المستمعين. السؤال الثاني: إلى أي مدى يمكن أن يذهب أحمد لتحقيق هدفه؟ أمسك القلم، ثم رسم دائرة ظللها بالأسود أسفل الورقة، ورسم طريقا بينها وبين اسم أحمد الموجود في الأعلى، وكتب عليه القضاء على المستمعين. بقي سؤال واحد، ما هي الفجوة السوداء التي سيقود أحمد إليها؟

***

- ٢٢ -

- هل أنت مستعد؟

نطقت بيلسان بالعبارة وهي تتطلع إلى أحمد الجالس أمامها، وقد غطى وجهه بيديه، واستند بظهره على الحائط. ولكنه لم يجبها، بل لم يبد عليه أنه سمعها؛ فسارت مبتعدة وهي تكمل: لا يوجد أمامنا حل آخر.

صعدت بيلسان إلى غرفتها، والتقطت حقيبة صغيرة، بدأت تجمع فيها بعض الأغراض البسيطة، ولكنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة لها.. تذكارات بسيطة من عائلتها الراحلة، آخر هدية حصلت عليها من والدها قبل الحرب، هدايا من أحمد في مناسبات مختلفة، هدايا من ريهام أمها الجديدة، ومن حفيدتها الجميلة جيانا، كارت صغير على أحد جوانبه صورة لقصر جميل تحيطه الأشجار، وبجواره يجري نهر صغير، وعلى جانبه الآخر مكتوب: من جيانا الصغيرة إلى أختها الجميلة باهي، أتمنى أن تجدي جنتك التي تبحثين عنها.

شعرت بيلسان بدمعة ساخنة تسيل على خدها، فمسحتها بيدها، والتقطت ألبوم صور صغير، وقلبت صفحاته؛ تنظر إلى صورها مع أحمد في المناسبات المختلفة. توقفت عند صورة تظهرهما في قاعة المحاضرات (ب)، كانت أول مرة تقابله في حياتها، كانت تقرأ أحد الكتب في منزلها، حين جاءتها صديقتها ريفان، وأخبرتها أنها ذاهبة لحضور محاضرة لدكتور أحمد في قاعة المحاضرات (ب)، وتريدها أن تحضر معها، قالت بيلسان:

- لا أريد الخروج، أريد أن أنهي هذا الكتاب.

قالت ريفان: محاضرة دكتور أحمد لا يمكن أن تعوض، أما الكتاب فيمكنك قراءته في أي وقت.

- لقد سمعت بعض الأمور عنه، أليس هو الذي يتحدث دائما عن سيطرة الإنسان على حياته، وعدم تركها لأي شخص آخر؟

- بلى.

- حسنا، لأريك أنني أسيطر على حياتي، سأجلس هنا وأقرا الكتاب، ويمكنك الذهاب كما تريدين.

ولكن ريفان لم تستسلم، بل ظلت تلح عليها حتى ذهبت معها إلى المحاضرة، وجلست قائلة: لقد جئت معك، ولكن هذا لا يعني أنني سأبقى حتى نهاية المحاضرة.

هزت الصديقة رأسها موافقة.. وصعد دكتور أحمد المنصة، وبدأ الحديث، فشعرت بيلسان أن كلماته تحيط بها، وتعزلها عن كل شيء حولها.. تحملها إلى خارج العالم، إلى عالم آخر كانت تحلم به، ولكنها لم تجد الكلمات الكافية لوصفه. أعادتها إلى عالمها ثانية لكزة من ريفان التي قالت:

- لقد مللت، هيا بنا لنذهب.

قالت بيلسان: ششش، لا تتحدثي، أريد أن أسمع.

قالت ريفان: انظروا من أعجبته المحاضرة، ولا يقدر على تركها!

بعد انتهاء المحاضرة، أسرعت بيلسان نحوه قائلة: محاضرة رائعة يا دكتور، لقد سحرتني كلماتك تماما، وأخذتني إلى عالم جديد كنت أحلم به دائما، عالم أكون سعيدة فيه بالفعل.

قال أحمد: شكرا لك، سعيد جدا بما قلته، فعندما تخرج الكلمات من القلب، فإنها تصيب قلب المستمع.

كان هذا هو السهم الأول الذي اخترق قلب بيلسان، فوقفت صامتة تبحث عن شيء آخر تقوله، لتفاجأ بريفان تقول: دعني أخبرك يا دكتور بشيء لا تعرفه. لم تكن بيلسان تريد القدوم للمحاضرة، ولم تأت إلا بعد محاولات كثيرة؛ تقول إنها تسيطر على حياتها، ولا تحتاج إلى من يعلمها ذلك.

شعرت بيلسان بالدماء تحتشد في وجهها، وودت لو تصفع صديقتها أمام الحضور. قال أحمد: أشكرك على إقناعها بالحضور، ولكن بيلسان تبدو بالفعل كشخص قوي يسيطر على حياته، أتمنى أن تعلمني كيف تفعل هذا.

ابتسمت ريفان قائلة: لقد أخبرتني أنها تريد الحصول على صورة معك.

مرة أخرى ودت بيلسان لو تصفعها، قال أحمد:

- بالتأكيد سأكون سعيدًا بالحصول على صورة معها.

وقف بجوارها مبتسما، فوجهت ريفان هاتفها نحوهما قائلة: ابتسما.

عادوا للمنزل؛ فسألتها بيلسان: لماذا فعلت هذا؟

قالت ريفان: حتى تكون ذكرى لليوم الذي كنت فيه محقة، وأنت مخطئة.

ولكن هذه الصورة أصبحت ذكرى لأول مرة تقابل فيها نصفها الآخر، وحبيب عمرها.. تشكر ريفان دائما عليها؛ فتقول:

- كنت أعلم أن الأمر سينتهى بكما سويا؛ لقد خططت لكل شيء.

بعد هذا اليوم، أصبحت بيلسان من الحضور الدائمين لكل محاضرات أحمد، وتحرص على التحدث معه بعد كل محاضرة. ثم أصبحا يلتقيان خارج المحاضرات، وحكى لها أحمد كل شيء عن حياته، وعن والده، وحكت له بيلسان عن عائلتها، وكيف انقلبت حياة الأسرة بعد فترة قصيرة من بدء الحرب. كانت تقرأ إحدى المجلات في غرفتها، عندما سمعت صوت الهاتف، فأسرعت نحوه والتقطت السماعة؛ لتجد صوتا مرعبا -لن تنساه مادامت حية- يقول: من أنت؟

- أنا بيلسان.

- حسنا يا صغيرتي، أخبري والدك أن فهمي موافي قادم من أجله، أخبريه أنني سأسلخه حيا، سأنزع وجهه الغبي و....

ألقت بيلسان السماعة أرضا، وصرخت بكل قوتها؛ فجاء والدها مسرعا:

- ماذا حدث؟

أشارت نحو الهاتف قائلة:

- رجل مرعب على الهاتف، يقول إنه قادم من أجلك!

التقط والدها السماعة قائلا: من يتحدث؟

جاءه الصوت المرعب:

- أنا قادم لأجلك، فهمي موافي قادم لأجلك، وسأنزع....

أغلق والدها الهاتف، ورأته بيلسان لأول مرة في حياتها خائفا، قال:

- يجب أن نغادر بسرعة، إنهم قادمون.

سألته والدتها: ماذا يحدث؟

فهمي موافي، كنت أقود العملية التي تسببت في قتل شقيقه، وألقته في السجن. لابد أنه هرب مع الفوضى التي اجتاحت كل شيء، وهو قادم لأجلي.

- يجب أن تبلغ القيادة.

- ألم تفهمي بعد؟! لم يعد هناك قيادة؛ لقد حطم الإرهابيون كل شيء.. لم يعد هناك أي شيء، نحن بمفردنا الآن.

حزم والداها أغراضهما سريعا، وانطلقا بالسيارة نحو بيت قديم ورثته والدتها عن عائلتها، فقالت بيلسان: هل سيتبعنا الرجل المرعب إلى هنا؟

قال والدها: لا أحد يعرف مكاننا هنا.

- وماذا لو عرف مكاننا، وجاء إلينا؟

- ساعتها سأقتله؛ هل تفهميني؟ لن أدع أحد يمس شعرة من رأسيكما.

صمتت بيلسان للحظات، ثم تساءلت:

- إذا كنت قادرًا على قتله، فلماذا هربنا، وتركنا المنزل؟!

أرادت أمها إنهاء الموقف المعقد، مشفقة على الصغيرة من هذا التعقيد، فقالت: حسنا يا صغيرتي، لقد حان وقت نومك.

ولكن والدها جذبها من ذراعها قائلا: في بعض الأحيان، يسعى المرء لتجنب القتال قدر المستطاع. ولكن عندما يأتي القتال إليه، فإنه يقاتل بكل قوته وينتصر؛ هل تفهمينني؟

هزت بيلسان رأسها قائلة: نعم أفهمك.

سارت مع والدتها إلى الفراش، ورقدت فيه، فقبلت والدتها رأسها قائلة:

- ليلة سعيدة يا صغيرتي.

غادرت والدتها، فبقيت بيلسان مستيقظة، تتقلب في فراشها دون أن تستطيع النوم، حتى جاء منتصف الليل، فسمعت جلبة شديدة في الخارج؛ فانكمشت في فراشها، وتمنت لو تغوص داخله. انفتح الباب، ودخل رجل ضخم، وحملها للخارج، وألقى بها أرضا، فحبت على أربع نحو والديها المقيدين والدماء تنزف من جسديهما. رأت رجلا ضخما يتطلع إلى والدها ويصفعه قائلا بنفس الصوت المرعب الذي سمعته على الهاتف:

- ها نحن نلتقي ثانية؛ وهذه المرة لا يوجد حولك أحد لينقذك مني.

بصق في وجه والدها مكملا: لم أعرف أنك بهذا الغباء.. أقول لك إنني سأسعى خلفك، فتأتي إلى هذا المكان البعيد الهادئ، لماذا؟!! لتمنحني الفرصة لقتلك دون إزعاج!

قال والدها: أرجوك افعل بي ما تشاء، ولكن اترك عائلتي؛ أتوسل إليك، أترك عائلتي تذهب.

ابتسم فهمي قائلا: حقا! أتظن أنك تستطيع كسب رحمتي بهذه الكلمات؟ لقد قتلت أخي أيها اللعين.

قال أحد رجال فهمي: لقد انتهي وقتكم، وبدأ وقتنا، أصبح كل شيء ملكنا الآن.

قال فهمي: لقد أصبحت دولتنا الآن.

قال والدها: لن يحدث، ليس وفينا عرق ينبض.

لم تعرف بيلسان ماذا حدث بعد ذلك، فقد حجب عقلها تلك التفاصيل التي لو تذكرتها لأصابها الجنون. كل ما تذكره أن فهمي هذا حملها وسار للخارج، فرأت وراءها جثتي والديها الممزقتين، ثم أمسك حبلا، وربط طرفه أعلى الباب قائلا: استعدي يا صغيرتي؛ فسأعد لك أرجوحة لن تنسيها،

ربط الطرف الآخر كمشنقة، وأحضر أحد رجاله مقعدا، أوقف عليه بيلسان، ووضع الحبل في عنقها. واستعد فهمي لدفع المقعد قائلا:

- بلغي تحياتي لوالدك في الجحيم.

انطلقت رصاصة؛ لتستقر في رأس فهمي، قبل أن يدفع المقعد، فسقط جثة هامدة، وأسرع رجاله للداخل، عندما رأو ثلاثة مسلحين قادمين نحوهم، أسرع أحدهم للداخل خلف الهاربين، وفك آخر الحبل عن رقبة بيلسان، وأنزلها على الأرض قائلا: والآن ماذا سنفعل بك؟

قال الثاني: نقتلها.

قال الأول: بل نتركها تذهب.

- نقتلها.

- نتركها تذهب.

شعرت بيلسان بإعصار رهيب من الضعف والعجز والخوف والألم يسري في عروقها، ويتفجر في صرخة حملت كل طاقتها: أبي.

خرج الثالث قائلا: والدك لن يجيبك يا صغيرتي، لقد مات.. حطموا أطرافه كلها، ثم قتلوه.. لابد أنه تعذب كثيرا. والآن، ماذا نفعل بك؟

قال الأول: نتركها تذهب.

فقال الثاني: بل نقتلها.

فقال الثالث: لا تتشاجرا، سنلقي عملة معدنية، ملك نقتلها، وكتابة نتركها تذهب؛ اتفقنا.

هزا رأسيهما بالموافقة؛ فأخرج الثالث عملة معدنية، ألقاها؛ لتدور في الهواء، وعينا بيلسان وقلبها معلقان بها في ذهول. كانت أغرب ثوان عاشتها في حياتها، حتى هبطت العملة على يده، فأخفاها بيده الأخرى للحظات ثم كشفها قائلا: كتابة، ندعها تذهب.

فقال الثاني: لقد اتفقنا، كتابة نقتلها.

ولكن الرجلين الآخرين قالا: بل تذهب.

أشارا لها بالذهاب، وقال الثالث: انطلقي، ولا تنظري خلفك، هل تفهمين؟ اركضي، ولا تنظري خلفك.

انطلقت بيلسان تعدو كأن شياطين الجحيم تطاردها.. لا تعرف أين تذهب، ولكنها تعدو. تسمع طلقات رصاص خلفها، لكنها تعدو.. تسمع من يناديها، لكنها تعدو.. تشعر بمن يطاردها، ويصيح بها أن تتوقف، لكنها تعدو، وتعدو، وتعدو.. تعتقد بيلسان أنها مازالت تعدو حتى الآن!، توشك الآن على البدء في حلقة جديدة من العدو، لا تعرف كيف ستنتهي، ولكنها ليست خائفة.. ليست مثل كل مرة؛ فبجوارها نصفها الآخر ومنبع قوتها، أحمد، الآن ستبدأ العدو، وفي إثرها واحد من أقوى الأجهزة- إن لم يكن الأقوى- التي وجدت بعد الحرب. لقد كان علاء محقًا عندما قال بعد فشل الهجوم على مركز المستمعين: لقد بدأت عملية صيدنا، أقسم أنني أشعر بكلابهم تتشمم الهواء حولي.

نظر نادر لأحمد قائلا: ماذا تظن أنهم سيفعلون؟

قال أحمد: لا أعتقد أنهم سيعلنون عما حدث؛ لذلك لن يتم توجيه أية تهم رسمية لنا، ونحن أيضا لا نستطيع التحدث عما فعلنا؛ فليس لدينا أي

دليل على ما فعلنا؛ فلن يصدق أحد أننا اخترقنا شبكة المكتب التاسع، ونتحول لمجرد كلمات يعرف الجميع أنها هراء.

قالت بيلسان: ولكنهم بالتأكيد قبضوا على الرقم سبعة، وسيقومون باستجوابه بشأننا.

قال نادر: هل تظن أنه سيخبرهم؟

قال أحمد: لا أظن أن لديه الخيار، أعتقد أن لديهم القدرة على الدخول إلى رأسه، ومعرفة كل شيء، بالإضافة إلى خبرائهم الذين سيزقُّون النظام بحثا عنا، فتبدأ عملية صيدنا؛ ودعوني أخبركم، ستكون أشرس وأقوى من أي شيء عرفناه سابقا.

زفر علاء بقوة، قال: يا إلهي! ما الذي فعلته؟

التفت إلى بيلسان مكملا: اللعنة عليك، أنتِ من جرني إلى هذا.

قال نادر: نعم، أنتِ من جرنا جميعا إلى هذا، أنتِ وخطيبك اللعين هذا.

قال أحمد: لقد شرحت لكم ما سنفعله ومخاطره، وكلكم وافقتم.. ولكن يمكنكم جميعا الاطمئنان؛ فأنا أتحمل المسئولية كاملة عما حدث، ولن أجر أيًّا منكم معي.

واصل علاء ونادر الصياح، فقالت دجى: لقد وافقنا كلنا على العملية ونحن نعرف مخاطرها، لم يجبر أحد أحدًا.

أكمل بدر: كل واحد مسئول عن اختياره.

قالت بيلسان: نحن لا نعرف كم يعرفون بالضبط، ولا كم لدينا من الوقت؛ لذلك أعتقد أن أفضل ما نفعله، هو أن نفترق ونوقف الاتصالات بيننا في الوقت الراهن.

قال نادر: فكرة جيدة.

ودون أن ينتظر أحد، جرى للخارج؛ فقال علاء، وهو يتطلع إليه:

أنا لست جبانا، ولكني أعتقد أن ما فعله نادر هو الأفضل في الوقت الحالي؛ فنحن لا نعرف إن كانوا يعرفون عنا جميعا، أو بعضنا فقط.

قال أحمد: يمكنك المغادرة يا علاء، ولن يحكم عليك أحد.

غادر علاء، فقالت دجى: سنكون معك حتى النهاية.

قال بدر: نحن لا نهرب من القتال أبدا.

قالت بيلسان:

- شكرا لكما، ولكن هذا بالفعل أفضل ما نفعله في الوقت الحالي.

قال أحمد: أنتما أشجع شخصين رأيتهما، أنتما محظوظان لأن لديكما بعضكما البعض.

قالت دجى: طالما أنا وبدر معا لن يهزمنا أي شيء.

قال بدر: وأنتما أيضا محظوظان؛ لأن لديكما بعضكما البعض.

احتضن أحمد كفي بيلسان قائلا:

- بل أنا الأكثر حظا في العالم كله؛ لأن لدي بيلسان.

غادر الاثنان، وبقي أحمد وبيلسان وحدهما والصمت ثالثهما، حتى قال أحمد: إننا في أسوا موقف ممكن، ولا فكرة لدي عما يمكن أن نفعله للخروج منه.

قالت بيلسان: سنفعل نفس ما نصحنا به الآخرين، يجب أن نختفي لبعض الوقت.

- الآخرون يعيشون حياتهم في الظلام، لذلك فالاختفاء بالنسبة لهم أسلوب حياة؛ أما بالنسبة لي فالأمر مستحيل.

- لا يوجد مستحيل. يمكنني اختراق النظام، وصنع هويات جديدة لنا، وتجهيز سفرنا إلى أي مكان في العالم.

- ليس الأمر عن التخفي والتجهيز، الأمر عن الأشخاص الذين ينظرون نحوي كمصدر للإلهام.. رمز لما يشعرون به، لا يمكنني أن أتركهم هكذا، لا يمكنني أن أخذلهم بهذه الطريقة.

لم تجد بيلسان ما تضيفه؛ فجلست صامتة تتطلع إلى أحمد، الذي أغمض عينيه واسترخى في مقعده محاولا إيجاد حل دون أن يهرب.

- أتعرف ما اعتاد والدي أن يقوله عندما تتعقد الأمور وتصل إلى طريق مسدود..

أكمل أحمد: فسيكشف الحل عن نفسه.

لم يكشف الحل عن نفسه في تلك الليلة، ولا في الصباح التالي. قرأت بيلسان خبرا جعل الدماء تتجمد في عروقها؛ فصاحت: أحمد!

جاءها أحمد مسرعا، فأشارت نحو الخبر.. كانت صورة نادر والدماء تغطي وجهه وجسده، والخبر يقول إن سيارة مسرعة صدمته وفرت هاربة؛ فتم نقله إلى المستشفى في حالة خطيرة. يقول بعض الشهود إن الرجل هو الذي عدا مسرعا أمام السيارة؛ فصدمته.

- يا إلهي، لقد بدأ الصيد.

قالتها بيلسان، فرد أحمد: لم أعتقد أنهم سيقومون بها بهذه الطريقة، لقد اعتقدت أنهم سيسعون للقبض علينا، وليس لتصفيتنا. أرسلي إشارة الطوارئ للباقين، يجب أن يهربوا جميعا؛ فلا يوجد ما يمكننا فعله لحمايتهم.

ضرب الحائط بقبضته مكملا:

- أنا المسئول عما يحدث، ولا يوجد ما يمكنني فعله لإنقاذهم.

انتهت بيلسان من إرسال الإشارة، فقالت: كما أخبرتك دجى، كل شخص كان يعرف ما هو مقدم عليه، واختار المشاركة بإرادته.

- لقد ظنوا أنني مختلف، ظنوا أنني سأفعلها، والآن انظري ماذا حدث.. تم إلقاء القبض على الرقم سبعة، ونادر بين الحياة والموت، والباقون في الطريق إلى الموت أو السجن، أيهما أقرب.

صمتت بيلسان للحظات، قالت: وماذا عنا؟

- ماذا؟

- ماذا سنفعل؟

مسح أحمد وجهه بيديه، مررهما على شعره، زفر بقوة، قال:

- لا أعرف، مذ بدأت هذا الأمر، وأنا لا أعرف ماذا أفعل.

- تقصد منذ بدءوا القتال بمحاولة قتلك.

- لا أصدق أنهم سينجون بكل ما فعلوه؛ فلا يوجد ما أفعله.

فكرت بيلسان للحظات، قالت: ربما موتك هو الحل.

- ماذا؟!

- فكر في الأمر، في حالة اختفائك سيكون المستمعون أول من تتجه إليهم أصابع الاتهام. لن يستطيع أحد أن يثبت شيئا، ولكن الفكرة نفسها ستجمع الكثيرين وتحمسهم ليكملوا ما بدأته، وربما ينجحون.

- لا يمكنني أن أفعل هذا.

- لا يوجد أمامك حل آخر، إما أن تختفي أنت، أو سيقوم المستمعون بهذا من أجلك.

تمتم أحمد بكلمات لم تفهمها بيلسان، ولكنها أدركت الصراع المشتعل داخله؛ فقالت: ومن يدري، ربما تعود ثانية وتنتصر.

همس أحمد: لا أعرف.

قالت بيلسان: يجب أن نتحرك بسرعة، لقد أعددت كل شيء.

- أعددت خطة الهرب بهذه السرعة!

- لدي خطة للهرب جاهزة دائما.

هبطت بيلسان السلم للطابق السفلي حيث يجلس أحمد، وهي تحمل حقيبتها الصغيرة، وتترنم بأغنية قصيرة عن الحرب. أصدر هاتفها نغمة قصيرة تشير إلى تلقيها رسالة على قناة الاتصال المؤمنة، التقطت الهاتف، وضغطت أزراره؛ ففتحت نافذة حوارية مكتوب فيها:

- التنين الأحمر جاهز للبدء.

أغلقت الهاتف، وأعادته لحقيبتها قائلة:

- هذا ما كان ينقصني، مخترق يحاول العبث معي.

تلك هي الرسالة الثانية التي تتلقاها من التنين الأحمر، الأولى كانت بالأمس، تقول: التنين الأحمر مستعد.

توقفت أمام أحمد الذي لم يغير جلسته. تطلعت إليه للحظات، ثم جذبته من يده قائلة: هيا بنا.

نهض أحمد متثاقلا، وسار معها للخارج، فوضعت بيلسان ورقة مطوية في يده، وقالت: كل شيء جاهز، سأقابلك في هذا المكان بعد ساعة واحدة.

التقط الورقة قائلا: ستمرين عليهم؟

- لا يمكنني أن أذهب دون توديعهم.

- بالطبع، أوصلي سلامي إليهم، وقبلي جيانا الصغيرة من أجلي.

ركبت بيلسان سيارتها، ، وقادت مبتعدة، وهي تلوح لأحمد الذي تابعها ببصره حتى ابتعدت فقال: سامحيني يا عزيزتي، لقد أقسمت أن أبقيك آمنة، وهذا ما سأفعله.

ركب سيارته، وانطلق بها.... نحو مركز المستمعين!

- ٢٣ -

انطلقت أصابع شريف تعدو فوق لوحة المفاتيح بمنتهى السرعة، وعيناه تتابعا المعلومات المتراصة على الشاشة، وتختلسا النظر إلى أسيل الجالسة على مقعد أمامه، وقد أرجعت ظهرها للوراء؛ لتسند رأسها على الحائط، وتغمض عينيها، وتشبك يديها أمام صدرها، ويتغير وجهها بين الحين، والأخر؛ ليوحي بما تمر به من انفعالات.

لشد ما تغيرت أسيل.. يكاد يقسم أنها ليست هي أسيل التي عاش معها كل هذه السنوات، ليست أسيل التي ضحك معها، وبكى معها، وعلى كتفها؛ فمسحت على رأسه لتخبره أن كل شيء سيكون على ما يرام.. ليست أسيل التي قاسمها حياته، والتي يقسم أن قلبه قد رقص فرحا عندما شعر بها، بمجرد تجاوزه بوابة مدرسة الهدى للأطفال، كان قادما في زيارة لأحد الأطفال، أقنعه بها صديقه فارس:

- شريف يا صديقي، تحتاج للخروج من هنا، يجب أن ترى الشمس.

حاول شريف إقناع فارس- العميل الميداني- بتركه ليواصل عمله- كخبير كمبيوتر-، ولكن فارس أصر على اصطحابه معه إلى المدرسة، لزيارة ابن صديق لهم يؤدي عملية في الخارج. استقبلهما المدير بترحاب شديد، وقادهما إلى مكتبه، وأرسل من يحضر الطفل، كان فارس يثرثر مع المدير في موضوعات مختلفة، حين وقف شريف، وسار للخارج؛ فسأل المدير: ماذا هناك؟

واصل شريف سيره للخارج دون تعليق.. كان يسمع صوتا قادما من بعيد، من أكثر من خمسة عشر سنة.. صوتًا يعيده طفلا صغيرا مذعورا، ولكنه يطمئنه قائلا: كل شيء سيكون على ما يرام.

سار كالمسحور نحو مصدر الصوت، وفارس والمدير يتطلعان إليه في عدم فهم حتى وصل إلى فصل بابه مفتوح؛ فنظر داخله، ورآها واقفة تمسح على

رأس أحد الأطفال قائلة: كل شيء سيكون على ما يرام.

عادت تواصل شرح الدرس، فهمس شريف: أسيل.

ولكن صوته خرج أعلى مما توقع؛ فالتفتت أسيل نحوه، ومعها الأطفال؛ فارتبك شريف، حتى أفزعه صوت المدير -وقد لحق به مع فارس- :

- الأستاذة أسيل مدرسة اللغة العربية.

وسأله فارس: ماذا هناك؟

لم يجب شريف، واقتربت أسيل منه تتطلع إليه، وعلى وجهها تعبير من يحاول استدعاء ذكرى بعيدة.. قال شريف: إنها هي يا فارس، إنها أسيل.

حك فارس رأسه بيده للحظات، قال: أسيل، ملاكك الهامس؟

هز شريف رأسه ايجابيا؛ فضحك فارس بصوت عال، وقال: لا أصدق أننا وجدنا أسيل، ملاكك الهامس.. وأين؟ في مدرسة الهدى التي لم تكن تريد الحضور إليها.

لكزه شريف ليصمت، واحمر وجه أسيل، ونظر لها المدير مستفسرا، فقال شريف شارحًا:

- أنا أعرف الأستاذة أسيل. لقد قابلتها في مستشفى الأمل أثناء الحرب.

قال فارس: لا أصدق أنني من وجدها في النهاية.

قال المدير:

- لقد كانت والدتها سيدة عظيمة، يدين لها الكثير من أطفالنا بحياتهم.

توجه فارس بالكلام إليها: شريف لا يكف عن الحديث عنك، حتى أننا فكرنا في عمل إعلان عنوانه عودي يا أسيل.

لكزه شريف ثانية، وقال له: أليس لديك عمل تقوم به؟

فقال فارس: بلى، لدينا الكثير من العمل؛ فهيا بنا لنؤديه.

زفر شريف في ضيق، وسار معه؛ فهو يعرف أنه لن يظفر بكلمة معها وفارس بجواره. لكن أسيل لحقت بهم مسرعة حتى حاذته؛ فقالت:

- أنا أتذكرك.

أجمل كلمتين سمعهما شريف في حياته.. ظل يرددهما طوال طريق العودة مع فارس: أنا أتذكرك؛ لقد قالت أنا أتذكرك.

وفي صباح اليوم التالي، كان شريف أمام المدرسة قبل أن تفتح أبوابها، وظل ينتظرها حتى رآها قادمة من بعيد، فأسرع نحوها: أسيل!

توقفت أسيل مكانها، وتطلعت إليه، أهي سعادة ما يلمح في عينيها، أم أنه يوهم نفسه بشي غير موجود؟ ولكنه تأكد في اللقاء الأول الذي جمعها سويا.. شعر شريف براحة لم يشعر بمثلها قط، إنها قادمة من عالمه بشكل ما.. إنها نصفه الآخر الذي كان يبحث عنه منذ زمن، حكى لفارس عما حدث؛ فضحك وقال: لا أعرف ماذا ترى فتاة رائعة مثل أسيل في شخص مثلك، لا يفعل أي شيء سوى الجلوس خلف شاشة الكمبيوتر.. إنها تحتاج لرجل مثلي، يخرج لمواجهة العالم بقلب فولاذي.

رد شريف وهو يلكزه في مرح: لا تنس أن هذا الجالس خلف شاشة الكمبيوتر، هو الذي يوجهك أثناء مواجهتك مع العالم، وبدونه لا تستطيع فعل أي شيء.

مرت الأيام، وتمت خطبة شريف وأسيل، ثم زواجهما في حفل عائلي، شعر شريف خلاله بسعادة لم يعرفها من قبل ولم يتخيل أنها موجودة. ثم جاء اليوم الذي أخبرته فيه أسيل أنها حامل؛ فحملها شريف ودار بها في الهواء وهو يصيح من شدة الفرح وسعادته تتضاعف ألف مرة، لا يمكن أن يكون أسعد من ذلك.. حتى حمل رامز لأول مرة؛ فوجد نفسه يهمس:

- يجب أن أبقى هنا. يجب أن أبقى بجواركما؛ لا يوجد أي مكان آخر أريد أن أكون به، ولا أي شخص آخر أريد أن أكون معه.. أنت مخرجي.

ولكن هذا القاتل جاء فحرمه من ولده، ولم يكتف بهذا، بل استدعى أسيل المسكينة؛ ليحكي لها عما فعله. سيجعله يدفع الثمن، أقسم أن يفعلها حتى لو كان آخر ما يفعله في حياته.

يعرف شريف الكثير عن مركز المستمعين، بحكم عمله كخبير كمبيوتر في المكتب التاسع. ولكن هذا الكثير يخبره أنه لا يعرف أي شيء.. لا أحد يعرف أي شيء عن المستمعين؛ فهو خارج الشبكة، يعمل بنظام مختلف، وضعته مجموعة غامضة من الخبراء، لا يعرفهم أحد، ولم يرهم من قبل. يطلقون على المركز أونجي وانيو، نسبة للأسطورة القديمة، التي تقول إن أونجي وانيو كان صيادا وحيدا، لا أحد يعرف عنه أي شيء، لا أحد يعرف من أين جاء، ولا أين يعيش.. تراه القبائل من بعيد يسير وحيدا في الصحراء، أو يطارد فريسة غريبة، أو يصارع كائنا لم يروا مثله من قبل. شاعت الأساطير، والقصص عنه؛ فأعلن الملك جائزة كبيرة لمن يأتي به، فخرج صياد فآخر خلفه، ولم يعودوا؛ وضاعف الملك الجائزة، فخرج عشرة من أشجع الصيادين خلفه، ولكنهم أيضا لم يعودوا، ولم يسمع أحد عنهم ثانية.. وذات ليلة قمرية، سمعوا صراخا رهيبا قادما من قصر الملك؛ فخرجوا، ليجدوا القصر يحترق، وأونجي وانيو يسير وسط النيران، فانحنوا في خشوع، ورددوا صلوات قديمة ليرحل ويتركهم، ولم يقترب أحد منه ثانية.

لقد حان الوقت ليعود شريف إلى شيء وعد عمه ألا يعود له. سيعود كأفضل مخترق عرفته الشبكة، وسيعود إلى مجموعته القديمة التي قطع علاقته معها منذ سنوات، وهذه المرة سيطلق قدرته الكاملة، ولن يكبح جماحه، ولن يوقفه شيء عن تحقيق هدفه، دخل إلى قناة الاتصال المؤمنة القديمة، وكتب: مرحبا.

مرت دقائق، حتى جاءته الإجابة.. رسالة من السهم، أحد أصدقائه القدامى:من هنا! العقل! بعد كل هذه السنوات، لا أستطيع أن أصدق نفسي.

كتب شريف: أهلا بك يا صديقي، كيف حالك؟ وكيف حال البقية؟

- بخير يا رجل، كيف حالك أنت؟ لقد اختفيت فجأة دون كلمة واحدة؛ فلم نعرف ماذا حدث لك.

- آسف جدا، لقد اضطررت لهذا رغم إرادتي. كيف حال البقية؟

- لقد تفرقت المجموعة من بعدك، ولكني مازلت على اتصال مع سيف، وريان.

- جيد، أريدك أن تجمعهم؛ فأنا أحتاجكم لأمر عاجل.

- رائع؛ يبدو أن العصابة القديمة على وشك العودة.

أغلق شريف نافذة الحوار، وتراجع في مقعده، وتطلع إلى أسيل التي دخلت وجلست بجواره قائلة: لقد كلمتني هند.. لم تستطع إقناع شيرين بإعطائي فرصة ثانية لأستخدم الخوذة ألفا.

قال شريف: لا تقلقي؛ سأهتم بكل شيء.

رأى الانكسار في عينيها، فشعر بقلبه يذوب، وتمنى أن يمسك رأس القاتل، ليحطمها ألف مرة، ليعوض النظرة التي يراها في عينيها.. سيحطمها ألف ألف مرة، وينثر رمادها تحت قدميها؛ ليمسح تلك النظرة من عينيها.

طبع على الشاشة بعض عبارات البحث عن الجهاز المستخدم في مكان سعيد؛ فتراصت المعلومات أمامه:

ظهر الجهاز لأول مرة تحت اسم (أي آم-٣)، كجهاز للاستجواب، يمكن المحقق من النظر إلى أفكار المتهم، ولكن تم إلغاء العمل به بسبب آثاره الضارة على المتهمين الذين تعرضوا للاستجواب بواسطته، تم إصدار القرار بإعدام الجهاز، ولكن الضابط المسئول عن العملية قام ببيع الجهاز لأشخاص لا يهمهم الآثار الضارة، بل يحبونها، ويريدونها لأعدائهم.

اختفى الجهاز لفترة، ثم عاود الظهور باسم (أي إن-٧)، وبنسخة أكثر تطويرا، تسمح بدخول أربعة أشخاص في نفس الوقت، مما يقلل الآثار الضارة على المستخدمين، واستمر تطوير الجهاز حتى تلقفته شركة شهيرة،

قامت بتطويره إلى شكله الحالي، وتم إضافة المشروب الغريب، وهو مجرد مشروب يساعد على الاسترخاء، والأغنية القديمة التي لا تعني شيئا، ولكنها لإضافة جو من السحر والغموض على الجهاز، وطرحته للأثرياء الذين يبحثون عن السعادة المفقودة مقابل مبلغ ضخم للغاية، خلال صفقة تتم في ظروف خاصة من السرية.

قالت أسيل: لن نستطيع الحصول على نسخة من هذا الجهاز.

فقال شريف:

- اطمئني، لن نحتاج إلى نسخة لنا؛ فسنستخدم جهازشيرين.

- لقد أخبرتك؛ شيرين لن تسمح لي باستخدام جهازها، تقول إنها لا تريد جثة على سجادتها الجديدة.

- وأنا أخبرتك ألا تقلقي؛ سأهتم بكل شيء.

صمتت أسيل، وربت شريف على يدها مطمئنا، أصدر الكمبيوتر صوتا قصيرا يشير إلى استقباله رسالة جديدة؛ ففتح قناة الاتصال، وقرأ رسالة السهم: سيف، وريان هنا.

فقالت أسيل: أليست هذه هي المجموعة التي وعدت عمك ألا تتصل بهم ثانية، بعد أن كدت تقع في قضية كبيرة؟

طبع شريف رسالة جديدة، قال:

- كل شيء قلته أو فعلته من قبل لا يهم، ما يهم هو شيء واحد فقط، الوصول إلى الشخص الذي قتل ابننا، مهما كان الثمن.

تطلعت أسيل إلى الشاشة، التي راحت الرسائل تتراص عليها للحظات، نهضت وهمست بشيء لم يفهمه شريف، ولم يهتم، بل واصل الكتابة:

- لقد افتقدتكم جدا يا رفاق، وأنا آسف جدا لمغادرتي، حدث الأمر رغما عني. والآن أنا أحتاج مساعدتكم..

كتب السهم: لقد عادت العصابة القديمة.

وكتب سيف: ماذا تريد؟

فكتب ريان: ليس بهذه السرعة.

كتب السهم: ماذا تعني؟ لقد عاد العقل.

كتب ريان: اثبت أنك العقل أولا.

كتب شريف: لا أحد يعرف قناة الاتصال، وكيفية دخولها غيرنا.

كتب ريان:

- تختفي فجأة منذ سنوات، ثم تظهر فجأة، وتقول إنك عدت لأنك تحتاج مساعدتنا، وتريدنا أن نصدقك بهذه السهولة! يجب أن تثبت نفسك أولا.

كتب سيف: إنه العقل، أنا أعرف.

كتب ريان: اثبت نفسك، أو نخرج الآن.

فكر شريف للحظات، ثم كتب: حسنا ماذا تريدني أن أفعل.

جاءته الإجابة من ريان: أريدك أن تخترق هذا الموقع.

أرسل ريان عنوان الموقع، فتطلع شريف إليه.. لا يمكنه أن يفعل هذا، لا يمكنه اختراق هذا الموقع؛ فهو من قام بإعداده وتأمينه. ولكنهم لن يساعدوه إذا لم يقم بهذا الاختراق. كتب السهم: هيا يا عقل، افعلها.

لمست أصابعه الأزرار، وتراجعت بسرعة كأن الكهرباء صعقتها.. عادت ثانية، وتحركت ببطء فوق الأزرار.. يشعر أن هناك دهرًا بين كل حركة وأخرى.. تحبو أصابعه فوق الأزرار، تمشي ببطء، تركض، تركض بمنتهى السرعة.. أنهى الأمر، وأرسل النتيجة إلى القناة، وكتب: والآن؟

كتب ريان: كنت أعرف أنك العقل، ولكني أردت التأكد أن الصدأ لم يأكل أصابعك الذهبية.

كتب السهم: كنت واثق أنك ستفعلها.

كتب شريف: أريد أن أعرف كل ما لديكم عن المستمعين.

كتب السهم: يبدو أنك منقطع منذ فترة طويلة.

كتب ريان: لا أحد لديه أي شيء عن المستمعين، آخر ما سمعناه أن ضوء القمر كانت تجمع فريقًا لمحاولة اختراقه، ولكنهم اختفوا، ولم نسمع عنهم بعدها.

كتب السهم: كما يحدث مع كل من يحاول الاقتراب منه.

كتب ريان: لا أحد يقترب من أونجي وانيو.

كتب سيف: ماذا تريد أن تفعل؟

كتب شريف: لست متأكدًا بعد، ولكني سأحتاج مساعدتكم قريبا، في شيء يتعلق بالمستمعين.

كتب ريان: جيد.

كتب السهم: لست واثقا.

كتب سيف: حسنا.

كتب شريف: شكرا لكم يا رفاق.

خرج من المحادثة، وقال: أتمنى ألا نحاول صيد أونجي وانيو.

كتب شيرين أبو النور في نافذة البحث الخاصة، وهو يقول:

- والآن، لنرَ ماذا سأفعل بشأنك.

***

-٢٤-

- باهي.. باهي.

نادت جيانا وهي تعدو نحو بيلسان، التي عدت نحوها هي الأخرى واحتضنتها وحملتها، ودارت بها دورتين قبل أن تضعها أرضا قائلة:

- كيف حالك يا صغيرتي؟

- بخيريا باهي

جذبتها من يدها قائلة : تعالي يا باهي، أريد أن أحكي لك الكثير.

سارت بيلسان معها إلى داخل المنزل، فرأت ريهام، الجالسة كعادتها بجوار النافذة تنتظر غائبا لا يعود. اتجهت بيلسان نحوها، واحتضنتها قائلة:

- كيف حالك يا أمي؟

احتضنتها ريهام بقوة، وربتت على ظهرها قائلة: أنا بخيريا بنيتي؛ أخبريني كيف حالك أنت؟ أشعرأن هناك أمرا كبيرا يقلقك.

شعرت بيلسان بالدموع تترقرق في عينيها.. دائما تفهمها ريهام دون أن تتكلم. أكملت ريهام: لا تدعي الخوف والقلق يأكلان عقلك يا بنيتي، كل شيء سيكون على ما يرام.

تذكر بيلسان أول مرة أخبرتها ريهام بهذه الكلمات.. كانت بعد انتهاء الحرب، عند قدوم العائلات لتبني الأطفال الذين فقدوا ذويهم، واتجهت ريهام نحوها مباشرة، كأن هناك رابطًا خفيًا جذبها نحوها. احتضنتها، وهمست في أذنها: لا تخافي يا بنيتي، كل شيء سيكون على ما يرام.

عاشت بيلسان أسعد سنوات حياتها في منزل ريهام، التي عوضتها عن فقدان الأب والأم. لم تشعرأبدا أنها مختلفة عن هشام ابنها، بل كانت تشعر أن ريهام تعاملها أفضل منه، وتحبها أكثر منه، فأحبتها بيلسان مثل والدتها،

وربما أكثر، وأدمنت القصص التي كانت ريهام تحكيها لها أثناء جلوسهما بجوار النافذة، في انتظار عودة أشرف التي لا تجئ.

شعرت بيلسان أنها تحبه من كثرة ما حكت لها ريهام عنه؛ فقررت أن تجده. بحثت في كل ما استطاعت أن تجده من أخبار عن الحرب، ولكنها لم تجد شيئا؛ ولكنها شعرت أن لا أحد يذكر الحقيقة كاملة؛ فهناك دائما جزء خفي، ويجب أن تعرفه. كانت تلك بداية دخولها إلى عالم الاختراق، لتجد الحقيقة الكاملة بلا قيود. لم تجد أشرف؛ ولكنها وجدت عالمًا آخر سحرها تماما، وكبلها بقيوده، فلم تغادره أبدًا، وأصبحت ضوء القمر، المخترقة التي يعرفها الجميع، ويبتعدون عن طريقها.

هاجمتها الكوابيس كثيرا عن طفولتها القاسية.. ترى والديها يصرخان بمنتهى القوة، وفهمي يبتسم ويزيد عذابها؛ فتستيقظ مفزوعة لتجد ريهام بجوارها، تحتضنها وتمسح على شعرها؛ كأنها شعرت بها قبل أن تستيقظ:

- لا تخشي شيئًا يا بيلسان، كل شيء سيكون على ما يرام.

تحكي لها عما رأته؛ فتقول ريهام: عليك فقط أن تتذكري القوة والصلابة التي منحتها لك هذه الأحداث، فطفلة أخرى لم تكن لتنجو إذا مرت بما مررت به، أو على الأقل تفقد عقلها؛ ولكنك خرجت منها قوية، مثل الذهب يجب أن يتم صهره أولا لنصنع منه الحلي الجميلة.

وحين أعلن هشام رغبته في الزواج؛ قررت بيلسان أن الوقت قد حان لتنتقل وتبدأ حياتها بمفردها، وهو أمر عارضته ريهام كثيرا، قالت:

- إذا كان هشام يريد الزواج؛ فليجد لنفسه منزلا آخر.

ولكن بيلسان أصرت على موقفها، وأخبرتها أنها كانت ستتخذ هذه الخطوة، سواء تزوج هشام أم لا، فبكت ريهام كثيرا، وبكت بيلسان أيضا، وبكي هشام وهو يودعها ويخبرها أنها أفضل شقيقة يمكن أن يحصل المرء عليها؛ ولكنها لم تتراجع عن موقفها؛ فقد حان الوقت لتبدأ مواجهة الحياة... وحدها.

لم تنم بيلسان ليلتها الأولى في المنزل الجديد.. الجدران تضيق حتى تسحق صدرها، وتشع وحدة وبرودة، والمكان تملؤه وحشة غريبة. لقد باتت تتقلب في فراشها منتظرة دخول ريهام لتتفقدها وتقبلها على جبهتها، وتتمنى لها ليلة سعيدة.

أفاقت من خواطرها على صوت ريهام:

أنا واثقة أنك ستكونين بخير، مثلما أنا واثقة من عودة أشرف.

جذبتها جيانا من يدها قائلة: باهي، هيا بنا لنذهب إلى غرفتي.

انحنت بيلسان، وقبلت يد ريهام قائلة: أحبك كثيرا يا أمي.

قبلت ريهام رأس بيلسان، قالت: وأنا أيضا، أحبك كثيرا يا طفلتي.

سارت بيلسان مع جيانا إلى حجرتها، وجلست على الفراش، فأحضرت جيانا ألبوم صور كبير الحجم، وجلست بجوار بيلسان، وفتحته على ركبتيها قائلة: لقد كانت حفلة رائعة يا باهي، لم ينقصها سوى وجودك معي.

- آسفة يا عزيزتي، كنت مشغولة جدا.

أشارت جيانا نحو إحدى الصور قائلة: لقد سامحتك؛ فأنت تعرفين أنني لا يمكن أن أغضب منك؛ فأنت صديقتي الأقرب. والآن انظري، هذه صورتي في ثياب الأميرة.

قبلتها بيلسان قائلة: أنت جميلة للغاية.

- أعرف، فقد أخبرني بذلك كل من رأى الصور.

ابتسمت بيلسان، وواصلت جيانا عرض الصور، حتى توقفت عند صورة تظهر جيانا واقفة وبجوارها طفلة أخرى وجهها مظلل بالأسود؛ فسألت بيلسان: من هذه؟

- هذه إيلاف، كانت صديقتي، ولكنها لم تعد كذلك؛ فهي سيئة للغاية.

- ماذا فعلت؟

- إنها تخبر الآخرين أنني قلت وفعلت أشياء لم أقلها أو أفعلها.

- لا أذكر أنني غضبت من صديقة قط عندما كنت في مثل سنك.

- لماذا؟

- لم يكن لدي أصدقاء؛ فكل أصدقائي إما موتى أو هاربون مع أهليهم.

- ولكنني صديقتك يا باهي، أليس كذلك؟

احتضنتها بيلسان قائلة: بالطبع، أنت أفضل صديقة حصلت عليها، عندما أنظر في عينيك الجميلتين، أتأكد فعلا أن الأمور ستكون بخير. أنت الدليل الحي أن الحياة تنتصر في النهاية.

قفزت جيانا نحو أحد الأدراج ففتحته، وأخرجت منه ميدالية صغيرة، قدمتها لبيلسان قائلة: لقد أحضرت لك هذه الميدالية.

التقطتها بيلسان من يدها، وتأملتها قائلة:

- إنها جميلة للغاية، مثلك.. سأحتفظ بها دائما.

أراحت بيلسان جسدها على الفراش، وجلست جيانا بجوارها تداعبها، وتمسح على شعرها. أغمضت بيلسان عينيها، وقالت:

- أتعرفين يا جيانا، أعتقد أنني رأيتك من قبل.. من قبل أن تولدي، كنت في مثل سنك، كنت مختبئة خلف كومة من القمامة في أحد الشوارع الجانبية، وصوت الرصاصات والقذائف المتتالية يصم أذاني على الرغم من محاولتي كتمها بيدي. رأيتك قادمة نحوي، تسيرين وسط الدماء و....

انفتح الباب بعنف؛ فصمتت بيلسان واعتدلت؛ لتجد غمام- أم جيانا- أمامها، وخلفها هشام يجذبها للخارج. قالت غمام: هذا بالضبط نوع الحوار الذي حدثتك عنه.

جذبها هشام قائلا: تعالي يا غمام، سنتحدث لاحقا.

ثم التفت نحو بيلسان قائلا:

- معذرة بيلسان، لم نقصد اقتحام المكان هكذا.

سارت غمام عدة خطوات للخارج، ثم أشارت إلى بيلسان قائلة:

- أريد أن أتحدث معك.

قالت جيانا: ستكمل لي باهي حكايتها، ثم تخرج للحديث معك.

قالت غمام: الآن.

قبلت بيلسان رأس جيانا، وقالت: سأكمل لك الحكاية لاحقا يا صديقتي.

سارت للخارج؛ فأغلقت غمام الباب على جيانا، وساروا للغرفة الأخرى.
قالت غمام: ما هذا الكلام الذي تقولينه لجيانا؟

قالت بيلسان: ماذا؟

وقال هشام:

- بيلسان لم تقصد شيئا، إنها تتحدث مع جيانا، وجيانا تحبها، و...

قاطعته غمام قائلة: وحديثها هذا تكرره جيانا لزميلاتها. لقد تلقيت أكثر من شكوى أن جيانا تحكي لزميلاتها عن أطفال الحرب، وعن فقدانهم لآبائهم وعيشهم في الشوارع وسط الدماء والجثث المتعفنة.

قال هشام: هذا ما حدث بالفعل.

قالت غمام: نعم هذا ما حدث؛ هل تفهم؟ حدث وانتهى، ولسنا في حاجة لذكره طوال الوقت، كأننا نعاقب من لم يشهدوه معنا؛ فنصر على تشويه أرواحهم كما حدث معنا.

التقطت غمام إحدى كراسات جيانا، وناولتها لبيلسان قائلة:

- انظري ماذا كتبت جيانا!

فتحت بيلسان الكراس، وقرأت: ثلاثة أشخاص وجدوها... قال الأول لنقتلها... قال الثاني لنتركها... قال الأول لنقتلها... قال الثاني لنتركها... فقال الثالث لنرمي عملة معدنية، ونري هل نقتلها أم نتركها....

قالت غمام: أي طفلة صغيرة تكتب هذا الكلام عندما يطلب منهم كتابة أغنية للإذاعة؟!

قال هشام: بالتأكيد بيلسان لم تعلمها هذا الكلام.

قالت غمام: لقد علمتها أنا.

وصمتت لحظة ثم أكملت: انتظر لحظة، لا يمكن أن يكون أنا؛ فأنا لم أشهد الحرب، أنا من الأجيال التافهة التي ولدت بعد الحرب، فلم تشهد معاناتكم الكبيرة.

قالت بيلسان: رائع.

نظرت لها غمام غير فاهمة، فأشارت بيلسان نحو إحدى صفحات كراسة جيانا: لقد حصلت جيانا على الدرجة النهائية في الاختبار.

نظرت لها غمام وشفتاها تتحركان بحثا عن شيء تقوله، ولكنها لم تجد، فصرخت في وجهها وانصرفت، فقال هشام:

- لا تغضبي منها، إنها تحاول أن تحمي طفلتها.

قالت بيلسان: أعرف.

تعرف بيلسان جيدا أن الموضوع لم يكن حول جيانا. إنها ذريعة أخرى لبدأ الشجار معها؛ فمذ تزوجت غمام هشام، وهي تشعر بالغيرة الشديدة من قرب هشام وبيلسان، حتى أنها صارحت هشام: أعتقد أنك تحب بيلسان أكثر مني.

فقال هشام:

بيلسان شقيقتي التي تربيت معها، ولكنك زوجتي الحبيبة، نصفي الآخر الذي أريد قضاء باقي عمري معه.

وتهز غمام رأسها في اقتناع لا يدوم طويلا، وتعود لتتصيد الفرصة للشجار مع بيلسان، التي كانت تتجاهلها دائما.

قالت بيلسان: لقد تحملت ما لا يمكن تحمله في طفولتي، فلن أعجز عن تحمل القليل من الغمام.

خرجت بيلسان، ومرت بريهام التي لم تغير جلستها، فقبلت رأسها وقامت لتنصرف. قالت ريهام:

- ستذهبين في رحلة قد تطول، ولكنني واثقة أنك ستعودين لي ثانية.

جمدت كلماتها بيلسان في مكانها للحظات.. ثم أكملت طريقها قائلة:

- أتمنى أن تكوني محقة.

***

-٢٥-

تطلعت الخادمة تالا بدهشة شديدة إلى شريف، الجالس أمام الخوذة أوميجا في جهاز مكان سعيد؛ فلأول مرة ترى رجلا يحضر هذه الجلسة. ولكنها ابتلعت دهشتها، وواصلت المرور بالأكواب، إثر نظرة نارية من شيرين. قالت سهير: مرحبا بك يا شريف، ليس الأمر أنني أكره وجودك معنا، ولكني أشعر بالدهشة الشديدة لسماح شيرين لك بالقدوم، فهل لي أن أسأل لماذا؟

فابتسم شريف قائلا: شكرا لك على ترحيبك الحار، لقد توقعت أن تكوني أول المرحبين، فقد أخبرتني أسيل بالكثير عنك.

فابتسمت أسيل بدورها، وقالت: لقد أخبرته كم أنت رائعة.

فقالت سهير: شكرا لكم، أنت صديقة جيدة يا أسيل.

قال شريف: إنني هنا لأقوم بضبط الجهاز، لأجعله يمنحكم سعادة أكثر.

قالت أسيل: بالإضافة إلى السعادة التي تمنحونها لي بوجودي معكم.

ابتسمت سهير، وهزت هند رأسها في عدم تصديق لما يحدث، ولكنها ظلت صامتة. مرت الخادمة بأوراق الأغنية على الجالسين، فقالت شيرين:

- سنبدأ الجلسة الآن.

استشعر شريف رغبتها الشديدة في الانتهاء من هذه الجلسة، ليمكنها الخلاص منه والعودة لنظام جلساتها المعتاد. فعلى الرغم مما يفترض أن يقدمه لها، إلا أنها لا تشعر بالراحة لوجوده بين صديقاتها، وتتمنى الخلاص منه سريعا.

لقد تم الأمر، بأن طلب شريف من أسيل أن تحدد له لقاء مع شيرين، وقال لها: أخبرتك أن تثقي بى، فأنا أعرف ما الذي تريده شيرين أكثر من أي شيء، وسأمنحه لها.

وفي منزل شيرين، جلس يتطلع إلى مظاهر الترف والبذخ البادية في كل ملليمتر من المكان، حتى رآها قادمة نحوه؛ فنهض ليحييها، ولكنها وقفت بعيدا عنه قائلة: لقد أخبرت هند، وأخبرت زوجتك من قبل، لن أسمح لها بالعودة إلى هنا....

قاطعها شريف قائلا:

- ولكنني لست هنا للتحدث عن أسيل، أنا هنا للتحدث عنك.

فاجأها بالفعل، فتساءلت بنبرة أهدأ: ماذا عني؟

- وعما تمثله لك مكان سعيد.

- مكان سعيد تمثل قطرات من السعادة نسرقها من واقعنا المر، وأحب مشاركتها مع صديقاتي، فلا نعيم مع الوحدة.

- وتمثل لك أيضا شعور بالقوة والسيطرة، فلا يمكنك أن تنكري النشوة التي تسري في جسدك عندما ترين الجميع يتقاتلون من أجل مكان في مكان سعيد.

صمتت شيرين للحظات، وقالت: لقد أخبرتك بما لدي.

فقال شريف: ولكن أنا لدي شيء لأقوله، ماذا لو أخبرتك أن هناك من يهدد عرشك.

فجلست شيرين على أقرب مقعد، وقالت:

- مستحيل، الجميع يعرف أنني الوحيدة التي تملك مكان سعيد.

- يمكنني أن أؤكد لك أن هناك من يسعى للحصول على نسخة أخرى من الجهاز.

صمتت شيرين للحظات، وقالت:

- أنت تكذب.

- أنت تعرفين أنني لا أكذب، وأنا واثق أنك سمعت من يتحدث عن هذا الأمر من قبل.

- لقد بذل زوجي الكثير من الجهد والمال ليحصل على الجهاز، وعلى الرغم من المال الذي دفعناه، إلا أننا اضطررنا للانتظار عامين حتى نحصل عليه.

غطت وجهها بيديها، واختنق صوتها: يا إلهي! لا أصدق أن هذا يحدث.

فقال شريف: ولكنني لم أتِ إلى هنا لأخبرك بالمشكلة؛ لقد أتيت بالحل.

- هناك حل!

انتظر شريف للحظات لتترك كلمته أثرها، وقال: بالطبع، والحل يتكون من شقين: الأول أنني سأقوم بتعطيل أي محاولة لشراء نسخة من الجهاز.

- ولكنهم سيحصلون عليه في النهاية.

- ربما يحصلون عليه، وربما لا، ولكن هذا يقودنا للشق الثاني من الحل. سأقوم بتطوير البرنامج الخاص بجهازك على نحو لا مثيل له. سأقوم بمضاعفة جرعة السعادة التي يمنحها الجهاز لكم ثلاث مرات على الأقل.

- وبذلك يصبح أفضل من أي جهاز آخر!

- بالضبط.

صمتت شيرين للحظات، ثم سألته: هل أنت متأكد أنه يمكنك فعل هذا؟

- هل تعرفين نظام شركة (إكس تي ٣)، الذي يتحدث الجميع عنه؟ إنه من تصميمي.

همست شيرين: شكرا لله.

ثم قالت: ماذا تريد؟

- لا شيء؛ أنا أريد المساعدة فحسب.

تطلعت إليه شيرين للحظات غير مصدقة، ثم هزت رأسها قائلة: حسنا.

نهض شريف لينصرف، فقالت: أخبر أسيل أنني سأنتظرها في موعد النادي القادم، فلا يمكننا أن نقوم بالجلسة بدونها.

فقال شريف: شكرا جزيلا لك يا سيدتي، أنا واثق أن أسيل ستكون في غاية السعادة.

ردد شريف الأغنية مع الباقين. وعلى الرغم من معرفته أن كلمات الأغنية لا تعني شيئا، إلا أنه شعر بها تحرك شيئا داخله، شيئا لا يعرفه، كأنها توقظ حاسة جديدة فيه.. ربما السبب هو المشروب الذي منحه استرخاء عجيبا، وربما شيء آخر لا يعرفه. وعلى عكسه تماما، كانت أسيل تردد الكلمات شاعرة بثقلها، كأنها تلقي حجارة في فمها، تتمنى الخلاص منها سريعا، لتدخل لعقلها وتعثر على قاتل ابنها الساكن في رأسها، يردد طوال الوقت: أنا قتلت ابنك... أنا قتلت ابنك.....

ولكنها مضطرة لمتابعة الأمر بصورة طبيعية، كما طلب شريف، حتى لا يشك أحد فيما يفعلان، إذ سيقوم بإدخال برنامج صغير عبر الخوذة أوميجا، يتيح له فصل الباقين عنها عند نقطة معينة، فيبقيهم في مشهد آخر أعده سابقا، ويقوم بمتابعتها عندما تدخل لمواجهة القاتل. لقد وعدها وهو يربت على كتفها قائلا: سأكون بجوارك طوال الوقت.

وضعت أسيل الخوذة على رأسها، واستحضرت الظل القاتل أمامها، وهمست: أنا قادمة من أجلك.

مرت لحظات، جاهدت خلالها لتركيز أفكارها، المتناثرة رغما عنها. عليها أن تجد ما يجعلها سعيدة أولا، لتشغلهم فيه، ثم تبدأ بحثها. رأت مشاهد حياتها تمر بسرعة، فجذبت نفسا عميقا، وقفزت داخله هامسة:

- إلى السعادة.

وجدت نفسها مع شريف في السيارة، ورامز يجلس في المقعد الخلفي ممسكا بحقيبته الصغيرة، وشريف يقول:

- هل أنت متحمس ليومك الأول في المدرسة يا صديقي.

فيقول رامز: المدرسة جيدة، أليس كذلك يا أمي؟

فتقول أسيل: بالطبع يا صغيري؛ سوف تتعلم الكثير من الأشياء الرائعة.

قال شريف: فقط حاول ألا يلتهمك الوحش الكامن أسفل المقعد.

بدا الرعب على وجه رامز، فقالت أسيل بابتسامة مطمئنة: إنه يمزح معك يا عزيزي، لا توجد وحوش في المدرسة، أليس كذلك يا شريف؟

فاحتضن شريف رامز قائلا:

- بالطبع لا توجد وحوش، والآن اذهب لتتعلم يا صديقي.

سار رامز للداخل؛ فقالت أسيل: لا أصدق أن صغيرنا قد كبر، وحان وقت ذهابه للمدرسة، كأنه كان يحبو بالأمس.

فوجئت أسيل برامز يقف بجوار نافذتها ويتطلع إليها قائلا:

- ماذا تفعلين هنا؟

- نقوم بإيصالك إلى.....

بترت أسيل عبارتها عندما تنبهت إلى أن المشهد قد تجمد خلفهما.. شعرت أن الهواء ذاته قد تجمد مكانه، فأدركت أن عملية الفصل قد حدثت. كرر رامز: ماذا تفعلين هنا؟

هذا غريب، إنها لا ترى ذكرياتها، بل هذا جديد، ويمكنها التفاعل معه!

قال رامز: لماذا تريدين رؤيته؟

- لقد قتلك، لقد أخذك مني.

جذبها رامز من يدها، فتلاشى المشهد من حولها، ووجدت نفسها تتحرك معه عبر الزمان والمكان، فترى نفسها تتحدث معه في أكثر من وقت، ومكان:

- الحب يا رامز أجمل شيء في الوجود، يجب أن تحب كل شيء وكل شخص، حتى من يسئ إليك، ففي النهاية كلنا شخص واحد، اترك بالحب يغمرك، ويفيض ليغمر من حولك.

التفت نحوها قائلا:

- لقد ربيتني على الحب، فلماذا تريدين أن تعتنقي الكراهية؟!

- هل تعرف ماذا فعل بنا؟ ماذا فعل بي؟ لقد قتلك! صدمك بسيارته، وتركك، وهرب.. تركك لتموت وحيدا على الطريق، بلا حبيب بجوارك؛ ولم يكتف بهذا، بل دعاني ليخبرني بما فعله في وجهي.. هل تفهمني؟ يخبرني أنه قتل ابني في وجهي؛ فلا تحدثني عن الكراهية؛ لأن هذه الكلمة لا تقترب حتى من وصف ما أشعر به.

- أنت لا تعرفين ما تريدين، أنت لا تريدين أن تريه.

فصاحت أسيل:

- بل أريد أن أراه؛ لأعرف من هو.. وسأراه؛ هل تسمعني؟ سأراه.

رأت بقعة مظلمة تتجسد أمامها، ورامز يصيح: أنت لا تعرفين ما تريدين.

سارت أسيل نحو البقعة، وواصل رامز الصياح:

- سيقتلك، هل تفهمين؟ ستموتين أنت الأخرى؟

فالتفتت أسيل نحوه قائلة: لقد مت منذ اليوم الذي فقدتك فيه.

- بل مازالت أمامك حياة طويلة، فقط استديري واذهبي لتعيشها، أرجوك، أتوسل إليك، اتركي كل شيء، واذهبي لتعيشي حياتك.. أرجوك، فلو دخلت من هذا الباب، لن يمكنك التراجع ثانية.

- أتعرف؟ لطالما تساءلت عن كنه الشيء الذي أبقاني حية بعدك. لماذا لم أنتحر مثل شريف.. الآن فقط وجدت الإجابة، وهي في الداخل، وسأذهب لأحصل عليها.

سارت للداخل، غير مبالية بصرخات رامز وتوسلاته، لتجد نفسها في ممر صغير، جدرانه متموجة، لم تستطع أن تحدد أية علامة مميزة بها. كما اخبرها شريف أن تفعل، واصلت السير.. حتى وصلت إلى باب، فدفعته ودخلت، ثم اشتد تشويش الرؤية، وتبادل النور والظلام السيطرة على المشهد المهتز أمامها، وأنصتت السمع؛ فسمعت الصوت الرهيب آتيا من خلف المكتب الضخم: أنا قتلت ابنك... أنا قتلت ابنك ....

سطع الضوء في الغرفة للحظة واحدة، كانت غير كافية لتحديد ملامح الشخص، ولكنها كانت كافية لتعرف أسيل شيئا آخر.. إنه يبكي!

***

-٢٦-

انطلقت بيلسان بالسيارة وهي تردد:

- ثلاثة أشخاص وجدوها... قال الأول لنقتلها... قال الثاني لنتركها... قال الأول لنقتلها... قال الثاني لنتركها.... فقال الثالث لنرمي عملة معدنية ونري هل نقتلها أم نتركها... يا لك من عبقرية يا جيانا! لقد حولتها إلى أغنية.. ثلاثة أشخاص وجدوها...

بترت عبارتها، عندما أصدرت السيارة حشرجة عنيفة كأنها تموت، وتوقفت عن العمل. ظلت للحظات لا تعرف ما تفعل، ثم نزلت، ودارت حول السيارة، في محاولة لا معنى لها لمعرفة الخطأ. دق هاتفها في تلك اللحظة؛ فالتقطته؛ لتجد رسالة أخرى على قناة الاتصال المؤمنة:

- التنين الأحمريقول: اهرب.

أغلقت الهاتف وفكرت.. هذا الشخص جيد بالفعل، لقد نجح في الدخول لقناة الاتصال ثانية بعد أن أغلقتها، ربما لو جاء في وقت أفضل؛ لراق لها اللعب معه.

رأت سيارة سوداء بزجاج معتم قادمة نحوها، فتجمدت مكانها للحظات.. هل من الممكن أن يكونوا؟ هل.....؟

لم تضع الكثير من الوقت، وفعلت أكثر شيء تجيده.. انطلقت تعدو بكل قوتها، فالأفضل أن تهرب وهي مخطئة، من أن تبقى ليتضح أنها محقة بعد فوات الأوان.

سمعت صوت عدو خلفها، فتأكدت أنها محقة؛ لقد وصلوا إليها. واصلت العدو إلى شارع مزدحم، لن يغامروا بقتلها وسط الزحام؛ ولكن هل هي متأكدة؟ ماذا عن رصاصة قناص مجهولة المصدر؟ ماذا عن سيارة تصدمها وتفر هاربة؟.. يجب أن تصل إلى مكان آمن.

انحرفت في أحد الشوارع الجانبية، ولكنها وجدت رجلا في ثياب سوداء ينتظرها ويخفي مسدسا في ثيابه؛ فحاولت التراجع، ولكن آخر ظهر عند بداية الشارع. جمدت في مكانها والرجلان يقتربان منها.. أغلقت عينيها.. سيقتلونها الآن.. الرصاصة التي راوغتها كثيرا، ستجد مستقرها في رأسها أخيرا. سمعت صوتًا آخر، ففتحت عينيها.. كان المشهد مختلفا ما بين إغماضها عينيها وفتحهما، فالرجل الأول ملقى على الأرض، الثاني يتلقى لكمة في أنفه ألحقته به، والمهاجم يسرع نحوها، ويجذبها من يدها قائلا:

- بسرعة.

ركضت معه، وركبا سيارة سوداء انطلقت بهما.

التقطت بيلسان أنفاسها، وسألته: من أنت؟

قال المهاجم: أنا التنين الأحمر.

رددت بيلسان: التنين الأحمر!

- نعم، لقد حاولت الاتصال بك، ولكنك لم تجيبي رسائلي.

- لم أعرف أن....

- لا عليك، أهم شيء أنك بخير.

وصمت لحظة، ثم أكمل: يجب أن نبدأ الآن.

- نبدأ ماذا؟

حدق فيها للحظات، قال: نبدأ العمل، لنكمل خطة الخطة الاحتياطية.

قالت بيلسان: من أنت؟

قال الرجل: أنا ساري، ويجب أن نبدأ تنفيذ خطة وسام الاحتياطية؛ فلم يعد هناك وقت.

- وسام من؟

- وسام بندر، أنتم تعرفونه بالرقم سبعة.

هزت بيلسان رأسها وقد أدركت ما يعنيه، فأكمل ساري: لم يكن وسام متأكدًا من نجاح الهجوم الأول، لذلك وضع خطة احتياطية معي، وأمرني ألا أظهر إلا في حالة الطوارئ القصوى. كان يفترض أن يخبركم نادر بشأنها، ولكنهم وصلوا إليه أولا. والآن، أحتاج للتحدث مع دكتور أحمد بسرعة.

صمتت بيلسان للحظات تقلب الأمر في رأسها، ثم قالت:

- حسنا، سأتحدث مع أحمد أولا ثم أتصل بك.

ابتسم ساري قائلا:

- اطمئني يا بيلسان، هذا ليس فخا من المستمعين لنصل إلى دكتور أحمد.

تمتمت بيلسان بكلمات غير مفهومة؛ فقال ساري:

- المستمعون لا يبحثون عن دكتور أحمد؛ لأنه ببساطة في مركزهم.

انتفضت بيلسان في مقعدها كمن لدغه عقرب، وصاحت: ماذا؟

أشار ساري إلى شاشة جهاز صغير في يده، وقال: لقد أخبرني أحد رجالي أن دكتور أحمد وصل إلى مركز المستمعين منذ قليل.

- لماذا؟

- لا نعرف، ولكن يجب أن تكلميه وتطلبي منه الخروج بسرعة، قبل أن يفسد كل شيء.

التقطت بيلسان هاتفها قائلة: هذا لو سمحوا له بالخروج.

***

- وهكذا نري أنه على الرغم من قوة الهجوم الذي تعرض له المركز، واشتراك فرد من الداخل فيه، فإننا نجحنا في التصدي له وإيقافه، دون خسائر.. فمازال النظام قائما لم يتأثر، ولم يتأثر المستمعون أو يتذكروا أي شيء، كما أننا مازلنا خارج قوائم المخترقين في كل أنحاء العالم؛ ولو أراد أحدهم المحاولة، فليفعل.

صمت لحظة تطلع خلالها إلى وجوه الحاضرين، وأكمل: الخلاصة، أن كل شيء يسير على أكمل وجه، كأن هذا الهجوم لم يحدث.

أنهى فريد قائد أمن المستمعين تقريره بهذه العبارة، فقال نيروز:

- إلا أنه حدث.

قال كريم:

- أؤكد لك أن هذا الهجوم لم يكن ليحدث لولا خيانة القرد اللعين.

قال نيروز: القرد اللعين أثبت أنه الأذكى.

قال كريم : ليس الأذكى.. لقد أحبطنا هجومه؛ فلم يحقق أي شيء، وانظر أين انتهى به الحال.

قال باهر- كبير مهندسي المستمعين الجديد-:

- بخيانة من الداخل، أو بدونها لن يتكرر الأمر. لقد قمنا بتطوير النظام بالكامل بطريقة تجعل اختراقه مستحيلا، حتى بالنسبة لكبير المهندسين.

قال نيروز: لقد سمعت هذا الكلام من قبل.

قال باهر: ليس كلاما، إنها الحقيقة.

قال نيروز: وماذا عن البرنامج نفسه؟ هل كان قادرا على جعل المستمعين يتذكرون؟

قال حاتم: لا، لقد فحصنا البرنامج، لم يكن قادرا على جعل المستمعين يتذكرون. كان يتعارض مع موجات برنامج المسح، فيسبب أثرا على المستمع، ولكن لا يجعله يتذكر.

قال باهر: المستمعون لا يتذكرون؛ لا يمكن كسر هذه القاعدة.

قال كريم: لقد غامر وسام بحياته كلها من أجل لا شيء.

قال المدير: هكذا المغامرات، أحيانا تقودك لمكسب عظيم، وأحيانا تقودك لحتفك.

قال نيروز: من الأفضل أن يصمد نظامكم أمام الفحص القادم، فقد أحضرت أفضل الخبراء لدينا، وإذا اكتشفوا خطأ واحد؛ فستلحقون جميعا بوسام.

قال أيمن: أحضر أفضل من لديك.

اقترب نيروز منه قائلا: تغيير كبير مهندسي المستمعين ليس الحل، كلنا نعرف من هو المسئول الحقيقي.

قال أيمن: أنت....

طرق المدير على مكتبه؛ فصمت الجميع، قال:

- حسنا، فليعد الجميع إلى أماكنهم.

ارتفع صوت جهاز الاتصال الداخلي، فالتقطه وتحدث للحظات، ثم وضعه وأشار إلى أيمن قائلا:

- دكتور أحمد هنا؛ أريدك أن تقابله.

***

-٢٨-

- هل أنتِ بخير؟

نطقت هند بالعبارة وهي تحتضن أسيل في المقعد الخلفي للسيارة، التي انطلق بها شريف عائدا للمنزل، فقالت أسيل: أنا... بخير... شكرا لك.

قالت هند: لقد كانت شيرين محقة.. لم يكن عليك استخدام الخوذة ألفا ثانية، على الأقل في الوقت الحالي.

فقالت أسيل: لا أعرف ماذا حدث، كل شيء كان يسير على ما يرام، ثم وجدتكم ملتفين حولي.. مثل المرة السابقة، لا أعرف ماذا حدث.

قالت هند: كيف استطعت إقناع شيرين بتركك تفعلينها بعد ما حدث في المرة السابقة؟

فقالت أسيل: شريف هو الذي أقنعها.

قال شريف: لقد قمت بتحديث نظام الجهاز الخاص بها.

وصلت السيارة للمنزل، فعاونا أسيل على الدخول والجلوس، وبقيت هند بجوارها، وذهب شريف ليعد لها شيئا تشربه. قالت هند:

- لماذا تريدين دخول مكان سعيد بهذه الشدة؟

لم تجب أسيل؛ فواصلت هند: لماذا أصررت على دخول النادي بعد ما حدث في المرة السابقة؟ ما الذي يحدث معك؟

نظرت أسيل إليها دون إجابة، وترقرقت الدموع في عينيها؛ فقالت هند:

- يمكنك التحدث معي عن أي شيء، لا يوجد أي شيء لا يمكنك إخباري به، أنت تعرفين هذا؛ أليس كذلك؟

انهمرت الدموع من عيني أسيل، وقالت:

- أنت تعرفين أنك أقرب الناس إليّ، وأكثر ما أكرهه هو الكذب عليك، فلا تسأليني ثانية من فضلك؛ حتى لا اضطر إلى قول الأكاذيب.

تطلعت هند إليها للحظات، وقالت:

- كما تريدين يا أسيل، ولكن تذكري أنني بجوارك دائما.

ربتت أسيل على يدها، بينما دخل شريف حاملا صينية عليها كأسا شراب مثلج، فقالت هند: شكرا لك، ولكنني مضطرة للذهاب؛ فمهند بمفرده.

خرجت هند، فجلس شريف بجوار أسيل، ومسح على رأسها قائلا:

- كيف حالك الآن؟

اعتدلت أسيل، وأخذت أحد الكأسين، فرشفت منه رشفة صغيرة، ووضعته ثانية قائلة: أشعر أنني بخير الآن.

- حمدا لله على سلامتك.

أمسك شريف يدها مكملا: لقد شعرت أن روحي ستغادرني عندما لم يتوقف الجهاز. كان كل شيء يسير على ما يرام، وتمت عملية الفصل بنجاح، ثم بدأت أشعر باضطرابات شديدة في إشاراتك الحيوية، كأنك تعانين صراعا هائلا. حاولت إيقاف الجهاز، ولكنه لم يتوقف إلا بعد عدة محاولات.

- لماذا أوقفت الجهاز؟

- ماذا! كان يجب إيقافه وإلا..

مسحت أسيل دموعها بيدها، وقالت مقاطعة: لقد كنت على بعد ثوان قليلة من معرفة القاتل، ثوان قليلة يا شريف.. كل ما احتجته هو ثوان قليلة، حكت له كل ما حدث، فقال شريف:

- لا بأس يا عزيزتي، عليك أن تهدئي الآن، وأنا سأهتم بكل شيء.

قالت أسيل: لم نصل لأي شيء، ولا أعتقد أن شيرين ستسمح لنا

بدخول مكان سعيد مهما فعلنا.

ضمها شريف إليه قائلا: اطمئني يا عزيزتي، سأهتم بكل شيء.

- ماذا ستفعل؟

- نحن لا نحتاج شيرين، ولا غيرها؛ لأنني لن أعرضك لأي شيء مثل هذا ثانية. ليس لديك أية فكرة عما شعرت به عندما شككت للحظة واحدة أنني من الممكن أن أفقدك. لقد كان الأمر.........

لم يستطع شريف إكمال عبارته، وتساقطت الدموع من عينيه، فلم يمنعها. قالت أسيل: أنا بخير الآن، كما أنني كنت أعرف ما أنا مقبلة عليه.

- ولكنني لم أكن أعرف، ولن أكرر ما حدث. لن أدع أي شيء يصيبك أبدا؛ سأموت ألف مرة قبل أن أسمح بحدوث أي شيء لك.

- أعرف يا حبيبي؛ وصدقني أنا بخير، فقط القليل من الدوار، والآن ماذا سنفعل؟

- بل ماذا سأفعل؟ سأقوم في البحث في المكان الصحيح، حيث كان يفترض بي البحث منذ البداية.

- أين؟

- مركز المستمعين.. أنا واثق أن الإجابة هناك.

فتحت عينيها عن آخرهما وهي تسأله: وكيف ستفعلها؟!

قبل شريف رأسها، وساعدها على الاستلقاء قائلا:

- استريحي أنت الآن، وأنا سأهتم بكل شيء.

تركها وذهب لغرفته، جلس خلف جهاز الكمبيوتر الخاص به، ودخل قناة الاتصال الخاصة، وكتب: أحتاجكم لأمر عاجل.

مرت دقائق، ثم ظهرت رسالة ريان:

- كنت أتساءل هل ستختفي مثل المرة السابقة، أم أنك ستعود؟

كتب السهم: ماذا سنفعل هذه المرة؟ هل سنقوم باختراق موقع وكالة الأمن العالمية؟ أم موقع وكالة الفضاء؟

كتب شريف كلمة واحدة: المستمعون.

كتب السهم: أتمنى أن تغير رأيك..

كتب سيف: ماذا تريدنا أن نفعل؟

كتب شريف: لا أعرف بالضبط، ولكنني أريدكم أن تكونوا على استعداد لمساعدتي في اختراق المركز، وسرقة بعض المعلومات.

كتب سيف: وما هي هذه المعلومات؟

كتب السهم: يبدو أمرا خطيرا للغاية.

كتب ريان: يجب أن يكون لديك خطة جيدة، فلا أحب أن أنتهي إلى المجهول مثل ضوء القمر.

كتب شريف: أعتقد أن لدي خطة جيدة للغاية.

كتب السهم: وماذا سنفعل بالمعلومات التي سنحصل عليها؟ سنبيعها؟

كتب شريف: لا، ولا أظن أنها تصلح للبيع.

كتب ريان: على الأقل سنكون الوحيدين الذين نجحوا في اختراق المستمعين.

كتب شريف: ولا يمكنكم قول هذا أيضا.

كتب سيف: ما الذي تريده منا بالضبط؟

كتب شريف: ما أريده منكم هو مساعدة في عملية خاصة جدا تتعلق بحياتي بشكل مباشر. سنقوم خلالها باختراق مركز المستمعين بشكل سري للغاية؛ للحصول على بعض المعلومات الخاصة، التي لن تعرفوا ماهيتها.

كتب ريان: بشكل أساسي، لن نربح أي شيء من هذه العملية، على الرغم من مخاطرها الرهيبة.

كتب شريف: نعم.

كتب ريان: ولكن لديك خطة جيدة.

كتب شريف: أعتقد.

كتب ريان: حسنا، أنا معك.

كتب شريف: أعرف أنني أطلب منكم الكثير، وسأتفهم لو لم تريدوا المشاركة.

كتب سيف: لقد علمتني الكثير يا عقل، لذلك فأنا مستعد لأتبعك لآخر العالم.

كتب السهم: بالطبع لا يمكنني أن أكون الجبان الوحيد؛ لذلك فأنا معكم وأتمنى ألا ننتهي مثل ضوء القمر ورفاقها.

كتب سيف: وأنا أيضا.

كتب شريف: سأرسل لكم رسالة بساعة التنفيذ قبلها بساعتين، وحتى ذلك الوقت ابقوا مستعدين.

- حسنا.

أغلق نافذة الاتصال، وتذكر محادثته مع نيروز هذا الصباح. تلك المحادثة التي أخبره خلالها أنه سيكون ضمن الفريق الذي سيقوم بالفحص القادم لنظام مركز المستمعين.

***

-٢٩-

- دكتور أحمد، كيف حالك؟

قالها أيمن وهو يستقبل أحمد، ثم قاده نحو غرفته فجلسا على مقعدين متقابلين، وضغط أيمن على زر صغير قائلا: كوبين من عصير الليمون.

والتفت نحو أحمد مكملا: أعتقد أنه مشروبك المفضل.

- أعتقد أنكم تعرفون كل شيء.

- نحن نستمع لكل شيء.

خيم الصمت للحظات، فلم يدر أحمد ما يقول، فهو لم يجهز أي شيء. لقد ظن أن الحل الوحيد هنا.. لا يعرف ما هو، ولكنه متأكد أنه هنا. توقع أن يحدث أي شيء؛ ولكن الجلوس في غرفة خاصة وعصير الليمون هذا لم يخطر له ببال.

قال أيمن:الحقيقة أننا لم نكن نتوقع قدومك قبل موعد زيارتك الخاصة.

- زيارته الخاصة! لم يعرف أحمد عما يتحدث أيمن، ولكنه قرر مجاراته حتى يفهم ما يحدث، فقال:

- لقد أردت أن أسألك عن بعض الأمور بخصوص نظام المستمعين.

- يبدو أنك لا تستطيع الانتظار حتى موعد الزيارة الخاصة، حيث الأمور مرتبة لتفهم كل شيء.

- لست أتميز بالصبر.

- كان يمكنك طلب تقديم موعد الزيارة مع موافقتك على الدعوة.

فكر أحمد.. "أنا تلقيت عرضا لزيارة مركز المستمعين، ووافقت عليه! إما أن هذا الرجل يمزح، وإما أن هناك شيئا آخر يحدث دون علمي". قال:

- موعد الزيارة مناسب لي، ولكني أردت أن أتحدث معك قليلا قبلها.

- حسنا، اسألني ما شئت؛ فليس لدينا ما نخفيه.

شعر أحمد بكل الأفكار تتلاشى من عقله، إلا سؤالًا واحدًا: "أخبرني عن قوائم الاغتيالات".. أوشكت الكلمات على القفز خارج رأسه، ولكنه نجح في تبديلها في اللحظة الأخيرة: هل يمكن جعل المستمعين يتذكرون؟

قال أيمن: أعرف أن هذا الموضوع يورقك بشدة، ولكن دعني أؤكد لك.. لا يمكن جعل المستمعين يتذكرون، إنه أول المستحيلات.

أول المستحيلات، ليس رابعها، يالك من كاذب بارع! وماذا عما أوشك وسام بندر على فعله؟ ولكنه قال: ما الذي يجعلك متأكدًا هكذا؟

قال أيمن:

- نظام المستمعين مصمم بواسطة مجموعة من أفضل الخبراء، لا يوجد لهم مثيل في العالم كله، ومصمم بطريقة جديدة ومختلفة عن كل ما هو مألوف، لا يستطيع أي شخص خارجي التعامل معه، فضلا عن اختراقه. إنه يجعل المستمع يجلس ويستمع دون أن يتفاعل مع ما يسمعه، أو يتذكر أي شيء منه، أو أي شيء مما يحدث هنا. يمكنني طلب أحد مهندسينا ليشرح لك كيف يعمل النظام بالضبط.

- واحد من الخبراء الذين أعدوا البرنامج؟

- لا، أحد مهندسينا العاملين.

- أريد مقابلة أحد الخبراء.

- لا يمكنك؛ لا أحد يرى الخبراء.

ارتفع صوت هاتف أحمد، فالتقطه قائلا: آسف.

ضغط زر الإجابة؛ فجاءه صوت بيلسان: عد بسرعة، فقد كشف الحل عن نفسه.

أغلق الهاتف، وجلس صامتا لا يعرف ما يقول، فقال أيمن:

- هل كل شيء بخير؟

قال أحمد وهو ينهض:

- نعم، كل شيء بخير. ولكن هناك أمرًا طارئا، ويجب أن أذهب؛ آسف.

صافح أيمن مكملا:

- شكرا لك على مقابلتي، وأتطلع لإكمال حوارنا يوم الزيارة الخاصة.

- سعدت بلقائك يا دكتور أحمد.

تطلع أيمن إلى أحمد الذي غادر الغرفة، وتمتم:

- فقط انتظر، وسترى.

***

-٣٠-

- أرى أن العملية تسيركما خططت بالضبط.

نطق الساحر بالعبارة، ونقل إحدى قطعه على لوحة الشطرنج الموضوعة على منضدة صغيرة بينه وبين يوسف، فنقل يوسف قطعته قائلا: كل شيء يسير حسب المخطط، ولكنك علمتني ألا احصد النجاح إلا بعد انتهاء العملية تماما.

نقل الساحرقطعته قائلا: كل شيء يمكن أن يتحطم في لحظة واحد.

نقل يوسف قائلا: بالضبط.

فابتسم الساحرقائلا: تعتقد أنك حاصرتني.

ثم نقل مكملا: ولكني رأيت ما تحاول فعله، وأعتقد أنك من وقعت في فخي.

تطلع يوسف إلى اللوحة للحظات، ثم قال: لقد ربحت بالفعل.

نقل الساحرإحدى قطع يوسف، وقال: لا تعترف بالهزيمة أبدا.

- لا تجعل الجميع يعرفون أنك الأذكى، فقط فاجئهم بهذا.

ابتسم الساحرقائلا: يبدو أنني علمتك جيدا.

- بالتأكيد، فأنت الأفضل.

صمت الساحرلحظات، ثم قال: كيف يسيرالعمل على روايتك الجديدة؟

لم يجب يوسف؛ فقال الساحر: لا تتصرف كأن المفاجأة أخذتك؛ فأنت تعرف أنني أعرف أنك لم تتوقف عن الكتابة.

- لقد أخبرني صانع الفجوات أنني لست جيدا.

- وهو محق، ولكن ليس معني أنه محق أننا ننفذ كل ما يقوله.

- حقا! أخبرني عن شيء فعلته مخالفا لما يقوله.

تطلع إليه الساحر للحظات، ثم نهض من مقعده قائلا:

- سأنصرف الآن؛ فلدي موعد هام، وسأتابع سير العملية معك.

- حسنا.

انصرف الساحر؛ فبقي يوسف وحده يتطلع إلى رقعة الشطرنج، رفع بصره للمقعد المقابل؛ فرأى والده يعتدل في جلسته قائلا:

- يجب أن تعرف كيف يفكر خصمك وماذا سيفعل، قبل أن يعرف هو.. يجب أن تسبقه بخطوتين على الأقل.

- لماذا بخطوتين؟

- لأن خصمك يجعلك تظن أنك تسبقه بخطوة.

نقل والده قطعة؛ فنقل يوسف أخرى، واستمرت المباراة بينهم حتى انتصر والده، فقال: مازال لديك الكثير لتتعلمه حتى تهزم والدك.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه يوسف، وهو يتذكر الأيام السعيدة التي قضاها مع والديه، قبل نشوب الحرب التي أحرقت كل شيء، وملأت الجو برمادها المسموم.

لم يفهم يوسف الصغير ما حدث، فجأة استحال حيهم الهادئ إلى ساحة لمعركة حامية، احتجزتهم في الوسط، لا أحد يجرؤ على المرور أمام نافذة منزله إلا منحنيا، وإلا أصابته رصاصة قناص تنهي حياته. عاشوا في عزلة تامة عن العالم، خطوط الهاتف مقطوعة، الظلام مخيم بعد انقطاع الكهرباء، والمياه مقطوعة، ثم نفد الطعام الموجود لديهم. فقط الرصاص والقذائف كانوا موجودين بكثرة، حتى أن كثيرا منها كان يتناثر داخل المنزل، محطما الأثاث، ومسببا العديد من الحفر في الأرض والجدران.

قرر والده النزول للبحث عن طعام، ولكن والدته منعته؛ لأن النزول

معناه الموت الأكيد، فأخبرها أن البقاء معناه الموت الأكيد ببطء أما في الخارج فعلى الأقل هناك فرصة.. فرصة ضعيفة، لكنها فرصة. لم يطل النقاش بينهما؛ فقد عبرت رصاصة النافذة، واستقرت في رأس والدته؛ لتسقط ميتة بين ذراعي والده، وأمام نظراته الذاهلة.

حل الصمت والألم والحزن ضيوفا دائمين مع الجوع والخوف في منزل يوسف، حتى جاء يوم اشتد فيه القتال على نحو لم يحدث من قبل. اختلس والده نظرة عبر النافذة؛ فوجد مدد من الرجال والسلاح قد وصل لإحدى الفئتين المتقاتلتين؛ فشنت هجوما عنيفا على الأخرى، ورأى بعض الأشخاص يهربون من منازلهم مستغلين القتال المشتعل؛ فجذب يوسف قائلا: هيا بنا.

أسرعا للخارج، فشعر يوسف أن قلبه سيقفز من صدره ليسقط على أرض الشارع، التي لامستها قدمه لأول مرة مذ بدأ القتال؛ فقد تغيرت كثيرا عما يذكر.. امتلأت بالحفر والحطام، والجثث والدماء، والدخان وفوارغ الرصاص وبقايا القذائف، والبقايا الآدمية.. ركض مع والده نحو سيارتهم المتوقفة، وقفزا داخلها، وسمع والده يهمس بكلمات خافتة ترجو السيارة أن تدور. أدار المفتاح، فدارت السيارة، فهتف والده: حمدا لله.

انطلق بها تلاحقه الرصاصات، حتى خرجا من منطقة القتال، فبرز السؤال الأهم في رأسه: إلى أين؟! لقد سارع بالهرب وكل تفكيره منصب على الخروج من الجحيم المستعر، ولم يفكر في وجهته بعد الخروج. ظل يقود السيارة بلا هدف، دون أن يجرؤ على التوقف؛ فهو يعرف جيدا بأمر النهَّابين الذين يطوفون البلاد. بدأت فكرة تطفو داخل رأسه، ذكرى عن آدم صديق دراسته، الذي لم يره لفترة طويلة بعد الدراسة حتى منتصف ليل تلك الليلة منذ ستة أشهر، حين سمع طرقا شديدا على الباب، فأسرع نحوه وفتحه؛ ليجد آدم واقفا والدماء تنزف من جرح رصاصة في كتفه. ساعده والده على الدخول والجلوس على أحد المقاعد، وهو يسأله: ماذا حدث؟

ابتسم آدم في ضعف، وقال: هل تريد حقا أن تعرف؟

لم يكن والده واثقا حقا أنه يريد أن يعرف؛ فآدم معروف بصراعاته الكثيرة مع النظام، لن يندهش والده لو قرأ خبروفاته في أي وقت، بل إنه كان ينتظره. صمت والده للحظات، ثم قال: ماذا تريدني أن أفعل؟

قال ادم: لا شيء، فقد دعني أبقى هنا حتى الصباح، حتى تهدأ عملية البحث، وسيأتي الرجال لأخذي في الصباح.

بدا القلق على وجه والده؛ فقال آدم:

- اطمئن؛ سأنجو حتى الصباح، فأنا أقوي مما تتصور، وحتى لو لم أنجُ؛ فسيأتي الرجال لأخذ جثماني ومسح آثاري من هنا.

سعل آدم بشدة للحظات، ثم أكمل: أعرف أنني أطلب الكثير، وخاصة بالنسبة لرجل يحب العيش في سلام؛ ولكني أحتاجك، ولا يوجد أي مكان أو أي شخص آخر أذهب إليه.

قضي آدم ليلته في غرفة والده، وخرجت والدته لتبيت معه، بعد شجار قصير مع والده، ووعد بإكماله في الصباح، سمع خلاله يوسف عبارات عن تحويل البيت لمأوى للإرهابيين. سأل والدته: هل سيقتلنا آدم؟

- لا، آدم صديق والدك، ولن يؤذينا.

- ولكنك تقولين أنه إرهابي!

- لم أكن أتحدث عن آدم، كنت أتحدث عن إرهابيين آخرين.

انتفض يوسف من الفراش، ونهض مذعورا، وقال:

- هناك إرهابيين آخرين في المنزل!

عرفت والدته أن أي شيء ستقوله سيزيد الأمور سوءًا؛ فجذبته من ذراعه، ووضعته بجوارها، ومسحت على رأسه قائلة:

- نم يا صغيري، كل شيء بخير.

في الصباح، أخبر آدم والده أن الرجال لا يستطيعون دخول المنطقة، وأنه يريده أن يأخذه لنقطة خارج المدينة حيث سيقابلهم. تردد والده، ولكن آدم أخبره أن هذا آخر شيء سيطلبه منه، وأخبرته زوجته أنه إذا لم يخرج هذا الرجل من منزلها الآن؛ فستخرج هي ولن تعود.

ساعد آدم حتى ركب السيارة، وانطلق بها إلى النقطة التي حددها آدم، فالتقى بفريقه، الذين حملوا آدم إلى سيارتهم؛ ولكنه قال لوالده قبل أن يغادر: كل شيء على وشك التغيير، وربما تسوء الأمور جدا.

أعطاه آدم رقم هاتف، وطلب منه أن يتصل به إذا احتاجه، فألقى والده الورقة في درج السيارة؛ لأنه لم يرد أن يمزقها أمامه، ثم نسي أمرها. وها هي الأمور تسوء جدا كما أخبره آدم، فهل كان يتوقع، أم أنه وأمثاله من تسبب في هذا؟ لا يهم الآن، فآدم هو الملاذ الوحيد له.

اتصل والده بالرقم؛ فأجاب آدم بعد عدة محاولات. أخبره والده بما حدث؛ فطلب منه آدم البقاء في مكانه حتى يحضر إليه. لم يطل انتظارهما؛ فقد جاء آدم سريعا بسيارة سوداء قوية، وأشار لهما بالصعود وترك سيارتهما. لم يكن آدم ضعيفا كما رآه في المرة السابقة، بل بدا موفور الصحة والعافية، ويضع سلاحا آليا على المقعد بجواره. قال:

- لقد أحضرت لكما بعض الطعام، فلا ريب أنكما......

لم يكن في حاجة لإكمال عبارته؛ فقد بدأ يوسف ووالده تناول الطعام بالفعل، فصمت آدم حتى انتهيا، ثك قال: أنا آسف جدا لخسارتكما.

لم يعلق أي منهما، فقال آدم:

- سأصطحبكما إلى معسكرنا، حيث ستكونان بأمان وسطنا.

خيم الصمت على السيارة، التي واصل آدم قيادتها، حتى خرج من المدينة واتجه نحو منطقة بعيدة. واصل القيادة، حتى رأيا عدد من المنازل، تحيط بها الأسلاك الشائكة وعدد من رجال الحراسة المسلحين، منتشرين على

طول المحيط. فتحت البوابة، فدخل، وقادهما آدم إلى غرفة بسيطة الأثاث في الطابق الأرضي من أحد المنازل قائلا: استريحا هنا

أغلق الباب وخرج؛ فجلس والده على الفراش، وأسند رأسه للحائط، فوضع يوسف رأسه على فخذه، ولم تمض دقائق حتى غلبه النعاس. ولكنه استيقظ على دموع والده التي سقطت على وجهه، ليجد والده يهمس:

- يا إلهي! ما الذي فعلته؟!!

سأل يوسف: أبي، لماذا تبكي؟

مسح والده عينيه بسرعة، وقال: أنا لا أبكي، فقط أشعر بالتعب قليلا.

بقي يوسف ووالده على الفراش لا يتكلمان، حتى سمعا صوت طرقات على الباب، فقال والده: ادخل.

دخل آدم قائلا: كيف حالكما؟

- بخير، شكرا لك.

أشار آدم للخارج قائلا: تعالا لكي نفطر سويا مع الباقين.

فقال والده: اعتقد أنه من الأفضل أن نبقى هنا.

جذبه آدم قائلا: تعال يا رجل ولا تقلق؛ أنت واحد منا.

سار آدم وخلفه يوسف ووالده يتأملان المكان حولهما والرجال الملثمين المنتشرين بأسلحتهم؛ فقال يوسف: إرهابيين!.. إنهم في كل مكان.

كتم والده فمه بيده، وهمس في أذنه: اصمت يا يوسف، إنهم أصدقاؤنا.

وصلا إلى غرفة الطعام، فجلسا على مقعدين متجاورين أمام المنضدة الطويلة، التي جلس الرجال على جانبيها يتناولون طعامهم؛ فلما دخلوا، قال الرجال في صوت واحد: مرحبا بالناجين، مرحبا بالأخوة الجدد.

أخذت المفاجأة يوسف ووالده؛ فلم يجيبا، فقال آدم: شكرا لكم.

تناولا طعامهما صامتين، وهما يستمعان إلى قصص الحرب التي يرويها الرجال، ولعناتهم التي صبوها على الخائن العميل الذي أشعل الحرب ودمر كل شيء.. يلعنون كل مسلح شارك في الحرب، وأكوام السلاح خلفهم جاهزة للإطلاق!.. يهتفون: ولكننا سننتصر، سننتصر رغم كل شيء.

أشار أحدهم إلى المقعد الذي جلس عليه يوسف قائلا:

- هنا كان يجلس أحد أفضل رجالنا، كان اسمه يوسف مثلك.

قال يوسف: أين هو؟

قال الرجل: أصابته قذيفة نسفت جسده تماما، حتى أننا لم نجد منه شيئا لكي ندفنه.

فقال أحد الأطفال الجالسين:

- لقد جمعنا أنا وأمي بعض أشيائه ودفناها، ليكون له قبر يمكننا زيارته.

نهض والده، وسحبه من يده قائلا:

- شكرا لكم جميعا، ولكن يوسف متعب قليلا، ويريد العودة إلى غرفته.

ودون أن ينتظر ردًا، أسرع عائدا إلى الغرفة، فلحقه آدم قائلا: ماذا حدث؟

فأجاب والده: لا شيء، يوسف يشعر بالتعب، ويريد أن يستريح.

نظر آدم إلى يوسف، فقال: لا شيء، فقط أريد أن أستريح قليلا.

فقال آدم: حسنا، اذهب لتستريح، وسأجعل الطبيب يمر بكما بعد انتهائه من المرور على الجرحى.

دخل يوسف ووالده الغرفة، وناما على الفراش والصمت ثالثهما. نام والده، فشعر يوسف بضيق في نفسه؛ فخرج. جلس أمام الغرفة يتطلع إلى أرض المكان الممتدة أمامه، ويتساءل عما سيحدث لهم بعد قليل، حتى جاءت طفلة في مثل سنه، وجلست بجواره قائلة: أنت الولد الجديد؟

- لقد جئت اليوم.

- أنا شذى.

- وأنا يوسف.

عبثت شذى بالتراب أمامها، قالت: سمعت أنك فقدت والدتك. أنا أيضا فقدت والدتي.. كيف ماتت والدتك؟

- أصابتها رصاصة في رأسها.

هزت شذى رأسها قائلة: يا لها من محظوظة؛ فقد ماتت بسرعة وبلا ألم. لقد احترقت والدتي حية.

أغمض يوسف عينيه، وظهر الألم على وجهه، وهو يتخيل الصورة. مع كل ما يحيط بهم، ليس سعيد الحظ هو من ينجو؛ بل سعيد الحظ هو من يموت سريعا وبلا ألم! وقال: وأين والدك؟

- والدي مصاب في غرفة الجرحى؛ أدعو له أن يموت سريعا.

- لماذا لا تدعين أن يتحسن؟

- هل رأيت غرفة الجرحى؟ لا أحد يتحسن؛ هناك فقط من يموت سريعا، ومن يموت ببطء وهو يتعذب. أتمنى أن يموت والدي سريعا.

تطلع يوسف نحو الغرفة حيث يرقد والده، قال: أنا حزين جدا يا شذى.

- ليس خطأك؛ حاول ألا تحزن

- إنه ليس خطأك، ولا خطأها، إنه خطأ الخائن العميل.

التفتا نحو مصدر الصوت، فوجدا الرجل الذي تحدث معه على الإفطار يقف بجوارهما. وضع سلاحه، وجلس بجوارهما على الأرض مكملا: ولكننا سننتصر في النهاية، فنحن أصحاب حق، وصاحب الحق ينتصر في النهاية.

قالت شذى: لو رأيت هذا الرجل، لمزقت عنقه بأسناني.

فقال الرجل: جيد، يجب أن تخرجي غضبك، تحوليه إلى نار مشتعلة، تحرق كل أعدائك.

التفت الرجل نحو يوسف قائلا: وأنت يا يوسف، ماذا تريد أن تفعل؟

لم يجب يوسف؛ فقال الرجل:

- ماذا ستفعل لو قابلت الرجل الذي قتل أمك؟ الرجل الذي وقف يراقبكم عبر منظار بندقيته وهو يضحك، سعيدًا بخوفكم ورعبكم، يشعر بالقوة والنشوة وهو يتحكم في حياتكم، ثم يقرر أن ينهي حياة والدتك، هكذا بمنتهي السهولة.. طلقة في الرأس، ثم لا شيء.. والدتك التي أحبتك ورعتك أصبحت لا شيء، لمجرد أنه يريد ذلك.. يريد بعض التسلية؛ فماذا ستفعل به؟

تجمعت الدموع في عيني يوسف، فقال الرجل:

- لا تبك؛ فالدموع للجبناء العاجزين، وأنت لست جبانا ولا عاجزا؛ فماذا ستفعل بالرجل الذي قتل أمك؟

ازدادت الدموع المنهمرة من عيني يوسف، فصاح الرجل:

- ماذا ستفعل يا يوسف؟

خرج والده في تلك اللحظة، فجذب يوسف من يده وصاح:

- لا تتحدث مع ابني ثانية.

فقال الرجل: أنا أخبره بما يحدث حوله و...

فقاطعه والده بمزيد من الصياح:

- ابتعد عن ابني، ولا تملأ رأسه بأفكارك المشوهة.

صاح الرجل: أفكار مشوهة! أفكار مشوهة!.. لماذا لم تقل هذا عندما جئت راكضا إلينا لنحميك مثل.....

- كفى

صمت الرجل مع صيحة آدم المهرول نحوهما، حتى وصل إليهما فقال:

- ما الذي يحدث هنا؟ ماذا هناك يا سلام؟

فقال سلام: لا شيء كنت أتحدث مع الصغير....

صاح والده: لا أريدك أن تتحدث مع ابني ثانية، هل تفهمني؟ لا تتحدث معه.

قال آدم:دع حمزة وولده في شأنهما، ولا تتحدث معهما ثانية.

رمى سلام والده بنظرة لم ينسها يوسف أبدا، وقال: كما تريد

انصرف سلام؛ فقال آدم: ادخلا غرفتكما الآن، لن يضايقكما أحد ثانية.

دخل يوسف الغرفة مع والده، الذي جلس على طرف الفراش يحدث نفسه بحديث هامس، يسمع يوسف بعضه، ويخفى عليه بعضه: يا إلهي... ما الذي فعلته... يوسف... هذا المكان.... هذا الرجل... سلام...حرب....

التفت والده نحوه قائلا: سنخرج من هنا، ابق هنا حتى أخبر آدم.

أسرع للخارج بحثا عنه، فوجده واقفا مع آخرين أمام شاشة ضخمة؛ يشاهدون الأخبار التي تتحدث عن تدمير مستشفى الأمل للأطفال، وتعرض صور الحطام، وجثث وأشلاء الأطفال والأطباء الملقاة بجواره. لم يستطع والده النظر، فغطي وجهه بيديه واستدار ليعود، فإذ بيد توضع فوق كتفه، وصوت آدم: مذبحة وحشية قام بها رجال الخائن اللعين، لا يوجد غيرهم يفعل هذا.

لم يعلق والده، فقال آدم: سمعت أنك تبحث عني.

صمت والده للحظات، مرت فيها أمامه صورة يوسف وقد أصبح خبرا يذاع؛ فقال: أردت أن أشكرك على سماحك لنا بالإقامة هنا.

قالها، واستدار عائدا للغرفة. وجد يوسف جالسا يتحدث مع شذى،

التي نهضت لتذهب عندما رأته، فقال لها: يمكنك البقاء كما تريدين يا بنيتي.

- شكرا لك، ولكنني سأذهب.

ذهبت شذى، فقال يوسف: هل سنذهب؟

فهزوالده رأسه نافيا، وقال: لا، سنبقي هنا في أقل درجات الجحيم.

لم يتعرض سلام ليوسف أو والده ثانية، فسمح والده له بالتجول في المعسكر، وبقي هو حبيس الغرفة، لا يغادرها إلا قليلا، وأحيانا لا يغادرها لأيام كاملة، فيحضرله يوسف أو آدم طعاما في الداخل، وأحيانا لا يحضرله أحد شيئا. كان والده يذبل في هدوء، دون أن يشعر به أحد. يعيش على ذكريات حياته القديمة، التي سلبت منه ولن تعود.

أحب يوسف الجلوس مع شذى والحديث معها، وسماع حكاياتها عن بيتها ووالدتها الجميلة ووالدها الطيب، الذي كان يذهب معها أحيانا لزيارته ويدعو معها أن يموت سريعا. عرفته شذى على المعسكر وعلى المتواجدين فيه.. يضم المعسكر حوالي خمسين رجلا، ومثلهم أطفالا ونساء. ولكن يوسف لم يستطع الاندماج مع الأطفال الآخرين، أو الاستماع إلى أحاديثهم التي تنصب على موضوع واحد: الحرب، وما سيفعلونه عندما يصبحون مقاتلين يحملون السلاح ويثيرون الرعب والذعر في الأنحاء.. فكان يتحدث مع شذى فحسب، تحكي له ويحكي لها.

يحكي يوسف عما سيفعله لو امتلك القدرة على التحكم في الآخرين.. على تحريكهم بطريقة سحرية، فيفعلون ما يريد. ساعتها سيمكنه حل كل شيء. أحب يوسف آدم، وأحب الحديث معه؛ ولكن خوفه القديم ظل في صدره، يطفو علة السطح أحيانا. قال له آدم ذات مرة:

- أشعر أن هناك شيئا تريد أن تسألني عنه؛ لا تخف، اسأل ما شئت.

فصمت يوسف للحظات، استجمع خلالها شجاعته، وقال: يقولون إنك إرهابي خائن، لا تسعى إلا إلى سفك الدماء دون تفرقة، فلا يريحك إلا منظر

الدماء.

توقع يوسف أن يثور آدم، ولكنه سأله بهدوء: من الذي يقول هذا؟

فقال يوسف: الرجل في التلفاز قال هذا.

- وهل تصدقه؟

صمت يوسف للحظات، وهمس: لا أعرف.

فقال آدم: هل كل ما يقوله الرجل في التلفاز حقيقة؟

- نعم.

- لماذا؟

- لأنه.. لأنه الرجل في التلفاز!

- حسنا، وماذا لو دخلت أنا في التلفاز، وقلت إن الرجل الذي كان هنا خائن، هل يجعله هذا خائن؟

- لا.

- لماذا؟! سأكون أنا الرجل في التلفاز الذي لا يكذب.

تلعثم يوسف، وبحث عن شيء يقوله: لأن... لكن...

لم يستطيع تكوين جملة واحدة فصمت، فقال آدم في بساطة تليق بعمر الصغير: لأنني لست الرجل الذي اعتدت رؤيته في التلفاز. أنا شخص غريب لم تعتده، فلا يمكن أن تصدقه، حتى وهو يقول الحقيقة. كاذب تعرفه أفضل ممن صادق لا تعرفه. حسنا، دعني أسألك: من هو الخائن؟

فكر يوسف للحظات، قال: الخائن هو الذي يعمل ضد وطنه.

- حسنا، وما هو الوطن؟ ومن الذي يحدد إن كنت تعمل لأجله أم ضده؟

لم يجب يوسف؛ فقال آدم:

- وماذا لو كان الوطن يسير في الاتجاه الخاطئ، وهناك شخص يحاول إعادته إلى الاتجاه الصحيح؛ فهل يكون خائنًا لأنه يعمل ضد الوطن؟

صمت يوسف للحظات، ثم قال في حيرة: لا أعرف!

- مازال أمامك الكثير لتتعلمه

نهض آدم وسار مبتعدا، لكنه استدار بعد خطوتين، وقال:

- لقد أخبرناهم أننا نريد المشاركة، فأخبرونا أننا لا نعرف أي شيء، وعلينا أن نجلس ونستمع، ففعلنا.. حتى استمعنا بما فيه الكفاية، أخبرناهم أننا نريد المشاركة، فقالوا لا يمكن لمستمع أن يشارك، ونعتونا بالخونة.. ولكننا لسنا خونة.

سار آدم مبتعدا، فقالت شذى:

- لا تعبس هكذا، فحتى آدم غير مقتنع بما قاله مائة بالمائة. إنه فقط يردده لنفسه حتى يصدق أنه حقيقة، فلا يصاب بالجنون مما يحدث.

- إذًا فماذا يحدث؟ ولماذا تعرفين ما يحدث وأنتِ صغيرة مثلي، وأنا لا أفهم الكثير؟!

- لا أحد يعرف ماذا يحدث. لقد أخبرني والدي أننا مثل رجل أراد إخراج ذئب من منزله، فأشعل نارا ليخيفه، ولكن النار امتدت لتأكل المنزل كله.. والمنازل المجاورة، فالمدينة، ثم اشتعلت لتأكل البلد كله، والرجل والذئب كلاهما ينظر في حيرة، ولا يعرف ماذا يحدث.

ذات مرة سمع سلام –الذي لم يكن له أي نصيب من اسمه- يتشاجر مع آدم، ويقول إن عدد الرجال قد نقص، وأنهم يحتاجون إلى كل رجل موجود، فقال ادم: حمزة لن يشارك في أي شيء، هل تفهم؟

- ولكن.....

- لن يشارك؛ نهاية الكلام.

غادر سلام والغيظ يتساقط منه، فركض يوسف وشذى حتى ابتعدا، فقال يوسف: أنا أكره سلام.

- لست وحدك.

وتحققت أسوأ مخاوف يوسف سريعا.. فقد خرج الرجال في عملية ما، ثم عادوا ليعلنوا وفاة آدم في العملية. وبعد مراسم دفنه، أعلنوا أن سلام قد أصبح قائد المعسكر الجديد، فركض يوسف وأخبر والده، فنهض مسرعا، وقال: يجب أن نخرج من هنا.

وقبل أن يخرج من الغرفة، وجد سلام يقف أمامه، فتجمد في مكانه، وكذا فعل لسانه داخل فمه. قال سلام: أعرف أننا لدينا خلافاتنا، ولكني سأضع الخلافات جانبا تكريما لذكري آدم الذي أحبك، وأعتبرك واحد منا.

تلعثم والده: شكرا.. شكرا.. رحم الله آدم.

أكمل سلام: ولأنك واحد منا، يجب أن تخرج معنا في العملية القادمة.

تجمد والده للحظات، ثم قال: لن أخرج في أية عمليات.

فقال سلام: في هذه الحالة، فقد قرر المجلس طردك خارجا، لأنك لست منا، ولا يمكن أن نبقي غريبًا بيننا.

قال والده: سأغادر الآن.

سار مع يوسف، فاستوقفه سلام قائلا:

- أمر أخر، لقد قرر المجلس أن تغادر أنت فقط؛ أما ابنك، فسيبقى هنا؛ فلن يسمحوا لك أن تجعله جبانًا عاجزًا مثلك.

صرخ والده: لا، يوسف، لا.

أكمل سلام: لقد حاولت إقناعهم بتركه معك؛ ولكنهم رفضوا. وكما تعلم، فإن قرار المجلس نهائي.

أشار سلام نحو رجلين قائلا: خذاه إلى الخارج.

فصاح والده: سأبقى وأشارك في أي عمل تريده. أرجوك، دعني ابقى، وسأفعل أي شيء تريده.

حمل سلام يوسف، وألقاه داخل الغرفة، وأغلقها، وقاد الرجلين والده نحو الخارج، وسط صرخاته وتوسلاته التي لم يهتم بها سلام، بل خبط باب الغرفة صائحا: كف عن الصراخ، وإلا أعدت والدك، وذبحته أمامك الآن.

تغيرت الأمور في المعسكر كثيرا بعد قيادة سلام، وكثرت الأعمال، وأجبر الصغار على المشاركة فيها؛ فكان يوسف يقوم بمهماته، ويعود إلى غرفته، التي جعل سلام طفلين آخرين – لم يعرف يوسف أسماءهما- يشاركانه فيها، فيجلس متقوقعا على نفسه، حتى تأتي شذى وتحاول الحديث معه فلا يجيب، فتجلس تنتحب بجواره، وتخبره أن والدها قد رحل هو الآخر، رحل من الحياة كلها.

فكر يوسف كثيرا في الهرب، ولكن المعسكر كان مغلقا، والحراسة لا تفارق محيطه طوال الوقت، فبقي ينتظر الفرج، الذي جاء أخيرا على صورة انفجارات شديدة هزت أرض المعسكر، تلتها سيول من الطلقات النارية، استمرت لساعات؛ فقد كان المعسكر يتعرض لهجمة شديدة تستهدف اقتلاعه من جذوره. خرج يركض مع الجميع الذين ركضوا في كل اتجاه، لا يعرفون جهة آمنة يذهبون إليها، وانطلق المقاتلون للقتال، وألقى بعضهم السلاح وفر هاربا.

نجحت جماعة قليلة في الهرب من المعسكر، ومعهم يوسف وبعض الأطفال الآخرين. بحث يوسف عن شذى، ولكنه لم يجدها، فهم بالعودة للبحث عنها؛ ولكن أحد الهاربين جذبه قائلا:

- ليس هذا وقت البحث، بل وقت الهرب.. كل شخص ينجو بحياته.

ركض يوسف معهم، حتى ابتعدوا عن المعسكر، وظنوا أنهم آمنين، وإذ بالرصاص ينهمر عليهم من أحد الأكمنة. تفرقوا، وركض كل شخص لينجو

بحياته، وظل يوسف يركض حتى لم يستطع المواصلة، فجلس بجوار حائط نصف متهدم، ونام، أو فقد الوعي، من شدة التعب؛ لا يعرف. ولكنه استيقظ، ليجد نفسه على فراش صغير من القش، في غرفة مظلمة. ظن أنه فقد البصر، ولكنه رأي أشباح أشخاص تتحرك حوله؛ فنادى: أين أنا؟

فوضع أحدهم يده على رأسه قائلا: لا تخف يا بني، أنت في مكان آمن.

- ولماذا المكان مظلم؟

- نحن في قبو الملجأ؛ لأننا رأينا مجموعة من المسلحين يمرون بالقرب من المكان.

قضى يوسف ردحًا من حياته في الملجأ، حتى انتهت الحرب، فانتقل للعيش مع بعض أقارب والده، وظل يسأل نفسه طوال الوقت: ما الذي حدث لوالده؟ ما الذي حدث لشذى؟.. ولم يعرف الإجابة أبدا. حاول العثور على أية معلومات عن المعسكر، ولكنه لم يستطع.. لقد تلاشى كأنه لم يوجد قط.

اعتدل يوسف في مقعده، وحرك إحدى قطعه قائلا:

- أعتقد أنني أستطيع هزيمتك الآن.

فابتسم طيف والده وتلاشى، وسمع يوسف عبارته تتردد:

- مازال أمامك الكثير لتتعلمه حتى تهزم والدك.

نهض من مقعده قائلا:

- ليس والدي من أحتاج هزيمته حاليا، وإنما نجم الجماهير، دكتور أحمد.

***

-٣١-

- لابد أنك تمزح معي!

نطقت بيلسان بالعبارة وهي تتطلع إلى ساري، الجالس على مقعد أمامها داخل شقته الخاصة، بينما جلس أحمد صامتا على المقعد الآخر. واصلت بيلسان الصياح:

- عندما أخبرتني أنك تريد مقابلة أحمد لتنفيذ خطة وسام الاحتياطية، ظننت أن الخطة تتعلق بخروجنا من هنا سالمين، وليست جنونًا آخر يريد وسام دفعنا إليه.

التفتت نحو أحمد الذي واصل صمته قائلة:

- لا تقل لي أنك تفكر في هذا الهراء الذي سمعناه للتو.

فقال أحمد: ربما لو فكرت.....

فقاطعته بمزيد من الصياح: لا يوجد ما نفكر فيه، إن ما يقوله جنون تام.

رد ساري: ربما لو نظرت للأمر ببعض التعقل، فستدركين أنه ليس جنونا تاما كما تعتقدين.

فقالت بيلسان: تريد بعض التعقل؟ سأخبرك كيف انتهت آخر خطط دكتور وسام العبقرية، التي نجحوا في إحباطها خلال دقائق معدودة بكتيبة إعدام تطاردنا، وأوقعوا بواحد منا بالفعل، وكادوا يوقعون بي لولا تدخلك.

فقال ساري: إذًا؛ فيجب أن تثقي بي.

هزت رأسها في يأس..

- أنت لم تفهم؛ أليس كذلك؟.. هذا الأمر لا يتعلق بي أو بوسام؛ بل بأحمد الذي سيضعون رصاصة في رأسه لحظة فشل خطتك المجنونة.

نهض أحمد من مقعده، ووقف أمامها، وتطلع إلى عينيها قائلا:

- أريدك أن تثقي بي.

قالت بيلسان: ولكن وسام....

قاطعها أحمد: لن نتحدث عن وسام، أو ساري، أو أي شخص آخر. أريدك أن تثقي بي أنا؛ وأنا أقول لك الآن إن هذه الخطة ستنجح.

صمتت بيلسان تحاول السيطرة على انفعالاتها، التي ظهرت واضحة على وجهها، فقال أحمد: يجب أن نفعلها يا بيلسان.. يجب أن ننهي هذا الأمر، وبعدها يمكننا أن نذهب كما تريدين.

قالت بيلسان: لقد أعددت كل شيء لنختفي دون أثر، وأنت تريد أنت تذهب إلى مركزهم مباشرة!

قال أحمد: سأذهب إلى مركزهم لأنهي هذا الأمر للأبد، و......

قاطعته بصوت مخنوق: وتعتقد أنهم سيتركونك بعدها!

فقال ساري: وماذا سيفعلون؟ يرسلون أفضل قتلتهم خلفكم، لقد فعلوا.. ودعيني أخبرك أنه بعد نجاح الخطة سينهارون تماما، ولن تحتاجوا للهرب.. لا مزيد من الخوف، والاختفاء.

همت بيلسان بقول شيء، ولكن أحمد قال: يجب أن نفعل هذا. سأفعل هذا، وأنا أحتاجك معي؛ فلا يمكنني فعلها بدونك.

صمتت بيلسان للحظات، ثم ارتمت على أحد المقاعد وغطت وجهها بيديها. زفرت بقوة،ثم أرخت ذراعيها للأسفل وقالت:

- حسنا، دعنا نراجع خطتك مرة ثانية.

ابتسم أحمد لها في حب، بينما التقط ساري جهازكمبيوتر لوحي، وجلس على مقعد مقابل لها، ووقف أحمد بجوارها. قال ساري:

لقد تلقى دكتور أحمد دعوة لزيارة خاصة لمركز المستمعين، ولأنه لم يكن في شقته طوال الوقت، قمت أنا بأخذ الدعوة وإرسال رد بالموافقة؛ لأننا سنحتاج لدكتور أحمد في الداخل في الخطوة القادمة.

قالت بيلسان: هل أنت متأكد أنهم لن يفعلوا شيئا أثناء الزيارة؟

قال ساري: نعم، متأكد مائة في المائة؛ فهي زيارة معلنة، ولن يغامروا بفعل أي شيء خلالها.

قالت بيلسان: أتمنى أن تكون محقا.

قال ساري: وعندما يكون دكتور أحمد في الداخل، سيتجه نحو نقطة خاصة، تسمح له بدخول النظام. وهناك، سيقوم بإطلاق نبضة خاصة جدا، قمت بتطويرها بالتعاون مع وسام وفريق من أفضل الخبراء. ستساعدنا النبضة على اختراق النظام، والحصول على كل البيانات التي نريدها.

قالت بيلسان: لماذا لم يستخدم وسام النبضة من البداية، بدلا من خطته الأخرى؟

قال ساري: خطة وسام الأصلية كانت جعل المستمعين يتذكرون، مما يقضي على المستمعين تماما. أما النبضة، فهي فكرتي، وقد ساعدنا وسام في تطويرها، ولكننا لم ننتهِ منها إلا بعد القبض على وسام.

قال أحمد: أدخل، أذهب إلى النقطة الخاصة، أطلق النبضة؛ فتحصلون أنتم على البيانات المطلوبة، وأخرج أنا.. تبدو خطة سهلة للغاية.

قالت بيلسان: حقا؟!

فقال أحمد: ستنجح.

قال ساري في حزم: يجب أن تنجح.

***

-٣٢-

- أمي... أمي!....

نطق مهند بالكلمة، وهز هند الجالسة على مقعدها الهزاز في شرفة المنزل، ورأسها للوراء مغمضة العينين. لم تجبه هند؛ فهزها ثانية مناديا:

- أمي.... أمي!

فتحت عينيها أخيرا، ونظرت إليه؛ فمد كراسته نحوها قائلا:

- لقد انتهيت من واجبي كما طلبتِ.

تناولت هند الكراسة، وألقت عليها نظرة سريعة، ثم وضعتها بجوارها قائلة: ممتاز.

نهضت، وجذبته من يده نحو الداخل مكملة:

- اذهب لتشاهد التلفاز، وسأعد لك كوب الشيكولاتة التي تحبها.

- رائع.

هتف مهند بالعبارة، وقفز فوق الأريكة أمام التلفاز، وذهبت هند للمطبخ، لإعداد الشيكولاتة، وهي تتأمل مهند في جلسته وحيدا أمام التلفاز، وتتذكر أمجد -زوجها الراحل- وجلوسه لمتابعة الحلقات الجديدة من المسلسل بحماس يفوق حماس مهند. كانت تسمعه يقول له:

- يجب أن تنتهي من واجبك سريعا يا صديقي، وإلا فلن تسمح لنا والدتك بمشاهدة الحلقة الجديدة.

في بعض المرات، كان أمجد يقوم بحل الأجزاء الصعبة بنفسه، فيأتي مهند ليريها الواجب، فتقول له: هل قمت بعمل الواجب بمفردك؟

- نعم.

- حسنا، سأسألك سؤالا واحدا، وإذا أجبته فسأدعك تذهب.

ثم تسأله سؤالا من الأسئلة التي لم يجبها بنفسه؛ فيقف عاجزا، ويقول أمجد: أخبرتك أن تقرأ الحل جيدا قبل أن تأتي إليها.. انظر ماذا فعلت بنا.

فتقول هند: حسنا، سأتركك تشاهد المسلسل، ولكن هذه المرة فقط.

فيقول أمجد: رائع.. أنت رائعة.. والدتك رائعة يا مهند.

وعلى الرغم من مرور سنوات على وفاته، إلا أنها ترى مهند ينظر بجواره بين الحين والآخر، كأنه يتوقع أن يجده، ثم يواصل المشاهدة وعلى وجهه خيبة أمل كبيرة.

يقولون إن لكل شخص توأم روح.. شخص واحد صحيح؛ وإذا لم يجده فسينتهي به الأمر مع الشخص الخطأ. حسنا، أمجد كان الشخص الخطأ بالنسبة لها. ليس الأمر أنها لم تحبه، لقد أحبته بكل جوارحها، وبذلت كل ما في استطاعتها لإسعاده، وجاوبها هو بأضعاف حبها، وجعل إسعادها هدف حياته، ولكنها كانت تشعر أن هناك شيئا مفقودا.. لا تعرف ما هو، ولكنها تشعر به، وتعرف أنها تحتاجه. بالطبع، عملت هند على قتل هذا الشعور، فكانت تؤكد لنفسها طوال الوقت: أنا أسعد امرأة في العالم.

ولكن رغما عنها، كان طيف الشيء المفقود يعود ويدور حولها.. تطرده بعيدا، فيبتعد، ثم يعود ببطء، يترقب لحظة ضعفها؛ فيبدأ الوسوسة لها، فتستمع له قليلا، ثم تنتفض؛ فيهرب، وتنهض مسرعة نحو أمجد، وتقول:

- ما رأيك أن نفعل شيئا مجنونا اليوم؟

ظلت تتقلب في الحياة، وتدفع أطياف الماضي بعيدا، حتى مرض أمجد مرضه الأخير. لم تفهم هند أبدا ماذا حدث، فذات يوم عاد أمجد من العمل مبكرا، يشكو من تعب بسيط ويحتاج للراحة، لكن صممت هند على اصطحابه للطبيب، الذي فحصه وطلب بعض التحاليل. ذهبت به لطبيب

ثان وثالث، وأعادت التحاليل والفحوصات أكثر من مرة، ولكن النتيجة ظلت واحدة.. أمجد مصاب بمرض خطير في مرحلة متأخرة.

مازالت هند لا تصدق ما حدث، فقد ذبل أمجد بمنتهى السرعة بمجرد أن عرف بالأمر، كأن المرض كان ينتظر اللحظة التي يعرف فيها؛ ليهاجم بمنتهى القوة، وينهي ما بدأه.

وتهاوى عالمها، و شعرت بالدنيا تسود أمامها، وهي تراقب أمجد يتقلب على فراش من جمر مشتعل، يبحث عن راحة لا تدرك، يتناول كمية كبيرة من الأدوية، وقليل جدا من الطعام الباهت، لا يسمن، ولا يغني من جوع.. تسمع أنينه المستمر الذي يجلد كل خلية في جسدها، فلا تملك شيئا تفعله من أجله، فقد أخبرها جميع الأطباء بعبارة واحدة، كأنهم حفظوها سويا:

- لا يوجد علاج، لا يوجد أمل.

وكان أمجد يشفق عليها، ويطلب منها أن تتركه، وتذهب لتستريح، ولكنها ترفض تركه للحظة واحدة، تعيش بجواره، تتألم معه، يراها تغالب النوم، فيتوسل إليها أن تتركه، فتقول: "حسنا، حسنا، سأذهب بعد قليل"، فإن تركته قليلا، تعود مسرعة، تهاجمها الكوابيس في لحظات غفوتها القليلة؛ فتستيقظ مفزوعة، سمعته يناديها بصوته الضعيف الذي يمزق روحها:

- هند.. هند...

قفزت من مقعدها، وأمسكت يده قائلة: أنا هنا بجوارك.

مزيد من السعال، وبعض قطرات الدم الهاربة من بين شفتيه، وقال:

- أريدك أن تعديني بشي يا هند.

- أي شيء، سأفعل أي شيء من أجلك.

- أريدك أن تعديني أن تكوني سعيدة، أريدك أن تعديني أن تبحثي عن الشيء المفقود.

- ولكنني سعيدة، ولا أريد إلا أن أكون بجوارك.. لا يوجد أي شيء مفقود، لقد منحتني كل شيء.

- لقد بذلت كل ما في وسعي، ولكنني أعرف أن هناك شيئا مفقودا، لم أستطع منحه لك.

- لقد منحتني كل ما أريد وأكثر، لقد كنت أفضل مما تمنيت في أفضل أحلامي....

مد أمجد يده النحيلة بارزة العروق نحو شفتيها ليسكتها، وقال:

- أعرف يا هند.. أعرف كل ما تريدين إخباري به. يمكنني رؤية كل شيء بوضوح الآن. أريد أن أسمع منك شيئا واحدا الآن.. أريد أن أسمعك تعديني أنك ستبحثين عن الشيء المفقود؛ افعليها من أجلي يا هند.

أغرقت الدموع المنهمرة من عيني هند يد أمجد، وقبلتها قائلة:

- أعدك أنني سأبحث عنه.

همس أمجد: شكرا لك يا هند على كل شيء، لقد منحتني حياة رائعة أحببت كل لحظة منها، شكرا لك.

أفاقت على سرير المستشفى، وحولها العديد من الأشخاص، يسألون كيف حاله. شعرت بثقل شديد يجثم على صدرها.. ثقل المكان، ثقل الهواء المحيط، ثقل وجودهم حولها، وثقل كلماتهم؛ فانتزعت نفسها من الفراش وسط دهشتهم واستنكاراتهم، وأخذت ابنها الباكي، وأسرعت للمنزل. أغلقت الباب بإحكام، وأسرعت نحو القبو المؤمن، دخلته مع ابنها، وأغلقته. احتضنت مهند، وانكسرت صمامات عينيها؛ فانهمر الدمع منهما، وقالت له:

- لقد أصبحنا وحدنا يا صغيري، أنا وأنت فقط.. لقد أصبحنا وحدنا.

لم تعرف كم ظلت أسيرة آلامها وأحزانها، معزولة عن العالم الخارجي، تأكل الطعام الذي ساعدها أمجد على تخزينه داخل القبو وهو يبتسم، فقالت له: تظن أنني مجنونة.

فيبتسم ثانية، ويضمها قائلا: ربما تكونين مجنونة، ولكنك مجنونتي الجميلة، وأنا أحبك بكل جنونك.

ثم يتأمل المكان مكملا: مجنونة، كل ما تبحث عنه هو مكان آمن، خيرا من مجنونة تدفعك من فوق الهاوية، وتقول إنها تدفعك للأمام.

دق الهاتف؛ فهزت رأسها، وانتظرت لحظات؛ لتفيق من خواطرها. ثم التقطت الهاتف، كانت أسيل المتصلة، فتحدثتا للحظات، ثم سألتها أسيل:

- ماذا فعلت بخصوص جلسة مكان سعيد؟

صمتت هند للحظات، وقالت:

- آسفة جدا يا أسيل، لم أستطع إقناع شيرين، أنا آسفة و....

قاطعتها أسيل قائلة: لا عليك، شكرا لك.

قالتها، وأغلقت الهاتف، فحملت هند قدح الشيكولاته إلى مهند، وجلست بجواره والأفكار تتدفق داخل رأسها. هناك شيء ما يحدث. أسيل تبدو مختلفة هذه الأيام، هناك شيء ما قد تغير فيها منذ جلسة المسح الأخيرة، وهناك ما حدث في جلسة مكان سعيد، هناك شيء تخفيه أسيل عنها. أسيل، التي اعتادت أن تخبرها بكل شيء، تخفي شيئا عنها!! لماذا؟! ما هو الشيء الذي يمكن أن تخفيه أسيل عنها؟! ما هو الشيء الذي تعتقد أنها لا يمكنها مشاركته معها؟! هل تكون قد عرفت الحقيقة؟ بالطبع لا، فلا أحد يعرفها سواها، وهي لم تخبر أحدًا، ولو عرفت أسيل الحقيقة، فلن يكون ردها هكذا؛ سيكون مختلفا تماما، سيكون...... لا يمكنها أن تجد الكلمة المناسبة لوصفه!

أحيانا تشعر هند أنها تحسد أسيل على وجودها بجوارها؛ فهي قد وقفت بجوارها، وعلمتها كل شيء تعلمته هي بالدموع والدم، دون أي شخص يساندها، بل كانوا يلقون بالمزيد في طريقها. تذكر دورانها في المدينة بلا هدف بحثا عن أي شيء، أي شيء يساعدها.. حضورها عشرات المحاضرات

والندوات لتتعلم شيئا عن الحياة مع ألمها.. كفاحها، حتى استطاعت الحصول على العمل كمستمعة، والحصول على مكان في مكان سعيد.. لقد عانت كثيرا جدا......... لا تريد التفكير في معاناتها الآن، فلتركز أفكارها على أسيل.

تعرف جيدا أنها ستعرف ما تخفيه أسيل عنها، ولكنها كانت تتمنى أن تخبرها بنفسها، كما اعتادت أن تفعل، فلا يوجد أي شيء يمكن أن تخشى أسيل إخبارها به؛ فهي:

- أنت أقرب الناس إلى قلبي، وأشعر معك براحة بلا حدود.

كلمات أسيل، لا كلماتها.. وستثبت لأسيل أنها تستحقها.

***

- مقلد.

تقولها مروج، وتتغير ملامح وجهها الجميلة، فيتطلع إليها ياسر دون إجابة، فتكمل صياحها بصوتها الهادئ الرقيق، الذي لا يصلح للصياح: فيبتسم ياسر رغما عنه؛ فيزداد غضبها: أخبرني بشي واحد حقيقي عشناه معا، وشعرت به. في كل لحظة أنظر في عينيك، لا أرى رجلا سعيدا، بل أرى رجلا يقلد السعادة كما يراها في عيون الآخرين. أنت لا تشعر بأي شيء؛ فقط تقوم بتقليد المشاعر التي ترى الآخرين يعيشونها.

همس ياسر: أنا أحبك يا مروج.

- وأنا أحبك يا ياسر، ولكن ما بيننا ليس حقيقيا، فأنت مقلد وأنا لا أستطيع الاستمرار هكذا، أريد أن أعيش الحياة، لا أقلدها.

ذهبت مروج وتركته، فلم يتوسل لها أو يحاول إقناعها بالبقاء؛ بل تركها ترحل بهدوء، ففي أعماقه كان يعرف أنها محقة، إنه مقلد... مقلد... مقلد...

يشعر بالكلمة تتردد داخله ملايين المرات، حتى أن الآخرين يسمعونها؛ فيشيرون نحوه قائلين: مقلد!

يعرف أن هذه الكلمة تصفه بالضبط، ولكنها لا توفيه حقه كاملا، فهو ليس مقلدًا عاديًا، بل مقلدًا خاصًا جدا، يستطيع دخول جلد الشخص الذي يريده، فيصف ما يشعر به الشخص أفضل من الشخص نفسه. في مواقف كهذه، يشعر أن حياته هكذا كمقلد، دون مشاعر حقيقية، هي نقمة كبيرة.. ثم يعود ويعترف أنها نعمة عظيمة، لا مثيل لها، ساعدته على القيام بأمور عظيمة، لا يمكن لشخص طبيعي فعلها. ساعدته على وضع ألبوم صور الحرب، الذي كان أحد الأسباب التي أدت لإنهاء الحرب، حتى بشهادة الكارهين له؛ وهم كثر.

يذكر يوم وصلته رسالة تخبره أن الرئيس سيقوم بتكريمه في حفل كبير في قصر الرئاسة، مع عدد من الشخصيات الذين ساهموا في إنهاء الحرب، فجلس يفكر:

- ماذا يفترض بشخص سيكرمه الرئيس لدوره في إنهاء الحرب أن يقول؟

بحث كثيرا، ولكنه لم يستطع العثور على مثال سابق ليقلده، ليعرف كيف يتصرف. ذهب إلى الحفل والتوتر يأكله، حتى صعد المنصة وسط تصفيق الحاضرين والرئيس يتحدث عنه، وأن ما فعله كان بمثابة صرخة عالية نبهتنا إلى الحال الذي وصلنا إليه، وأن عددا من الحاضرين قرروا التحرك بعد أن رأوا صوره. سأله الرئيس: كيف استطعت أن تفعلها؟ كيف استطعت أن تصف ما شعر به هؤلاء الأشخاص في لحظاتهم الأخيرة، وأنت تجلس آمنا على بعد آلاف الكيلومترات؟

صمت ياسر للحظات، والحاضرون يترقبون إجابته، ثم قال:

- شكرا لك سيدي الرئيس.

صافح الرئيس، وأخذ ميداليته، وعاد إلى مقعده راضيا. فليستنكروا، وليندهشوا كما شاءوا؛ لن يقف أمامهم ويخبر الرئيس أنه مجرد مقلد. ولكن اسما آخر عاود الظهور بعد الحفل، وظل يلاحقه حتى الآن: الطفيل!

عائلة ياسر كانت من أغنى العائلات قبل الحرب، وصور والده وأخبار أعماله تتصدر الصفحات الأولى في عدد كبير من الصحف. يعتقد ياسر أن نشأته في هذه العائلة هي ما جعلته هكذا، فهو لا يذكر أنه اختبر مشاعر حقيقية طوال طفولته. يحضر له والده هدية غالية قائلا:

- ينبغي أن تكون سعيدا (فيصبح سعيدا.. !)

تقبله والدته قائلة: أنت طفل سعيد. (فيكون طفلا سعيدا)

يقول ابن المربية: أنت لديك كل شيء، لابد أنك سعيد جدا.

فيقول: أنا سعيد جدا.

سافرت هذه العائلة للخارج قبل بدء الحرب، وعاشوا آمنين يراقبون الأخبار، وتتغير وجوههم للحظات، ويملؤها الأسى والحزن، ويمدون أيديهم لمسح دموع وهمية، ثم يعدلون ثيابهم وينطلقون بسياراتهم؛ حتى لا يتأخروا على الحفل الضخم الذي دعوا إليه، فيغضب مضيفهم الشهير. يتحدثون عن وطنهم البعيد، وكيف يشتاقون له، ويتمنون العودة لترابه، ثم يتناولون شرابهم قائلين: نحن ننتمي لهنا، لا يوجد مكان آخر نتمنى الوجود به.

تابع ياسر أخبار الحرب بمنتهى الشغف، وتساءل بينه وبين نفسه، لماذا يحدث هذا؟ بماذا شعر هؤلاء الأشخاص في لحظات النهاية؟ كيف يمكن أن يفعل الإنسان هذا بأخيه؟.. نقل أسئلته لوالدته؛ فنهرته قائلة: أنت طفل صغير، لا يجب أن تفكر في هذه الأشياء، يجب أن تستمتع بحياتك فحسب.

هذه المرة لم يتوقف عن المتابعة والتفكير، كما أمرته والدته، بل أصبح شغفه أكبر، وخاصة بمشاهدة صور الضحايا. يتخيل نفسه مكانهم، ويسأل نفسه: بماذا سأشعر لو حدث هذا؟ ويكتب ما يشعر به.

صورة طفل جريح ملقى بجوار بيت متهدم، وبجواره بركة من الدماء، وكتب تحتها:

- اقترب مني بسرعة، أرجوك اقترب بسرعة، أريد أن أسألك سؤالًا واحدًا: ما الذي فعلناه؟.. كنا نجلس داخل منزلنا، نتناول طعام العشاء، اقتحم المسلحون المنزل، وقبل أن نفهم ما حدث أطلقوا الرصاص على أبي، فقتلوه، وضربوا أخي بكعب البندقية في رأسه فسقط أرضا. حاولت والدتي حماية أخي الرضيع؛ فطعنها أحدهم بخنجر طويل، اخترق جسدها، وعبره ليقتل الرضيع أيضا. حاولت الهروب، ولكن أحدهم أطلق رصاصة على ظهري؛ فسقطت أرضا، وتركوني وذهبوا. لا تملك إجابة!.. حسنا، لا أريدها على أية حال، أريد شيئا آخر، اقتلني أرجوك، فالألم لا يحتمل. أشعر بالحياة تنسحب مني ببطء، فأرجوك وأتوسل إليك اقتلني، واجعل الأمر سريعا.. أريد أن ألحق بوالدتي وأخوتي، حيث لا يوجد مسلحون ولا قتلة.

صورة أخرى تظهر أبًا يحمل طفلا رضيعا، ويعدو، وخلفه زوجته تجذب طفلا آخر من يده، وسط الشارع الممتلئ بأنقاض المنازل المتهدمة والنيران المشتعلة، وكتب تحتها حوارًا قصيرًا:

- يجب أن نهرب.
- إلي أين؟
- لا أعرف؛ ولكن يجب أن نهرب من هذا الجحيم.
- لم أعد أستطيع العدو.
- فقط واصل العدو حتى نخرج من هنا.
- نخرج، ونذهب إلى أين؟ الموت في كل مكان.
- فقط واصل العدو، ربما استطعنا الهرب.
- نهرب إلى أين؟ كل شيء مشتعل.
- لا أحد يهرب من الموت.

وصورة أخرى لامرأة عارية الشعر، ترفع يديها لأعلى وتصرخ، وخلفها منزل مشتعل تتصاعد منه النيران والدخان، وكتب تحتها:

- أين أنت أيها القناص؟ أين أنت؟ أرجوك، أتوسل إليك، رصاصة واحدة أطلقها على رأسي، مثلما فعلت مع زوجي منذ ثلاثة أيام، عندما خرج ليحضر الطعام للأطفال الجوعى.. أبو عمار؛ بالتأكيد تذكره، لقد نسفت رأسه بطلقة واحدة أمام بصري أنا وأولاده. لم أتحمل جوعهم فنزلت لأبحث لهم عن طعام، وأتسلل خائفة منك، لأنني كنت غبية، لم أعرف أنك رصاصة الرحمة.. هربت منك، وأحضرت الطعام، وعدت لأجد المنزل قد احترق وأولادي كلهم داخله، فأرجوك، أتوسل إليك، رصاصة أخرى لتلحقني بهم. أنا آسفة أنني اختبأت منك، ليتني لم

أفعل، ليتني جئتك باكرا، ولكنني جئت الآن؛ فأرجوك، امنحني رصاصتك.

وصورة لعدد من الجثث نصف المتفحمة، ملقاة بإهمال وسط الطريق، وكتب تحتها:

- اسمي محمد، اسمي أحمد، اسمي علي.. أنا لست رقمًا لتوضيح عدد القتلى؛ أنا حياة. أنا لست خبرًا تقرءونه، أنا حياة. لدي زوجة، وطفلة جميلة، وأم طيبة تجلس بجوار النافذة. لدي عائلة تنتظرني عودتي في المنزل، ولكنني لن أعود، ولا أعرف لماذا. لماذا أطلقت عليّ الرصاص؟ لماذا ذبحتني؟ طعنتني بخنجرك؟ صدمتني بسيارتك؟ أشعلت النار في جسدي؟ وتركتني، وذهبت! لماذا أنهيت حياتي بهذه الطريقة؟

جمع أكثر مائة صورة تركت أثرا في نفسه، وكتب تحتها بماذا يشعر، ونشرهم على الإنترنت تحت اسم بسيط (ألبوم صور الحرب) بغلاف يمثل لقطة بعيدة للمدينة، وقد اسودت وخلت من مظاهر الحياة، وعلاها دخان أسود كثيف، وكتب تحتها:

- عشرة أشخاص خرجوا من المنزل، خمسة لم يعودوا، وأربعة عادوا فلم يجدوا المنزل الذي خرجوا منه، وواحد عاد وجلس مع أسرته، فانفجر المنزل بهم جميعا.

فوجي بانتشار رهيب للألبوم، وإعادة نشره عشرات المرات، تحت أسماء أخرى مثل: اللحظة الأخيرة، ألبوم الدم، الصرخة، الإنذار الأخير، قبل أن يحترق كل شيء.

وظهر اسم الطفيل ليلاحقه، فهو قد عاش فترة الحرب كلها في الخارج، دون أن يشارك الباقين آلامهم وأحزانهم، التي أتى ليتغذي عليها ويصنع منها شهرته مثل الطفيل.

لم يستطع ياسر أن ينسى مروج؛ فقد أحبها حبا جما. جاءت بعدها سارة، ولبني، وكرمان.. ورحلن لنفس السبب، أو لأسباب أخرى، ولكنهن

رحلن. ولكنه لم ييأس.. كان من المؤمنين أن لكل شخص أكثر من شخص مناسب في الخارج. ولكي لا يتكرر هذا، قرر ياسر أن يجهز كل شيء قبل أن يقابل المرأة المثالية.. ماذا سيخبرها؟ وكيف سيتصرف معها؟ لن يجعلها تتركه هذه المرة. كتب ياسر:

- قبل أن أقابلك، كنت أشعر بالرضا عن بعض لحظات حياتي، وبالسخط على أكثرها، كنت أتمنى أن أغير الكثير من الأشياء. ولكن بعد أن قابلتك، أصبحت شاكرا لكل شيء حدث لي.. الأشياء السيئة قبل الجيدة؛ لأن كل ما حدث قادني حتى اللحظة التي قابلتك فيها، وعندها لم يعد أي شيء يهم.. كل حياتي قبلك لا تهم، لقد ولدت في هذه اللحظة، وبدأت حياتي سعيدا لأنني معك. عندما أنظر في عينيك، أرى رجلا أفضل من الذي تمنيت أن أكونه في أقصي أحلامي، وظننت أنه مستحيل أن أكونه؛ ولكنني أرى المستحيل ينكسر أمامك، ويصبح ممكنا.

عندما أكون معك، أشعر بالقوة تنساب خلال عروقي، بشكل لم أعهده من قبل، ولم أظنه ممكنا؛ فلو أردت تحريك الجبال لفعلت.

عندما أكون معك، أشعر أن كل شيء مختلف، حتى الهواء يرقص داخلا إلى رئتي، ويغني خارجا منها.

ولكنه لم يحتج أن يقول أي من هذه الكلمات؛ فمع همس -زوجته الحالية- كان كل شيء مختلفا بالفعل. وضعت يدها على فمه قائلة:

- لا تقل أي شيء؛ فأنت لست بحاجة لتفسير نفسك، أو شرح أي شيء لأي شخص. أنت مثالي كما أنت، وأي شخص لا يرى هذا فهي مشكلته هو، وليست مشكلتك.

أحبها ياسر بكل جوارحه، وبذل كل ما يمكنه لإسعادها؛ ولكنه ظل يرى طيف مروج بين الحين والآخر يهمس له:

- أنت لا تحبها، ولست سعيدًا معها، أنت مجرد مقلد.

فيقبل يد همس ورأسها، ويبدأ الحديث ليخبرها كم يحبها، وكم هو سعيد معها، ولكنها تضع يدها على فمه قائلة:

- لا تحتاج إلى كلمات، فأنا أستطيع أن رؤية قلبك، وأعرف أنه سعيد.

عاد إلى الكتابة ثانية مرددا: لا يهم ما يقولون، أنت مثالي كما أنت.

أصدر روايته الأولى، "وطن الدم"، لتتربع على قمة الأكثر مبيعا في أسبوعها الأول؛ ليؤكد أن "ألبوم صور الحرب" لم يكن برقًا من العبقرية سرعان ما انطفأ، كما قال كارهونه الذين عاودوا لمهاجمته مع الرواية الجديدة، مؤكدين أنه مجرد طفيل، يتغذى على الحزن والألم.

وتوالت إصداراته، ليثبت نفسه كواحد من أفضل الكتاب الذين ظهروا بعد الحرب؛ فقد أجمع القراء أن أفضل الكتب والروايات التي كتبت عن الحرب هي كتبه ورواياته، ورغم أنه لم يشهد الحرب، وكان ينام آمنا على فراشه المريح في الخارج، لكنه وصف معاناة المواطنين وآلامهم أفضل ممن عايش الحرب معهم يوما بيوم.

تقول همس: أتعرف؟ حتى الآن لا يمكنني أن أتخيل كيف بدأ الأمر، وتطور حتى وصلت الأمور إلى هذا الحد!

- تخيلي حربًا داخلية، يكون أطرافها مجموعات مختلفة من السكان، كل فرد فيها يرى في الآخر عدوه، وفيمن يريد أن يبقى على الحياد خائنا لا يمكن التعايش معه ولا العمل معه في نفس التقسيم الترابي. دعيني أحاول تقريب الصورة لك..

أخرج ورقة فردها أمامه، وكتب فوقها قائلا:

- فلنفترض أن لدينا المجموعة ١ تحارب المجموعة ٢ / فتأتي المجموعات ٣و٤و٥و٦، وتنضم للمجموعة ١ / وتأتي المجموعات ٧و٨و٩، وتنضم للمجموعة ٢ / وتأتي المجموعة ١٠، فتعلن حربها على الجميع / فتاتي المجموعة ١١ وتعلن تحالفها مع المجموعتين ٥و٧ المتقاتلتين، وحربها

ضد الباقين / وتأتي المجموعات ١٢و١٣و١٤، وتعلن تأسيس جبهة جديدة، وتدعو الجميع للانضمام لها / وتأتى المجموعة ١٥ فتعلن أنها مع المجموعة ١٣، ولكنها ضد ١٣ و١٤ / وتأتي المجموعات ١٦ و١٧ و١٨و١٩و٢٠، فتستولي كل منهم على منطقة، وتعلن سيطرتها عليها، وعلى الجميع الابتعاد عنها / وتأتي المجموعة ٢١، فتعلن قتالها ضد ١، وتطلب من الجميع الانضمام لها / وتأتي المجموعات ٢٢ و٢٣و٢٤......

قاطعته همس: كفى!.. لم أعد أفهم شيئا.

فقال ياسر:

- لاحظي أننا لم نتحدث سوي عن ٢٤ مجموعة، من أكثر من مائتين مجموعة مسلحة اشتركت في القتال، ضمت صفوفهم مقاتلين من أكثر من أربعين جنسية مختلفة، ودعم بمليارات الدولارات مقدم من أكثر من دولة، وكثيرا ما تدعم الدولة الواحدة كلا الجهتين المتقاتلتين لتضمن استمرار القتال، بل ترسل جنودها للقيام بعمليات تشعل القتال وتدفعه نحو مستويات أسوأ.

- هذا رهيب!

- لاحظي أيضا أن خريطة التحالفات المعقدة لم تكن ثابتة؛ بل كانت تتغير طوال الوقت؛ فتقاتل المجموعة حلفاءها وتتحالف مع أعدائها.. وتنشق المجموعة إلى مجموعات أخرى تتقاتل فيما بينها.. هذا بالإضافة إلى مجموعات من اللصوص والنهابين وقطاع الطرق.. ومجموعات الفقراء التي تبحث عن أي شيء يسد جوعها.. ومجموعات مسلحة أخرى تتحرك بدافع الكراهية والانتقام والعصبية العرقية، وأحيانا من أجل العنف فحسب.. ودول أجنبية لا هدف لها سوى إلقاء المزيد من الحطب فوق النيران المشتعلة.

- لماذا يفعلون هذا؟ ما هو الهدف الذي يسعون إليه؟

- السلطة، والوصول إلى كرسي الحكم.. هذا ما يسعى إليه المتحاربون.. الاستيلاء على السلطة الوطنية أو المحافظة عليها. أما الانتقام، والحقوق، والإجرام الجماعي، والمكاسب الاقتصادية فهي ليست دوافع كافية، آحادا كانت أو متعددة.

- لقد كان جحيما رهيبا.

- إن جحيمًا لهي كلمة قليلة بالنسبة لما شهدته هذه الأرض لثلاث سنوات.

- وكيف انتهى القتال؟ كيف فعلها الرئيس؟!

- أتعرفين، على الرغم من كل ما قرأته وكتبته عن المؤتمرات والاتفاقيات التي عقدت، لا أعرف فعلا كيف فعلها الرئيس وأنهى القتال. لا أحد يعرف.. أعتقد أن الرئيس نفسه لا يعرف.. لقد كانت معجزة بالمعنى الحرفي للكلمة.

- أتمنى ألا يتكرر ثانية.

- اطمئني، إنهم يستمعون.

وعلى الرغم من كل النجاح الذي حققه ياسر، وكل السعادة التي عاشها مع همس؛ كان يشعر أن هناك شيئا ناقصا، لا يعرف ما هو ولكنه يشعر به، ويفتقده بشدة، ويتمنى الحصول عليه.

جاءته الإجابة على هيئة زيارة غير متوقعة من ضخمين، أخبراه أنه مطلوب لأمر عاجل ويجب أن يحضر معهم. قاده الرجلان إلى لقاء مع رجل غامض -أصبح ياسر يدعوه فيما بعد بالمعلم- تحدث معه عن رواياته الناجحة، وأخبره أنه قرأها وتعلم منها الكثير، وتحدثا عن بدايته وألبوم صور الحرب، وقال له المعلم إنه أفضل تجسيد رآه للحرب.. قال المعلم:

لديك موهبة عظيمة، قد تشعر أحيانا أنها نعمة، وأحيانا أخرى أنها نقمة، ولكن ثق بي.. إنها نعمة عظيمة، وستؤهلك للقيام بأشياء عظيمة.

وجد ياسر نفسه يهمس دون وعي: يقولون إنني مجرد طفيل.

فقال المعلم: لأنهم لا يفهمون، ولا يستطيعون رؤية حقيقتك. الحقيقة أنك لست طفيلا، ولا مقلدا؛ أنت الحالم الأخير.

فغر ياسر فاه مندهشا من كلمات المعلم، فهو يحب أن يسمي نفسه الحالم الأخير، ولكنه لم يخبر أحدا بهذا الاسم من قبل. واصل المعلم: أنت تحلم، في زمن أصبح الحلم فيه ضربا من الجنون. تحلم بحياة أفضل، بمستقبل أفضل؛ ليس لك فحسب، وإنما لوطن بأكمله.. ومعا، يمكننا جعل هذا الحلم حقيقة.

تطلع ياسر إلى الرجل للحظات، قال: ماذا تريدني أن أفعل؟

قال المعلم: المستمعون، تبدو كفكرة خيالية قادمة من خارج العالم. أحيانا أشعر أنني لا أصدق أنها موجودة.. شخص تجلس لتتحدث معه عما تريد، تنهض وتنصرف، فينسى كل ما ذكرته له. لا أعرف، أشعر أنها خيالية أكثر من اللازم. أحيانا لا أصدق أننا فعلناها وأنشأنا هذا الصرح العملاق. نحن بحاجة لشخص يتحدث عن المستمعين، ويذكر الناس بماهيتها، ولماذا هي هنا.

صمت المعلم لحظات، قبل أن يقول: ومَن أفضل من شخص خيالي، ليتحدث عن صرح خيالي مثل المستمعين؟!

نهض ياسر وصافح الرجل قائلا: يمكنك أن تثق بي.

ومنذ ذلك اللقاء، شعر ياسر بالحياة تدب داخله، وهو يتحدث عن المستمعين، ويحطم حجج الصامتين الواهية. يقول ياسر: أنا لست هنا للدفاع عن المستمعين، فليسوا متهمين لندافع عنهم، ولست هنا للتحدث عن فوائد المستمعين، فلا يمكن أن يحدثك أحد عن فوائد امتلاكك ذراعين، وساقين.. أنا هنا لأذكركم بما لديكم، لأخبركم بما تستطيعون فعله، لأريكم بداية الطريق للتخلص من السموم المتراكمة داخلنا تأكلنا في صمت.. لأريكم بداية الطريق نحو الراحة والسكينة التي تستحقونها.

جاءه الإعلامي الشهير بعد الحلقة وصافحه بقوة، قال:

- لقد كسبت شخصًا آخر إلى معسكرك يا سيد ياسر.

- ليس لدي معسكريا سيدي؛ ولكني أحاول تذكيركم بما لديكم بالفعل.

- ولقد قمت بهذا على أفضل وجه. أعتقد أن الجميع يعرف الآن لماذا يجب أن يصوت المجلس بنعم للمستمعين.

استدار ياسر لينصرف، ثم استدار ثانية، وقال للإعلامي:

- أتعني أنك لن تقول لدكتور أحمد هذا الكلام بالضبط بعد حلقته؟

احتقن وجه الإعلامي، وقال: بالطبع لا، فأنا صاحب رأي واحد.

ولكن ياسر انصرف دون أن يسمع رده، أو يهتم أن يسمعه؛ فهو يعرف جيدا ما سيفعله الرجل.

تقول همس: لا أعرف لماذا يفعل دكتور أحمد هذا! لماذا يريد أن يحرمنا من المستمعين، ونحن لدينا الكثير لنقوله؟ نحن أطفال الحرب نحمل ألمًا عظيمًا داخلنا، نتمنى أن نصرخ فلا نستطيع، نحمل كمًّا هائلا من الكراهية التي تأكلنا من الداخل، ولا نعرف كيف نخرجها.

فقال ياسر: هناك من يعتقدون أن الإنسان يجب أن يعيش في ألم دائم، وأن هذا الألم هو البداية الصحيحة للطريق. أعتقد أن دكتور أحمد أحدهم.

ذهبت همس لتعد له قدح القهوة التي يحبها، وبقي ياسر يقرأ بعض

الأوراق أمامه. توقف ببصره عند الورقة التي خط عليها موعد زيارته الخاصة لمركز المستمعين.. أخبره المعلم أن دكتور أحمد سيكون موجودًا أيضا. سيكون الأمر ممتعا.

***

-٣٤-

تطلع أحمد إلى صورته المنعكسة في المرآة، وعدلت بيلسان رابطة عنقه، فتطلع إليها للحظات، ثم قال: شكرا لك يا بيلسان، شكرا لك على كل شيء.

ردت بيلسان: لن نتحدث الآن؛ سنتحدث بعد خروجك من المركز.

قبل أحمد رأسها وخرج.. ركب سيارة المستمعين الخاصة، لتأخذه للمركز. جلس على المقعد الخلفي يتأمل الطريق الذي يعدو بجواره لدقائق، ثم قال: نحن لا نتجه إلى مركز المستمعين.

فقال السائق: سنصطحب ضيفا آخر، ثم نتجه إلى المركز.

- من هو؟

لم يجبه السائق، فصمت أحمد وغرق في خواطره، حتى توقفت السيارة أمام بناية شهيرة، ورأى ياسر شوقي قادما نحوهم؛ فقال: الطفيل!

لم يعلق السائق، واحتل ياسر المقعد المجاور له، وصافحه قائلا:

- سعيد جدا بمقابلتك يا دكتور أحمد.

- بل أنا الأسعد بمقابلتك يا طفيل.. آسف، فما تعودت عليه يخرج أولا.... أقصد يا سيد ياسر.

انطلقت السيارة، وقال ياسر:

- أتعرف؛ على الرغم من أننا نقف على طرفين مختلفين، إلا أنني أشعر بالإعجاب الشديد بما تقوله؛ أشعر أنه خارج من قلبك فعلا.

- هكذا الحقيقة، دائما تجد طريقها إلى قلوب الجميع.

كرر ياسر: الحقيقة دائما تجد طريقها إلى قلوب الجميع.. الحقيقة دائما تجد طريقا. بمناسبة الحديث عن الحقيقة، هل لي أن أسألك سؤالًا؟

- عن أي شيء؟

صمت ياسر للحظات، ثم ألقى سؤاله مباشرًا: لماذا تكره المستمعين؟

رأى ياسر وجه أحمد يتغير للحظات؛ ولكنه سيطر على انفعالاته، قال:

- أنا لا أكره المستمعين؛ وأعتقد أنك -كمتابع لي كما تقول- تعلم جيدا لماذا أقف ضدهم.

- ولأنني متابع جيد لك، فأنا أعلم أنك تقف ضدهم، ليس بسبب ما لم يفعلوه، بل بسبب ما فعلوه.

- ماذا تعني؟

- لقد فعلوا شيئا ما لك، شيئا لا تستطيع نسيانه، ليس لك أنت شخصيا، ولكن لشخص قريب منك، قريب جدا.

- إذا فأنت تلعب دور الوسيط الروحي أيضا.

واصل ياسر: لقد قتلوه... نعم.... لقد قتلوه.... لقد قتلوا.... والدك.

- هل تظن أنه يمكنك التلاعب بي ببعض القراءة الباردة؟!!

- شخص ما يذكرك بالمستمعين قتل والدك؛ لذلك فأنت تكرههم؛ هذه هي الحقيقة.

- تحتاج أن تكون أفضل من هذا بكثير لتتمكن من قراءتي.

- هل أنا محق؟

ابتسم أحمد قائلا: لا يمكنك أن تكون أكثر خطأً، ولكنك كطفيل تتوهم أنك قادر على الدخول إلى عقلي ومعرفة أفكاري. ولكن دعني أخبرك بالحقيقة؛ أنت فاشل.

قال ياسر: أنت تكرههم، ولكنك لا تهاجمهم من أجل كراهيتك الشخصية، فأنت مؤمن بكل حرف تقوله، وتعتقد أنك تملك الحقيقة

الوحيدة، التي يجب أن يعرفها الجميع ويتبعونها. ولكن دعني أخبرك بحقيقة جديدة، أنت مخطئ.

قال أحمد: سنرى من المخطئ.

وصلت السيارة إلى المركز؛ فهبط الاثنان وسارا للداخل، قال ياسر:

- لست طفيلا، بل أنا شخص ذو موهبة عظيمة.

- سعيد جدا من أجلك.

***

تنهد كريم في ارتياح، وجلس على مقعده داخل الغرفة جاما، وبدأ العمل على جهاز الكمبيوتر الخاص به هامسا: أخيرا.

فقال باهر: يقولون إنك لم تغضب بشأن الاختراق، قدر غضبك للبقاء بعيدا عن الغرفة.

فاعتدل كريم في مقعده قائلا: كان يجب أن تقتل اللحظة، أليس كذلك؟

فابتسم باهر قائلا:

- لو أردت قتل اللحظة، لأخبرتك أنه قد تقرر نقلك إلى الغرفة زيتا.

قفز كريم من مقعده كالملسوع هاتفا: ماذا؟!

علا ضحك باهر، وقال: اطمئن لقد قلت لو.

هتف كريم غاضبا: يالك من أحمق!

- احذر، فأنت تتحدث مع رئيسك المباشر.

- رئيسي المباشر.. هذا يعني أنك أول من سيطير رأسه لو عثر فريق الفحص اليوم على أي خطأ في النظام.

- لن يجدوا أي شيء.

صمت لحظة، وأكمل: وحتى لو وجدوا، لسنا نحن من يسعى نيروز خلفه.

- أيمن.

- بالضبط.

- ما قصة هذين الاثنين؟

- لا أحد يعرف بالضبط؛ ولكننا نعرف أن أحدهما سيكون سعيدا، لو استيقظ فوجد الآخر وقد جُزَّ عنقه. ولكنهما ليسا من يجب أن نخاف منه.

- المدير؟

- بالضبط. انظر إليه.. يترك الاثنين يتشاجران مثل القط والفأر، ولكن ما إن يطرق بيده، حتى يصمت الجميع. بل إنني أقسم أنني رأيت نظرة خوف في عيني نيروز وهو يتحدث معه.

- كنا نعتقد أن أيمن ريح عاصفة، ولكننا قابلنا إعصارا كاسحا.

- أتمنى أن ينتهي الأمر؛ ليختفي المدير في فجوته السوداء ثانية، ويعود أيمن لإدارته للمكان.

سمعا طرقات على الباب، ودخل مازن، مساعد باهر الجديد قائلا:

- لقد وصل فريق الفحص.

- حسنا.

***

التقط شريف نفسا عميقا، كتمه داخله للحظات قبل أن يطلقه، في محاولة يائسة للسيطرة على توتره. خطا داخلا مركز المستمعين مع باقي الفريق، فاستقبلهم باهر قائلا: مرحبا بكم؛ أنا باهر، كبير المهندسين.

صافحه أعضاء الفريق، وقادهم باهر نحو غرفة خاصة، وكتب رقمًا

سريًّا مكونًا من ثمانية أرقام، ووقف أمام شعاع ضوئي قام بفحص حدقة عينه اليمنى، ثم أخرج مفتاحًا وضعه في فتحة صغيرة في الباب، وأداره لليمين؛ فأضاء مصباح أخضر، فابتعد باهر عن الباب، وتقدم شريف، قائد فريق الفحص، فكتب كلمة دخول أخرى، وأخرج مفتاحًا آخر، تسلمه من نيروز مع الكلمة قبل القدوم مباشرة، فوضعه في فتحة أخرى وأداره لليسار، فأضاء مصباح آخر، وفتح الباب وصوت معدني يقول: مرحبا بكم في النواة.

دخل باهر، فتبعه أعضاء الفريق الأربعة إلى الغرفة الممتلئة بالأجهزة، والشاشات العملاقة تحتل ثلاثة من جدرانها. جلس أعضاء الفريق على المقاعد الأربعة أمام الأجهزة، وجلس باهر على مقعد خلفهم، وأطلق الباب صوتا متقطعا للحظات وأغلق، وقال الصوت المعدني:

- عملية الفحص تبدأ الآن.

تسمى العملية: "عملية الفحص الرباعي"، حيث يقوم أربعة خبراء بفحص النظام في وقت واحد.. لا يقومون بعمل تكميلي لبعضهم، بل يقوم كل شخص بفحص النظام بأكمله، دون التحدث مع الباقين، أو إجراء أية اتصالات، ثم يقوم كل شخص بتقديم تقرير منفصل في نهاية العملية. تشمل العملية فحص النظام، والتأكد من سلامته، وأنه يقوم بعمله على أفضل وجه، والبحث عن أية ثغرات، بالإضافة إلى إجراء عدة محاولات لاختراقه، للتأكد من قوة النظام الأمني.

بدأ شريف العمل، وعقله يبحث عن طريقة للعثور ما يريده. يجب أن يعثر عليه الآن، فهو لا يعرف متى سيحصل على فرصة أخرى لدخول النواة. ولكن كيف يبحث وكبير المهندسين يراقبه، على بعد خطوات منه؟ بالإضافة إلى المشكلة الكبرى، أنه لا يعرف عما يبحث.. يعرف أن الإجابة هنا في مركز المستمعين، ولكنه لا يعرف ما هي. أهي معلومات عن الهجوم الذي حدث على المركز، يحصل عليها فيتمكن من إعادة العملية، وجعل أسيل تتذكر؟ هل الإجابة عبارة عن شفرة إيقاف لنظام المستمعين الموجود في عقل أسيل؟

ولكن ماذا سيفعل بها؛ فلو أوقف البرنامج، لن تتذكر أسيل. إنه كمن يطلق طلقاته في الظلام، ويأمل أن تصيب إحداها هدفا لا يراه ولا يعرفه!

مشهد واحد يسيطر عليه ويدفعه للمضي قدما ،على الرغم من كل شيء. مشهد الرجل وهو يصدم ابنه بالسيارة، فيطيح به بعيدا، ثم يتوقف بجواره ويتطلع إليه، ويتلذذ بألمه.. يهمس رامز: انقذني، أرجوك.

فيبصق الرجل عليه، ويواصل القيادة حتى يصل إلى أسيل: فيجلس أمامها قائلا: خمني ماذا فعلت الآن؟ لقد قتلت ابنك. نعم، أنا قتلت ابنك، أيتها الحمقاء النائمة، ولا يوجد ما يمكنك فعله، أنت، أو زوجك الأحمق شريف.

يعض شريف شفته بأسنانه حتى يدميها، ويهمس: سأريك ما سأفعله.

***

تطلع أيمن إلى أحمد وياسر، وأشار لدكتور علام قائلا: لقد وصلا.

أسرع علام نحوهما هامسا: رائع، لنحضر الرجل الذي يريد تدميرنا إلى هنا.

رسم علام ابتسامة كبيرة على وجهه، وصافحهما قائلا: دكتور أحمد، وسيد ياسر، لا يمكننا أن نصف سعادتنا لوجودكما اليوم بيننا.

قال أحمد: أرجو ألا تغضب مني يا دكتور علام، بسبب ما حدث في لقائنا الأخير؛ فلم أكن أريد إحراجك، ولكنك أحرجت نفسك؛ أقصد، كنت أوضح الحقيقة فحسب.

قال ياسر: شكرا لك يا دكتور علام

سار علام، فتبعه الاثنان، فتوقف أمام أول غرفة وقال: الغرفة الأولى، هنا تتم مقابلة الأشخاص الراغبين في الانضمام لنا للعمل كمستمعين. تتم المقابلة على ثلاث مراحل، للتأكد من صلاحية الشخص للعمل، والتأكد أنه لا يريد القدوم للتخلص من حياته فحسب، كما يحب البعض أن يعتقدوا.

قال أحمد: أعتقد أن البعض يملكون وجهة نظر جيدة.

وقفوا يتطلعون إلى عرض قصير، يمثل بعض الأسئلة وإجابات الأشخاص عليها، على شاشة صغيرة خارج الغرفة. انتهى العرض، فقال ياسر: وماذا تفعلون للأشخاص الذين يريدون الانضمام للهروب من واقعهم فحسب؟

قال علام : يتم توجيههم للمكان الصحيح، ليتعلموا كيف يتعاملون مع مشاكلهم، وينهضون بحياتهم ثانية، وربما نسمح له بمقابلة ثانية، ولكن بعد ستة أشهر على الأقل من تعافيهم.

صمت علام، ليسمح لهما بطرح الأسئلة، ولكن أحدهما لم يسأل، فواصل وقد توقفوا أمام الغرفة الثانية: هنا غرفة التعليم الأولى، حيث يتم إلقاء عدة محاضرات للأشخاص الذين اجتازوا المقابلات بناجح؛ نوضح خلالها كل شيء عن المستمعين، ونستمع لأسئلتهم واستفساراتهم، ونجيب عليها.

أضاءت شاشة أخرى، وبدأت تعرض مقتطفات من المحاضرات، وجانب من أسئلة الحضور. قال ياسر: جميل جدا.

عقب أحمد: جميل بالفعل كيف تغسلون عقولهم؛ أقصد كيف تعلمونهم.

انتهى العرض، فواصلوا التحرك، وقال علام: بعد ذلك يتم وضع المرشح مع مستمع، في جلسة استماع خاصة لمدة ساعتين، يمكنه أن يقول خلالها ما يشاء، ليعرف كيف يتم الأمر.

قال أحمد: هل يتم تسجيل هذه الجلسات؟

فقال علام:

- بالطبع لا، فمبدأ المستمعين هو "قل ما تشاء، دون خوف أو رقابة".

قال ياسر: كل سر يمكن أن يخرج، إلا ما بين الرجل ومستمعه.

واصل تحركه مكملا: بعد ذلك يتم اصطحاب المستمع إلى غرفة العمليات، ويتم تركيب برنامج المستمعين.

بدأ العرض على الشاشة، يشرح عملية تركيب البرنامج، والهدف منها، ويتحدث عن زوج الكمبيوترات الصغيرة التي يتم تثبيتها على رأس المستمع وكيفية عملها. قال علام: عملية تركيب البرنامج هي عملية آمنة تمام، ولم تحدث أية مشكلة مع أي فرد من قبل. لدينا، نسبة النجاح مائة في المائة.

قال أحمد: معذرة لقطع كلامك، ولكن أرجو أن تعذرني لدقائق.

سار نحو أحد رجال الأمن الواقفين، فاقترب ياسر من علام قائلا: أعرف أنك لا تشعر بالراحة لوجود دكتور أحمد هنا، ولكنك تؤدي جيدا.

قال علام: إنه يعيدني لذكريات سيئة للغاية، جاهدت كثيرا لنسيانها.

- أعرف، يمكنه أن يكون مزعجا كطفل شقي، ولكنك قادر على التعامل معه.

تحدث أحمد مع رجل الأمن للحظات، وسار نحو الحمام الملحق بالطابق، فدخله وأغلق الباب. وقف يتطلع إلى انعكاسه في المرآة، وزفر بشدة مغمغما:

- يمكنك القيام بهذا.

غسل وجهه وجففه، ثم وقف بجوار الحائط، أمام النقطة التي حددها له ساري.. سار ثلاث خطوات، انحرف وسار ثلاث خطوات أخرى، يقف الآن أسفل النقطة الخاصة بالضبط. أخرج هاتفه، وضغط أزراره، ووضعه على النقطة التي توقف عندها. خرج شعاع ضوئي من هاتفه، امتد حتى السقف للحظات قليلة.. أضاء واختفى عدة مرات، ثم سكن تماما، فالتقط الهاتف، وأخرج جهازا آخر في حجم عقلة الأصابع، ورفعه بيده ووضعه في إحدى فتحات التهوية، فتحرك في الفتحة حتى نقطة محددة، وتوقف.. حرك أحمد يده على الجدار حتى نقطة أخرى، وضع هاتفه عليها، وضغط أزراره، فأضاء الهاتف، وظهرت بيلسان على شاشته قائلة:

- يتم تكوين الاتصال خلال ثلاثة، اثنان، واحد، تم.

زفر أحمد بقوة، ونظر للباب، ثم لها قائلا: أسرعي.

قالت بيلسان: ستبدأ عملية نقل النبضة الآن.

ظهرت علامة على الهاتف تشير إلى نسبة التحميل؛ راقبها أحمد هامسا:

- هيا... هيا...

شعر كأن دهرًا كاملًا قد مر، حتى وصلت النسبة إلى مائة بالمائة، فقالت بيلسان: سأقوم بتشغيل برنامج الطوارئ في الخارج، عليك أن تقوم بتفعيل النبضة بعد خمس ثوان.

عملت على الأجهزة أمامها للحظات، وقالت: الآن.

تطلع أحمد إلى ساعته، مضت الثواني الخمس؛ فضغط أزرار الهاتف؛ ليقوم بتفعيل النبضة هامسا: الآن.

التصق بالجدار منتظرا اللحظة التي يفتح فيها الباب ويقفز رجال الأمن للداخل ليلقوا القبض عليه؛ ولكن لم يدخل أحد.. عدل ثيابه، وجمع أجهزته وسار للخارج، إلى حيث ينتظره علام وياسر.

قال أحمد: آسف.

رد علام: لا بأس، والآن لنتابع جولتنا.

سار للأمام مكملا: الآن أصبح لدينا مستمع مستعد للعمل، وليكن المستمع(أ)، يصل (أ) للعمل في موعده، يعبر إجراءات الأمن، ويدخل للمبنى.

قال أحمد: لديكم الكثير من الإجراءات الأمنية بالنسبة لمركز للمستمعين.

فقال علام: تقول هذا من منطلق خبرتك بمراكز المستمعين الأخرى؟

قال أحمد: لا يوجد مركز للمستمعين غيركم.

قال علام: بالضبط، ونحن نعرف ما نفعل.

ابتسم ياسر قائلا: جيد.

قال أحمد: حقا! أتمنى ذلك!

أشار علام نحو الشاشة الكبيرة، حيث عليها عرض يمثل ما يقوله:

يدخل (أ) إلى الغرفة الزرقاء، يضع الخوذة على رأسه؛ فتقوم بتثبيت زوج الكمبيوترات وتفعل البرنامج، ليبدأ العمل. لا يشعر المستمع بأي شيء، يكون كمن ذهب للنوم، تأتي الاتصالات لغرفة الاستقبال تطلب مستمعين؛ فيتم إرسال إشارة إلى المستمع المطلوب، فينهض وتحمله سيارة خاصة بالمركز إلى الموقع المطلوب لإتمام جلسة الاستماع، وتعيده للمركز ثانية، فيبقى مكانه، حتى ينتهي العمل، فيتم توجيه المستمع للغرفة الحمراء، ويضع الخوذة الأخرى على رأسه، فتقوم بإيقاف البرنامج وإزالة الكمبيوترات عن رأسه، ويستيقظ المستمع، لينصرف.

قال أحمد: لا أفهم، كيف يستمع الشخص، ولا يتفاعل مع ما يسمعه!

قال علام: فكر في المتكلم كأنه يتحدث مع تمثال.

قال أحمد: تمثال، تعتبر المستمع كتمثال.. ليسوا بشرا بالنسبة لكم.

قال علام: أنا لم أقل هذا..أنا لم أقصد هذا..نحن لا نلغي إرادة المستمع.

تدخل ياسر:وما هي الإجراءات المتبعة لتأمين المستمعين أثناء الجلسات؟

صمت علام للحظات، وقال: البرنامج مزود بجزء خاص للطوارئ، تفعِّله أفعال وكلمات معينة؛ فيقوم الكمبيوتر بإرسال رسالة إلى المركز الرئيسي، فتجد رجال العمليات فوق رأسك بعد دقائق معدودة. ولكن لم تحدث أية حادثة من قبل.

قال ياسر: ممتاز.

أكمل علام: يذهب (أ) إلى عملية المسح الشهري، وهي ليست عملية مسح، بل عملية مراقبة وتطوير ومعالجة، لا تتعرض للذكريات، وإنما للجزء الخاص ببرنامج المستمعين. يقوم الجهاز بالتأكد من عمل البرنامج وتطويره، وتأكيد حذف كل ما مر بالمستمع أثناء جلساته.

قال ياسر: لقد اهتممتم بكل شيء.

فقال علام: بالطبع، ففي مركز المستمعين لدينا قاعدة الاهتمام بكل التفاصيل مهما كانت صغيرة، ودائما نعد العدة لما يمكن أن يحدث.

قال أحمد: لا أحد يمكنه التنبؤ بما سيحدث؛ لذلك لا يمكنك الاحتياط لكل شيء.

قال علام: ولكن التخطيط الجيد ودقة التنفيذ تمنحانك القدرة مواجهة المستقبل.

قال ياسر: يقولون: لو عادت الساعة للوراء؛ فسيخطئ المستمعون.

قال أحمد: يحزنني كثيرا أن أرى كل هذا الجهد يذهب بلا فائدة؛ فمن يحتاج إلى المستمعين؟!

فقال علام: لدي هنا بيان بعدد الطلبات التي نتلقاها يوميا، تختلف معك بمنتهى القوة.

قال ياسر: ولدي الكثير من الرسائل من العديد من الأشخاص يتحدثون عن الراحة والسكينة التي منحها لهم المستمعون.

قال أحمد: قد يظن المرء أنه بحاجة إلى مستمع، لأنكم أوهمتموه بهذا، جعلتموه يصدق؛ ولكنه في الحقيقة لا يحتاج إليكم.

قال علام: الجميع يحتاج إلى مستمع.

أكمل ياسر: لأن لدينا الكثير جدا لنقوله.

قال الاثنان في وقت واحد: نحن أطفال الحرب، نحمل ألما شديدا ليس ألمنا، ولكنه ألم حيوات كثيرة زهقت، وحياة قصيرة يجب أن نحياها بلا أمل..

- ليس عبارات أطفال الحرب ثانية.....
- نحن المشوهون، وكل أملنا أن نخرج جيلا نقيا، لا نسقيه سمومنا، ولا نعرف كيف يمكننا أن نفعل ذلك.

تصبب العرق الغزير على وجه شريف، على الرغم من برودة الغرفة، وتصاعدت الطبول الخارجة من صدره، فتلفت حوله، ليرى إن كان الباقون يتطلعون نحوه، ولكنه وجدهم مشغولين بإجراء العملية، فعاد ببصره للشاشة أمامه، والتي أخبرته أنه قد أتم نصف العملية.

يجب أن يفعل شيئا؛ فلو خرج من هنا خالي اليدين؛ فهذا يعني أن يفلت القاتل؛ ويظل هو وأسيل يتجرعان آلام الحسرة والخيبة والغضب، بالإضافة إلى آلامهما التي لم تهدأ بعد. رأى باهر يضع يده على أذنه، فخمن أنه يتلقى رسالة خاصة، وتأكد ظنه عندما خرج باهر من الغرفة مسرعا. واصل العمل، ولكنه شعر أن هناك شيئا ما يحدث.. شيئا لا يمكن أن يلحظه إلا خبير غير عادي مثله.. هناك خطأ، تغيير بسيط في النظام، ولكنه كاف ليقوم شريف بعملية اختراق للبحث عن هدفه.

وجد أثرا ضئيلا لقناة اتصال مؤمنة تم حذفها سابقا عدة مرات. ولكنه يعرف جيدا، لا شيء يذهب للأبد، لابد من أثر يبقى، ومهما كان ضئيلا، فإنه يدل على المصدر الذي جاء منه. أطلق عنكبوت تتبع الكتروني، ليعرف أين يقع الطرف الآخر لقناة الاتصال.

نجح شريف في الدخول لقلب النظام، فوجد برنامج المستمعين الأصلي يقبع أمامه كتنين أسطوري يرقد آمنا في كهفه، الذي لا يدخله أحد أبدا. عجز شريف عن تصديق أنه وجده.. لقد وصل إلى الأصل، إلى أساس كل شيء! حسم أمره سريعا، ففتح قناة الاتصال مع أصدقائه، ليقوموا بمساعدته على تفعيل برنامج قام بالمساعدة في تطويره سابقا، يسمى الثقب الأسود، يقوم بسحب البيانات المطلوبة، دون أثر يمكن ملاحظته؛ ولكن البرنامج يحتاج لأكثر من شخص لتفعيله. سحب الثقب برنامج المستمعين، وأرسله إلى موقع خاص، لا يملك أحد الصلاحية لدخوله إلا شريف.

يعرف شريف جيدا أن ما يفعله يضعه تحت قائمة الخيانة العظمى، مما يجعل السجن مدى الحياة في أحد السجون الخاصة أفضل ما يمكن أن يحدث له، لو تم كشف الأمر. إنه يراهن بحياته كلها على كونه الأفضل، ولن

يعرف أحد ما فعله، بعد أن يخفي آثاره جيدا. فعلي الرغم من أن الإدارة تمنع التنافس بين الخبراء، ولو من باب الترفيه، إلا أنه كان يؤمن أنه الأفضل بلا منازع، ولا يوجد من يستطيع كشفه.

أكمل عملية الفحص، وانتهى من تقريره، فضغط زرًا صغيرًا، أضاء مصباحًا أحمر اللون في الجهاز أمامه، وظل جالسا في مكانه، حتى أضاءت المصابيح الحمراء الثلاثة الأخرى، فنهض الأربعة وساروا للخارج.

***

تطلع أيمن إلى الشاشات التي تنقل لهم ما يحدث داخل المبنى، وهو يجلس على مقعده في غرفة القيادة، وجلس المدير على مقعد مجاور، ونيروز، وكريم على مقعدين آخرين، ووقف فريد بجوارهم. تظهر إحدى الشاشات علام، يقود أحمد وياسر في أرجاء المبنى. أشار نيروز نحو علام قائلا:

- أعتقد أن رجلكم يقوم بدوره على نحو جيد.

قال أيمن: دكتور علام واحد من أفضل الرجال لدينا.

فقال نيروز:

- أفضل الرجال لديكم! إنني مندهش أن المركز اخترق مرة واحدة فقط.

قال فريد: لا تقل لي إن المكتب التاسع لم يتعرض لأي شيء من قبل.

قال نيروز: لا أحد؛وأنا أعنيها، لا أحد يمكنه الاقتراب من المكتب التاسع.

قاطعهما كريم: عملية الفحص تسير على ما يرام.

لم يكد كريم يتم عبارته، حتى أضاء مصباح أحمر، وانطلقت صفارة متقطعة: فتحدث فريد عبر جهاز الاتصال للحظات، وقال: إنه المبني ج٤، هناك من قام باختراق شبكته.

قال كريم: المبني ج٤ يتبع المستمعين إداريا كجزء من المحيط الآمن، ولكنه يستخدم شبكة أخرى مستقلة، أضعف من شبكة المستمعين.

قال فريد: لقد كشف خبراؤنا العملية وأوقفوها، وهناك فريق ينطلق الآن للقبض على المخترقين.

أضاء المصباح الأحمر الأول في الغرفة؛ فقال نيروز: لقد انتهى الخبير الأول.

مضت الدقائق بطيئة، حتى أضاءت باقي المصابيح، وعملت الطابعة لتخرج منها أوراق تحوي تقرير فريق الفحص. التقطها المدير وقرأها سريعا، وناولها لأيمن، الذي قرأها بدوره، وقال: كل شيء على ما يرام.

ابتسم كريم، وشعر بالروح تعود إليه، فقال: سنفتقدكم هنا.

قال نيروز: سأعود.

خرج من الغرفة؛ فقال المدير:

- عمل جيد جميعكم.

***

تناول شريف رشفة صغيرة من كأس العصير الموضوع أمامه، وتطلع إلى علبة أقراص الازرولدين.. "يا إلهي، كم أفتقدها!" يشعر، يتمنى أن يلتقط أحد الأقراص ويقذف به في فمه، ليشعر بملمسه الخشن على لسانه، قبل أن يذوب في فمه سريعا ويحمل معه آلامه وأحزانه وخوفه وتوتره، يتركه صفحة بيضاء تماما لا يشعر بشيء.. ولكن لا يمكنه، فهو يحتاج إلى غضبه الآن، فالغضب يجعله أفضل، يجعله أقوى، وكونه الأفضل والأقوى هو ما مكنه من الدخول إلى قلب النظام وفِعل ما فعل.

مضى بعض الوقت منذ عودته، ولم يقتحم رجال العمليات الخاصة المنزل ليأخذوه، وهذا يعني أنه قد أحسن إخفاء آثاره جيدا، فلم يجدوا شيئا. يعرف جيدا أن التقارير التي يقدمها فريق الفحص تذهب إلى لجنة خاصة، تقوم بمراجعتها ومقارنتها ببعضها البعض، للتأكد من سير العملية وعدم حدوث أي خطأ.. يعني هذا أنه قد ربح الرهان، وأنه الأفضل بالفعل.

تناول رشفة أخرى من العصير.. مازال عنكبوت البحث يبحث عن الطرف الآخر لقناة الاتصال؛ فقد كان الأثر ضعيفا جدا؛ لذلك يجد العنكبوت صعوبة كبيرة في الوصول إلى الهدف، فتركه شريف وواصل فحص برنامج المستمعين. كان البرنامج كبير الحجم، مكتوبا بأكواد شديدة التعقيد، ومشفر بنوع خاص جدا من التشفير الخماسي. تطلع إليه مغمغما:

- أي عقل أنتج هذا البرنامج؟!

بدأ فحصا خاصا باستخدام بعض البرامج التي قام بتطويرها بنفسه، ودخل قناة الاتصال، وكتب: شكرا لكم يا رفاق على كل ما فعلتموه.

مرت لحظات، وكتب السهم: سعداء أننا تمكنا من المساعدة.

كتب ريان: هل أفلحنا؟

وكتب سيف: هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟

فكتب شريف: لا أعرف بعد، ولكنني أردت أن أشكركم على مساعدتكم.

كتب ريان: هل ستخبرنا عن الملف الضخم الذي ساعدناك في سحبه خارجا؟

كتب السهم: ما هذا الملف؟

كتب شريف: آسف جدا يا رفاق، لقد أخبرتكم من البداية؛ لا يمكنني أن أخبركم بأي شيء، ولكنني ممتن جدا لمساعدتكم، وسأكون سعيدًا جدا لأردها لكم في أقرب وقت.

كتب السهم: فقط لا تختفي ثانية.

كتب سيف: فقط كن حذرا.

غادر شريف المحادثة، وتطلع للعملية الجارية. مازال أمام البرنامج بعض الوقت حتى يحصل على نتيجة أولية، ولا يمكنه الجلوس للتحديق في الشاشة فحسب؛ لذلك نهض وسار للخارج، فوجد أسيل وهند تشاهدان التلفاز، الذي يعرض برنامج كلام نساء مع خزامى سامي، فجلس شريف قائلا: كيف حالك يا هند؟ وكيف حال مهند؟

فقالت هند: نحن بخير؛ شكرا لك.

قالت أسيل: لم أر هذا الصغير منذ عدة أيام.

فقالت هند: كان يريد القدوم لزيارتك؛ ولكنني أخبرته أنك متعبة وتحتاجين للراحة.

قالت أسيل: لقد أصبحت أفضل والحمد لله، دعيه يأتي غدا.

قالت هند: حسنا، سأخبره.

وصمتت لحظة، وأضافت: إذا سأراك في العمل غدا.

قالت أسيل: لا أعرف.

قالت هند: الكثير من الرفاق يفتقدونك في العمل، ويسألون عنك.

فقال شريف: بالكثير من الرفاق تعنين جمال، حارس الأمن، فهو الوحيد الذي تعرفه أسيل هناك.

ابتسمت هند قائلة: أعني..الكثير من الأشخاص..الكثيرون يحبون أسيل.

قال شريف: بالتأكيد.

نظرت هند إلى ساعتها قائلة: سأذهب أنا الآن، ولكنني سأمر عليك في الصباح لنذهب سويا.

فقال شريف: بالتأكيد ستأتي أسيل معك غدا.

تطلعت هند إلى أسيل منتظرة أن تقول شيئا؛ ولكن أسيل لم تتكلم، فانصرفت هند قائلة: غدا.

انتظرت أسيل حتى أغلقت هند الباب وراءها، ثم التفتت إلى شريف وهي تقول: لا أستطيع فعلها، لا أستطيع العودة لهناك.

فقال شريف: يجب أن تذهبي، يجب أن يظل كل شيء كما هو، حتى لا يشك أحد.

- ولكنني لم أعد أستطيع.

- يجب أن تفعليها، حتى أتمكن من حل الأمر.

مسحت أسيل دمعة هاربة من عينها، وقالت: كل مرة أغلق عيني فيها، كل مرة، أرى هذا الشخص أمامي يتطلع إليّ بابتسامة كريهة قائلا: لقد قتلت ابنك، ولا يوجد ما يمكنك فعله.. لقد صدمته بسيارتي، ووقفت أرقص حوله والحياة تنسحب منه ببطء وهو يتوسل إليّ أن أنهي حياته سريعا.

احتضنها شريف قائلا: أعرف يا عزيزتي.. أعرف الألم الذي تعانينه؛

ولكنني لا أريدك أن تفكري هكذا. أريدك أن تفكري أن هذا الألم هو الطريق الذي سيأخذنا إلى هذا الشخص، لنجعله يدفع الثمن. كل لحظة تتألمين فيها تقربنا خطوة. أعرف أن الألم لا يحتمل، ولكن هذا الألم سيقودنا إليه في النهاية.

احتضنته أسيل بقوة، كأنها تحاول الاختباء داخله، فمسح شريف على رأسها قائلا: سأصل إليه يا عزيزتي، ولكنني فقط أحتاج للمزيد من الوقت.

ابتعدت أسيل عنه، ومسحت دموعها قائلة: حسنا.

رفعت صوت التلفاز، ليرتفع صوت خزامى قائلة: معنا قصة أخرى، معنا سيدة أخرى تريد أن تروي تجربتها مع المستمعين. السيدة ومضة أبو العلا.

تراجعت الكاميرا، لتظهر ومضة أبو العلا على مقعد مقابل لخزامى. ظلت ومضة صامتة للحظات، ثم قالت: لا أعرف هل أشكر المستمعين، أم أهاجمهم. لا أعرف هل بدأت حياتي بسببهم، أم انتهت!

قالت خزامى: اروِ لنا ما حدث.

فقالت ومضة: زوجي يزيد أبو العلا كان يطلب مستمعًا دائما، ويتحدث إليه، فشعرت بالفضول الشديد لأعرف ما الذي يتحدث عنه زوجي مع المستمع.. لذلك، تصنت عليه في إحدى المرات.

فارتفع صوت سيدة أخرى -دون أن تظهرها الكاميرا-: تتصنتين على زوجك أثناء حديثه لمستمع! يا لك من امرأة! إن العلاقة بين الإنسان ومستمعه هي علاقة خاصة جدا، ولا يمكن لأحد أن يتدخل فيها.

أكملت ومضة: سمعته يخبر المستمع عن خيانته لي مع أقرب صديقة لي؛ هل لك أن تتصوري؟ يتحدث عن خيانته لي مع مستمع! يا إلهي! لا أستطيع أن أصدق ما سمعت.

اهتز جسدها، وقد غطت وجهها بيدها، ثم كشفته قائلة: لقد تركت له المنزل، ولا أعرف هل أشكر المستمعين لأنهم نبهوني لما حدث، أم أكرههم لأنهم

حطموا حياتي!

فارتفع صوت المرأة الأخرى: أنت فعلت هذا بنفسك، عندما قمت بالتجسس على زوجك ومستمعه.

زفر شريف قائلا: يا للنساء!

نهض، فذهب للمطبخ، وأعد كوبا من العصير، وأذاب فيه قرصا من الازرولدين، وعاد به لأسيل، وقال: اشربي هذا.

تناولت أسيل الكوب ووضعته أمامها، فسار شريف للداخل عدة خطوات، قبل أن يسمع صوتها: لا أستطيع أن أفعلها.. لا أستطيع أن أهرب وأتركك.

تجمد شريف مكانه لحظة.. ثم عاد فسار للداخل دون كلمة، ليكمل العمل على البرنامج.

لم يعرف كم مر عليه وهو يقوم بالفحص بمختلف الطرق، دون أن يتوصل لأي شيء.. فقط ملاحظة واحدة: حجم البرنامج كبير جدا، وبرمجته شديدة التعقيد بالنسبة للمهمة المطلوبة منه، أي لجعل المستمع يستمع وينسى ما سمعه. هناك شيء آخر، ولكنه لا يعرف ما هو.إنه يحتاج لرأي آخر.. ولكن لا يمكنه إرسال البرنامج إلى أي شخص؛ فهو بذلك يغامر بنشر البرنامج، ولا يمكنه فعلها. لقد قرر من البداية أنه سيقوم بحذفه بمجرد أن يعرف ما يريد، ولكنه يجلس عاجزا عن فعل أي شيء، وعنكبوت البحث لم يصل لشيء بعد، مما يجعل البرنامج طريقه الوحيد. ولكن كيف؟ كيف يمكنه فعلها؟ لقد جرب كل شيء بلا فائدة.

تلفت حوله بحثا عن إجابة، عن أي شيء يخبره ماذا يفعل... وسطع الحل في رأسه: الغرفة المغلقة.... هذا هو الحل...........

الغرفة المغلقة عبارة عن برنامج، تم تطويره في المكتب التاسع، يستخدم عندما تريد الإدارة عرض بيانات سرية عليهم عن بعد. فالغرفة المغلقة تتيح لمن يملك مفاتيح الدخول رؤية ما يوجد داخلها من بيانات، والتفاعل معها،

ولكن لا يمكنه إخراج أي شيء منها. يستحيل إخراج البيانات من الغرفة المغلقة. استخدم شريف غرفة مغلقة، ووضع البرنامج داخلها، ودخل قناة الاتصال، وكتب: أحتاج مساعدتكم في أمر هام، وعاجل.

كتب ريان: بهذه السرعة.

وكتب السهم: ماذا تريد؟

كتب شريف: هناك شيء أريدكم أن تفحصوه من أجلي.

كتب سيف: هل هو البرنامج الذي ساعدناك في سحبه من مركز المستمعين؟

كتب شريف: نعم.

كتب ريان: نفحصه للبحث عن ماذا بالضبط؟

كتب شريف: لا أعرف،ولكنني أريدكم أن تفحصوه،وتخبروني بما تجدوه.

وصلته رسالة خاصة على قناة فردية من سيف تقول:

- هل أنت متأكد أنك تريد أن تفعل هذا؟

ولكن شريف تجاهله، وعاد يتابع القناة الرئيسية.كتب ريان: أين البرنامج؟

كتب السهم: لقد قلت من البداية إن العصابة قد عادت.

كتب شريف: سأرسل لكم عنوان الغرفة المغلقة التي تحتوي على البرنامج.

كتب ريان: غرفة مغلقة! مازلت لا تثق بنا.

كتب سيف: قرار جيد، ولكن هل تظن أنه كاف؟

كتب شريف: ليس الأمر أنني لا أثق بكم، ولكنني لا أستطيع نشر البرنامج.

كتب السهم: حسنا، سنساعدك في هذا كما وافقنا، ولكننا سنتكلم لاحقا.

كتب ريان: أتفق مع السهم.

كتب شريف: شكرا لكم.

وضع شريف عنوان الغرفة المغلقة المحتوية على البرنامج، وجلس ينتظر نتيجة فحصهم للبرنامج.

كتب السهم : هذا البرنامج معقد للغاية، لا أعرف أي عقل قام بتصميمه، إنه مثل حجر رشيد، وليس بيننا شامبليون لفك رموزه.

لم يعلق شريف؛ بل ظل يتطلع للشاشة متمنيا إجابة مختلفة، ولكن المزيد كان في انتظاره.. كتب ريان: هل تمزح معي؟ ما هذا البرنامج؟ أنا لم أر له مثيلًا من قبل.

كتب سيف: آسف، لا يمكنني المساعدة.

أغلق شريف المحادثة محبطًا، وأغلق الجهاز، وهمَّ بحمله ليلقيه فيتحطم على الجدار. ولكنه تراجع، وجلس يتطلع للسقف الأبيض، غير مصدق ما يحدث.. يبدو أن كل الظروف تتحد ضده حتى لا يصل إلى هذا الرجل!.. إنه يريد العدالة فحسب، يريد العدالة لابنه الذي حرم منه دون أن يملك الفرصة ليعتذر له عن خلافه الأخير معه، فضلا عن توديعه، أو إخباره كم يحبه، وأيًا كان اختياره فإنه سيحبه ويكون بجواره دائما.. يريد العدالة لأسيل، التي سرقت حياتها منها للمرة الثانية، دون ذنب جنته.

لابد من وجود وسيلة... حتما هناك وسيلة.... لابد......

تكاثرت الأفكار السوداء على رأسه، فسحبه النعاس بعيدا عنها.. فرأى نفسه في ساحة واسعة، مملوءة بأكوام القش، يبحث بينها عن شيء ما دون فائدة. رأى رامز قادما نحوه، فتوقف.. قال رامز: ما الذي تبحث عنه؟

قال شريف: أبحث عن قاتلك، ولكنني لا أستطيع العثور عليه.

فقال رامز: يجب أن تبحث أكثر.

أسرع شريف في بحثه وسط الأكوام، دون أن يجد شيئا، فصاح: لا أستطيع إيجاده.

صاح رامز: إنه أمامك؛ فقط ابحث.

رأي ظلا أسود قادمًا بسرعة نحو رامز... فصرخ، وركض نحوه، ولكن الظل صدم رامز بمنتهى القوة، فطار في الهواء، ليسقط فوق شريف الصارخ:

- رامز.

تدفقت الدماء من جسد رامز إلى فم شريف المفتوح؛ فشعر بالاختناق، وجاهد ليدفعها خارجا، ويلتقط نفسا، و...... وقفز شريف من مقعده، وسعل بقوة لدقيقة كاملة، قبل أن يستعيد توازنه ويسيطر على نفسه. سار للحمام وغسل وجهه، ووقف يتطلع لصورته المنعكسة في المرآة.. قالت الصورة:

- تريد أن تفعلها ثانية؟

***

-٣٦-

- ماذا تعني أنك لم تتمكن من الحصول على أية بيانات؟ لم تتمكن من الحصول على برنامج المستمعين؟

صاح أحمد بالعبارة في وجه ساري، الذي تراجع للخلف، فأكمل أحمد:

- لقد خاطرت بحياتي من أجلك، بعد أن أخبرتني أن النبضة ستنجح. لقد أخبرتني أن فريقًا من أفضل الخبراء قام بإعدادها، وستنجح.

قال ساري: أنا لم أكذب عليك، لقد كانت النبضة أفضل ما قمنا بتطويره.

فقال أحمد: أفضل ما قمتم بتطويره قد فشل، ولم نحقق أي شيء، بل زدنا المخاطر حولنا؛ فماذا سنفعل الآن؟

ألقي ساري بجسده على أقرب مقعد قائلا: لا أعرف.

قال أحمد: هل تخبرني أننا لم نحصل على أي شيء؟ أي شيء؟

فقال ساري: نعم.

فقالت بيلسان: ليس بالضبط.

فقال أحمد: ماذا تعنين؟

قالت بيلسان: صحيح أننا لم نحصل على البيانات التي أردناها، ولكننا حصلنا على ملف صغير يحوي بعض المعلومات.

قال ساري: ما هي؟

قالت بيلسان: لا أعرف، فالملف مشفر، ولم أتمكن من فك تشفيره بعد.

قال أحمد: كيف حصلنا عليها؟

قالت بيلسان:

- كان هناك برنامج صغير مدمج مع النبضة، مصمم للحصول على هذه المعلومات، وقد أحضرها فور تفعيل النبضة.

قال أحمد: لابد أنها معلومات هامة.

قال ساري: وسام؛ لابد أنه من وضع هذا البرنامج. يجب أن نعرف ماهية هذه المعلومات بسرعة.

قالت بيلسان: لم أتمكن من فك تشفيرها.

قال ساري: سأقوم بإرسال هذا الملف إلى باقي فريقي لفك تشفيره.

قال أحمد: جيد.

عمل ساري على الكمبيوتر للحظات، وقال: تم.

قالت بيلسان: هل أنت واثق أن فريقك سيتمكن من فك التشفير؟

قال ساري: نعم، متأكد.

دق هاتف ساري، فالتقطه ونظر إلى شاشته، وسار مبتعدا، فقالت بيلسان: ماذا سنفعل الآن؟

قال أحمد: ننتظر فك تشفير الملف لنعرف ماذا سنفعل.

فقالت بيلسان: ماذا؟! لقد أخبرتني أن النبضة هي آخر ما سنقوم به.

- ولكن النبضة لم تحقق شيئا.

- بالضبط. ولماذا تظن أن الملف المشفر سيحتوي على شيء يساعدنا؟

- أنت لا تعرفين.

- وأنت أيضا لا تعرف.

أمسك أحمد كتفيها قائلا: أريدك أن تثقي بي.

ولكن بيلسان أزاحت يديه قائلة:

- بل أريدك أنت أن تثق بي عندما أخبرك أنك لن تجد شيئا، وأن وقت ذهابنا قد حان.

- ولكننا لم نحقق شيئا.

- ولن تحقق شيئا، فأنت لا تفهم.. بعض المعارك لا يمكنك الفوز بها أبدا.

وضع ساري هاتفه في جيبه قائلا: بل أنا واثق أننا سننتصر. صحيح أننا لم نحقق شيئا، ولكنها جولة واحدة، وسنفوز في النهاية.

ردت بيلسان حانقة: حقا! هل لديك المزيد من الخطط العبقرية؟ ما رأيك بنسف المبنى بالقنابل هذه المرة؟

قال ساري: سنحقق ما نريد؛ لأننا مؤمنين بأهدافنا، ولا نعمل من أجل أنفسنا، بل من أجل الجميع.

فقالت بيلسان: هل تعرف؟ لقد بدأت أشك أن ما نفعله من أجل الجميع حقا، فالجميع يبدون سعداء بوجود المستمعين، بل ومستعدين للتضحية من أجل بقائهم.

قال أحمد: هذا ما يحاول ياسر شوقي وأمثاله إيهامنا به؛ ولكنه ليس الحقيقة. ولو افترضنا أن هناك من يريد المستمعين حقا، فهذا لا يعني أنه محق؛ فالإنسان لا يسعى دائما خلف ما فيه صلاحه، بل في أحيان كثيرة يسعى إلى هلاكه. من يتناول المخدرات، يتناولها بإرادته الحرة، ومستعد للتضحية من أجلها، وقتال من يبعده عنها، وهنا يأتي دورنا.

قالت بيلسان: لا يمكنك التحكم فيما يريده الآخرون.

قال أحمد: مهمتي ليست التحكم فيهم، ولكن كشف الستار عن عيونهم. أقول لهم انظروا أمامكم جيدا، انظروا إلى ما فعلوا بكم، انظروا إلى ما وصلتم إليه.. مهمتي أن اظهر الحقيقة عارية أمامهم، ليمكنهم أن يختاروا.

قالت بيلسان: ولكن البعض سيصمم على اختيار هلاكه.

قال أحمد: عندها يجب أن نمنعه بالقوة، فلا يمكننا ترك شخص ينهي حياته بيده، لمجرد أنه يريد هذا.

قالت بيلسان: إنك بهذا تخالف أبسط مبادئ الحرية، حرية الاختيار.

قال ساري: حرية الاختيار هي كذبة تستخدمها الأنظمة للسيطرة على مواطنيها. إنهم يخيرونك بين غسل قدميك قبل العشاء، أو بعده، في النهاية ستبتل قدماك.

وافقه أحمد: بالضبط.

أصدر الكمبيوتر صوتا قصيرا، فجلس ساري أمامه، وقال:

- آسف لقطع نقاشكم الجميل؛ ولكن وصلت رسالة من باقي الفريق.

عرضها ساري على الشاشة.. كان قائد الفريق يخبره أنهم قد تمكنوا من كسر تشفير الملف، ويرسل لهم المعلومات الموجودة به. تطلعت بيلسان إليها، وقالت: لقد كان يعرف!

كانت الرسالة تحتوي على المعلومات الخاصة بمكان احتجاز وسام؛ فقال ساري: لقد وضع برنامج للبحث في قاعدة البيانات، ومعرفة مكان احتجازه، وإحضار هذه المعلومات إلينا.

فقال أحمد: كان يعرف أن الهجوم يمكن أن يفشل، لذلك وضع هذا البرنامج في برمجة النبضة.

قال ساري: ماذا سنفعل؟

قالت بيلسان: لا يحتاج الأمر إلى سؤال، سنقوم بإخراجه بالطبع.

قال ساري: ماذا؟!

فقالت بيلسان: لسببين: الأول أن وسام هو واحد منا، ولا يمكن تركه يتعفن في السجن دون أن نفعل شيئا.

والتفتت إلى أحمد مكملة: والسبب الثاني أنني أعرف أنك لن تتوقف عن المحاولة، وأعتقد أن وسام هو أقدر شخص على اختراق المستمعين وإنهاء الأمر.

حك أحمد رأسه بيده قائلا: لا أعرف ماذا أقول.....

قاطعته بيلسان قائلة: فكر كيف سنقوم بالأمر.

قال أحمد: سنحتاج إلى فريقك لنتمكن من اختراق هذا الموقع وإخراج وسام. سنحتاج إلى كل قدرتك، كل ما يمكنك فعله لننهي الأمر.

قالت بيلسان: أنا واثقة أن وسام لن يكتفي بهجوم بسيط ببرنامج للتذكر، أو نبضة، بل سيكون هجومه شاملا، ينهي الأمر مرة واحدة.

أرسل ساري عدة رسائل الكترونية، وتحدث عبر هاتفه لدقائق، وقال:

- كل شيء سيكون جاهزا للقيام بالأمر. سنقوم بإخراجه.

***

-٣٧-

- الشيطان المشوه.

هكذا يلقبونه دائما. لا يعتقدون أن وصف الشيطان فحسب كافٍ لوصفه؛ لذلك يضيفون المشوه أيضا. لا يلومهم على هذا، بل يتأكد من رقتهم كل مرة تطالعه فيها صورته في أي سطح عاكس.. هو نفسه لا يستطع النظر إليها، ولكنه لم يكن هكذا دائما.. صحيح أنه لم يكن أجمل الأطفال، ولكنه لم يكن أقبحهم أيضا. ولكن هذا لم يهم والدته، التي كانت تحمله طوال الوقت، وتغني له: يا طفلي الجميل، يا أجمل الأطفال.

لماذا كان عليهم أن يخذوها منه؟! ما الذي فعله، أو ما الذي فعلته، لتنهمر القذائف على منزلهم، فتقتل والدته، وينجو هو؛ ولكن بحروق رهيبة شوهت جسده، وروحه؟! لم يكتفوا بهذا؛ بل انهمرت القذائف على مستشفي الأمل حيث يعالج؛ فدمرته، وقتلت من فيه؛ ولكنه نجا بأعجوبة أخرى، مع قلة من الأطفال والأطباء.

انتقل لمستشفى آخر، ولكن الأمر لم يتغير، دائما يلاحظ نظرات الاشمئزاز والكراهية في عيون الأطفال والأطباء الذين يقتربون منه لعلاج جروحه قائلين في رقة مصطنعة: كيف حالك يا صغيري؟

ولكن نظرات عيونهم تفضحهم؛ أنهم لا يطيقونه، ويتساءلون بينهم، لماذا لم يمت مع من مات.. لماذا ينجو دائما؟ لماذا يتمسك بالحياة؟ لماذا يصر على النجاة؟

وقف أمام المرآة يتأمل جسده المشوه، ووجهه الذي اختفت معالمه. لم يعد يستطيع الاحتمال، يجب أن يخرج من هنا؛ فربما تقابله قذيفة ثانية، تصحح خطأ الأولى وتقتله. لم يحتج لترتيب هروبه، بل غادر من الباب الرئيسي، وسط صلواتهم الشاكرة، ودعواتهم ألا يعود ثانية.

ظل يسير في الشوارع بلا هدف، والجميع يتحاشونه. يمر بالمقاتلين، يقترب منهم، يوشك أن يحتك بهم، ولكنهم لا يعيرونه انتباها.. لا يمكنهم تعذيب رصاصة بجعلها تستقر في رأسه القبيح. أدركه التعب، فجلس بجانب منزل مهجور ليستريح قليلا، فاقترب رجل منه، فانكمش على نفسه. قال الرجل:

- تبدو متعبا، وجائعا للغاية.

ناوله الرجل لفافة طعام مكملا: تفضل يا صغيري.

تطلع إليه في خوف، فمسح الرجل على رأسه، وقال:

- لا تخف يا صغيري، كل شيء سيكون على ما يرام.

فض اللفافة بحذر، متوقعا خروج ثعبان منها، يعضه في عنقه، فهو لم يعتد المعاملة الرقيقة من قبل. ولكنه وجد طعامًا، تناوله بسرعة كغول جائع، فقال الرجل: جيد.

جلس الرجل بجواره، يتطلع إليه، كأنه ينتظر شيئا ما؛ تساءل عما قد يكون، فجاءته الإجابة ثقلًا في جفونه، وخمول شديد في جسده. حاول تحريك أطرافه؛ فكأنها تزن أطنانا. بدأت الرؤية تسود أمامه.. لقد فعل به الرجل شيئا، لقد قتله الرجل.. لم يخف أو يحزن، بل شعر بالامتنان، وتمنى أن يقبل يد الرجل شاكرا؛ ولكن جسده خانه، فسقط كالحجر.

تحطمت أحلامه الوردية؛ فقد استيقظ ثانية. لقد كان مخدرا، ولم يكن سُمًا. حظه سيء دائما. وجد نفسه في حاوية ضخمة مغلقة، مع أطفال آخرين.. نهض، ليسأل أقربهم أين هم، ولكن ما إن رفع وجهه، حتى صرخ الولد، فصرخ هو الآخر، فصرخ باقي الأطفال.. وتحولت الحاوية إلى مهرجان للصراخ، ففتح الباب، ودخل رجل ضخم الجثة، في يده عصا طويلة، انهال بها ضربا على الجميع صائحا: صمتا أيتها القردة الصغيرة.

صمت الأطفال، وانكمشوا في ركن واحد، ولكنهم حرصوا على ترك مسافة بينهم، وبينه. حاول الاندماج معهم، ولكنهم دفعوه بعيدا، كجسد

يلفظ عضوا مريضا. سقط أرضا، فتطلع إليه الرجل قائلا: ما أنت؟

وهوى بالعصا عليه بمنتهى القوة، فقفز في الهواء يصرخ من شدة الألم، يتأمله الأطفال الآخرون وفي عيونهم نوع من الرضا. انصرف الرجل، فتقوقع على نفسه، يبكي بكاء شديدا، ويهمس: لقد كانت تحبني؛ لماذا كان عليكم أن تأخذوها مني؟! نحن لم نفعل لكم أي شيء.

أفاق من بكائه على ركلة ألقته بعيدا، وصيحة: انهض أيها الشيطان.

غادر الحاوية، ووقف في صف طويل مع باقي الأطفال، ومر عليهم أحد الرجال، يتأملهم ويدون ملاحظات في ورقة معه. وقف أمامه قائلا: ما هذا؟

قرصه من خده بمنتهي القسوة، حتى أوشك على انتزاع لحم وجهه، ثم صفعه مكررا: ما هذا؟

فقال الرجل الذي أحضره: لقد ظننت أنه يمكن أن ينفعنا بشيء.

فكر الآخر للحظات، ثم صفعه ثانية، وجذبه خارج الصف صائحا:

- إذا لم تنفذوا ما نقول لكم، فستصبحون مثل هذا.

دفعه ليسقط أرضا، والتفت للباقين قائلا: متى سيحضرون؟

- في السابعة مساءً.

- وكم سيدفعون مقابل كل طفل؟

- مثل المرة السابقة.

فبصق الرجل على الأرض قائلا: ألم تخبرهم كم أصبح الإمساك بأولئك القردة عسيرا؟ ينبغي أن يزيدوا الثمن.

- لقد حاولت؛ ولكنهم أخبروني أن الثمن سيظل هو؛ وإذا لم يعجبنا فسيلغوا العملية.

فبصق ثانية، وقال:

- اللعين عكرود هو الذي ضرب السعر عندما بدأ يحضر الأطفال.

فقال أحد الرجال: لا أعرف كيف يحضر كل هولاء الأطفال، وكأنه يزرعهم.

قال آخر: ماذا تظنهم يفعلون بهولاء الأطفال؟

فقال الرجل: فليحرقوهم بالنيران، أو يذبحوهم قربانا للشيطان، فأنا لا أهتم طالما أنهم يدفعون.

وفي اللحظة التالية، سقط الرجل أرضا، وقد اخترقت رصاصة رأسه. ركض الباقون في كل اتجاه، بعضهم ليهرب، وبعضهم ليحضر الأسلحة. وركض الأطفال وارتفع صراخهم، وسقط بعضهم برصاص العدو القادم. نهض من رقدته، وركض خلف مجموعة من الأطفال.. ابتعدوا عن المكان، وظلوا يركضون حتى وصلوا إلى أحد الملاجئ عند منتصف الليل، فأدخلهم الحارس قائلا: لا تخافوا يا أبنائي، أنتم بخير.

قضي ليلته نائما على الأرض بين سريرين، حتى طلع الصباح وجاء أحد المشرفين ليوقظ الأطفال، فاستيقظ وجلس على الأرض. فلما وقع بصر المشرف عليه، ركض صارخا: شيطان..... شيطان.....

استيقظ الأطفال صارخين، فتقوقع على نفسه، حتى جاءت مديرة الملجأ وهدأت الأطفال، ثم سألته: من أنت يا صغيري؟

ظل يتطلع لها في خوف؛ فقالت: أعرف أن هذا لا يعوضك عن منزلك الذي خسرته، ولكنك ستكون في أمان هنا.

تجنبه المشرفون والأطفال، ولم يتعاملوا معه إلا في أضيق الحدود؛ ولكن هذا لم يضايقه، فقد أحب البقاء وحيدا مع آلامه وآماله وأحزانه. ولكن المشرف الذي دعاه بالشيطان في يومه الأول، والذي عرف فيما بعد أن اسمه(س) أبى أن يتركه في حاله، فكان يتحين كل فرصة ممكنة ليضربه ويسبه دون أن يراه أحد. كان الرجل يكرهه كالجحيم، ولم يعرف لماذا، ولم يجرؤ على الشكوى، حتى لا يلقونه في الخارج ثانية.

خرج (س) ذات مرة، فقتله أحد القناصة، فأقاموا حفلا لتأبينه، ووقفوا يتلون محاسنه وسط دموعهم... ليفاجأوا بضحكه يتعالى في المكان.. ضحكٌ عالٍ يحمل كل سعادة الدنيا وسرورها.. فتطلعوا إليه في اشمئزاز قائلين:

- شيطان... شيطان مشوه...

أدرك أنه لم يعد له مكان بينهم، فغادر في اليوم التالي. ظل يجول في الشوارع، ويأكل من القمامة، ويفكر في أمه التي سرقت منه، ووالده الذي مات قبل أن يولد. يقترب من الآخرين بحذر، محاولا تسول أي شيء، فمنهم من يلقي له ببقايا طعام، أو قليل من النقود الممزقة، ومن يبصق عليه ويسبه ويضربه. طاردته مجموعة من الأطفال، وظلوا يضربونه حتى فقد الوعي، فتركوه ورحلوا، وأفاق ليجد نفسه في ملجأ آخر، قالت المشرفة:

- أيها الشيطان الصغير، لقد عاملوك بمنتهى القسوة.

فقال مشرف آخر: لقد عاملوه كما يستحق.

صرخ بكل قوته، وعض، وخدش محاولا الهرب، ولكنهم منعوه. وعندما يئسوا منه، ألقوا به في غرفة مظلمة. إنهم لا يطيقونه، وهو متأكد من هذا، فلماذا يصرون على بقائه معهم؟ لماذا يحتجزونه بالقوة؟

جاءته المشرفة، وقالت: سأفتح الباب، وأسمح لك بالخروج، ولكن عليك أن تعدني ألا تحاول الهرب.

فقال: أعرف أنكم لا تطيقونني هنا، فلماذا تجبرونني على البقاء؟ لماذا لا تتركونني أغادر؟

- لأنك آمن هنا.

وعدها ألا يهرب، فتركته يخرج. ولكنه عاد إلى تقوقعه وحيدا، بعيدا عن الجميع؛ ولم يحاول أحد اقتحام عالمه.. لقد سرهم بقاؤه بعيدا. في بعض المرات، كان أحدهم يأتي ويجلس معه، ويتناول طعامه بجواره، ويتبادل معه

عبارتين أو ثلاثة، ثم يذهب ويتركه. سعد كثيرا بهذه الزيارات التي كسرت وحشته؛ فقرر أن يردها لهم، فاقترب من غرفتهم، فسمع أحدهم يقول:

- لا بل خسرت الرهان؛ كان يجب أن تقضي معه ساعتين كاملتين.

توفي أحد المشرفين؛ فسمعهم يقولون: بالطبع سيدخل الجنة، كلنا سندخل الجنة مهما فعلنا، إننا نعتني بالشيطان المشوه.

ظل على هذا الحال، حتى انتهت الحرب، فجلس يشاهد احتفالاتهم، ويسأل نفسه: انتهت الحرب، ماذا يعني هذا؟ هل سيمسحوا كل ما حدث؟ هل سيعيدوا كل شيء كما كان؟ هل سيعيدوا والدته ثانية؟ هل سيعيدوا وجهه الذي نسي شكله؟ لا، إذًا فلماذا يحتفلون؟!

ولكنه لم يدرك أن كابوسه الأكبر كان على وشك البدء. فمع انتهاء الحرب، بدأت العائلات في القدوم لتبني الأطفال الذين فقدوا ذويهم في الحرب. في البداية تأتي العائلات لأخذ أقاربهم، ثم لأخذ باقي الأطفال. ورغما عنه، شعر ببعض سعادة الأطفال تتسلل لنفسه؛ فهمس:

- ستأتي عائلة جميلة، تصطحبني لأعيش معها حياة سعيدة.

ولكن حلمه تحطم تدريجيا على صخرة الواقع القاسية؛ وهو يتابع الأطفال يذهبون من حوله واحد تلو الآخر، ويظل هو مكانه. تأتي العائلة، فتدور في الملجأ، وتتوقف المرأة أمامه، وتضع يدها على رأسه هامسة:

- يا لك من طفل مسكين.

ثم تصطحب الطفل الجميل المجاور له وتذهب. لا أحد يريد طفلا مشوها، فالأطفال يجب أن يكونوا أصحاء حسني المنظر، وأي شيء خلاف ذلك يكون مخالفا لقوانين الطبيعة. وهو لم يكن مخالفا؛ بل كان محطما بقوانين الطبيعة. سمع أحد المشرفين يقول:

- لا أحد يريده، فالعائلة التي تقبل بطفل مشوه هي عائلة مشوهة، ولا توجد عائلة مشوهة تسعى لتبني طفل.

لم يجد أمامه حلا سوى الهرب للشوارع ثانية. هرب، وهو يسمع جدران المبنى نفسها تتنهد فرحا بالخلاص منه. ظل يطوف في الشوارع، التي تغير حالها كثيرا.. ولكن النظرات الموجهة له لم تتغير، بل ازدادت حجتها، كأنهم فرغوا من القتال، وجلسوا من أجله.

حتى قابل نغم.. كانت في مثل عمره، لم تخف منه، بل اقتربت منه وجلست بجواره، ووضعت أمامه بعض الطعام. ولكنه خاف أن يأكل منه، فأكلت منه أولا، فأكل بعدها، فابتسمت له قائلة: أنا نغم، ما اسمك؟

لم يجبها، فقالت: هل لديك مكان تأوي إليه؟

فهزرأسه نافيا، فقالت: اتبعني.

تبعها إلى مخزن ضخم على أطراف المدينة، دخلته نغم، وأشارت له بالدخول. تراجع خائفا، فخرجت وجذبته قائلة: تعال، لا تخاف.

دخل المخزن، ففاجأه عدد الرجال الموجودين، يعملون على عدد من الآلات الغريبة، فتراجع.. ولكن أحدهم جذبه قائلا: لا تخف أيها الصغير.

انتظر أن يكمل الرجل عبارته لتكتمل: الصغير المشوه، الصغير الشيطان.. ولكن الرجل مسح على رأسه، والتفت نحو نغم قائلا: جيد.

اصطحبته نغم لغرفة بها طفلين آخرين، وقالت: ستقيم هنا.

ظل في المخزن لعدة أيام، يراقب ما يفعله الرجال، وبخاصة الرجل الذي استقبله. يجلس بجواره، يشاهد ما يفعله، وقد يسمح له الرجل بمساعدته، فتكون أسعد لحظات حياته وهو يعمل معه. يقول الرجل:

- يظنون أن الحرب انتهت، حسنا، أمامهم الكثير ليتعلموه.

خلد للنوم، فحلم بالحرب، ورأى نفسه يهرب من الرصاص، فاستيقظ مذعورا، ليجد صوت الرصاص يدوي داخل المخزن بمنتهى العنف. تقوقع على نفسه، وانكمش الطفلان الآخران في الركن. هدأ الرصاص، ودخل أحد رجال الشرطة قائلا: لا تخافوا، أنتم في أمان.

يتشاءم كثيرا من هذه الكلمة.. ففي كل مرة يسمعها، تحدث له كارثة جديدة. اصطحبه الشرطي للخارج، فمر على عدد منهم يقفون حول الآلة التي عمل عليها مع الرجل قائلين: إنها قنبلة شديدة التدمير.

- لقد قام بتفعيلها عندما شعر بهجومنا.

- ماذا سنفعل الآن؟

- لقد خسرنا الخبير أثناء الهجوم.

- ستنفجر قبل وصول خبير آخر.

- لا يمكننا إيقافها.

أفلت يده من يد الشرطي، وأسرع نحوهم قائلا: أنا أستطيع إيقافها.

تطلعوا إليه للحظات، وأشار أحدهم قائلا: اذهب من هنا.

ولكنه صاح: أستطيع إيقافها، لقد عملت على إعدادها معه.

- ماذا؟!

- لقد كنت أساعده في إعدادها، ولكنني لم أعرف ما هي.

فصرخ الرجل: إياك أن تخبرهم بشي، سأمزق عنقك.

فقالت شرطية، وهي تراقب مؤقت القنبلة: ماذا ستفعل؟

حاول أن يشرح لها، ولكنه تلعثم فقال: لا أعرف أسماء الأشياء، ولكنني أستطيع إيقافها.

فعاد الرجل يصرخ ويحاول الإفلات منهم لينقض عليه، فأخذوه بعيدا، وقالت الشرطية: افعلها.

عارضها زميلها: ماذا؟!

- هل لديكم حل آخر؟

صمت الجميع، وأسرعوا للخارج، وبقيت معه قائلة: هيا، افعلها.

وقف يتطلع للقنبلة للحظات، وبدأ العمل عليها، وعينا الشرطية تتابع المؤقت الذي تضاعفت سعرته، حتى لم يعد يفصله عن الصفر سوى خمسين ثانية، أربعين، ثلاثين،... توقف المؤقت!

حملته وسارت به للخارج هاتفة: عاش البطل.

فهتف الباقون: عاش البطل.

وتم تكريمه في حفل خاص، فزاره أخيرًا ذلك الشعور الجديد الرائع، شعور أن يقول له أحدهم: "أحسنت". يقولها وهو يعنيها، بلا شفقة، أو سخرية.

شعر به أول مرة وهو يساعد الرجل في المخزن، وشعر به ثانية عندما أوقف القنبلة.. لقد فعلها ليسمع الكلمة السحرية منهم: "أحسنت". ولكن مفاجأة أخرى كانت في انتظاره. أعلنت الشرطية- التي عرف أن اسمها سلوى ريان- أنها ستأخذه ليعيش معها، فصفق لها الحاضرون، ورأى هو نظرات الإشفاق والسخرية في أعينهم.. إنهم يجمعون الرهانات عن المدة التي سيقضيها معها، قبل أن تلقيه في الشارع ثانية.

لم تكن الحياة في منزل سلوى كما تصورها، بل كانت مختلفة تماما، فلم تكن سلوى مجنونة قليلا كما سمع بعض زملائها يتهامسون، بل كانت مجنونة كليا. يشعر أن كلمة الجنون لا تكفي لوصف سلوى وتصرفاتها الغريبة؛ ولكنه أحبها بكل جوارحه، وشعر بها تزيح صورة والدته وتتربع على عرش قلبه بدلا منها. تشاجر أحدهم معها أمامه، فلم يكد يسمع الرجل يصيح بها، حتى قفز فوقه وأسقطه أرضا. وقبل أن يفيق الرجل، غرس أسنانه في جسده، فلم تخرج إلا بدمائه. يومها قالت له:

- جيد جدا، فبالنسبة لشخص مثلك، لا تتوقع أن تقذف الحياة بالزهور في طريقك؛ لذلك يجب أن تنتزع حقك انتزاعا.

منحته سلوى كل شيء.. كانت تقول: كل شيء ملكي هو ملكك.

علمته كيف يتعامل مع الحياة القاسية، التي لن ترحمه على حد قولها، تسأله سلوى: من أنت؟

- ناجي.

- والآخرون؟

- لا أهتم، فليذهبوا للجحيم.

- جيد.

تقضي سلوى أكثروقتها في احتساء الخمر، والهذيان مع صور طليقها، ثم تقوم بالتجسس عليه وعلى زوجته الجديدة، عبر حساباتهم الإلكترونية، وكذلك على زملائها في العمل، فتجلس تقرأ خصوصياتهم وتقول:

- انظر ماذا يدعوني هولاء المجانين؟ لماذا لا يستطيعوا أن يفهموني مثلك؟ صحيح أنك شيطان مشوه، ولكنك تملك قلبا جميلا.

يجلس بجوارها، ويحك وجهه بيدها مثل كلب وفي، فتمسح على رأسه قائلة: ولد جيد.

تعلم منها الاختراق حتى فاقها؛ فقالت له: أنت تملك وجها قبيحا كالشيطان المشوه فعلا، وأيضًا تملك عقلا جبارا كشيطان.

لم يشعر بالغضب منها أبدا، حتى عندما تنتابها نوبات الهياج؛ فتضربه بقوة، وتطارده في أرجاء المنزل. بل كان يشعر بالسعادة كلما دعته بالشيطان المشوه، فيقول: أنا شيطانك المشوه.

فتمسح على رأسه قائلة: نعم أنت شيطاني الجميل.

تهاجمه الكوابيس؛ فيذهب إليها، ويخبرها أنه يعجز عن النوم؛ فتذهب معه، وتضعه في فراشه، وتغني له: نم، نم يا طفلي الصغير... أبواك قد خرجا... ولكنهما لن يعودا ثانية... لن تراهما ثانية.... يا طفلي الصغير.... فنم

ولا تنتظرهما.... لأنهما لن يعودا، نم، نم يا طفلي الصغير.... لقد احترق منزلك.... ومات كل أصدقائك الصغار.... والدك ملقى في الطريق.... والناس تدهسه بالأحذية.... بينما والدتك جريحة جوار جدار مهدم.... تحاول أن تختبئ، ولكن الموت قادم نحوها.... يفتح أنيابه..... فتصرخ دعني، وخذ طفلي الصغير........ نم، نم يا طفلي الصغير.... لقد أحرقوا وجهك......ولن يعود أبدا كما كان...... كل من ينظر لك سيكرهك...... فعلت شيئا أم لا، سيكرهونك..... فأنت لست طفلا صغيرا...... بل شيطانا مشوها...... يا طفلي الصغير..... يا طفلي الصغير.....

ثم تقبله هامسة: ليلة سعيدة أيها الشيطان.

فينام، بينما صدى كلماتها يتردد في رأسه، فيحلم بنفسه وقد أصبح ظلا ضخما يخيم على المدينة، والناس يتطلعون إليه بمنتهي الخوف والذعر؛ فتسري القوة والنشوة في جسده، ويصرخ بهم صرخة رهيبة، تسقطهم موتى.

جاءت السيارات الغريبة إلى المنزل، قيدوها، وحملوها معهم وسط صراخها وصراخه، وركلاتها وركلاته، ودموعها ودموعه.. ذهبوا بها بعيدا، أما فهو فنقلوه إلى أحد دور الرعاية. سأل عنها، فأخبروه أنها مريضة جدا، وستبقى في مستشفي لفترة قد تطول، أما هو، فسينتقل للعيش مع عائلة لطيفة، تعتني به.

ظل يبكي ويضرب رأسه بالجدار؛ فسمحوا له بزيارتها.. دخل غرفتها، فوجدها جالسة على طرف الفراش، تتطلع للسقف في شرود. اقترب منها هامسا: سلوى.

لم تجب، فمد يده ليهزها، ولكنها استدارت نحوه بسرعة قائلة:

- يقولون إنني مجنونة، ويجب أن أبقى هنا.

لم يعلق، فأكملت: هل تظن أنني مجنونة؟

- بالطبع لا

واحتضنها مكملا: لماذا يصرون على حرماني من كل شيء جميل في حياتي؟ والدتي، ومنزلي، والآن أنت.

- لم تذكروجهك ولكنني أخمن أنك لم تكن جميلا أبدا.

جلس يبكي بجوارها، فصفعته قائلة: لا تبكِ.

ورفعت وجهه بيدها قائلة: من أنت؟

- ناجي

- والآخرين؟

- لا أهتم، فليذهبوا للجحيم.

- إذا اذهب، ونل منهم؛ فأنت قادرعلى هزيمتهم جميعا.

نهض ليحتضنها ثانية، ولكنها صاحت به: قلت لك اذهب من هنا أيها الشيطان المشوه، فآخرما أحتاجه هورؤية وجهك القبيح.

فابتسم قائلا: وأنا أيضا أحبك للغاية يا أمي.

خرج من عندها مرددا: أنا قادرعلى هزيمتهم جميعا.

لم يعد لدار الرعاية.. هرب من المرافق له، فهو يعرف جيدا ما سيحدث. سيظل وحيدا في دار الرعاية، يتمنى الجميع الخلاص منه، ولو حدثت معجزة ما وتبنته عائلة، فهو يعرف ما سيحدث بالضبط، سواء فعل شيئا، أم لا، ستمرأسابيع قليلة، وتصطحبه المرأة لغرفة الضيوف قائلة:

- لقد حاولت، وبذلت قصار جهدي، يعلم الله أنني قد حاولت، وبذلت قصار جهدي؛ ولكنه غيركاف، فأنت شيطان مشوه، ولا شيء يجدي معك، لذلك يجب أن أعيدك.

لذلك، قرر اختصارهذه الأسابيع، وعاد إلى منزل سلوى. دخله من نافذة صغيرة، وفتح خزانتها، وأخذ المال الموجود بها، وأخذ كمبيوتر محمول

وهاتفًا، وألقى نظرة سريعة على المنزل الذي شهد أسعد فترات حياته، فغافلته الدموع وفرت من عينيه، فمسحها وغادر مسرعا.

استأجر غرفة صغيرة عاش بها، وبدأ يقوم ببعض الأعمال على الشبكة لعدد من الشركات. تحسن دخله، فانتقل إلى شقة صغيرة، حرص على وضع صورة كبيرة لسلوى في مدخلها، ليراها كلما دخل أو خرج؛ فيهمس:

- شكرا لك.

مارس قرصنة الحاسب باسم ريان، فقط عندما يكون الأجر جيدا. حاول البعض ضمه للعمل من أجل قضية ما، ولكنه كان يجيب بعبارة واحدة أيًا كانت القضية:

- لا أهتم.

مرت عليه السنوات، وهو وحيد داخل كهفه، يعيش حياة روتينية.. حتى تلقى رسالة من السهم، تعلمه أن العقل قد عاد. لم يهتم كثيرا، فهو لم يهتم به عند رحيله؛ مجرد شخص آخر يغادر حياته، ولن يهتم بعودته. ولكنه دخل ليتحدث معه، ليكسر الملل المحيط به.

طلب العقل منهم المساعدة في أمر كبير، أمر يخص مركز المستمعين، ورفض إخبارهم بأية تفاصيل. الأحمق؛ يظن أنهم ينتظرونه لينفذوا رغباته فحسب، ولكن.... لحظة.... العقل من أفضل المخترقين الذين عرفهم طوال حياته، وإذا قال إنه سيفعل شيئا، فسيفعله. لذلك، أخبره أنه معه، وسيساعده.

وبالفعل، فعلها العقل، وسرق شيئا من مركز المستمعين. لم يخبرهم ما هو، ولم يسمح لهم بالحديث عما فعلوه، ولكن الحقيقة الأهم: أن هناك جزء من نظام المستمعين في الخارج، وسيحصل عليه مهما تكلف الأمر. إنها الفرصة التي ينتظرها.

ولكنه ما احتاج لفعل شيء؛ فقد اتصل بهم العقل ثانية ليطلب مساعدتهم في فحص ما وجده، داخل غرفة مغلقة.. غرفة مغلقة متطورة للغاية، يظن العقل أنها ستمنعه، لكنه واهم، فاختراق الغرف المغلقة هو هوايته المفضلة.. إنها طريقته ليثبت أنه محطم للقوانين، قوانين الطبيعة والبشر معا. استغرقه الأمر فترة طويلة، والكثير من المحاولات.. ولكنه نجح في النهاية، وأخرج البرنامج من الغرفة. لقد كان العقل محقا؛ إن البرنامج غاية في التعقيد، كأنه قادم من الجحيم. ولكنه لا يهتم، فدوره ينتهي هنا، أما الباقي، فسيتكفل به من يريدون البرنامج.

أرسل عدة رسائل خاصة للغاية، تعلن أن لديه أول قطعة حقيقية من برنامج المستمعين جاهزة للبيع.

***

تطلع شريف عبر النافذة إلى أسيل، التي هبطت من سيارة هند، وتبادلت معها كلمات قليلة، قبل أن تتجه للداخل، وتعود هند لمنزلها. جلس على الأريكة مراقبا الباب الذي فتح، ودخلت أسيل هامسة بشيء لم يسمعه، ولكنه رأى نظرة خيبة الأمل في عينيها، عندما رأته جالسا هكذا، فقال:

- سأفعلها.

فغمغمت بشيء آخر لم يفهمه وارتمت بجواره، فقال:

- سأفعلها يا أسيل؛ ولكن البرنامج يحتاج بعض الوقت.

أغمضت أسيل عينيها للحظات، وقالت: لقد طلبني اليوم ثانية.. لقد فعل! أقسم لك. لقد شعرت به، شعرت بالمكان عندما دخلته، وسرت به حتى وصلت لمكتبه الواقع في نهاية الممر. دخلته، وجلست أمامه، فأخبرني بما فعله: لقد قتلت ابنك، لقد قتلت ابنك، كررها عشرات المرات، وهو يبكي من شدة الفرح والنشوة. أتمنى أن أتذكره.. أن أتذكر أي شيء، ولكني لا أستطيع.

دق هاتف شريف، معلنا عن تلقيه رسالة خاصة على قناة الاتصال المؤمنة؛ ولكنه تجاهله مستمعا لأسيل التي واصلت: كون الإجابة داخل عقلي فذلك يقتلني، يمزق كل خلية في جسدي ألف مرة في كل لحظة أعيشها.. أتمنى أن أحضر مثقابًا، وأحفر داخل رأسي، لأصل إلى عقلي، فأستخرج صورته منه.. إنه كل ما أراه عندما أذهب للنوم، عندما استيقظ، في الحلم، في الصباح، في المساء، وفي كل وقت.

دق الهاتف ثانية، فأغلقه شريف، وواصلت أسيل: يجب أن تصل إليه يا شريف؛ هل تفهم؟ يجب أن تصل إليه مهما كان الثمن.

ارتفع صوت هاتف أسيل هذه المرة، فألقى شريف نظرة سريعة عليه. كانت هند تتصل، فأغلق الهاتف، وقال: أعرف كل ما تشعرين به، وأشعر

بمثله وأكثر في كل لحظة أعجز فيها عن الوصول إلى هذا الرجل. أموت ألف مرة وأنا أتصوره يواصل حياة اللهو والعبث، دون أن يفكر في ابننا الذي دهسه، أو حياتنا التي حطمها. رامز لم يكن مجرد ابن بالنسبة لي، بل حياة كاملة.

وصمت لحظة، وأكمل: لم أخبرك بهذا من قبل، على الرغم من كل السعادة التي شعرت بها معك، إلا أن الهاجس القديم عاودني.. يجب أن أخرج من هنا.. فقررت الخروج وترك كل شيء. ولكن في تلك الليلة، أخبرتني أنك حامل، فشعرت بكل شيء يتلاشى من حولي.. بالعالم كله يتلاشي من حولي، فلا يبقى إلا أنا وأنت وطفلنا الصغير، الذي أقسمت أن أرعاه وأحميه مهما كلفني الأمر. ويوم ولادته.. يوم حملته أول مرة، شعرت بخاطر جديد للمرة الأولى في حياتي.. يجب أن أبقى هنا، يجب أن أبقى بجواركما؛ لا يوجد أي مكان آخر أريد أن أكون به، ولا أي شخص آخر أريد أن أكون معه. أنت مخرجي.

لم تعلق أسيل، فتطلع إليها للحظات، وسار إلى جهاز الكمبيوتر، وبدأ العمل. تراجع للخلف مذعورا، فسقط من فوق المقعد، وصرخت أسيل جزعة.

لو كانت الغرفة المغلقة غرفة حقيقية؛ لكان ما رآه شريف هو باب الغرفة محطمًا، ومحتوياتها مبعثرة في كل مكان، وخزانة ضخمة مفتوحة وقد سرقت كل الأشياء الثمينة منها.. لقد سرق برنامج المستمعين! عض أصابع يده حتى أدماها ليكتم صرخته.. لقد سرق برنامج المستمعين. فتح قناة الاتصال؛ فوجد عدة رسائل من سيف: لقد سرق برنامج المستمعين.

- ريان فعلها.

- لقد عرفت مكانه.

ورسالة أخرى تحتوي على العنوان، ثم: سأذهب إلى هناك، وأحاول إيقافه.

كتب شريف: انتظر، لا تفعل شيئا، أنا قادم.

ولكنه لم يتلق ردا، فالتقط سلاحه من الدرج، وأخفاه في ملابسه، وأسرع للخارج مارا بأسيل التي لم تغير جلستها، وإن تغيرت تعبيراتها. ولكنه لم يتوقف عندها، ففي عقله نمت صورة واحدة..صورة الجاسوسة ميرا حسين في غرفة الاستجواب، بعد إلقاء القبض عليها. لقد احتاروا كثيرا في تفسير النظرة التي علت وجهها، ولكنهم اتفقوا في النهاية أنها نظرة عدم تصديق، بعد كل الحذر الشديد، والكثير من الاحتياطات.

ولكنه الآن يعرف الحقيقة، فالنظرة لم تكن عدم تصديق أنه قد ألقى القبض عليها؛ بل كانت عدم تصديق أنها جاسوسة، وأنها قد فعلت هذه الأشياء الرهيبة التي يتهمونها بها. يشعر الآن -بنفس الطريقة- أنه خان وطنه، وأخرج واحدًا من أهم الأسرار الخاصة، والله وحده يعلم ما سيفعله ريان به.

ركب سيارته، وانطلق مسرعا، وهو يصرخ بداخله:

- لقد أفسدت كل شيء.

***

-٣٩-

- تفضل.

نطقت شعاع بالكلمة وهي تناول زجاجة العصير ليوسف، الذي التقطها منها وجال بعينيه في المحل، ثم التفت نحوها قائلا: كيف يسير العمل؟

- بخير والحمد لله.

نهضت شعاع، وسارت نحو خزانة حديدية ضخمة.. فتحتها، وأخرجت علبة صغيرة، وقدمتها ليوسف قائلة: تفضل.

التقط يوسف العلبة قائلا: شكرا لك.

فتح العلبة، فقابلته ساعة فاخرة، تطلع إليها للحظات، ثم ارتداها في يده، وقال: إنها جميلة، شكرا لك.

قالت شعاع: عندما رأيتها أثناء جولتي في الخارج، لم أستطع التفكير في شخص آخر يرتديها.

وانخفض صوتها مكملة: فأنا أفكر بك طوال الوقت.

قال يوسف:

- سعيد جدا أنك بخير، وأنك تبتعدين عن المشاكل، كما طلبت منك.
- أنا بخير، والشكر لله، ثم لك؛ فقد أرسلك الله لي مثل الملاك الحارس؛ لتعيد لي حياتي التي فقدتها.. شكرا لك.

نهض يوسف؛ لينصرف؛ فقالت شعاع: ألن تبقى معنا للغداء؟

قال يوسف: آسف، ولكن لا يمكنني.

فقالت شعاع: ستُسر كادي كثيرا لرويتك.. إنها تتحدث عنك طوال الوقت.

مد يوسف يده في جيبه، وأخرج هدية صغيرة كاد ينساها.. وضعها أمام شعاع قائلا: أعطي هذه لكادي، وقبلها نيابة عني، وأخبرها أنني أحبها.

فقالت شعاع: وأنا أيضا أحـ.... كادي أيضا تحبك.

غادر يوسف المكان، وركب سيارته، وانطلق بها، وهو يتطلع إلى صورة صغيرة لكادي بجوار صورة ريناد، طفلته الصغيرة، وهمس: هكذا أفضل.

يذكر يوسف تلك الليلة، حين ذهب للتحدث مع الساحر، وقال:

- لم أعد أستطيع الاحتمال.

فلم يعلق الساحر، فواصل يوسف: أشعر أن الحياة سوداء تماما، وبالشر يغرس مخالبه العملاقة فيها ليحرك الناس كما يريد.. عندما أرى الآخرين، لم أعد أرى بشرا، بل شياطين تتربص ببعضها البعض، وكل منهم يبحث عن أفضل طريقة ليؤذي الآخر ويحطم حياته. حتى جيراني، لم أعد أستطع تبادل تحية الصباح معهم، وأنا أعرف أنهم يتربصون بي طوال الوقت. أرى عامل النظافة المسكين يحمل مكنسته، فلا أشفق عليه؛ بل أفكر في انتزاع المكنسة منه لأحطم رأسه بها، قبل أن يحطم رأسي أولا.

صمت لحظة، ثم كرر: لم أعد أستطيع الاحتمال.

رد الساحر في هدوء بدا مستفزًا: هذا أمر طبيعي جدا، يحدث لمن يقضي وقتا طويلا يستمع للشر الكامن في أعماق الناس مثلنا، ولفخرهم الشديد بما فعلوه، واللذة التي شعروا بها وهم يفعلونه. إنه أمر طبيعي يحدث للجميع، ولكنك استغرقت وقتا أطول لتعلن عنه.

- يحدث للجميع! هل تعني أنك شعرت هكذا من قبل؟

- الأمر هذه المرة ليس منافسة يا يوسف؛ فكل إنسان يحتمل قدر استطاعته.

ناول الساحر يوسف أحد الملفات قائلا: هذه عمليتك الأولى في قسم تحقيق الأحلام.

- قسم تحقيق الأحلام!

- عندما ترى ما تفعله السعادة التي تمنحها للآخرين، ستشعر أنك قادر على تحريك الجبال من أجلهم. مهمتك الأولى هي الحب المستحيل، رجل يحب امرأة لا يمكنه الفوز بها، لا يمكن أن يجتمعا، ومهمتك أن تجمعهما سويا.

وكالعادة، كان الساحر محقا، فمع عمل يوسف في هذا القسم شعر بالسعادة تتخلله وتطرد أحزانه. شعر أنه إنسان جديد، تبتسم له الحياة، شعر بالفعل أن الغد سيكون أفضل. حتى جاء اليوم الذي لم يظنه يأتي أبدا، يوم وقف صانع الفجوات أمامه قائلا:

- أنت لم تخذلني، بل خذلت نفسك.

كلمات قليلة، ولكن يوسف شعر بروحه تفارقه ألف مرة.. بل ألف ألف مرة، وهو يستمع الكلمات من الرجل الذي قالها وانصرف. لقد حذره الساحر من البداية أن يأخذ العملية، رأى الساحر وجهه وهو يتطلع إلى تسجيل كادي الصغيرة مع المستمعة، فقال: دع العملية. ولكن يوسف أصر على تولي العملية، وأخبره أنه قادر على إتمامها بنجاح.

تقول كادي: أنت الوحيدة التي أستطيع التحدث معها، لأن والدتي تخبرني ألا أتحدث مع الآخرين عما يحدث في المنزل. ولكنني سمعت أنك تنسين كل شيء بمجرد خروجك من هنا، فلن تعرف والدتي. لقد انتظرت حتى خرجت، ثم اتصلت لأطلب منك الحضور، فأنا أحتاج للتحدث مع شخص ما، لا تظني أن والدتي امرأة سيئة لأنها خرجت وتركتني وحيدة.. فهي ليست سيئة، إنها رائعة. صحيح أنها لا تحضر لي كل ما أريده، مثل صديقاتي.. صحيح أنها لم تحضر لي هدية عيد ميلادي الماضي، بل لم تتذكره.. ولكنني أعرف أنها تحاول، وتبذل قصارى جهدها لتجعل حياتنا أفضل. أحبها لهذا؛ بل أعتقد أنها أفضل أم في العالم.. أفضل من فاتن التي أحضرت لابنتها دراجة جميلة مزينة بشرائط ملونة في عيد ميلادها الماضي.

أنا أحبها، وأقول لك إن أسعد لحظات حياتي هي تلك الليالي التي لا أسمعها تبكي فيها. تأتي إليّ، وتضعني في فراشي، وتجلس بجواري تضفر شعري، وتخبرني بقصة الأميرة الجميلة، وكيف عاشت في قصرها الجميل المحاط بحديقة جميلة ممتلئة بالزهور الملونة، فأقول: ومعها أمير جميل؛ فتقول والدتي، بل عاشت وحيدة؛ لأن الآخرين لا يمنحون السعادة، بل يطردونها خارجا، ويجلبون الحزن معهم. وتحكي لي كيف كانت الأميرة سعيدة، تغني طوال الوقت.. أنا وحيدة، لذلك أنا سعيدة.. أنا وحيدة، لذلك لا يمكن أن أكون حزينة.

لم تكن والدتي هكذا دائما؛ ولكنها أصبحت على هذه الحالة منذ رحيل والدي الغامض. لم أفهم ماذا حدث، ولكنني أعرف أن والدي رحل وتركنا؛ وفقط! عندما أسال والدتي عنه، تنهرني بشدة، وتخبرني أنها لا تريد التحدث عنه.. ثم تعود، وتطيب خاطري، وتطلب مني ألا أغضب منها؛ فهي أصبحت عصبية لأنها متعبة ومجهدة طوال الوقت، ولا تتذوق طعم الراحة.

أعرف أن والدتي واقعة في العديد من المشاكل.. مشاكل كبيرة مع أشخاص سيئين للغاية. لا تتحدث معي عنها؛ ولكنني أسمعها تتحدث على الهاتف.. تصيح أحيانا، وتبكي أحيانا أخرى.. تتوسل، وتقول عبارات كثيرة، مثل "سأدفع لك"، "سأفعل ما تريد"، "أحتاج المزيد من الوقت"! أسمعها تتحدث مع والدي كأنه أمامها، فتلومه على ما يحدث، وتعنفه، ثم تبكي حتى تنام. في إحدى المرات، جاء رجلان مخيفان إلى منزلنا، صاحوا بها وحطموا بعض أثاث المنزل، وانصرفوا يتوعدونها ويخبروها أنهم سيعودون ثانية، وآنذاك لن يكتفوا بتحطيم بعض الأثاث فحسب.

أتمنى أن تعود الأمور كما كانت من قبل. أتمنى أن أرى أمي سعيدة مبتسمة، كما كانت من قبل. أتمنى أن يصبح بيتنا جميل سعيد مثل بيت مي، وريم.. ليس نصف أثاثه محطم، والنصف الآخر تبحث والدتي عمن يشتريه. أتمنى أن ..... فقط أن.....

أعرف أنكِ ستنسين ما أخبرتك به، ولكني أريدك أن تعديني ألا تخبري أحدًا بما أخبرتك؛ لأن أمي ستغضب بشدة إذا عرفت.

بدأ يوسف العمل.. جمع كل المعلومات الممكنة عن شعاع وزوجها، عرف أن زوجها تورط في أعمال العصابات، التي لاحقته فاضطر للهرب؛ ظنا منه أنه يؤمن عائلته بهروبه. ولكنهم جاءوا من أجل عائلته، فاضطرت شعاع للاستدانة من مرابٍ لتسدد بعض ديونه، ثم القيام ببعض الأعمال معهم، مثل نقل حقيبة من مكان لآخر، عندما هددوها بقتل كادي إن لم تفعل. وعلى الرغم من كل ما فعلت، لم تتمكن شعاع من الخروج، بل غاصت أكثر، فأخبروها أنها قد أصبحت منهم، وسيزيدون مهامها. رفضت، فأرسلوا رجلين إلى منزلها، في رسالة واضحة المعنى.

قال يوسف: لا أصدق أن كل هذا يحدث، ولم نكن لنعرف عنه لولا أن الطفلة طلبت مستمعة!

فقال الساحر: لقد كانت الشرطة تتعامل مع القضية، ولكنها تتعامل مع الكثير جدا؛ لذلك لم تتحرك بالسرعة الكافية.

وضع يوسف خطته للتعامل مع الأمر، وعرضها على الساحر، الذي أعطاه الضوء الأخضر للبدء. بدأ التنفيذ، راقب القطع وهي تأخذ مكانها كما اعتاد.. ولكن تغيرًا طارئا حدث أثناء التنفيذ؛ ومن المفترض في هذه الحالة أن يقوم يوسف بالعودة للساحر لوضع خطة جديدة تتناسب مع التغير الحادث؛ ولكن يوسف تصرف بمفرده، وارتكب أكبر وأسوأ خطأ يمكن أن يرتكبه أحد المحركين. قام باتصال مباشر مع الهدف!

ذهب يوسف إلى المنزل، وقابلهما، ثم اصطحبهما إلى مكان آخر حتى انتهت العملية. صحيح أنهما لم تعرفا شيئا عن حقيقة يوسف، غير قصة مخترعة أخبرهما بها، ولكن رجل الفجوات قال: هل تعرف ماذا فعلت؟

- أعرف، أخطأت، ولن يتكرر ثانية.

- هل تعرف ماذا نفعل هنا؟

- نستمع.

- هل تظن أن حماية الوطن مهمة سهلة؟ إنها مهمة مستحيلة، أصلي كل يوم لله ليمنحني القوة للقيام بها.

- أعرف أنني خذلتك، وأنا آسف جدا.

صمت الرجل للحظات، وقال: أنت لم تخذلني، بل خذلت نفسك.

ظل يوسف يتقلب على نيران الألم لأيام، فجاءه الساحر قائلا: اذهب.

- اذهب لأين؟

- اذهب لزيارتهم.

- ولكن الرجل أخبرني أن...

قاطعه الساحر قائلا: رجل الفجوات يبذل قصارى جهده لتوجيهنا للطريق الصحيح، ولكنه لا يتوقع منا الكمال. فكوننا نرتكب الأخطاء، هذا ما يجعلنا بشرا.

نهض يوسف من مكانه. فقال الساحر: إنها ليست ابنتك، وأنت لم تكن لتتخلى عن عائلتك، وتترك حياتك الأخرى تطاردهم مهما حدث. أنت لست هو؛ هل تفهمني؟

- شكرا لك.

قالها يوسف، وانطلق لزيارتهما؛ فشعر بالسعادة تملأ المكان، يمكنه أن يمسك بها ويجمعها، ليستخدمها عندما تأتيه الأحزان لاحقا. ابتسم الساحر قائلا: سعيد جدا من أجلك، ولكن لا تقترب كثيرا، فأناس يعيشون حياتنا، لا يمكن أن تكون لهم حياة طبيعية مثل الآخرين.

- أنت محق.

ابتعد يوسف كما أخبره الساحر.. ولكنه لم يبتعد تماما؛ فمن وقت لآخر، يشعر بالحياة تلهب ظهره بسياط الحزن المتلاحقة، وتمزق روحه بنصال الألم المسمومة، فيقوم بزيارتهما، ليسرق رشفات صغيرة من السعادة.. يطوف بالأشخاص الذين صنع سعادتهم، يراقبهم من بعيد، ويهمس لنفسه: أنت فعلت هذا، ويجب أن تفعل المزيد.

يقول الساحر: أناس يعيشون حياتنا، لا يمكن أن تكون لهم حياة طبيعية مثل الآخرين.

هذه المرة كان الساحر نصف محق؛ فليس الأمر أنه لا يعيش حياة طبيعية مثل الآخرين، بل إنه ليست له حياة على الإطلاق. في النهار هو ظلٌ، يتحرك في الخفاء، لا يراه أحد، ولا يعرف أحد أنه موجود.. لا يستطيع الحصول على محادثة واحدة طبيعية مع شخص آخر. وفي الليل، يأوي إلى الفراش وحيدا، تحيطه أطياف الماضي: طيف والده، طيف شذى، أشباح معسكر آدم، وسلام.. زوجته، ابنته ريناد، أشباح الأشخاص الذين يحركهم..

صانع الفجوات يقول: نحن نقوم بمهمة عظيمة، نضحي من أجلها بكل شيء.

فقط شعاع وكادي يستطيع أن يجلس معهما لدقائق قليلة، يسمع منهما قيمة ما فعله مباشرة. عندما يفكر يوسف في الأمر، ربما لم يتدخل لإنقاذهما لأنها كانت الطريقة الوحيدة كما قال.. ربما تدخل لأنه احتاج لهما كما احتاجتا له. احتاج ليد صغيرة غير ملوثة مثل يد كادي، لتمسح الصدأ الذي علا قلبه، وتنفض الرماد الذي غطى روحه.

دق الهاتف، فالتقطه، فجاءه صوت الساحر:

- نحتاجك هنا الآن.

***

-٤٠-

تطلع ساري إلى الخرائط التي عرضتها بيلسان على الشاشة قائلة:

- هذه هي الخرائط التي أرسلها فريقك.

قال ساري: تبدو شديدة التعقيد.

قالت بيلسان: بالطبع؛ نحن نتحدث عن واحد من أكثر السجون الموجودة تأمينا.

كانت المخططات تظهر سجنا يقع في الطابق الثالث تحت الأرض، في مبنى تابع للمكتب التاسع، تحتل الإدارة الطابقين اللذين يعلوانه، أما الطوابق فوق الأرضية فتحتلها شركة شهيرة. قال أحمد: كيف ندخل إلى هذا المكان؟

قالت بيلسان: طبقا للمعلومات التي أرسلها فريق ساري، يستخدم المكان نظام أمني شديد التعقيد، يسمي العقرب الثالث عشر.

قال ساري: لم ينجح أحد في اختراق العقرب الثاني عشر.

فكر أحمد لدقيقة، وقال: من الذي يدخل هذا المكان؟

قال ساري: رجال المكتب التاسع، والعاملين في الشركة؛ ولكن هولاء لا يهبطون إلى الأدوار السفلية.

قالت بيلسان: ورجال المكتب التاسع يتعرضون لفحص دقيق قبل الدخول، عبر نظام أمني شديد التعقيد.

قال ساري: لابد من وجود طريقة أخرى.

قال أحمد: ومن الذي يدخل أيضا؟

لم يجبه أحد؛ فأكمل: فرق الطوارئ، والعملاء القادمين من الإدارة لأسباب أخرى مثل.......

أكمل ساري: اصطحاب سجين خطير إلى مكان آخر.

قالت بيلسان:

- جيد، ولكن هذا سيحتاج إلى اختراق النظام لإضافة عملية النقل.

قال ساري: لدي من يقوم بهذه المهمة.

أجرى ساري عدة اتصالات، وسألته بيلسان:

- من الذي سيدخل؟

هم أحمد بالكلام، فقالت:

- لا يمكنك فعلها؛ أنت العدو رقم واحد للمستمعين، والجميع يعرفك.

قال ساري:

- أنا سأفعلها.

***

(تبا للعاصفة)

كان هذا هو الاسم غير المعلن للتنظيم الذي جمع ديفيد والعديد من المؤمنين بفكرته. فعندما تقدم ديفيد بتخطيط لعملية جديدة ضد عدوهم الأكبر، تطلع قائده المباشر إلى الأوراق للحظات، وقال:

- خطة رائعة يا ديفيد، وسيكون لها أثر كبير، إذا تم تنفيذها.

نقر ديفيد على المكتب قائلا: لن تقوموا بتنفيذها.

- لقد أخبرتك من قبل، يجب أن نخفض رؤوسنا حتي تمر العاصفة.

فصاح ديفيد: تبا للعاصفة.

قال القائد: سأتغاضى عما قلته للتو؛ لأنني أقدر غضبك.

- أنتم لن تفعلوا أي شيء في هذه العملية. فقط دفع القطعة الأولى، وسيسير الأمر تلقائيا.

نهض القائد من مقعده، ثم جلس أمامه قائلا: لقد أخبرتك بهذا من قبل؛ الأوامر تصر على عدم فعل أي شيء حتى تنتهي العاصفة.

- منذ متى كنا خائفين هكذا؟ نحن مقاتلون. نقاتل دائما مهما كنت فرصنا ضعيفة، ولا نستسلم أبدا.

- لقد رأى الرؤساء أن........

فقاطعه ديفيد صائحا: تبا للرؤساء، وتبا للعاصفة.

- احذر ما تقوله يا ديفيد......

فقاطعه ديفيد بمزيد من الصياح: أو ماذا؟ أنا لست خائفًا منك، لست خائفًا من مجموعة من الجبناء مثلكم، تخافون النهوض عن مقاعدكم.

جذب ورقة من رزمة ورق أبيض على المكتب، وخط باستقالته في سطرين، ودفعها على المكتب أمامه مكملا: أنا خارج من هنا.

سار للخارج مارا بحائط الشرف؛ توقف أمام صورة والده، وقال:

- لن أخذلك، كما فعلوا.

كان والده ضابط مخابرات أثناء الحرب العظيمة، قام بالكثير من العمليات، حتي أصيب في ساقه؛ فعاد للوطن. يذكر ديفيد والده وهو يتابع أخبار الحرب بصفة مستمرة.. لم يكن ينهض من مكانه، إلا للضرورة القصوى، ويعود مسرعا صائحا: ماذا فاتني؟ كم حقيرمات حتى الآن؟

فإذا أخبره ديفيد أنه لم يحدث شيء، يسود وجهه، ويجلس حزينا.. أما إذا أخبره بعدد من ماتوا، فيقبِّله ويمنحه النقود. يشير إلى الشاشة التي تنقل مشاهد البيوت المتهدمة، والنيران المشتعلة، والشوارع الممتلئة بالجثث المحترقة، التي لا تجد من يدفنها، ويقول: نحن فعلنا هذا بالأعداء، رجالنا الأبطال فعلوا هذا.

يحكي لديفيد عن العمليات التي قام بها ضد أولئك الذي يحملون في قلوبهم البغضاء لقومه، ويدعون الإله عليهم في الميكروفونات، ويحرضون العالم ضدهم، رافضين أن يكون لهم وطن، مدَّعين أن الرب يريدهم مشتتين.. يحكي له؛ فتتسع عيناه، ويقول: عندما أكبر سأقتل مائة منهم.

- خطأ.

- سأقتل ألفًا.

- خطأ.

فيحك ديفيد رأسه مفكرا، ويقول: سأقتل مليونا.

ولكن إجابة والده لا تتغير: خطأ.

ثم يربت على رأسه قائلا:

- لو قتلت مليونا، سيخرج لك بدلا منهم عشرة يمزقونك؛ ولكن عندما تشعل القتال بينهم، فإنهم سيبيدون بعضهم البعض؛ بينما نحن ننمو. فقط اجعلهم أخطر على أنفسهم منَّا، وراقب من مكانك في سكون.

كان والده يدعو أصدقاءه لمشاهدة الأخبار معه، فيلقون برهاناتهم على عدد القتلى في الليلة.. يراهم يشربون كأسا مع كل قتيل، وتتعالى ضحكاتهم مع كل صرخة يسمعونها.. تتسع حدقات عيونهم ويصيحون في نشوة:

- هكذا يتم الأمر!

عندما صدر "ألبوم صور الحرب"، راحوا يتفحصون الصور الموجودة فيه، ويقرءون التعليقات بمنتهى السعادة، حتى أن أحدهم أصابته سكتة قلبية من شدة الفرح، فقد راح يصرخ: انظروا إليهم.... انظروا إليهم....

ثم سقط ميتا أمامهم؛ فشربوا نخبه، وقالوا:

- نم هانئا يا جوزيف، فسيكمل رجالنا الأبطال المشوار.

يذكر ديفيد يوم صدمه خبر تدمير مستشفى للأطفال، فصاح: أبي!

فالتفت أبوه إليه، وبدا عليه الغضب منه، ثم عاد إلى حنانه الذي رباه دومًا به، وشرح له: ديفيد؛ هؤلاء ليسوا أطفالاً؛ إنهم كما يقول الحاخامات القريبون من الرب مجرد مشاريع شر لم تزل صغيرة، فاقضوا عليها قبل أن يكبر شرها معها.

واقتنع ديفيد، وعاش أسعد أيام حياته يومها. لم يكن هو ووالده فقط من يعيشون هذه الحالة، بل كانت المدينة كلها في احتفالات.. رأى المارة يرقصون ويغنون في الشوارع، والمحلات تقدم طعاما مجانيا احتفالا بالحادث العظيم، وسمحت الحكومة بيوم للمساجين للخروج والاحتفال في الخارج؛ فلا يمكن سجنهم وسط هذا الجو البهيج.

في تلك الأيام، ظن ديفيد أن الحياة لا يمكن أن تكون أفضل. ولكن جاء ال...... ال....... لا يجد كلمة لوصفه، وأعلن انتهاء الحرب. لا أحد يعرف كيف

فعلها، ولكنه فعل. يومها تطلع والده للشاشة غير مصدق، وأخذ يهذي بكلمات لم يفهم ديفيد معظمها، ثم سقط ميتا.

خرج ديفيد للشوارع، فوجدها مظلمة خالية من المارة، وأصوات الصراخ والنحيب القادمة من المنازل تخرق أذنه. جلس يبكي بجوار حائط، ولكنه مسح دموعه قائلا: لن أبكي مثلهم، أقسم أن أعيد ما فقدناه.

وانضم ديفيد لمعسكر لتدريب الصغار، وأظهر نبوغا ملحوظا، ولكنه أظهر قسوة بالغة، جعلت مدربه يقول له:

- يجب أن تخفف من غضبك قليلا؛ فلسنا العدو.

- وعندما يأتي العدو، سيجدنا حزمة من الكائنات الرخوة، التي لا تستطيع فعل شيء؛ لأن أحدهم خائف قليلا.

فصفعه المدرب بقسوة أدمت فمه؛ فامتص دماءه قائلا:

- جيد؛ أحدكم يستطيع فعل شيء.

نقله المدرب إلى المستوى المخصص للفئة العمرية الأكبر منه؛ ولكن ديفيد تغلب على الأكبر منه أيضا. كان حالة من النبوغ اللافت في هزيمة خصمه، فلم يكن يعتمد على قوته البدنية، بقدر اعتماده على التقاط هفواته خصمه، وكشف طريقة تفكيره.

وكان من الطبيعي أن تلفت مهارات ديفيد انتباه القادة؛ فانتقل إلى الجيش، ثم القوات الخاصة، وأخيرا المخابرات، حيث عثر على شغفه الحقيقي: استخدام قوة عقله، لإحداث تغييرات بسيطة، تؤدي إلى نتائج كبيرة.

ولكنه تركها، بعد شجاره مع القائد، وحاول جمع فريق لتنفيذ خططه، فقابلته مشكلة لم يكن يتخيل أن تصدمه.. لا أحد يهتم، والمهتمون غير مستعدين لإضاعة وقتهم في العمل معه. يتحدثون طوال الوقت عما حدث:

عن الحرب العظيمة.. ويشربون نخب الأوقات الذهبية.. ولكن لا أحدا مستعد للتحرك من أجل إعادتها.

أدرك ديفيد أن عليه أن يضع لهم هدفًا جديدًا يتحركون نحوه.. هدفا ثابتا لا يتغير، ويريده الجميع، وعلى استعداد لبذل أي شيء وكل شيء للوصول له.. المال: الكلمة السحرية لفتح كل الأبواب المغلقة في كل العصور.

ولم يكن ديفيد يملك المال: فهو لم يهتم به طوال حياته.. كل ما اهتم به هو تطوير مهاراته، التي يجب أن يستخدمها الآن للحصول على المال.. الكثير جدا من المال. وأسهل طريقة لذلك هي جعل شخص يملكه بالفعل يمنحه لك، وبسخاء. وضع هدفه إيزابيل درويد، ابنة الملياردير الراحل انطون درويد، توفي والدها بعد الحرب في ظروف غامضة، وترك لها ثروة ضخمة للغاية، يقال إنه قد جمع أكثرها أثناء الحرب، والبعض يقول تجارة المخدرات، والكثير من الأقاويل، ولا يعرف أحد الحقيقة، وهو لا يهتم. كل ما يهم أنها تملك المال اللازم، وسيحصل عليه.

حسم أمره، وانطلق خلفها.. ظل يلاحقها حتى جعلها تقع في حبه وتؤمن بكل ما يقوله، فمنحته كل ما يريد، وأكثر. وما إن أصبح المال لديه، حتى توافد المتطوعون عليه، يريدون المشاركة، ويعلنون أنهم لم يأتوا من أجل المال، وإنما من أجل الانتقام، وإعادة العصر الذهبي ثانية.

صنع ديفيد شبكة ضخمة، تفوق ما تملكه دول كاملة، ولكنه لم يتخل عن هدفه الأول: صناعة ألبوم صور حرب جديد، يكون من ترتيبه وإخراجه.

مركز المستمعين، سيكون هدف هجومه الأول، لسببين.. الأول: أنه قد رأى الراحة والسكينة التي يمنحها المستمعون للناس، حين وصفها أحد رجاله قائلا: لقد كان شعورا لا يوصف أن تتحدث مع شخص يستمع إليك فقط، لا يسأل، ولا يحكم على ما تقول.. أن تتحدث فحسب دون تنسيق، ولا ترتيب، ولا تجميل للكلام، تتحدث بما في قلبك دون أن تخشي شيئا، فلا أحد

يعلق. عندما تخبر الناس بأي شيء، مثلا أنك سعيد، أو حزين، يسألونك عشرات الأسئلة: ماذا؟ لماذا؟ متى؟ ربما أنت ذاتك لا تعرف، ربما شعرت هكذا فحسب، ربما ليست لديك فكرة عما يحدث داخلك، وتريد فقط أن تتحدث، وتتحدث، وتتحدث.

قرر ديفيد: هولاء الأشخاص لا يستحقون هذا. يجب أن يعيشوا في ألم وشقاء وتعاسة وبؤس دائمين. يجب أن نأخذ هذا منهم.

أما السبب الثاني، فهو نتيجة للسبب الأول. فلأن الناس يقولون كل شيء عندما يشعرون بالأمان، فيمكنه أن يتخيل ما سيحدث إذا تذكر المستمعون.. يمكنه تخيل الفوضى التي ستنتج عن هذا التذكر، وما سيفعله البعض لإخفاء أسرارهم.. سيكون الأمر كارثة بحق.. رائع!

والآن، وقت تحديد الجنود الذين سيقومون بالعمل. دكتور أحمد يبدو مناسبا للغاية؛ ولكنه لا يفعل شيئا أكثر من مهاجمتهم في وسائل الإعلام. يجب أن يدفع الأمر لمستوى جديد. ربما محاولة لقتله ستكون كافية.

أرسل رجلين لتنفيذ المحاولة، وإيهام أحمد أنه نجا منها بأعجوبة، وترك ما يشير إلى المستمعين. وقد كان محقا، فبعد المحاولة الفاشلة، بدأ أحمد في جمع فريق لاختراق مركز المستمعين، الأمر الذي أكد له فريقه استحالته. ولكنه متأكد أن أحمد سيفعل شيئا.. جنَّد نادر -عضو فريق أحمد- ليكون عينه عليه، يخبره بكل ما يفعله، وجلس ينتظر.

وصلته معلومة أخرى من فريق المراقبة، عن وسام مهندس المستمعين، والاضطراب الذي يمر به؛ كما حكى لهم صديقه المقرب، بعد أن فك الشراب عقدة لسانه، في حفل خاص دعاه لها صديق مشترك. وضع وسام تحت المجهر، ودفع الكثير في طريقه ليزيد اضطرابه. وجاءت حادثة مراد عثمان -التي ساهم في حدوثها- فتأكد أن وسام جاهز للعمل. ولكن الرجل لن يعمل معه، ولن يقوم بإخراج أية معلومات، فالرجل مضطرب نعم، ولكن مازلت

لديه بعض المبادئ، لن يكسرها. علم أنه يبحث عن شيء ما، فدفع بنادر في طريقه ليساعده؛ وعبر نادر تم ترتيب اللقاء بين الاثنين.. ليبدأ العمل الفعلي!

حاول الحصول على برنامج وسام، الذي يجعل المستمعين يتذكرون، ولكنه لم يستطع؛ فوسام يحتفظ بالتفاصيل لنفسه، ولا يشاركها مع أي من أفراد الفريق. حاول جعل فريقه يصنعون برنامج مثله، ولكنهم فشلوا، وبقي وسام وحده يعرف كيف يتم الأمر.

ثم تم الهجوم على المركز بالفعل، ولكنه فشل، وتم القبض على وسام، وبدأ السعي خلف مجموعة دكتور أحمد. اتصل بنادر ليخبره بالخطة الجديدة؛ ولكن نادر أخبره أنه خائف، وسيخرج ولن يكمل الأمر. وقبل أن يفعل شيئا، صدمته سيارة مسرعة، لتنهي كل شيء. واثق ديفيد أنها لم تكن حادثة عادية.. لقد بدأت عملية الصيد. لقد توقعها.. ولكنه توقع إلقاء القبض عليهم، وليس فرقة اغتيالات تتحرك بمنتهى السرعة؛ لقد تطور أسلوبهم كثيرا.. إنهم يتعلمون!

اختفى أحمد وزوجته عن أعين مراقبته.. بحث عنهم كثيرا دون فائدة، فحاول الاتصال ببيلسان عبر قناة الاتصال المؤمنة، التي منحه نادر شفرة الدخول إليها، ولكنها لم تجب. جاءته رسالة تخبره أن بيلسان تزور عائلتها، وأحمد يتجه إلى آخر مكان يتوقعه.. إلى مركز المستمعين! أدرك أن عليه التحرك بسرعة، وإلا خسر كل شيء.. سيتحرك بنفسه هذه المرة. انطلق مع اثنين من رجاله، فتظاهرا بمهاجمة بيلسان، وقام هو بإنقاذها، وساعدها على الهرب، وقدم نفسه باسم ساري. يعرف أن بيلسان متشككة لا تثق بسهولة، لذلك يجب الوصول لأحمد؛ فرغبته الشديدة في تدمير المستمعين ستعمي بصيرته. أخذته بيلسان إليه، وبصعوبة شديدة نجح في إقناعهم بالهجوم بواسطة النبضة، التي تم تطويرها بواسطة عدد كبير من الخبراء، ومساعدات قليلة حصل عليها من وسام، دون أن يدري أنه يساعده، ولكن يجب أن يتم تفعيلها من داخل المركز.

سيدخل أحمد بواسطة دعوة الزيارة التي تلقاها أثناء هروبه، فأخذها

هو، ووافق عليها، وأعاد إرسالها للمركز، فهو يعرف أن أحمد سيفعلها. وإذا لم يستطع إقناعه بفعلها، فهناك طرق أخرى لجعله يفعلها، ولكنه لا يفضل اللجوء إليها في هذه المرحلة.

وتم الهجوم الثاني، وفشل مثل الهجوم الأول، ولم يحصل على أي شيء. شعر أن قلبه سيتوقف عن العمل ليلحق بوالده.. كيف فعلوها؟!! كيف أصبحوا بهذا الذكاء؟!! لقد كانوا يقودونهم فيما مضي مثل القطيع، فما الذي تغير؟! كيف وصلوا إلى هذا المستوى؟!

ولكن ظهرت معلومة أخرى لم يكن يتوقعها، فوسام لم يكن شخصا سهلا كما توقع. لقد عرف ما سيحدث، فقام بوضع برنامج صغير في برمجة النبضة، يبحث عنه في النظام ويحدد موقعه. وسام؛ يالك من عبقري!! مازلت أمامه فرصة ليربح، لو لعب هذه الورقة الأخيرة بطريقة صحيحة. سيقوم بإخراج وسام مهما تكلف الأمر، وهذه المرة لن يكتفي بمساعدته لتطوير برنامج صغير، بل سيعتصره اعتصارا ليعرف منه كل شيء.. كل شيء.

جمع قوته الكاملة للقيام بالعملية بنفسه. سيدخل أكثر سجونهم تأمينا، ويخرج أهم سجين لديهم، ويخرج. ستكون صفعة عنيفة على وجوههم المتغطرسة. لن تكون الأخيرة، بل الأولى، وستعقبها صفعات أخرى أشد عنفا. يستطيع أن يرى والده يبتسم في قبره، ويرفع له إبهامه محييا.. لن يخذله. سينتصر.

***

-٤٢-

ابتسم ريان في رضا، وتابع عملية المزايدة الإلكترونية السرية، التي نظمها المنظم إكس ليبيع برنامج المستمعين. همس ريان: هيا.... هيا........

ربما لو صبر أكثر، لحضر عملاء أكثر، وزاد السعر؛ ولكنه يعرف أنه يتعامل مع المستمعين، فيجب أن يتحرك بسرعة، ويرضى بما لديه، وإلا خسر كل شيء. هذه هي الضربة التي كان يسعى إليها طوال حياته، جاءته على طبق من فضة، دون مجهود، لتعوضه عن كل ما عاناه في حياته الكئيبة. لقد أخبرته سلوى: الشي الوحيد الذي يهزم كل شيء هو النقود. وطالما لديك الكثير منها؛ لن يهتم الناس بأي شيء؛ ولو كنت الشيطان ذاته.

ارتفع المبلغ، ومعه دقات قلبه، يتخيل الأشياء التي سيحصل عليها بهذا المال.. يمكنه أن يحصل على كل ما أراده يوما. ولكن هل سيعيد المال حياته التي فقدها؟.. لا يجب أن يفكر بهذه الطريقة؛ فاليوم يوم انتصاره الكبير، ولن يدع أي شيء يسرق سعادته. هل سيغير منظره؟! العجيب أنه لم يفكر في هذا أبدا، ولن يتغير الوضع مع المال القادم. لقد اعتاد حياته، يشعر أنه مثل بطل خارق، تتركز قوته في تشوهاته؛ فلو خسرها فسيخسر نفسه. امتدت التشوهات إلى روحه، ولكنه لم يهتم؛ فعلى الأقل يشبه ظاهره باطنه، أما الباقون فيتظاهرون بالجمال، ويأكلون بعضهم عند أقرب فرصة.

شعر بحركة غريبة في المنزل، فنهض ببطء، والتقط مسدسًا من درج مكتبه، وتحرك للخارج.. دار في المنزل، ولكنه لم يجد شيئا؛ فعاد إلى غرفته قائلا: لقد صرت أتوهم الأشياء.

وضع المسدس على المنضدة، وتطلع إلى شاشة المزاد، وقال: ولكن هذا لن يدوم طويلا.....

أفزعته فوهة مسدس باردة تلتصق برأسه، فماتت باقي الكلمات على

شفتيه، ورفع يديه في ذعر. قال حامل المسدس: أغلق هذا المزاد الآن.

التفت ريان للخلف ببطء؛ فوجد امرأة تصوب المسدس نحوه، فقال:

- من أنت؟ وكيف وصلت إليّ؟

- أنا سيف؛ والآن أغلق المزاد قبل أن أنسف رأسك.

تطلع ريان للشاشة قائلا: لا يمكنني.. لا يمكن إغلاق المزاد.

- أمامك خمس ثوان، وبعدها أنسف رأسك، واحد.... اثنان...

صرخ ريان: لا يمكنني إيقافه. فقط المنظم إكس يمكنه إيقافه.

- إذا اجعله يقوم بإيقافه.

- حسنا... حسنا.

ضغطت المسدس على رأسه بقوة أكبر قائلة: أسرع.

- لماذا تفعلين هذا؟ هل تعرفين كم سيدفعون من أجل هذا البرنامج؟

- لا أهتم.

- يمكننا أن نقتسم المال سويا، ونهرب من هنا، لا شيء يدل علينا، وهذا المال سيؤمننا لمدى الحياة.

- اصمت، وواصل العمل.

- انظري إلى المبلغ الذي وصلوا إليه، ويمكننا أن نطلب المزيد.

- كيف فعلتها؟

- لقد كان خطأ العقل، لقد افترض أنني مثل الباقين، ستمنعني حجرة مغلقة من الحصول على ما أريد.

وصمت لحظة، قال: لا شيء سيمنعني.

خفض رأسه بعيدا عن المسدس، وقفز من مقعده، ولكمها على رأسها؛

فسقطت أرضا وسقط المسدس من يدها، فتطلع إليها قائلا:

- أنت لا تفهمين شيئا أيتها الحمقاء.

استدار مسرعا ليلتقط مسدسه، ولكنها ركلته في ساقه؛ فعوى من الألم، ودارت بسرعة على الأرض، فالتقطت المسدس الساقط بجوارها، وصوبته نحوه قائلة: توقف.

التقط مسدسه، والتفت نحوها، فضغطت زناد مسدسها، وانطلقت الرصاصة لتستقر في جسده، فسقط أرضا. نهضت، وجلست أمام جهازه.. كان المزاد مشتعلا، وهناك شيء آخر لم تنتبه له. مؤقت ينتهي بعد دقائق قليلة؛ فينهي المزاد، ويتم إرسال البرنامج لصاحب السعر الأعلى.

- يا إلهي!

- حاولت إيقاف المزاد دون فائدة.

وسمعت صوت ريان الضعيف: لن تتمكني من فعلها.

- أعرف؛ ولكن العقل سيفعلها.

ضغطت عدة أزرار؛ لإرسال البيانات للعقل، وجلست تتطلع إلى المؤقت الذي راح يتناقص، وهي تطرق على المكتب أمامها هامسة: هيا... هيا.....

لم يبق سوى ثوان قليلة.. تمنت لو يمكنها القفز داخل الجهاز، لتمسك بالمؤقت وتضربه بالأرض، فتحطمه وتنهي هذا الكابوس... ٦.. ٥.... ٤..... ٣..... ٣..... ٣، لا تصدق نفسها، لقد توقف المؤقت! هتفت في همس: حمدا لله

ارتفع صوت ريان: تظنين أنك أنقذته.

التفتت، فوجدته واقفا ملتصقا بالحائط، يصوب مسدسه نحوها مكملا: لقد وقعتِ وثيقة إعدامه.

ضغط ريان الزناد، فانطلقت الرصاصة، وأصابتها في صدرها وانتزعتها

من مكانها لتضرب بها الجهاز، فيسقط أرضا. سقط المسدس من يد ريان، وقال: حمقاء.

شعرت بعمود من النار يثقب صدرها، وينشر آلامًا رهيبة في جسدها كله، وبالوهن يغزوها، مع الظلام الذي بدأ يحيط بها. رأت شاشة الجهاز يتغير لونها، ثم تعلوها عبارة "فشل الأمر"، ثم يتغير لونها ثانية، وعبارة أخرى تظهر: "بدأ إجراء الطوارئ". رأت الشاشة تنقسم لقسمين، يعلوهما مؤقتين صغيرين؛ فجاهدت لتصل للجهاز، ولكن جسدها خانها، وارتفع صوت من الجهاز: إجراء الطوارئ بعد عشر ثوان.

بدأ العد التنازلي، فأغلقت عينيها هامسة: أتمنى أن تعرف أنني أحببتك.

أفاقت على ذراعين قويين أحاطا بجسدها، وحملتاها، ففتحت عينيها، لتجد شريف يحملها ويسرع للخارج، فهمست: أحضر الجهاز

تطلع شريف للجهاز الملقى بعيدا، وقال: لا يوجد وقت.

فقالت: يمكنك فعلها.. لو تركتني هنا، ستكون أسرع.

ولكن شريف واصل العدو دون النظر للخلف، وبمجرد أن خرج بها من المنزل، انفجر المنزل، وألقى بهما الانفجار بعيدا. نهض شريف مسرعا نحوها، وحملها : هند!!!.....ماذا!!!!...... كيف!!!

- أنا سيف.

- أنت ماذا؟!

- أنا سيف أيها العقل.

تجمد شريف مكانه، وشعر بالأرض تميد به.. لقد كانت هند!.. كانت هند طوال الوقت! قالت هند: لقد فعل شيئا آخر يا شريف، بعد أن أوقفت المزاد.. أعتقد أنه قد أخبر السلطات عنك.

ارتفع صوت سيارات الشرطة وعربات الإطفاء، فقالت هند بصعوبة:

- يجب أن تهرب من هنا.

- لن أتركك.

- لقد مررت بالكثير؛ لن تقتلني رصاصة صغيرة.

ظل شريف واقفا يتطلع إليها، فقالت: اذهب الآن.

ثم وضعت هاتفها في كفه قائلة: هناك شيء، أريدك أن تسمعه.

وضع شريف الهاتف في جيبه، ثم حملها، فقالت هند:

- ماذا تفعل؟ يجب أن تذهب الآن.

سار بها شريف نحو السيارة قائلا: لن أتركك.

فتح الباب الخلفي، وأرقدها على المقعد قائلا:

- تماسكي يا هند، ستكونين بخير.

أغلق الباب، وأسرع للمقعد الأمامي، بينما لمحت هند ريان يسير مترنحا نحو سيارته. وعلى الرغم من بعد المسافة، سمعته يتمتم: أنا ناجي.

انطلق شريف بالسيارة بأقصى سرعة ممكنة، ثم قال متطلعا إليها عبر مرآة السيارة: لماذا فعلت هذا يا هند؟

سعلت هند؛ فتناثرت الدماء من فمها. قالت بصوت متقطع:

- لأنني..... أحـ..... بك ..... أحبك....

***

- حظا موفقا.

سمع ديفيد العبارة عبر السماعة المثبتة في أذنه، بصوت بيلسان؛ فقال:

- أتمنى ذلك.

توقف أمام مدخل المبنى وبجواره أحد رجاله، التقط نفسا عميقا، وخطا للداخل نحو المصعد. خطا داخله، انتظر إغلاق أبوابه، وأخرج بطاقة صغيرة مررها في أحد شقوقه؛ فبدأ المصعد رحلته للأسفل. توقف، فخرج منه إلى غرفة الأمن، أخرج بطاقته قائلا:

- العميل حسام سيف الدين، كود (الفا ٢٥٨٠ ال ٢٣٤ ن)

تحقق مسئول الأمن من بطاقته، والكود الخاص، وأومأ برأيه إيجابيا، فأخرج ديفيد بضعة أوراق ناولها للرجل قائلا:

- أنا هنا لاصطحاب السجين (ن٢٣) إلى المركز الرئيسي.

تحقق مسئول الأمن من النظام، فوجد العملية مدرجة بالفعل، فقال:

- استرح يا سيد حسام، سيأتي من يصطحبك للداخل.

أراح ديفيد جسده على المقعد.. لقد مر الجزء الصعب من العملية. كل ما بقي هو الدخول، اصطحاب وسام، والخروج، قطعة من الكعك. يبدو أنه قد أخطأ عندما ظن أنهم تطوروا؛ فمازالوا على غبائهم القديم. تقدم أحد الأشخاص نحوه قائلا: وائل عزام.

صافحه ديفيد، وسار معه ورجله خلفه، فقال وائل:

- فقط العميل المسئول يمكنه الدخول.

أشار ديفيد لرجله بالبقاء، وسار خلف وائل. استقلا مصعدًا آخر لأسفل،

ومرا بنقطة أمن أخرى، تحققت من هوية ديفيد وقصته. واصلا السير، حتى توقفا أمام بوابة حديدية ضخمة. قال وائل:

- لحظات ويصل المسئول؛ فوحده يمكنه فتح السجن.

ظهر نيروز قادما نحوهم، وقف أمام البوابة ووضع كفه على شاشة صغيرة مثبتة بجوار الباب، فتم فحص يده، وأدخل كلمة سر قصيرة، وتراجع للخلف قائلا: المدير نيروز، كود (ميجا ٢٣)

فقال صوت معدني: تم التحقق من الهوية.

فتحت البوابة، فساروا بضعة خطوات، وتوقفوا أمام بوابة أخرى، أدخل نيروز كلمة مرور، وأدخل وائل كلمة أخرى، ففتحت. كان أمامهم ممر طويل مظلم ساروا فيه، فأضاء الممر تدريجيا مع تقدمهم. على جانبي الممر كانت زنازين صغيرة، توقف نيروز أمام إحداها، وقال: افتح الزنزانة (ب٤)

تطلع ديفيد إلى كاميرات المراقبة التي تملأ المكان مفكرا.. سوف تبكون كثيرا، وتضربون رؤوسكم بالجدران، وأنتم تشاهدون هذه التسجيلات مرة بعد مرة. أتمنى الحصول على نسخة منها،.... ولكن لحظة: الزنزانة فارغة.

نطق ديفيد بالعبارة، وأشار لقلب الزنزانة الفارغ، فقال نيروز:

- اطمئن، لقد وصل صاحبها للتو.

قبل أن يفهم ما يحدث، أمسكه وائل ودفعه للداخل، فسقط أرضا. وقبل أن ينهض، كانت الزنزانة قد أغلقت عليه، فصرخ: لا.

ابتسم نيروز قائلا: مرحبا بك في المكتب التاسع سيد ديفيد.

- ولكن كيف؟!

سقطت العبارة من فم ديفيد، فقال نيروز: لقد بلغنا مستويات من التطور لا يمكنك تخيلها.. لا يمكنك أن تتخيل وجودها.

استدار نيروز وسار مع وائل، وارتفع صراخ ديفيد في الخلف. رأى ديفيد

آخر خيط من الضوء يختفي مع إغلاق البوابة، فانهار على ركبتيه داخل الزنزانة، يتمتم: أنا آسف جدا؛ لقد خذلتك.

رأى صورة والده تتجسد أمامه قائلة:

- لقد أصبحوا أقوياء للغاية، هل تفهم ما يعنيه هذا؟.. العالم لا يمكن أن يتسع لنا معا. هذا يعني أن نهايتنا أصبحت قريبة.

صرخ ديفيد:

- لا.

حاول الاتصال، أو تشغيل أي من الأجهزة الموجودة معه، ولكن كل شيء توقف عن العمل؛ فلم يجد أمامه سوى المزيد من الصراخ.

***

لم يصدق شريف أنه قد وصل للمنزل، مع قيادته على هذه الحالة، تتصارع عشرات الأفكار في رأسه، وكلما حاول الإمساك بإحداها، صرعتها أخرى، فكان كمن يحاول الإمساك بخيط من الدخان، أو القبض على ضوء الشمس. قفز من سيارته، ودخل المنزل مسرعا، فقالت أسيل: ماذا هناك؟

هرع إلى الداخل قائلا: يجب أن نخرج من هنا.

- هل عاودك الهاجس القديم؟

صاح من داخل غرفته:

- ليس هاجسا، لقد أفسدت كل شيء، وهم قادمون من أجلي.

- من هم؟

خرج شريف من الغرفة ومعه حقيبة صغيرة، وجذبها من يدها قائلا: هيا بنا.

- ماذا؟! الآن؟!

- نعم، فلا وقت لدينا.

- حسنا سأحضر......

ولكن شريف قاطعها، وواصل جذبها قائلا: لا وقت لدينا، إنهم قادمون.

ركضت أسيل معه للخارج، وركبا سيارته، وانطلقا بها. التقط شريف هاتفه، واتصل ببعض أقارب هند، وتحدث معهم لفترة قصيرة، ثم أغلق الهاتف؛ فقالت أسيل: ماذا حدث لهند؟

- سأخبرك بكل شيء لاحقا؛ يجب أن نختفي الآن.

عمل على هاتفه للحظات، فأصدر الهاتف صوتا متقطعا، وأغلق؛ فألقى

به من النافذة. التقط هاتف أسيل، وفعل به نفس الشيء قائلا:

- لا يجب أن نترك أية طريقة لتتبعنا.

صمتت أسيل للحظات، ثم سألته: من الذي يطاردنا؟

ضرب شريف المقود بيده قائلا: الجميع.. الشرطة، والمخابرات، والمكتب التاسع، والمستمعون، وبعض القراصنة.

- ماذا؟!

- لقد قام بإعداد ملف يحتوي على كل شيء، بالإضافة إلى اتهامي أنني شريكه.. العقل شريكه وقد أحضر له البرنامج ليبيعه.. يتم إرسال الملف إلى كل الجهات في حالة فشله في بيع البرنامج. لن يستغرقهم الأمر طويلا حتى يعرفوا أنني المقصود، ويسعوا خلفي؛ فهم لا يتهاونون في التعامل مع الجواسيس.

حل الصمت رفيقا ثالثا لهما، حتى طردته أسيل بقولها: ماذا حدث لهند؟

- ستكون بخير.

- ماذا؟ ماذا حدث لها؟

مسح شريف دمعة هاربة من عينه، وقال: لقد أفسدت كل شيء.

مسحت أسيل على رأسه قائلة: كل شيء سيكون بخير.

- ولكنني......

وضعت أسيل يدها على فمه؛ لتسكته قائلة: كل شيء سيكون بخير.

واصل شريف القيادة لخارج المدينة، حتى توقف وفتح جراجًا خاصًا، تركوا فيه السيارة القديمة، وركبوا سيارة أخرى، انطلقوا بها لفترة أخرى، قبل أن يتوقف شريف قائلا: لا أعرف أين نذهب.

- ظننت أن لديك خطة!

- لدي خطة بالفعل، ولكنني لا أظنها كافية مع كل من يطاردوننا.

التقط حاسبه المحمول، وبدأ العمل عليه أولا إخفاء مكانه، ثم بحث قليلا وقال: لقد بدأت المطاردة.

قالت أسيل: نحتاج إلى مكان آمن لا يصلون إلينا فيه، ليمكننا ترتيب أفكارنا، وتحديد خطوتنا القادمة.

خطوتنا القادمة.. شعر شريف بالكلمة تتردد داخله برنين ساخر قاس.. خطوتهما القادمة -على الأرجح- ستكون التعفن في أحد السجون الخاصة، حيث لن يروا الشمس ثانية، واصل عمله على الكمبيوتر، وصوت يتردد في داخله: ليتك ذهبت وتركتهم كما أردت؛ إذًا لكان حالهم أفضل بدونك. كل شيء أفضل بدونك.. انظر إلى ما فعلت، لقد أفسدت كل شيء، كل شيء. هل هذه هي العائلة التي أقسمت أن تقوم بحمايتها؟ ابنك مات وحيدا على قارعة الطريق مثل الكلب، وزوجتك سينتهي بها الأمر في مصحة عقلية، بعد ما سيحدث لها في السجن..........

قالت أسيل: لا أصدق أن هذا يحدث، لا أصدق أننا هاربان، و هو يتقلب في حياة النعيم.

قال شريف: سأصل إليه يا أسيل.

- أنا لا ألومك يا شريف، أنا لا ألومك على أي شيء، فأنت أفضل شيء حدث لي طوال حياتي، بل ألوم نفسي لعجزي عن مساعدتك.

ضربت على رأسها بكفها مكملة:

- ألوم عقلي الغبي على عجزي عن معرفة القاتل.

أمسك شريف بيديها قائلا: توقفي يا أسيل سنصل إليه و..........

بتر عبارته صوت تصاعد من الجهاز، فقفز نحوه، فوجد مفاجأة في انتظاره.. لقد وصل عنكبوت البحث إلى الطرف الآخر، وأمامه عنوانه!

-٤٥-

أفكار كثيرة تناوبت على عقل وسام، منذ نقله إلى السجن الخاص التابع للمكتب التاسع. قال له نيروز: الآن سنرى.

ذكريات من طفولته، مختلطة بمشاهد من مختلف فترات حياته، وجلسات الاستجواب العديدة التي خاضها مع عدد من المحققين، وهو في هذه الحالة العجيبة من التشويش العقلي، كأنه في غيبوبة عجيبة، كأنه بين اليقظة والنوم.. يصل إلى حافة الموت، ويعود ثانية، قبل السقوط فيها. يرى والدته تتحرك في المنزل بهمة ونشاط، لتقوم بأعمال التنظيف قبل عودة والده من العمل، ليجد كل شيء مرتب ومنظم، وتجد هي الوقت الكافي للشكوى حول قيامها بكل أعمال المنزل وهو يتسكع في الخارج، ولا يشعر بها ولا بمعاناتها من أجل المنزل. يعود والده فيجدها جالسة على المنضدة تجهز الغداء، يلقي التحية في حذر، ويحاول التسلل إلى الدخل، ولكن صوتها يدوي كهزيم الرعد: هل أحضرت (كذا) كما طلبت؟

وسواء أحضره، أم لم يحضره، تهز كتفيها قائلة:

- أنا هنا أقوم بكل شيء، ولا أحد يهتم بي.

يتجه والده نحوها، ولكنه يتوقف في منتصف المسافة، ويتجه نحوه قائلا: ماذا فعلت؟

فيقول مسرعا: لم أفعل شيئا!

فيقول والده: أخبرني كل شيء عن البرنامج الذي استخدمته للهجوم على المستمعين؟

- لقد أخبرتكم بكل شيء من قبل، لقد قمت بعمل البرنامج بمفردي، وقد قام البرنامج بحذف نفسه تلقائيا بعد الهجوم.

تعدو "منة"-طفلته الصغيرة- نحوه، فيحملها، ويقبلها قائلا:

- من هي أميرتي الصغيرة؟

- أعطني النقود التي وعدتني بها.

فيقبلها ثانية قائلا: نعم، إنه أنت.

يسمع والدته تصرخ : لا أتركوني أرجوكم النجدة.....

يري نفسه يواجه أيمن قائلا: أنا لست خائفا منك، هذا صحيح، أنا لست خائفا من المرعب داغر الأسود، ومستعد لأي شيء.

يسمع أصواتًا مختلفة تصيح به: أيها القرد.

- أيها القرد الأحمق

- أيها الغبي

يسمع نفسه: أعرف أنك تجده صعب التصديق أن وسام بندر وسام، القرد كما تحبون أن تدعونه، أذكى منكم جميعا، وأذكى من خبراء المكتب التاسع الذين تحضرونهم دائما لفحص نظام المستمعين، فيخبرونك أن النظام مؤمَّن تماما، ولا يوجد به أية ثغرات. في المرة القادمة، أخبرهم أن القرد قد فعلها.

يسمع الصوت: من هم شركاؤك؟

- لا أحد؛ لقد فعلتها بمفردي.

- نعرف أن لديك شركاء، وستخبرنا من هم.

- تخيل أنك تعيش في منزل قديم، جدرانه مشققة، تشعر أنه سينهار فوقك في أقرب لحظة.. تعيش مع عائلتك الجائعة المريضة، تتجرعون آلام الفقر، والحرمان، تقول: أحتاج لمائة لتستقيم حياتنا، ونصبح بخير، فأقول: تحتاج لمائة، سأمنحك ألفا، وسأجعل حياتك أفضل..

سأرسل العمال غدا، سيقومون بطلاء المنزل بطلاء فاخر من أغلى الأنواع؛ ربما تتجاوز التكلفة الألف، ولكن لا يهم؛ فنحن هنا من أجلكم، وهدفنا إسعادكم.

تقول منة: أريد أن أذهب إلى عيد ميلاد صديقتي نيرمين

- ماذا قالت والدتك؟

- رفضت.

- إذا لا يمكنك الذهاب.

- أوقفوا هذا الهمس أرجوكم.. هناك من يهمس داخل عقلي طوال الوقت.. اخرج من عقلي، اخرج من عقلي أرجوك. يرى نفسه يعدو في الشوارع خلف شخص آخريجذبه من ذراعه، فيرى الموت في كل مكان.. يرى عشرات الجثث يتراكم الذباب حولها، المقتول بالرصاص، وبالسكين، وبالعصي، وبالحجارة، وبالأنياب والمخالب.. جثث سليمة، وجثث ممزقة، رجال، نساء، وأطفال، لا فرق، الجميع موتي.

- من الذي فعل هذا؟

- لا إجابة.

- سيتلقى عقابا شديدا على ما فعله، أليس كذلك؟

- لا إجابة.

يواصل الركض.. تنفجر قذيفة خلفه؛ فتلقي به على الأرض مع الرجل الآخر، الذي ينهض سريعا رغم جراحه، يجذبه ليواصل العدو، مارا بعدد من الجثث الطازجة التي أضافها الانفجار، وعدد من الأطراف المبعثرة بمفردها.

- أريد مقابلة أحد الخبراء الذين اعدوا النظام.

- لا يمكنك. لا أحد يري الخبراء.

يرى امرأة عارية تركض في الشوارع، وثلاثة رجال يركضون خلفها.. تصرخ وتستغيث دون مجيب. تقابل رجلا، فتمسك بثيابه، وتتوسل بكلمات مبعثرة، ولكنه يدفعها بعيدا، ويركض صارخا.

- من هم شركاؤك؟

- لا... أحد... أحمد.....

- سأفعلها، سأقوم باختراق النظام، سأخترق نظام المستمعين، سأجعلهم يتذكرون.

يرى والده يتشاجر مع بعض المسلحين، عند أحد الحواجز المتناثرة.. قتال يعرف أنه لن ينجو منه، ليمنحه ووالدته فرصة الفرار. الفرار إلى أين؟!

- من هم شركاؤك؟

- لقد حصلت على القليل من المساعدة، ولكني قمت بمعظم العمل بمفردي.

- أنا لست خائفًا من داغر الأسود، هات ما لديك.

- حسنا.

يقولها أيمن، ثم يهوي بطرقة ضخمة على رأسه، فتتفجر منها الدماء، وتسيل على ورقة أمامه، تتشكل، وتكتب:

- نادر، مجموعة دكتور أحمد، ولكني لم أقابلهم، ولا أعرفهم.

ينظر إليه نيروز؛ فيرى النيران تخرج من عينيه، وفمه، يقول:

- لن ترى الشمس ثانية.

يتطلع إلى الشاشة أمامه، ويصيح فرحا:

- لقد نجحت تجربة المحاكاة، يمكن جعل المستمعين يتذكرون.

يصيح بكل قوته: لا يمكنني أن أرى جريمة أخرى تمر دون عقاب.

تقول زوجته: لماذا لا يمكنك القيام بأي شيء بطريقة صحيحة؟ لماذا تفسد كل شيء، كأنك مصنوع من الخطأ؟!

ينظر إليها دون إجابة، ويعدو مع والدته خارجين من المبني المشتعل. تواصل والدته العدو خلف سيارة النهابين الذين سرقوا كل ما في المبنى، وأشعلوا فيه النيران.. تعدو خلفهم، ولا يعرف لماذا تصرخ، وتتوسل، فيتوقفوا، فتهرع نحوهم قائلة: خذونا معكم، أرجوكم.

تظل تتوسل وتنحني على قدم قائدهم لتقبلها، فيقول لها: يمكننا أن نأخذك أنت وابنك بعيدا عن هذا الجحيم، ولكن يجب أن تدفعي الثمن.

فتسأل والدته: ماذا تريد؟

فيتطلع الرجل إليها للحظات، ويقول: أنت.

تراجعت والدته للخلف مع المفاجأة، فاستدار الرجل؛ ليعود لسيارته قائلا: كما تريدين. أنا واثق أنك ستكونين أسعد حظا في الخارج.

يقول المحقق: لماذا فعلت هذا؟ لماذا هاجمت المستمعين؟

- أنا لم أهاجم المستمعين، لقد سعيت لاستعادة الأدلة المفقودة عن عشرات الجرائم التي مرت دون عقاب، ويتباهى أصحابها بها.
- أنت خائن؟
- أنا لست خائن، لست خائن؛ بل يجب أن تكرموني لما فعلت. الأشباح الهامسة تحيط بي طوال الوقت، لا يمكنني إبعادهم، أو الهروب منهم.

يشير سمير فهمي إلى الأشياء المتكدسة داخل مخزنه الكبير.. محتويات عشرات المنازل التي نهبها، بعضها بعد أن تركها أصحابها وهربوا، أو في وجود أصحابها الذين لا يجدون غير التسليم بما يحدث، أو يتعامل رجال سمير معهم. يقول سمير: انظر إلى كل هذه الأشياء التي حصلنا عليها، هناك المزيد في الخارج، ينتظرنا لنحصل عليه.

يقول مراد عثمان: أنا لست شريرا يا صديقي، بل أنا الشر ذاته، ولا يمكنك فعل أي شيء تجاهي، فأنت ستنسى كل شيء،......

كم مرة ستسقط نائما، وأنت تشاهد هذا التسجيل الغبي؟

تصيب رصاصة الأرض خلفهم، فتصيح والدته بسمير: سنأتي معكم.

يشير لها بالصعود، فترفعه، ليلتقطه أحد رجال سمير، ويعاونها على الصعود للسيارة. تجلس بجوار سيدتين بائستين مثلها، وثلاثة أطفال يفترشون أرض السيارة، وفتاة لم تتجاوز العشرين من عمرها تبكي بشدة، وجسدها مغطى بالجروح، والكدمات. تضم والدته ساقيها إلى صدرها، وتحيطهما بذراعيها، وتدفن وجهها بينهما.. يسمع بكاءها وسط ضحكات رجال سمير، إشاراتهم نحو النسوة، يتبادلون الدعابات البذيئة، ويتساءلون عمن سيختارها سمير أولا، ومن سيتركها لهم.

يقول سمير: عندما ترى شخصا قادم بسلاحه نحوك، ماذا تفعل؟

- أهرب؟

يصفعه سمير، فيقول: أحاربه.

فيصفعه ثانية قائلا: لا يجب أن تنتظر الهجوم، بل يجب أن تهاجمهم أولا دائما، هل تفهمني؟

تقول منة: لماذا تغادر دائما؟ لماذا لا تصيح بها كما تفعل بك؟ بل لماذا لا تضربها كما يفعل والد صديقتي نيرمين بأمها؟

فيتطلع إليها بعينين كسيرتين قائلا: لا أستطيع

- أين البرنامج الذي استخدمته في الهجوم؟

- لقد أخبرتك: كانت نسخة واحدة، وحذفت نفسها بعد انتهاء الهجوم.

تصفعه والدته... يصفعه أحد المسلحين.... يصفعه سمير.... يصفعه أحد رجال سمير..... يصفعه طفل آخر... يصفعه آخر، وآخر، وآخر.....

تصفعه زوجته.... يضع يده على وجهه صارخا: كفى.

فيتلقى المزيد من الصفعات.

العقل البشري أعجوبة عظيمة، لا أحد يستطيع السيطرة عليه، أو التحكم به، لا أحد يدرك قدراته الحقيقة.

- أيها القرد الأحمق.

- لن ترى الشمس ثانية.

- لانا، أنا أحب لانا.

- لقد فحصنا الجزء الذي تمكنَّا استعادته من برنامجك، إنه لا يفعل شيئا، لا يمكنه جعل المستمعين يتذكرون، لا يمكن جعل المستمعين يتذكرون، لقد أضعت حياتك من أجل لا شيء.

- لماذا لا نخطف النساء مثلما يفعل الباقون؟ لماذا تطلب منهم الحضور، فيوافق البعض، ونخسر البعض؟

فيتطلع سمير إلى رجله قائلا: يمكننا أن نحضر مائة امرأة إلى هنا كل يوم، ولكنك تفقد أكبر جزء من المتعة؛ متعة أن تأتي المرأة معك وهي تكرهك.. أن تكون معك، تفعل كل ما تأمرها به، وهي تتمنى أن تلتهم عنقك، ولكنها لا تستطيع؛ لأنها تعرف أنك حاميها، ولولاك لكانت ملقاة في الطرقات تنهشها الكلاب. يمكنك أن ترى الحب، والمقت، والامتنان في عينيها، في نفس اللحظة. ليس عليك أن تحمل سلاحا؛ كل ما عليك فعله هو أن تلقي عبارة واحدة: المكان أصبح مزدحمًا، وسنضطر لإخراج البعض في الصباح. ستجد النساء يركعن أمامك، ويغسلن قدميك بدموعهن؛ لتأمرهن بأي شيء.

يحمل كل ما يمكنه من المنزل، ويضعه في مؤخرة الشاحنة، وسمير يصيح بهم: هيا... هيا...

تقولها ابنته، وتجذبه من ذراعه نحو أحد المحلات التجارية الشهيرة، فيدخل معها، لتشير إلى إحدى الألعاب الضخمة قائلة: أريد هذه.

يطلبها من البائع، ويناولها لها؛ فتقول: أحبك كثيرا يا أبي.

- وأنا أيضا يا جميلتي.

- أتمنى أن تذهب أمي بعيدا.

- وأنا أي....

- لانا، أين أنت يا عزيزتي؟

يحتضن سمير قائلا: لقد أنقذتني، شكرا لك، شكرا لك على كل شيء.

يسمع صوتا خافتا: سنخرجك من هنا.

يشعر بمن يسانده؛ لينهض؛ فيصيح: أرجوكم لا تأخذوني إليه، لا تأخذوني إلى سمير؛ فهو يعرف أنني من أشعل النار في مخزنه الكبير.

- لن يؤذيك أحد، سنخرجك من هنا.

يسمع حوارًا قصيرًا لا يفهم منه شيئا، يواصلون السير، يخرج من المبنى فيصيح: لقد رأيت الشمس ثانية!

يشعر بمن يدفعه داخل سيارة متوقفة، تنطلق بهم بسرعة، وأحدهم يقول: لقد جن تماما.

فيصيح: أنا لست مجنونا، أنت المجنونة يا أمي، أنت المجنونة يا زوجتي، أنت المجنون يا.....

يضع أحدهم يده على فمه ليسكته قائلا:

- حسنا، حسنا، أنت لست مجنونا، اهدأ.

يغرق في أفكاره ثانية، يسمع صوتا يعرفه جيدا، ولكنه لا يتذكره:

- مرحبا بعودتك يا وسام.

***

جلس نيروز على مقعد، خلف مكتبه الضخم في غرفة القيادة. شعر بالطاقة تسري في جسده، وتفيض للخارج فتغمر أثاث المكتب الذي تقافز عاليا في حماس. تراجع في مقعده هامسا: لقد فعلتها.

أخرج صورة صغيرة للمدير السابق للمكتب التاسع، تطلع إليها للحظات، وقال: لقد فعلتها؛ حصلت على كل شيء بضربة واحدة.

لم يكن الرجل مجرد مدير فحسب بالنسبة لنيروز؛ بل كان والده الذي لم يره قط. قربه منه، وعلمه كل شيء يعرفه، كان موجود من أجله دائما داخل العمل، وخارجه. أحبه نيروز كما لم يحب أحدا من قبل، وأقسم ألا يخذله أبدا، فكان أفضل مما يتمناه المدير، وظل يتقدم حتى أصبح نائبه الأول. يذكر يومها أن المدير قد أخذه للاحتفال في الخارج، وقال له: أنت تستحقها يا نيروز.

- شكرا لك، لم أكن لأفعلها بدونك؛ فأنت علمتني كل شيء.

- أنت أذكى رجل عرفته يا نيروز، وقد تعلمت منك الكثير.

- لولاك بعد فضل الله -سبحانه وتعالى- ما كنت لأكون هنا، لذلك أقولها لك من كل قلبي: شكرا لك على كل شيء.

- قريبا تصبح المدير.

سعل نيروز مع المفاجأة، فأكمل المدير: قريبا جدا، يمكنني الشعور بهذا.

تحققت كلمة المدير، كأنه يقرأ من اللوح المحفوظ. فبعد اللقاء بفترة قصيرة، تغيرت أحوال المدير، وأصبح أكثر عصبية، وقال لنيروز ذات يوم:

- يريدونني أن أترك المكان.

- من؟

تتطلع إليه المدير للحظات، وأشار له أن يغادر؛ فتردد نيروز للحظات، وسأل ثانية: من؟

- المستمعون.

- لماذا؟

- بعض الأسرار لا يمكنها أن تظل مدفونة للأبد.

- ماذا تعني؟

استدار المدير بمقعده في إشارة واضحة؛ فغادر نيروز والأسئلة تعصف برأسه. ظل حائرا، حتى دخل ذات يوم، ليجد المدير ملقى على مكتبه والدماء تتفجر من ثقب في رأسه، صنعه المسدس الموجود في يده اليمنى. صرخ نيروز، وشعر بروحه تغادره، لتلحق بروح المدير التي مازال يشعر بها في المكان.

رأي نيروز ورقة صغيرة أمامه، مكتوب عليها: المستمعين، وكلمتين أخرتين، لم يستطع قراءتهما، بسبب الدماء التي غطت الورقة، ولكنه خمن أن إحداهما هي أيمن، أما الأخرى فلم يفهمها. وضع الورقة في جيبه بسرعة، وسقط على مقعد مجاور للمدير.

يوم تلى القسم؛ لتوليه إدارة المكتب التاسع أقسم نيروز بشي آخر، بالإضافة إلى حماية الوطن، والدفاع عنه. أقسم أن ينتقم لمعلمه من المستمعين وأيمن، مهما كلفه الأمر. أقسم أن يجعلهم يعانون، كما فعلوا بوالده، وأكثر. بحث كثيرا، ولكن مركز المستمعين مثل الثقب الأسود، لا أحد يعرف عنه إلا القليل، ولا يشترك معهم في شبكة المعلومات الرئيسية، بل لديهم شبكتهم الخاصة المنفصلة عن الباقين، ولا يتبعون إدارتهم، بل لديهم إدارة مختلفة غامضة مثلهم، لا أحد يعرف عنها أي شيء، وكل من يقترب منهم يختفي بلا أثر. تعامله الوحيد معهم هو إرسال بعض الخبراء إلى هناك للقيام بعملية فحص للنظام في مناسبات مختلفة. كان يذهب معهم، ويتحين كل فرصة ممكنة للهجوم على أيمن والشجار معه، لا يهمه ما يقول الباقون؛ فالهجوم على أيمن يمنحه بعض الرضا.

جاء الهجوم على مركزهم، فتغير كل شيء. لم يشعر نيروز بالسعادة للهجوم كما توقع أن يشعر، بل بالغضب الشديد؛ فأي هجوم على المؤسسات الوطنية هو كارثة حقيقية، يجب علاجها فورا. ولكنه لا ينكر السعادة التي شعر بها وهو يهاجم أيمن، دون أن يتمكن الأخير من الدفاع عن نفسه، ويعلن للجميع: أيمن هو السبب في كل ما حدث.

ضربة ساحقة لداغر الأسود الذي يخافه الجميع، لن يتمكن من تجاوزها أبدا. لقد سقط، وكل ما عليه أن ينهيه، أن يمنحه رصاصة الرحمة. لا ينكر أن ظهور المدير الغامض أربك حساباته بعض الشيء، ولكنه استوعبه بسرعة. سيتعامل معه لاحقا، بعد أن ينهي أيمن، ويعرف ما الذي فعله المستمعون بالمدير ليدفعوه للانتحار بهذه الطريقة.

دعاه المدير الغامض قبل الفحص الأخير، وسأله عن الفحص، فأخبره نيروز أنه سيتم فحص النظام بواسطة فريق من الخبراء، يفحصون كل شيء. قال المدير: جيد.. كل ما تقوله جيد، ولكنني أريد فحصا آخر، فحصا غير تقليدي، يؤكد لي أننا قادرون على مواجهة الهجمة القادمة، مهما كانت قوتها، وصمت المدير لحظة، وقال: بل تقوم أنت بالهجمة القادمة للتأكد من قدرة النظام، أريد هجمة لم نر مثلها من قبل.

غادر نيروز الغرفة غير مصدق ما حدث، لقد منحه المدير الوسيلة المثلى للتخلص من أيمن. إن هجمتين متتاليتين على المركز في فترة بسيطة سيكون كافيا للإطاحة به. يجب عليه التخطيط لهجوم كاسح يحطم دفاعاتهم، الأمر ليس سهلا، فهو لا يتعامل مع بلهاء. لكن الدافع يغري بنصر ضخم، فساعتها ستفتح له أبواب المستمعين على اتساعها، وتخبره بكل أسرارها.

لم يحتج نيروز أن يخطط للهجوم؛ فقد جاءته المساعدة على هيئة زيارة ممن يطلب التحدث معه لأمر عاجل.. قابله نيروز، فقال أحمد: أريد أن أعقد معك صفقة، لدي معلومات هامة لك، ولكنني أريد عفوا شاملا لي، ولعدد من الأسماء التي سأمنحها لك، في مقابل هذه المعلومات.

تطلع إليه للحظات، وقال: يجب أن نشرب شيئا أولا، ماذا تريد؟

- أعتقد أنك تعرف ماذا أريد.

نظر له نيروز مستفهما؛ فقال أحمد: عصير الليمون، ظننت أنكم تستمعون.

فقال نيروز: أنت تتحدث عن المستمعين، أما هنا فنحن نفضل أن تخبرنا بكل شيء.

تكلم نيروز عبر جهاز الاتصال الداخلي، فانفتح الباب ودخل رجل يحمل كوبي العصير، ووضعهما أمامهما وغادر، فقال أحمد: هل لدينا اتفاق أم لا؟

تطلع إليه نيروز للحظات، وقال: أنت شخص ذكي يا دكتور أحمد، ولم تأت لهنا، إلا وأنت تعرف أن ما لديك في غاية الأهمية.

- بالطبع هو كذلك، والآن هل لدينا اتفاق أم لا؟

- أنا أثق بك يا دكتور.. أعطني قائمة الأسماء، وسيكون كل شيء جاهز قبل انتهاء جلستنا.

تردد أحمد للحظات، فقال نيروز: أعرف أنك لم تتوقع أن يسير الأمر بهذه السهولة، ولكنك تتحدث مع مدير المكتب التاسع، وهذه هي طريقة عملنا؛ فلا تقلق.

ناوله أحمد قائمة الأسماء، فتطلع إليها نيروز للحظات قليلة، ودخل شخص، ناولها له، والتفت نحو أحمد الذي قال: هناك هجوم قادم على مركز المستمعين.

قال نيروز: لا أريدك أن تخبرني عن الهجوم القادم، أريدك أن تخبرني بكل شيء من البداية، وبكل التفاصيل مهما بدت لك صغيرة، هل تفهمني؟

- حسنا.

حكى له أحمد كل شيء من البداية.. سعيه خلف مركز المستمعين، تعرضه لمحاولة الاغتيال، جمعه لفريق المخترقين، وفشلهم في فعل أي شيء، اتصال وسام بهم عبر نادر، ولقاءه به، إعدادهم البرنامج مع وسام دون أن يروا الصورة الكاملة، فشل الهجوم، والقبض على وسام، هروبهم بعد الحادث الذي تعرض له نادر، محاولة اغتيال بيلسان، ظهور ساري لينقذها.

ولكن بيلسان اكتشفت شيئا آخر في ملفات نادر القديمة، بعد أن قامت باختراقها. لم تكن هناك أية إشارة إلى مجموعة طوارئ في رسائله مع وسام، حتى المحذوفة منها، والتي قامت بإعادتها ثانية. كما عثرت على ما يفيد تلقي نادر مبالغ مالية طائلة من جهة مجهولة، بذل نادر جهدا جبارا لإخفاء آثارها؛ وكذلك فعل الممول. ولكن حققت بيلسان قاعدة "لا يمكنك أن تخفي شيئا للأبد"، قامت بيلسان ببحث آخر حول ساري، فلم تجد أي شيء، فالرجل يخفي آثاره جيدا. ولكن برزت معلومة وحيدة، جعلتهم يشكون أنه ليس من يقول إنه هو. وبمزيد من البحث، عرفت من هو حقا.. كانت الإجابة مرعبة، إنه ديفيد، وهو هنا لتدمير كل شيء، بواسطة نبضة الكترونية، قام بتطويرها مع عدد كبير من الخبراء، وربما وسام قد شاركهم في إعدادها دون أن يعرف. ستساعده النبضة على اختراق النظام وسرقة بيانات المستمعين، وهو يريد القيام بالهجوم أثناء زيارة أحمد الخاصة للمركز.

قال أحمد: أعرف أنني قمت بالعمل نفسه مع وسام من قبل، ولكن الأمر كان مختلفا؛ فذلك كان -كما ذكرت سابقا- من أجل الصالح العام، لأعيد الوطن إلى الطريق الصحيح. لكنني لست خائنًا لأتعامل مع العدو، ولو توافقت أهدافنا في ظاهرها؛ فهي بالتأكيد مختلفة في جوهرها.

صمت أحمد؛ فأشار له نيروز ليكمل؛ فقال أحمد: لقد أخبرتك بكل شيء.

- متأكد؟

- متأكد،.... ربما أكون نسيت بعض التفاصيل الصغيرة، ولكنني واثق أنك تعرفها، وتملك الصورة الكاملة الآن.

تطلع إليه نيروز للحظات، وقال: أريدك أن تخبرني بكل شيء ثانية.

- ماذا؟ لقد أخبرتك للتو!!

- لقد وافقت على صفقتك، ولذلك ستفعل كل ما أريده.

التقط أحمد نفسا عميقا، ثم أعاد حكي كل شيء ثانية. انتهى، فدفع نيروز ببعض الأوراق وقلم أمامه قائلا: أريدك أن تكتب لي كل شيء.

زفر أحمد في ضيق، والتقط القلم، وكتب كل شيء، وسلمه لنيروز قائلا:

- أتمنى ألا تتطلب مني كتابته ثانية.

فقال نيروز: لا، هذه آخر مرة.

التقط الأوراق، ووضعها أمامه دون أن ينظر فيها قائلا: أعرف أنك مازلت تخفي بعض الأشياء، ولكنني لا أعتقد أنها تتعلق بالهجوم القادم، أو بما سنفعله بشأنه.

- نفعله؟!!

- بالطبع يا دكتور أحمد. سيكون لك دور هام في العملية القادمة، دور لن ننساه لك.

أخبره أنه لا علاقة لهم، ولا للمستمعين علاقة بعمليات الاغتيال التي دبرت له، أو لبيلسان، أو لنادر. استغرب ألَّا يستنتج أحمد أنها من ترتيب ديفيد، ليدفع القتال نحو مستويات أسوأ، فهذا أسلوبهم دائما، بالإضافة إلى أنه يعطيه الفرصة للوصول إلى فريقه. وأخيرًا، طلب منه أن ينصرف بصحبة نفس الرجال الذين ساعدوه على الهرب من مراقبة ساري، الذي يظنه في المنزل مع بيلسان، وسيخبره بما سيفعله في وقته.

يعرف نيروز أن ديفيد قد أنشا واحدة من أقوي الشبكات، التي تقوم بالكثير من الأعمال الخاصة لبعض الدول والمنظمات الخاصة؛ ولكن هدفه الأساسي هو إعادة الحرب القديمة، الحرب العظيمة كما كانوا يسمونها.

لديهم الكثير من المعلومات عن الشبكة، ولكن لا أحد يعرف كل شيء عنها، عن تنظيمها، وانتشارها، وقدرتها الحقيقية، وعدد المتعاونين معها داخل الوطن، ومدى تغلغلها في الأمر، والآن أمامه فرصة ذهبية، ويجب أن يحسن استخدامها؛ فالقضاء على هذه الشبكة معناه القضاء على واحد من أقوي التهديدات التي تواجههم. ابتسم لنوع من التحدي الذي يغرم به.. فالأمر كذلك اختبار من نوع مختلف تماما لنظام المستمعين، وقد أعده أقوى عدو.

بدأ رجاله العمل محاطين بأعلى درجات السرِّية؛ حيث قاموا بإعادة إرسال النبضة لأحمد، بعد إضافة معلومات احتجاز وسام من النظام، بحيث سيظن ديفيد أن وسام أضافه كوسيلة لتأمينه. قام بتجهيز برنامج؛ لإيقاف عمل النبضة، ليقوم وائل بتفعيله، بعد دخوله للمركز كأحد أفراد فريق الفحص، في حالة قدرة النبضة فعلا على اختراق النظام، فكهذا يتم اختبار النظام، ولكن دون المغامرة بتسريب أية معلومات للخارج. تم كل شيء كما أراد، ومرت لحظات القلق عصيبة، إلى أن أثبت الاختبار أن النبضة لم تكن قادرة على اختراق النظام، فقد قاموا بتطويره بالفعل، وأصبح القوي أقوى للغاية.. يمكنه الآن التفرغ لديفيد.

ما لم يعرفه ديفيد، أن الملف المشفر الذي حصل عليه لم يكن يحوي مكان وسام فحسب؛ بل كان يحتوي على فيرس شديد التعقيد، ما إن قام رجال ديفيد بفك تشفيره، حتى انطلق في نظامهم، ينسخ كل بياناتهم، ويرسلها للمكتب التاسع. عرف نيروز أن منح ديفيد هدفا كبيرا مثل وسام، يمكِّنه من الحصول على الكثير، فسيجعله الإغراء يفقد حذره، ولذلك لم يلقِ القبض عليه، بل جعله يأتي إليه، ليلقنه الصفعة الأخيرة في قمة مجده. همس لنفسه:اختيار جيد يا دكتور أحمد،وإلا كنت ستسكن الزنزانة المجاورة، سمع طرقات على الباب، ودخل مساعده قائلا:

- لقد هرب وسام بندر.

***

- هناك حرب رهيبة مشتعلة في الخارج.

- لا تخف.

- أنا خائف من الحرب.

- لا تخف؛ فنحن هنا خارج الدنيا، ولن تصل الحرب إلينا.

أثبتت الأيام صحة كلام والده؛ فقد اشتعلت الحرب وأكلت كل شيء كما يحكي البعض؛ ولكنها لم تصل أبدا إلى قرية (أولاد بهنس)، الواقعة خارج الدنيا؛ كما يقول سكانها. فلكي يخرجوا من القرية، يكون عليهم السير على الطريق الترابي لقرابة الساعة، حتى يصلوا إلى القرية المجاورة، ومن هناك يمكنك -إذا كنت محظوظا- التعلق بسيارة نقل حتى القرية التالية، ومن هناك يمكنك ركوب سيارة نقل أخرى، حتى القرية التالية، حيث يمكنك ركوب أحد الأتوبيسات القديمة إلى المدينة؛ وإن كانت لا تصل للمدينة، بل تتوقف قبلها بمسافة، لأن أصحابها لا يملكون الأوراق اللازمة. رحلة طويلة ومرهقة جدا، لذلك يحرص أبناء القرية على عدم الخروج إلا في أضيق الحدود، ولأداء الأعمال الهامة للغاية. أما أمور المعيشة، فيكتفون بما لديهم، يتبادلونه بينهم بالمقايضة.

تابع خالد أخبار الحرب، وتخيل ماذا سيفعلون إذا وصلت الحرب إليهم؛ فليس لديهم أية أسلحة هنا إلا العصي والفؤوس؛ وهي لا تصلح للقتال. سيفاجأ الجميع بعدد من السيارات المحملة بالمقاتلين، تتوقف في ساحة القرية الواسعة أمام المسجد الكبير، ثم يأمر قائدهم بجمع كل أهل القرية أمامه -وهي عملية سهلة لقلة السكان- ثم يأمر بجمع كل محتويات المنازل، ويقف متطلعا إليها مع رجاله، ثم يقول:

- هل هذا كل ما لديكم؟! لا عجب أنكم تعيشون مثل الحيوانات.

يأمر بربطهم جميعا في ساحة القرية فوق أشيائهم، ثم يشعل بهم النار، وهو يهلل مع رجاله.

صفعه والده عندما أخبره بهذا، وأمره ألا يتحدث هكذا ثانية. والده في الخمسين من عمره، لم يرزق به إلا بعد صبر طويل، وماتت والدته وهي تلده، فأصبحا وحيدين معا، مثل صديقين يفرق بينهما عمر كامل.

انتهت الحرب، فقرر والده الخروج من القرية، وقال: سأمنحك الحياة التي تريدها يا ولدي.. لقد سمعت أن هناك الكثير من العمل في العاصمة بعد الحرب.

لم ينم خالد تلك الليلة. ظل طوال الليل يتخيل حياته في المدينة الكبيرة، التي طالما سمع عنها. هل ستكون مثل تخيلاته؟ بالطبع ستكون أفضل بكثير. كانت رحلة من التعب والشقاء، استغرقت يومين كاملين حتى وصلا إلى العاصمة. هبط خالد من السيارة، يستنشق هواء العاصمة سعيدا مسرورا، وسار خلف والده يتأمل المكان حوله غير مصدق.. لقد فعلها ووصل للعاصمة! بدأ والده يعبر الطريق، لمجرد أنه أراد أن يعبر الطريق؛ كما تعود طيلة نصف قرنٍ هو عمره، فجاءت سيارة مسرعة وصدمته، فطار جسده عدة أمتار، وسقط أرضا مضرجا في دمائه وقد فارقته الحياة. كانت المفارقة مذهلة لخالد.. فمع قرار تمناه كثيرًا بالدخول للدنيا، تقتل العاصمة أباه، بعد خمسين عامًا من الأمان خارج الدنيا وما فيها!

عاش خالد في الشوارع فترة بعد وفاة والده، حتى التقطه صاحب مطعم ليعمل معه. لكن الرجل كان يضربه كثيرا، ولا يعطيه أجرا.. يخبره أنه يعمل مقابل طعامه وإقامته. قابل منصور، الذي يعمل في أحد مقاهي الإنترنت، الذي قدم إليه عالمًا جديدًا سحره وأحاط به؛ فلم يستطع منه فكاكا، وصار يتغيب عن المطعم، فأكثر الرجل من ضربه، ولكنه لم يهتم، فطرده الرجل في النهاية، وأخبره أنه ولد جاحد لا يستحق النعمة!

ذهب لمنصور لاجئا، فأخبره أنه لا يستطيع مساعدته؛ فهو لا يملك أي

شيء، فطلب منه أن يجعله يعمل معه، فبدأ في العمل بعين لا تكتفي بخدمة رواد المكان، بل تلتقط كل ما يمر بها. مع الوقت، بدأ خالد بعمل صيانة للأجهزة وضبط برامجها، ثم بدأ يتجرأ ويفتح أجزاء الأجهزة القديمة ويستكشفها، إلى أن أصلح جهازين كان صاحب العمل قد أخرجهما بعيدا، فجاء الرجل وسأل: من فعل هذا؟

أخبره منصور أنه خالد؛ فقرر الرجل طرد منصور، وإحلال خالد مكانه. العجيب، أن خالد سعد كثيرا بالعمل الجديد، ولم يفكر في منصور كثيرًا! صار يقوم بصيانة الأجهزة وتطويرها بنفسه، وشيئًا فشيئا بدأ يبتكر تطويرًا خاصًا به، بديلًا عما يجده على الإنترنت من تحديثات. فلم يمر الأمر على صاحب المكان، وبدأ يستميله، وأوجد له غرفة يقيم بها، بدلا من المقهى.

أكثر ما جذب خالد هو عالم المخترقين، فصار يغوص فيه مستخرجا لآلئه، وجواهره، ولكنه تعامل معه من خلال هاجس قديم محفور في ذاته؛ هاجس البقاء خارج الدنيا، فكان أكثر ما حرص عليه هو إخفاء موقعه، وهويته؛ فلا يستطيع أحد الوصول إليه.

أطلق على نفسه اسم السهم، وانضم إلى مجموعة من المخترقين تضم آخرين، مثل العقل، وسيف، وريان، والأسد الذهبي، وآخرين لم يعد يذكرهم.. لم يلتقوا أبدا، ولم يعرفوا بعضهم البعض؛ فكل اتصالاتهم تتم عبر قنوات الاتصال المؤمنة، ولكن خالد شعر أن العقل قريب جدا منه؛ فقد ساعده كثيرا، وعلمه كثيرا. كم تمنى خالد أن يقابله؛ ولكنه كان يعرف الإجابة؛ فهي مكتوبة بحروف كبيرة على واجهة قناة الاتصال:(لا).. لا نتقابل، لا نتحدث، لا نعرف، دائما لا.

كثيرا ما تخيل لقاءهم جميعا في منزله، يعد لهم الغداء؛ فيتناولونه معا، ثم يجلسون في الشرفة يحتسون الشاي، ويتحدثون عن حياتهم. ولكن العقل اختفى فجأة دون سابق إنذار، أو وداع بكلمة واحدة؛ فقط تلاشي، كأنه لم يوجد من قبل، فانفرط عقد المجموعة من بعده، فلم يعد يتصل بهم إلا قليلا، وبأسماء محدودة.

عاد العقل فجأة، كما اختفى فجأة، وبعد سنوات طويلة. فوجئ برسالة منه، يخبره أنه قد عاد، ويريد الاتصال بالمجموعة القديمة لأمر هام. لم يصدق خالد نفسه، فقام بالاتصال لجمع من يستطيع، ليعرف ماذا يريد العقل، ولماذا عاد. ولكن العقل عاد غامضا، يريد مساعدتهم في أمر ما دون أن يخبرهم أية تفاصيل عنه.. العقل يريد مساعدتهم فحسب، وسيفعلها خالد رغم ذلك، فهو يدين للعقل بالكثير.

أخبرهم العقل أنه سيقوم باختراق المستمعين، فلم يصدق خالد نفسه. العقل لديه من الجنون ما يجعله يخوض هذا القتال المستحيل، بل ويبدو الأمر يبدو هاما جدا للعقل، لذا فهو سيفعلها من أجله، كما أنه من الممتع قهر المستحيل، ولو لم يتمكن من الحديث عما فعل؛ كما أخبره العقل.

تم الأمر كما خطط العقل؛ ليثبت للمرة التي لا يعرف كم هي، أنه الأفضل، وليخرج ببرنامج المستمعين. ولكنه لم يتمكن من التعامل معه، ولم يتمكنوا هم أيضا من عمل أي شيء. شعر خالد أنه خذل العقل في شيء هام طلبه منه، ولكن لم يتمكن من تقديم أي مساعدة. فكر كثيرا، ودخل إلى البرنامج ثانية، فوجد الغرفة قد تم اختراقها، وتمت سرقة البرنامج بفعل ريان؛ فعاون سيف على الوصول إلى موقعه الحقيقي، فما فعله ريان كخيانة لكل قواعد المجموعة. وصلوا إلى موقعه، ولم يستجب العقل لأي من رسائلهم التي أرسلوها له، فأخذ سيف الموقع، وأخبره أنه سيتصرف، ثم لم يعرف خالد ما حدث بعد ذلك، حتى تلقى رسالة من العقل يخبره فيها أنه يحتاج إليه، فهو هارب والجميع خلفه، ويحتاج إلى مكان. لم يكن هذا هو اللقاء الذي تخيله، ولكن العقل يقول إنه الوحيد الذي يستطيع أن يلجأ إليه؛ لأنه أفضل من يخفي نفسه، كأنه خارج الدنيا، وهذا هو ما يحتاجه الآن.

فكر خالد أن قيامه بهذا يعني أنه لن يظل خارج الدنيا، بل سيصبح مركز الدنيا الذي يسعى إليه الجميع. لكن العقل يائس للغاية، لقد استشعر دموعه في رسالته، فلا يمكنه أن يخذله، فللعقل عليه فضل سابق، فقد

أنقذه عدة مرات من قبل، تورط خلالها مع الحكومة، ومع أشخاص آخرين، لم يريدوا إلا رأسه. قرر في النهاية أنه سيفعلها من أجل العقل، ويتمنى ألا ينتهي الأمربه غارقا في دمائه مثل والده.

وقف خالد بسيارته، في الموقع الذي أخبره العقل به، فوجد رجلا قادما نحوه، قال: أنا العقل، شريف.

هبط خالد من السيارة، وصافحه بقوة قائلا: وأنا السهم، خالد.

- لا أعرف كيف أشكرك يا خالد على ما تفعله من أجلي. آسف جدا على وضعك في هذا الموقف، ولكن لم يكن أمامي حل آخر.

- لا عليك يا صديقي، كنت ستفعل المثل، وأكثرمن أجلي.

فتح خالد باب السيارة قائلا: هيا.

فقال شريف: لحظة.

ثم التفت وأشاربيده، فرأى خالد سيدة قادمة نحوهما، وقال شريف:

- أسيل، زوجتي.

أسرع خالد نحوها قائلا: زوجة العقل، مرحبا بك، سعيد جدا لمقابلتك.

أومأت أسيل برأسها في صمت، فقال خالد: كنت أتمنى أن نلتقي في ظروف أفضل.

احتل خالد المقعد خلف عجلة القيادة، وجلس شريف بجواره، وأسيل في المقعد الخلفي. كان لديه الكثير ليقوله للعقل، وزوجته؛ ولكنه رأى وجهيهما عبر المرآة، فوجد أن آخر ما يريدانه الآن هو الحديث. وصلوا لمنزل، فقادهم خالد للداخل، وأشار إلى مائدة عامرة بالطعام، وقال: تعالوا لنتناول بعض الطعام أولا.

تطلعت أسيل للطعام للحظات، وأشاحت بوجهها، فقال شريف: شكرا لك، ولكن ليس الآن.

- حسنا.

قالها خالد، وقادهما نحو غرفة أخرى قائلا:

- هذه لكما، تمكثان فيها كما تريدان.

دخلت أسيل إلى الغرفة، وقاد خالد شريف نحو غرفة أخرى مملوءة بالأجهزة، وتحتل الشاشات أغلب جدرانها قائلا:

- ستجد هنا كل ما تريد.

تركه واقفا في غرفة الأجهزة، واتجه نحو باب الشقة مكملا:

- سأكون في الطابق السفلي، ناديني إذا احتجت أي شيء.

استوقفه شريف قائلا:

- شكرا لك.

فابتسم خالد قائلا:

- لا عليك يا صديقي؛ أتمنى أن تحصل على ما تريد.

***

-٤٨-

تطلعت دجى إلى وسام المستلقي على الأريكة، ومحلول شفاف ينساب إلى أوردته ببطء، وقالت: لا أصدق أننا خاطرنا بحياتنا من أجل هذا الرجل.

قال بدر: لا أعرف ماذا فعلوا به؛ ولكن الرجل قد جن تماما.

قال أحمد: إنه فرصتنا الأخيرة.

قالت بيلسان: سيكون بخير.

تطلعت دجى إليه ثانية، وهزت رأسها بمعنى "لا أعتقد". قال بدر: يجب أن نتحرك سريعا، فنيروزلن يعجبه ما فعلته به.

جلس أحمد بجوار وسام، وتداعيات كثيرة تدور في عقله.. بعد لقائه بنيروز، منحه نيروز بثا مباشرا لكاميرات مراقبة وسام، ليريه لديفيد وكأن بيلسان هي التي حصلت عليه، ليؤكد له أنهم على الطريق الصحيح. يظهر شخص في البث يخبر وسام أنه سيتم نقله قريبا، ليعرف ديفيد أن الوقت ينفد منه، ويجب أن يتحرك سريعا. ولكن أحمد استغل البث بطريقة أخرى، فقد تمكنت بيلسان بمساعدة بدر ودجى من اختراق البث، ومعرفة المكان الحقيقي لوسام، فقاموا بتهريبه بنفس الخطة التي وضعوها مع ديفيد.

الحقيقة، أن بيلسان أرادت استغلال الفرصة والخروج بالعفو الشامل، ولكن أحمد أقنعها بالاستمرار. أما دجى، فقد تطلعت إليه قائلة: عفو شامل! من الذي يحتاج إليه؟!

وأكمل بدر: نحن نعيش لنقاتل.

نهض أحمد من مقعده، وعدل سريان المحلول المعلق لوسام قائلا: لقد أخبرني دكتور عمران أنه سيبدأ الاستجابة بعد المحلول الثالث.

تقلب وسام في نومته، كأنه يؤكد مقولته، ثم بدأ يتمتم بكلمات غريبة:

فقال بدر: لن أندهش لو استيقظ لنجد أنهم قد حذفوا ذاكرته بالكامل.

أكملت دجى: فنجد أنفسنا نتعامل مع طفل صغير.

رد أحمد في إصرار: وسام ليس بالرجل العادي، وأنا متأكد أن لديه الكثير ليخبرنا به.

قالت بيلسان: أتمنى ذلك.

مسحت بيدها على جبين وسام مكملة: هيا انهض؛ فالجميع يعتمد عليك.

ظلوا يدورون في المكان، ويتبادلون أحاديث قصيرة، ووسام يفيق شيئا فشيئا. أشار أحمد لبدر أن يساعده، فحملا وسام إلى الحمام، حيث حصل على حمام بارد، وألبساه ثيابا أخرى، وخرجا به، فاستقبلته بيلسان قائلة:

- كيف حالك يا وسام؟

تطلع وسام إليها مضيقا عينيه، كأنه لا يراها، وقال: ... أنا... أنا... بخير....

ساعده أحمد على الجلوس، ووقف أمامه قائلا: هل تعرف من أنا؟

تطلع إليه وسام، وبدت علامات التفكير العميق على وجهه، وقال:

- أنت لست سمير.

فأشارت دجى بيدها، وهمس بدر: لا أمل.

قال أحمد: نعم أنا لست سمير، فهل تعرف من أنا؟

عاد وسام يتأمله، وخبط جبهته بيده قائلا: بالطبع أعرفك أنت...

وصمت لحظة، أشرق خلالها وجه أحمد، ولكنه اسود ثانية عندما أكمل وسام: أنت... أنت... أنت...

جذبت بيلسان أحمد بعيدا، وجلست هي أمام وسام قائلة:

- المستمعون... هل تتذكر المستمعين؟

صمت وسام للحظات، وقال:المستمعون.. إنهم.. يستمعون.. لكل.. شيء...

ووضع يده على فمه مكملا: ششش... إنهم... يستمعون.... الآن....

ربتت بيلسان على كتفه قائلة: نعم، وأنت الوحيد الذي حاول إيقافهم، هل تذكر ما فعلت؟

وضع وسام يده على يدها قائلا: لا.. يمكن.. أن.. تهرب.. من.... العقاب....

قال بدر: لقد كنا نخشى أن يخرج لنا طفل صغيرا، فخرج لنا عجوز، لا يستطيع إكمال جملة واحدة.

قالت بيلسان: نعم؛ وماذا فعلت أنت ليعاقبوك؟

خفض وسام يده، وأغلق عينيه، وبدأت رأسه تنحني للأمام ببطء؛ فقال بدر: لقد نام.

أسرعت دجى نحوه، وساعدته على الوقوف قائلة: انظر إليَّ يا وسام، انظر إليَّ.. لا أعرف ماذا فعلوا بك، ولكنني أعرف شيئا واحدًا، أنت مقاتل مثلي، ولا يمكنهم كسر المقاتلين أمثالنا مهما فعلوا، لذلك أريدك أن تخبرني الآن بما سنفعله.

تجمد الموقف للحظات، وتسارع تنفس وسام، كأنه يبذل مجهودا عنيفا، ورفع يده مشيرا نحو أحمد، وقال: أحمد... أحمد...

وسقط على الأريكة فاقدا الوعي.

قالت بيلسان لأحمد: لقد تذكرك.

قال أحمد: يا لسعادتي!

فكرت دجى لحظات، وقالت: هل رأيت عينيه عندما نطق باسمك؟ لم يكن يتذكرك، بل كان يخبرنا بما نفعل؛ يخبرنا أن الحل لديك أنت.

قال أحمد: لا أعرف ماذا يقصد، فأنا لا أعرف شيئا.

قالت بيلسان: يجب أن تحاول، فوسام يقول إنك تعرف.

تطلع أحمد إلى وسام، وقال: وسام! وأين هو وسام؟

أسرع أحمد نحو إحدى الغرف، فدخلها وأغلق بابها خلفه، وألقى بجسده على الفراش. لقد أفسد كل شيء.. ربما كان يجب أن يخرج، كما أخبرته بيلسان.. ربما...

سمع طرقات على الباب، ثم صوت بيلسان: أحمد.

لم يجيب فعادت تطرق الباب، وتنادي ثانية: أحمد!

رد بصوت مخنوق: اذهبي الآن يا بيلسان، احتاج للبقاء وحيدا لبعض الوقت.

ذهبت بيلسان، وعادت الأفكار السوداء تحيط به وتضغط على صدره. شعر بتنفسه يضيق بشدة، على نحو ذكَّره بتلك الليلة، عندما حبس أنفاسه، ووقف يتطلع عبر فرجة الباب إلى والده الجالس يحتسي الخمر، ويشكو همومه إلى الأخرس الجالس بجواره. نهض الأخرس، وضربه بشفرة حادة، فذبحه بمنتهى السرعة، وقال: الضبع يرسل تحياته.

أمسك والده برقبته، في محاولة بائسة لكتم الدماء المتفجرة من عنقه، فركله الأخرس ليسقط بمقعده أرضا، وبصق عليه قائلا: أحمق.

لم يكن والده هو الأحمق الوحيد، فها هو يفسد كل شيء ثانية، في سعيه نحو المستمعين. لماذا لم يتعلم الدرس الذي كتبه الكثيرين قبله بدمائهم؟! لا أحد يهزم المستمعين، لا أحد. لماذا ظن أنه سيكون مختلفا؟ ربما لأن وسام نفسه أخبره بهذا في أول لقاء بينهما: لقد سمعت الكثيرين قبلك يتحدثون، ولكني أعتقد أنك الوحيد القادر على فعلها.

ساعات وعقله مرهق بالأفكار والذكريات، حتى غلبه النعاس، فوجد نفسه يدور في مكان غريب، وأبصر وسام جالسا، فأسرع نحوه، وجلس أمامه قائلا: ماذا أفعل؟

قال وسام: أنت تعرف ماذا ستفعل، لقد أخبرتك من قبل.

- لا أعرف؛ أخبرني ثانية؟

شعر بالمكان يدور حوله للحظات، وتغير المشهد حوله، وقال وسام:

- أنت أول شخص أخبره عن لانا. لا أعرف ماذا أقول عنها، فلا توجد كلمات لوصفها، أو لشعوري عندما أكون معها، فشعوري عندما أكون مع لانا مثل شعوري عندما أكون مع لانا.. نعم، لا يمكن مقارنته بأي شيء آخر؛ فلا شيء مثله. كنت اذهب إليها دائما عندما تتعقد الأمور، وأشعر أن كل شيء مغلق في وجهي، فتجد طريقة لإخراجي.

- ماذا حدث لها؟

صمت وسام للحظات، وقال: والآن، دعنا نراجع ما سنفعله.......

استيقظ أحمد صارخا: لانا.

أسرع للخارج، فوجدهم يحاولون ثانية مع وسام، الذي أفاق، دون فائدة، فقال: توقفوا.

جلس أمام وسام، وتطلع إلى عينيه مباشرة قائلا: لانا.. تذكر لانا؟.. بالطبع تذكرها، لا يمكنهم أن يأخذوها منك. أنت تذكر لانا.... لانا.

مرت ثوان لم يحدث خلالها شيء، ثم بدأت يد وسام تتحرك في الهواء، كأنه يكتب، فأسرعت دجى ووضعت قلما في يده، وورقة أمامه، فكتب وسام عدة كلمات، وهو يهمس: لانا... لم.... يستطيعوا.... أن.... يجدوا.... لانا.... أنت وجدت لانا....

انتهى من الكتابة، فالتقطت بيلسان الورقة، وجدت كلمات متفرقة، جمعتها معا: البرنامج... نسخة... أولى... خزانة خاصة... غرفة.. منة... افتح... لانا-٤٥-بيتا-هـ-٣٦

قال بدر:

- توجد نسخة من البرنامج في خزانة خاصة.

أكملت دجى:

- في غرفة منة؛ وأعتقد أنه يخبرنا بالرمز السري.

قالت بيلسان لأحمد:

- كيف عرفت هذا؟

قال أحمد:

- كنت متأكدًا أن وسام عبقري، ولابد أنه وضع خطة أخرى للطوارئ؛ وقد فعل. كما يبدو، لقد قام باستخدام نوع خاص من التنويم المغناطيسي، ليخفي المعلومة داخل رأسه، حتى عنه شخصيا، فلا يتذكرها، إلا إذا تم تحفيزه بكلمة معينة، وهي اسم حبيبته القديمة، التي لا يعرفها أحد غيره.. وقد أخبرني به، حين توقع ما حدث.

قالت دجى:

- يجب أن نحضر البرنامج بأقصى سرعة.

***

-٤٩-

- كل شيء هادئ.

نطق أحمد بالعبارة وهو يتطلع إلى منزل وسام عبر منظاره المقرب؛ فجاءه صوت بدر: من المفترض أن يخرجوا بعد دقائق قليلة، فهذا موعدهم الأسبوعي للذهاب للنادي.

قالت دجى: هناك ثلاثة سيارات أخرى تراقب المنزل، متأكدة أنهم رأوك، ولكنهم ينتظرون خطوتك القادمة.

جاءه صوت بيلسان: كن حذرا.

قال بدر: سيخرجون الآن.

خرجت زوجة وسام، ومعها ابنته الصغيرة منة. سارتا نحو سيارتها، وانطلقتا بها، فانطلق أحمد خلفهما.. هذه المرأة تمارس حياتها بطريقة عادية، دون أن تعرف أن زوجها يتعفن في السجن، بل تظن أنه في مهمة في الخارج، وربما تتلقى منه رسالات يومية، أو تتحدث معه؛ فمن يعرف ما يستطيع المستمعون فعله!

قالت دجى: لقد تحركت سيارتان خلفك، ومازالت الثالثة تراقب المنزل.

قال بدر: سنتحرك الآن.

- حسنا.

انطلق أحمد خلف الزوجة والطفلة.. وصلتا للنادي، فركنت الزوجة سيارتها، واتجهت للبوابة، أبرزت للحارس بطاقة العضوية، فسمح لها بالدخول. تبعها أحمد، وأخرج بطاقة عضوية صنعتها له بيلسان، أراها للحارس، وتابع منة وأمها من بعيد. جلست الزوجة على مقعد خالٍ حول

منضدة، تحتلها صديقاتها، بينما أسرعت منة نحو الألعاب مع بقية الأطفال.

قال أحمد: كل شيء هادئ.

توقفت سيارة بدرودجى بالقرب من المنزل، وتسللا إليه دون أن تلحظهما المراقبة.. قالت دجى: لقد دخلنا.

دخلا غرفة ما، فتطلعا إلى أثاثها الجميل وجدرانها التي تغطيها الملصقات، وتعلوها أرفف ممتلئة بمختلف الألعاب والدمى.. قالت دجى:

- هل تذكر غرفتنا؟

قال بدر: كانت أجمل من هذه، فهذه لا تحتوي على أية أشلاء، أو جثث، أو حتى دماء.

- أي غرفة هذه!

بدءا مسح الغرفة للبحث عن الخزانة الخاصة، دون فائدة. قال أحمد:

- استخدما لانا.

ضغطت دجى أزرار هاتفها، فانطلق صوت وسام: لانا، لانا.

لم يحدث شيء، فقال أحمد: لابد أن أجهزة التعريف تجد صعوبة في تمييز صوته مع التغيرات التي حدثت.

قامت دجى بتنقية الصوت، وأعادت بثه ثانية، ووجهت الجهاز في مختلف أركان الغرفة. قال بدر: يبدو أن...

بتر عبارته، وأسرع نحو الحائط الذي انزاح جزء صغير منه كاشفا خزانة سرية، تطلع إليها قائلا: هذه الخزانة من نوع خاص جدا، لا يمكن العثور عليها بأساليب البحث العادية؛ يجب أن تعرف كلمة الدخول إليها.

ادخلا الكود الذي كتبه وسام، فأصدرت الخزانة تكة خافتة، وفتح بابها.

وجدا داخلها سلسلة صغيرة، تحمل صورة منة، فتحتها دجى، فوجدت بطاقة ذاكرة صغيرة مخبأة داخلها، التقطتها قائلة: وجدتها.

قالت بيلسان: رائع، أرسليها إليَّ.

وضعتها دجى في جهاز معها، وضغطت أزراره، فقالت بيلسان:

- جيد، أنا أستقبل.

قال أحمد: رائع لقد فعلناها و.......

ماتت الكلمة على شفتيه، عندما وجد نيروز يجلس بجواره قائلا:

- مرحبا يا دكتور أحمد.

فصاح أحمد: اخرجوا.. إنه فخ، اخرجوا الآن.

قال نيروز: وفر طاقتك يا دكتور، لقد تم قطع الاتصال.

حاول أحمد استعادة الاتصال دون فائدة، وقال نيروز: لقد أوصلتني إلى النسخة الوحيدة المتبقية من برنامج وسام، ولم أكن لأصل إليها بدونك؛ ولهذا فأنا أشكرك.

- توقفا.

استدار بدر ودجى نحو مصدر العبارة، فوجدا عددا من الرجال في ملابس سوداء وخوذات تغطي رؤوسهم، يصوبون أسلحتهم نحوهما. صاح بدر:

- اهربي.

انقض على أقربهم، ولكن الرجل أطلق سلاحه نحوه، فسقط أرضا، وصرخت دجى، فأطلق ثان سلاحه نحوها، فسقطت أرضا، وهمست: بدر!

مد نيروز يده في جيبه، وأخرج عدة أوراق ناولها لأحمد قائلا: لقد ساعدتني حتى النهاية؛ لذلك أقدم لك العفو الشامل الذي تستحقه.

- ماذا؟!!

- لقد وصلوا إلينا

نطقت بيلسان بالعبارة وهي تتطلع إلى شاشات المراقبة التي نقلت صور عدة رجال يقتحمون المنزل، فاستدارت نحو وسام مكملة:

- يجب أن نخرج من هنا.

لم يبد على وسام أية استجابة، وظل يسبح في عالمه الغريب، فجذبته بيلسان من يده، وركضت نحو الباب الخلفي قائلة:

- هيا.. هيا، يجب أن نسرع.

قال وسام: سمير... هنا... قادم... من... أجلي...

فقالت بيلسان: نعم، سمير هنا، ويجب أن نهرب قبل أن يصل إلينا.

اتجهت نحو الحائط، وضغطت جزء منه، فظهرت لوحة صغيرة.. أدخلت رقمًا سريًّا، فانزاح الحائط كاشفا ممرا صغيرا يسير المرء فيه منحنيا، دخلته مع وسام، فانغلق الباب. ركضت، وجذبته خلفها فقال وسام: أنا.. خائف..

- وأنا أيضا، ولكن اطمئن، سنخرج من هنا سريعا.

تطلع نيروز إلى الأطفال المستغرقين في اللعب بجوارهم.. قال أحمد:

- لقد خططت لكل هذا من البداية.

- لم أخطط لشيء. لقد عرفت الطريق الذي ستسلكه؛ فانتظرتك في نهايته.

- لقد خدعتني.

- لم أخدعك؛ بل أنت من فعل هذا. ظننت أنني أحمق تستطيع خداعه بنفس الخطة التي وضعتها معك لخداع ديفيد.

أفلت وسام يد بيلسان، وتكوَّم على نفسه على أرض الممر مرددا:

- خائف... خائف... سمير... هنا...

جذبته بيلسان من يده قائلة:

- يجب أن نخرج بسرعة، فلن يستغرقهم طويلا قبل اكتشاف هذا الممر.

- اذهبي.

- ماذا؟ أنا لن أتركك! هل تفهمني؟ لن أتركك.

جذبت يده ثانية؛ فنهض معها، وظلا يركضان.. وصلا لنهاية الممر؛ فطبعت بيلسان كلمة أخرى؛ ففتح الباب. خرجا خلف المنزل بالقرب من ساحة انتظار السيارات، فبحثت بيلسان بعينيها للحظات، وأشارت نحو إحدى السيارات المتوقفة قائلة: هذه.

تطلع أحمد إلى الأوراق في يد نيروز قائلا: ماذا عن الباقيين؟

- أية باقيين؟

- أنت تعرف عمن أتحدث.

- أنت تجلس هنا في هذا المكان الجميل، لتستمتع بوقتك بعيدا عن العالم؛ فلا تحدثني عن آخرين.. لا تحدثني عن أشخاص يحاولون سرقة برنامج خاص جدا، أو أخرى تحاول تهريب سجين خطير من الدرجة الأولى.

- كلنا معا في هذا الأمر، وأنت تعرف هذا.

وضع نيروز الأوراق بجوار أحمد قائلا: لا يا دكتور، لم تكونوا كلكم معا أبدا، فأنت مختلف؛ وإذا لم تفهم هذا حتى الآن، فأنت في مشكلة حقيقية.

- ماذا تعني؟

نهض نيروز، فصاح أحمد: ماذا تعني؟

- توقفا،

سمعت بيلسان الصيحة، فواصلت الركض.. تفصلها أمتار قليلة عن السيارة، ولن تتوقف الآن. ولكن الصوت عاد يكرر:

- توقفا، أو أطلق النار.

واصلت العدو، فانطلقت الرصاصة الأولى، لتصيب وسام الذي سقط أرضا، فحاولت بيلسان جذبه؛ ولكنه أبعد يدها عنه قائلا:

- اهربي.

رأت رجلين يعدوان نحوها، فأدركت أنه لا فائدة، فقالت:

- آسفة.

عدت نحو السيارة، وقفزت داخلها، فتحطمت النافذة الخلفية برصاصة، واصلت طريقها واستقرت في جسدها، فشهقت بقوة وسقطت رأسها على عجلة القيادة.

***

-٥٠-

- يجب أن نخرج من هنا.

- نحن معك حتى النهاية؛ فنحن لا نهرب من القتال.

- من الذي يحتاج لعفو شامل؟

- أحبك يا أحمد، وأنا معك حتى النهاية.

- أقسم أن أجعلك تتوقفين عن الركض، أن أجعلك آمنة دائما.

- أنت مختلف.

- المستمعون هم أسوا شيء حدث لهذه الأرض منذ الحرب.

واصل أحمد تجوله في الشوارع بلا هدف.. حواراته مع بيلسان والباقيين تعود إليه، فيشعر بعشرات من الأنصال الحادة الملتهبة تمزق روحه.. انظر إلى أين وصل بك الحال؟ ما الذي ربحته من هذا القتال؟ لقد فقدت كل شيء، كل شيء.. بيلسان، التي أحبتك ووثقت بك، حطمت حياتها، وخلفت الوعد الذي منحته لها. كانت لتكون أفضل حالا بدونك. ربما لو لم تحضرها صديقتها في تلك الليلة، لكانت الآن سعيدة آمنة في منزلها، تقرأ كتابها، وتبتسم متمتمة: أنا أسيطر على حياتي.

وقد كانت كذلك بالفعل، حتى قابلته، فأفسد كل شيء. وعدها بالأمان الذي لم تعرفه، وجذبها إلى أسوأ وأشرس قتال ممكن.. وعدها أن يجعلها سعيدة مطمئنة، ولكنها لم تعرف إلا الخوف رفيقًا دائما مذ عرفته. لقد ركضت بيلسان لآخر مرة، ركضت من الأمان إلى الخوف مباشرة.

مر زوجان أمامه، يمسك الزوج بطفل صغير في يده، وتدفع المرأة بعربة صغيرة فيها طفل آخر، والثلاثة يلتهمون الأيس كريم، ويبتسمون في سعادة.

تشير الزوجة إلى واجهات المحلات التجارية، وتخبره بشيء ما وتبتسم، فيبتسم الزوج، ويصيح الطفل: هيا... هيا بنا...

تخيل نفسه وبيلسان مكانهما، يمسك بيد طفله الصغير إياد، وتدفع بيلسان عربة صغيرة بها طفلتهما الجميلة أديم، كما تريد بيلسان أن تسمي أطفالهما، الذين لم يحصلا عليهم، ولن يحصلوا عليهم الآن بسبب ما فعله. توقف، ليتطلع إلى صورته في واجهة أحد المحلات.. مسح دموع هربت من عينيه.. يجب أن يفعل شيئا.. لن يجلس يبكي حاله دون أن يعرف ما حدث لبيلسان والآخرين. سيستعيدها، سيجد وسيلة؛ فهو دائما يفعل. لن يستسلم الآن، بل سيستعيدها مهما كلفه الأمر، ولو كلفه حياته ذاتها. سار نحو منزله؛ فلا حاجة للاختباء، لقد انكشف كل شيء، ولم يعد هناك ما يخفيه.

اقترب من المنزل، لا يعرف كيف سيدخله دون أن تكون بيلسان بداخله تستقبله. أبطأ سيره، تطلع إلى المارين في الشارع، وجال بصره بين السيارات المتوقفة أمام المبنى، فرأى سيارة يعرفها جيدا، لا يمكن أن تكون هنا الآن. أسرع نحوها وجسده ينتفض بقوة.. سقط بسبب سرعته واضطرابه، فأكمل طريقه حبوا على أربع.. فتح باب السيارة هاتفا: بيلسان!

كان وجهها منكفئا على المقود، وقد تكونت بركة من الدماء بجوارها وأسفل مقعدها. هزها أحمد صائحا: بيلسان... بيلسان...

اهتز جسدها في يده كدمية انقطعت خيوطها، فتصاعدت دقات قلبه، وانهمرت الدموع من عينيه، واسودت الدنيا في وجهه، فلم ير غير وجه بيلسان الساكن بين يديه، فصرخ:

- بيلســـان.

***

-٥١-

- أنت لا تعرفين ما تريدي، أنت لا تريدين أن تريه.

صاحت: بل أريد أن أراه لأعرف من هو، وسأراه؛ هل تسمعني؟ سأراه.

رأت بقعة مظلمة تتجسد أمامها، ورامزيصيح: أنت لا تعرفين ما تريدين

فسارت نحو البقعة، وواصل هو الصياح: سيقتلك؛ هل تفهمين؟ ستموتين أنت الأخرى.

فالتفتت نحوه قائلة: لقد مت منذ زمن طويل، منذ اليوم الذي فقدتك فيه.

- بل مازالت أمامك حياة طويلة، فقط استديري، واذهبي لتعيشيها. أرجوك، أتوسل إليك، اتركي كل شيء واذهبي، لتعيشي حياتك.. أرجوك، فلو دخلت هذا الباب، لن يمكنك التراجع.

نهضت أسيل من نومها تشهق بقوة وتهتف: رامز!

استغرقها الأمر لحظات، لتدرك أنها ليست في غرفتها، بل في الغرفة التي منحهما إياها خالد، وشريف ليس هنا؛ لقد خرج أثناء نومها. تطلعت إلى الساعة بجوارها، مازال الوقت مبكرا.. أغلقت عينيها، ولكن النوم غادرهما بلا عودة، طردته المطارق العاملة داخل رأسها. التقطت كوب الماء المجاور لها، ورشفت منه رشفة صغيرة وهي تمسك رأسها بيدها، في محاولة يائسة لتهدئة الأسود المتصارعة داخله.. كم يبدو رائعا الحصول على قرص من الازرولدين الآن!!

تدوي في رأسها كلمات رامز، أو ربما كانت كلماتها هي وقد رأت ما سيحدث. لقد حذرها من السعي خلف الأمر، أخبرها أن تترك كل شيء وتذهب.. ولكن هل كان هذا خيارا بالفعل؟ هل يمكنها أن تواصل حياتها بخنجر مغروس في قلبها حتى مقبضه، وتتظاهر أنه لا شيء؟!

لقد أخبرته أنها ماتت يوم وفاته، ولذلك فكل ما يحدث لها لا يهم، فلماذا إذًا تشعر بكل هذا الغضب، والألم، والحزن، والحسرة، والخوف، والوحشة، وأحاسيس أخرى لا تعرف ما هي؟ يمكنها ابتلاع علبة كاملة من الأقراص، لتجعل هذه الأحاسيس تذهب.

لقد أخبرها رامز أنها ستموت، فقبلت.. ولكنه لم يخبرها أن الأمر لن يتوقف عندها، بل سيمتد ليحطم شريف أيضا، ليتحول خلال ليلة واحدة، من أفضل رجال المكتب التاسع، إلى أخطر جاسوس، وعدو الدولة الأول، وينطلق الجميع خلفه. تتمنى أن تمسح على رأسه، وتهمس في أذنه:

- كل شيء سيكون على ما يرام.

وهند.. هند الجميلة الرقيقة أفضل صديقاتها، أختها، بل توأمها، التي ظنت أنها لا يمكن أن تحبها أكثر، تضاعف حبها في قلبها عندما علمت الحقيقية؛ فهند لم تعتنِ بها فحسب، بل كانت تعتني بزوجها شريف أيضا، وتساعده منذ طفولته، وعادت ثانية عندما احتاجها؛ لتقوم معه بأخطر عملية ممكنة، دون أن تهتم. كيف أخفت عنها ما يحدث؟! لقد كانت هند أقرب لها من نفسها، تسعى لحل مشكلتها دون معرفتها، وعندما تعقد الأمر، كانت أول من تحرك، معرضة حياتها للخطر، لتنقذهما، فهند لا تفكر في نفسها، بل تضع الآخرين قبلها.. ترى كيف حالها الآن؟ لقد أخبرها شريف أنه نقلها إلى مستشفي خاصة، بهوية مختلفة، كي لا يتمكن أحد من تتبعها، ثم اتصل ببعض أقاربها، ليذهبوا إليها ويعتنوا بمهند. ترى كيف حال مهند الآن؟ هذا الطفل الرقيق الذي فقد والده أولا، والآن يرى أمه في هذه الحالة. تتمنى أسيل لو كانت بجوارها، تمسح على رأسها، وتخبرها أن كل شيء سيكون بخير.. تمسك بيد مهند الصغير، وتقبل رأسه، وتخبرها أنها ستعتني به، حتى تتعافى. لم تتوقف مع شريف للتفكير لحظة واحدة، فقد اندفعا في طريقهما مسلوبي الإرادة، مثل فراشات تندفع نحو النار.

ولكنها ليست نادمة.. إنها نادمة على شيء واحد، أنها لم تتمكن من تمزيق عنق هذا الشخص بعد. فكل ما حدث، وما يحدث، وما سيحدث، ليس

خطأهم، إنه خطأه هو؛ فهو الذي دمر كل شيء. لقد هبط على حياتهم الهادئة مثل لعنة سوداء ألقتها ساحرة متحجرة القلب، فدمر كل شيء، مثل طوفان رهيب، لم يترك سوى بقاياها هي وشريف تذروها الرياح. ولكنها ستصل إليه وتلوك لحمه بين أسنانها، وتشعر بمذاق دمه في حلقها، بطريقة أو بأخرى ستصل إليه.. لا يمكن أن تكون هذه هي النهاية، ستكون النهاية ابتسامتها وهي تتطلع إلى جثته الممزقة؛ لن يهم ما سيحدث بعدها.

سارت للخارج تنادي شريف دون إجابة، فاتجهت نحو غرفة الأجهزة، فوجدت شريف وخالد مستغرقين في العمل، فجلست على مقعد في آخر الغرفة، قال خالد: كيف حالك؟

- بخير.

واصلا العمل لفترة،ثم قال شريف: أعتقد أننا انتهينا هنا. سأخرج لأرى المكان.

خرج شريف، فالتفت خالد نحو أسيل قائلا: لقد خرج للبحث عن الطرف الثاني لقناة الاتصال الذي وجده العنكبوت الإلكتروني.

- جيد.

نهضت أسيل من مقعدها، وجلست بجواره تتطلع للشاشات، دون أن تفهم شيئا، فقال خالد: كل شيء سيكون على ما يرام.

لقد اعتادت أن تهمس للجميع بهذه العبارة في أحلك الأوقات، وكلها ثقة بالفعل أن الأمور ستكون على ما يرام؛ أما الآن فهي لا تعتقد هذا، بل تعتقد أن الأسوأ قادم. قالت أسيل: كيف تمكن ريان من اختراق الغرفة المغلقة، وأخذ البرنامج؟ لقد سمعت من شريف أن هذه الغرف يستحيل اختراقها.

قال خالد: هذه هي طبيعة عالمنا.. لا يوجد مستحيل، ولا توجد حدود، لذلك فقائمة المستحيلات لدينا تتغير طوال الوقت، وبمنتهى السرعة، فما نظنه مستحيلا، هناك من فعله، ولكنه لم يعلن عن ذلك بعد.

- لقد ظننت أن شريف هو الأفضل.

- إنه الأفضل بالفعل، ولكن لا تنظري للأمر بهذه الطريقة. فعلى عكس ما يبدو للناس، عالمنا ليس قطعة واحدة، بل لدينا عشرات التخصصات.. يمكنك أن تفكري بنا مثل الأطباء، قد تجدي أفضل أستاذ لأمراض الدم، ولكن لا يمكنه علاجك من الاكتئاب، أو الوساوس.

- هل يمكن أن يثبت شريف براءته؟، إنه ليس خائنا ولا جاسوسا.

- أكره أن أخبرك بهذا، ولكن حتى لو أثبت شريف عدم تورطه مع ريان، وعدم اشتراكه في أي من هذا، تظل هناك حقيقة واحدة: شريف سرق برنامج المستمعين، سرق بيانات سرية، وسربها للخارج.

صمتت أسيل، وتحدث خالد مع شريف عبر جهاز الاتصال. تمتمت لنفسها:

- أتمنى أن ينتهي هذا الأمر.

***

-٥٢-

- فعلت هذا لأنني أحبك.

تتردد العبارة في عقل شريف، فيشعر أن هناك بركانًا متفجرًا داخله، يقذف بالصخور المشتعلة والحمم الملتهبة، ليدمر كل خلية من جسده، وترتفع أبخرته السامة لتخنقه. لم يستطع مواصلة السير، فجلس على الأرض والرؤية تسود أمامه. التقط عدة أنفاس عميقة، أخرجها ببطء، أخرج منديله ومسح به عينيه، لفه حول يده ووضعها في فمه، وضغط عليها بكل قوته، ليكتم صرخة ألم تجاهد لتتحرر من صدره.

لا يبدو الموت سيئا للغاية كما أخبروه، بالنظر إلى هذه الأمور. كأنه قطع شرايين يده، واستيقظ ليجد أسيل وقد استحالت شبحا يخبره أنه يعرف قاتل ابنهما، فينطلق معها لإيجاده، فيصبح الهدف رقم واحد للجميع، وتوشك هند على فقدان حياتها لإنقاذه.

هند.. يرى تصرفاتها ومواقفها معه بعين جديدة الآن. كيف أحبته إلى هذا الحد دون أن يدري؟! كيف كتمت كل هذا في صدرها، وهي تعتني بأسيل حين غاب هو؟ وكأنه، بكل عقده ومشاكله، يستحق أن يسعى أحد نحوه! لم يستطيع أن يخبر أسيل بهذا، فبماذا يخبرها؟ لقد جعلته التسجيلات التي تركتها هند له أكثر حيرة من ذي قبل.. كأنه يحتاج لهذا مع ما يحدث معه.

كانت التسجيلات الموجهة له بعنوان (لا أعرف)، تتحدث فيها هند في مناسبات مختلفة، دون ترتيب أو تنسيق، فقط تتحدث بما يخطر ببالها، كأنها تتحدث مع مستمع: أخير وجدته، وجدت طيفي الجميل الذي اعتاد زيارتي، أحيانا ليخفف عني، وأحيانا ليزيد آلامي، ولكن كل ذلك لا يهم، فقد وجدته، وجدته، وجدته، ولكنني لا أعرف ماذا سأفعل، وماذا يمكنني فعله بعد كل هذه السنوات.

- لا أعرف ماذا أفعل، أشعر أنني مدفوعة بقوة غريبة لترك المنزل والانتقال إلى هناك.. حتى مهند يخبرني أنه يكره المكان هنا، ويريدنا أن ننتقل.

شعور غريب هذا الذي أشعر به، وأنا بجواره في منزلي الجديد، يمكنني أن أنظر من نافذتي لأرى منزله أمامي مباشرة، ورغم هذا أشعر أن بيني، وبينه ألف ألف سد، وألف ألف جدار، فمهما فعلت، لا يمكنني أن أصل إليه.

لا أعرف لماذا أشعر بالحزن والقهر؛ فماذا كنت أتوقع غير هذا؟ هل كنت أتوقع أن يركض نحوي فاتحا ذراعيه، يخبرني أن الحياة قد عادت إليه ثانية بمجرد أن رآني، وأنه كان يبحث عني، كما كنت أبحث عنه؟ ولما لا؟! أنا أستحق هذا، أستحق أن أكون سعيدة لا بائسة كما أنا.. وليس بالضرورة أن يحدث الأمر في أول لقاء بيننا.. كان يمكن أن يحدث أي شيء آخر.. أي شيء آخر سيكون أفضل من هزة رأس صغيرة، مع عبارة لم أسمعها، التهم نصفها وهو يواصل سيره.

هل أحب شريف؟ لا أعرف، كل ما أعرفه أنني أكون سعيدة وأشعر بقلبي يرقص فرحا، عندما أتحدث عنه.. أتمنى أن أكون بقربه، أتمنى أن نكون معا للأبد.

لا أعرف كيف حدث الأمر، فعندما أفكر فيه أشعر أنه مستحيل. كيف وقعت في حب شريف، وأنا لا أعرف عنه أي شيء؟ فقط نتحدث عبر قناة الاتصال المؤمنة، دون أن يعرف أنني فتاة.. ولكنني وقعت في حبه؛ كيف؟! أتمنى أن أعرف.

ماذا تفعلين هنا يا هند؟ إنه ليس لك، إنه سعيد مع زوجته وابنه الصغيرة، إنهم عائلة جميلة سعيدة.. ستكونين ملعونة، لو اقتربت منهم، يجب أن ترحلي، يجب أن تغادري، غادري يا هند، اجمعي أغراضك واخرجي من هنا.. هيا، فلا مكان لك هنا، حسنا حسنًا

أنا مغادرة، صوت بكائها فحسب، وشهقات متقطعة، ثم صمت تام.

غريب هو الحب، يصيبنا هكذا فجأة دون مقدمات، مثل الموت، لا يهم هل هو الشخص الصحيح أم لا. هل يمكن أن ينتهي الأمر بكما معا أم لا؟ ماذا ستفعل الآن؟ لا يهم، فالحب لا يهتم بهذه الأسئلة. إنه يطلق سهامه علينا ويرحل، يتركنا مثل سفينة بلا قبطان وسط الأمواج العاتية. تحاول الهرب، فتكتشف أنك قد غصت أكثر، وأصبح خروجك أصعب.

لقد استغرقني الأمر وقت طويل جدا، ومجهود رهيب، حتى نجحت في تتبعه ومعرفة مكانه، بعد كل ما فعله ليخفيه، وها أنا أحمل أشيائي، وأذهب. يا لك من إنسانه رائعة يا هند!! أتساءل متى سيبدؤون بوضع تماثيلك في الميادين العامة؟

ضغط زر الإيقاف، فلم يعد يستطيع سماع المزيد. لا يستطيع أن يصدق أن هناك من أحبه هكذا.. في أكثر وقت شعر أنه وحيد، وأن العالم كله يدور بعيدا عنه، كان هناك من يحبه، وعلى الرغم من سنوات البعاد ظلت تحبه، وكانت على استعداد للتضحية بحياتها من أجله. أم تراها فعلتها من أجل أسيل؟ أختها الجميلة كما تحب أن تناديها.. لقد فعلتها من أجلها بالطبع، نعم فعلتها من أجل أسيل، إنها أسيل، فالجميع يحب أسيل، ويفعل أي شيء من أجلها، فهي رقيقة كالنسمة، جميلة كالزهرة، إنها الملاك الهامس.

فعلت هذا لأنني أحبك.

دوت العبارة في رأسه بدوي ذكره بالقذائف القديمة؛ فقفز من مكانه، وواصل سيره، وهمس لنفسه:

- يجب أن أجد القاتل.

لقد توصل عنكبوت البحث إلى الطرف الآخر؛ فعرف هويته. إنها المخترقة ضوء القمر. ولكن ضوء القمر اختفت منذ حاولت الهجوم على المستمعين، لذلك كان عليهم العمل أكثر. واصلوا العمل حتى تمكنوا من العثور عليها، ومعرفة هويتها الحقيقية.. إنها بيلسان زوجة الدكتور أحمد.

شعر شريف بالقطع تأخذ مكانها بطريقة صحيحة، لترسم الصورة الكاملة.. الدكتور أحمد يخوض حربا إعلامية ضد المستمعين، ولكنه يعرف أنه لن يربحها؛ لذلك يلجأ لطريقة أخرى تثبت صحة كلامه.. سيجعل الناس يرون ما قاله يتحقق أمامهم. يقوم بالهجوم على المركز، ولكنه يفشل، فيهرب، لأنه متأكد أنهم سيغيرون القواعد أيضا.

هذا يفسر اختفاءه من التلفاز في الفترة الأخيرة، ليس كما قال سكرتيره أنه تغيب لظروف صحية، وإصابة زوجته الراقدة في المستشفى. لابد أنها بسببهم، لذلك حرص على إخفاء مكانهم. ولكن خالد وجدهم، وهو ذاهب الآن ليقابله، ومعه مفاجأة ستغير مسار الصراع.. دليل حي على نجاحه، بالإضافة إلى نسخة كاملة ووحيدة من برنامج المستمعين، فقد حذف النسخة التي حصل عليها ريان بعد أن أوقف المزاد. كان ريان يحتفظ بها ليرسلها لأصحاب السعر الأعلى.. لم يرسلها للمنظم إكس، لأنه لا يثق به ثقة تامة. عرض عليه خالد أن يذهب بدلا منه لمقابلة أحمد فلا أحد يعرفه، ولكنه رفض بشدة، فلا يمكنه فقدان شخص آخر بسببه.

اقترب من المستشفى بحذر، فقال خالد عبر جهاز الاتصال:

- المكان آمن، يمكنك الدخول.

سار للداخل، نحو غرفة بيلسان التي أخبره خالد برقمها، وهو يسأل نفسه:

- هل سيتمكن أحمد من مساعدته؟ هل هذه هي النهاية حقا؟

***

-٥٣-

- طالما نحن معا، لا يمكن للعالم أن يؤذينا.

ترددت العبارة في عقلي بدر ودجى، وهما يجلسان في غرفة الاستجواب الخاصة، وأيديهما مربوطة بالقيود إلى المنضدة المثبتة أمامهما. قالت دجى:

- مازلت أشعر بالصداع بسبب المخدر الذي أطلقوه علينا.

فقال بدر: يظنون أنفسهم يقومون بصيد الحيوانات.

نهض من مقعده، والتفت برأسه نحو المرآة الضخمة، التي تحتل نصف جدار كامل، وقال: سترون ماذا سنفعل بكم.

جلس على مقعده ثانية، فهمست دجى: تري ماذا فعل أحمد وبيلسان؟

- أتمني أن يكونوا بخير، فهم ليسوا مثلنا.

- ليسوا قادرين على الاعتناء بأنفسهم مثلنا.

فتح الباب، ودخل أحد أفراد الأمن، وخلفه رجل أكبر سنا، جلس على المقعد المقابل لهما، وأشار لرجل الأمن بحل قيودهما، فقالت دجى:

- هل أنت متأكد؟

فأشار للرجل ثانية؛ فحل قيودهما، ووقف بجواره ويده على سلاحه، فقال الرجل: اخرج.

تردد رجل الأمن لحظات، فكررها ثانية: اخرج.

فخرج رجل الأمن، واستدار الرجل نحو بدر ودجى قائلا: أنا لست خائفًا منكما.

فقال بدر: ينبغي أن تكون.

وقالت دجى: ربما يكون خطأك الأخير.

فقال الرجل: أنا لست خائف منكما؛ لأنني مثلكما، مقاتل، لا أخاف شيئا.

عبس بدر، وقال في تشكك: من أنت؟

قال الرجل: يدعوني الناس بالكثير من الأسماء، الرجل، صانع الفجوات، المعلم، المدير، الغامض، ولكن يمكنكما أن تدعواني بالسم.

قال بدر: السم رائع.

قالت دجى: القاتل الصامت.

أشار الرجل نحوهما قائلا: ويكون أكثر فعالية لو أضفناه إلى الأنياب، والمخالب.

تبادل الاثنان نظرة قصيرة، وقالت دجى: ماذا تريد منا؟

تراجع الرجل بمقعده للخلف، وقال: طوال حياتكما وأنتما تقاتلان، تخرجان من قتال، لتدخلا في آخر؛ ومهما كانت شدة القتال، لا تهربان؛ دائما تكملان القتال حتى النهاية، لأن هذا في طبيعتكما، فأنتما مقاتلان بالفطرة، تشعران به يسري داخل عروقكما، فتعرفا أنكما قادران على أي شيء. تعلمتما الدرس من البداية.. يجب أن تقاتلا، ويجب أن تكونا معا.. معا، لا يمكن للعالم أن يؤذيكما، فطالما أنتما معا، فأنتما أقوى وأسرع، وأفضل.

يقولون إن بعد ولادتكما، وضعتما متجاورين.. كنت تبكي، فمالت دجى على أذنك، وهمست بشيء ما فسكت. لم يفهم أحد ما حدث، ولكنني أعرف الآن.. لقد قالت لك :اطمئن فنحن معا. لم تقلها لك بالكلمات، ولكنك شعرت بها، وعرفت أنها محققة.

عندما رحل والداكما في بداية الحرب، في حادث مؤسف، بقيتما أنتما تقاتلان من أجل البقاء، وهو أمر شارككما فيه الكثير من الأطفال، ولكن أغلبهم لم ينجوا، أما أنتما فنجوتما لأنكما مقاتلان. ولكن، طوال حياتكما،

وأنتما تعرفان أنكما مقدران لشيء أكبر.. شيء أعظم.. فلا يمكن أن تكون حياتكما هكذا وفقط؛ هناك أمر آخر ستنجزانه معا؛ تشعران بهذا في كل قتال تخوضانه.. هذا ليس قتالنا الكبير، قتالنا العظيم لم يأت بعد، قتالنا سيكون مختلفا.

صمت الرجل ليمنحهما فرصة للتعليق، ولكنهما لم يتكلما، فواصل:

- أنا هنا لأمنحكما الفرصة للمشاركة في شيء أكبر وأعظم.. لتخوضا قتال حياتكما؛ القتال الذي تستحقانه ويستحقكما.

نظر في عمق عيونهما المنتبهة وقال:

- قتال من أجل الحياة، من أجل المستقبل، مستقبل هذه الأرض التي أقسمنا ألا يتكرر ما حدث عليها ثانية. إنها مهمة مستحيلة، ولذلك فنحن نحتاج إلى مقاتلين مثلكما، مقاتلين لا يعرفون الخوف، وفوق كل هذا يملكون قلوبا عظيمة ممتلئة بالحب.

طرق الرجل على المنضدة أمامه، ففتح الباب خلفه، فأكمل:

- يمكنكما المغادرة الآن، ولن يوقفكما أحد، أو يتبعكما.. أو يمكنكما البقاء والانضمام لي، فنحن نحتاجكما.. المستقبل يحتاجكما.

***

-٥٤-

- ستكون بخير.

كلمتان أعادتا الروح ثانية إلى جسد أحمد، فتطلع إلى بيلسان الراقدة أمامه، وعدة أجهزة تتصل بجسدها تراقب إشاراتها الحيوية التي استقرت – حمدا لله- وتنساب المحاليل الوريدية إلى جسدها، الذي استعاد لونه الطبيعي. أمسك أحمد بيدها، وهطلت الدموع من عينيه، وقال:

- أنا آسف جدا يا عزيزتي، آسف جدا.. كان ينبغي أن أستمع لك؛ لقد كنت محقة.. أنتِ دائما محقة. كان ينبغي أن نغادر عندما سنحت لنا الفرصة.. نغادر، لنعيش سويا، بعيدا عن كل هذا الجنون.

بل لم يكن ينبغي أن أدخل في هذا الأمر من البداية؛ فما الذي أعرفه أنا؟ إن الجميع سعداء كما قلتِ؟ أليس هذا هو الهدف من الحياة؟ أن يكون المرء سعيدا، فمن أنا لأقول عكس هذا؟ من أنا لأقول إن كل هولاء الأشخاص مخطئين، ولا يعرفون ما يريدون؟! لقد اندفعت في هذا القتال، لم أفكر سوى بنفسي وما أريده.. لم أفكر فيك.. كنت بجواري، سعيدة بدعمي مهما فعلت، حتى لو خالف ما تريدين،.. دائما أجدك بجواري، تهتمين بي، وتحمين ظهري. لقد أعماني القتال، فظننت أنه هدف حياتي، ولم أر أهم شيء في حياتي، مع أنه بجواري.. إنه أنت، أنت يا بيلسان، أنت كل ما أريد، لا أريد شيئا آخر.. لا أريد أن أحطم المستمعين، أو تذكر أي شيء عنهم، لا أهتم لو ملأوا الشوارع، فلم أجد موضع قدم أسير فيه؛ سأكون بجوارك، وهذا كل ما يهم.

لقد كنت أحمق، فلم أر الأمور بوضوح من قبل؛ ولكني أرى الآن.. أرى بوضوح يا بيلسان أنك كل شيء بالنسبة لي، وكل شيء غيرك لا يهم.

أقسم لك يا بيلسان -وهذه المرة لن أحنث بقسمي- أقسم أن أجعلك آمنة، أن أجعلك تتوقفين عن الركض، أن أجعلك سعيدة، أن أمنحك الحياة التي تريدينها وتستحقينها. سنحصل على بيت جميل محاط بحديقة خضراء ممتلئة بالزهور الملونة، حيث يمكنني أن أقطف لك منها كل يوم، ويلهو أطفالنا على الألعاب الموجودة بها، وأنت تنظرين إليهم وتبتسمين سعيدة، مسرورة، آمنة. أحبك يا بيلسان، وسأظل أحبك....

قطع حديثه صوت طرقات على الباب، ثم دخل شريف، فتطلع إلى بيلسان للحظات، ثم قال:

- آسف جدا لما حدث لها.

- من أنت؟

صمت شريف للحظات، وقال:

- أنا من سيساعدك للوصول إلى هدفك: تدمير المستمعين.

***

الجزء الثالث

-٥٥-

- أنا لا أريد أن أكون رجل الجيش الذي تحلم به، ولا أريد أن أكون طبيبا يقبل الأطفال يديه مثل والدتك.. أنا لا أريد شيئا من هذا، أريد أن أعيش حياتي فحسب.. أعيش حياتي كما أريد، فأنت لست باب الخروج لأحد.

صاح رامز بالعبارة، وهو يتطلع إلى والديه الواقفين أمامه في صالة المنزل، فرد شريف مستهينًا: وماذا تريد أن تفعل بحياتك؟

فتطلع إليه رامز للحظات، ثم قال: ما أفعله بحياتي هو أمر يخصني وحدي، وإذا كان لابد أن تعرف، فأنا أريد أن أصبح ممثلا كوميديا.

صاح شريف بالعبارة: ممثل كوميدي! ممثل كوميدي!.. رامز يريد أن يكون مجرد ممثل كوميدي.

قالت أسيل: ممثل كوميدي، ما هذا؟! نحن نريدك أن تكون رجلا.....

قاطعها رامز صائحا: متى ستفهمان أنني لست مثلكما؟ لا أريد أن أعيش حياتي مثلما عشتما، أريد أن أعيش الحياة ببساطة وسهولة.. أريد أن أعيش حياتي دون تفكير فيما سأتركه خلفي، فربما لا أريد أن أترك شيئا، أريد أن أعيش الحياة دون أن أخدش سطحها.

صاح شريف: دون أن تخدش سطحها، ماذا يعني هذا؟! أنت تقول كلامًا بلا معنى.

قال رامز بإصرار: بل أعرف ما أريد، وسأفعله.

فقال شريف: لن يحدث؛ لن أتركك تدمر حياتك بيدك.

قالت أسيل محاولة إضفاء شيء من النعومة على نبرتها: رامز، يمكنك أن تمارس هواياتك في وقت فراغك؛ أما حياتك فيجب أن تفعل فيها شيئا

أفضل.

قال رامز: يجب أن تفهما.. أنا لا أدمر حياتي، أنا أعيشها كما أريد. أفعل الشيء الذي أحبه حقا وأشعر بالحياة وأنا أفعله، مثلما شعر ضابطك، أو شعرت والدتك.

رد شريف مستنكرًا: هل تقارن من ضحوا بحياتهم في الحرب بكونك أحمق كوميدي؟

قال رامز: ها قد عدنا للحرب مجددا. لماذا لا تفهمان أن الحرب انتهت، ولن تعود؟ لم يعد الناس في حاجة إلى الجنود والأطباء، فلديهم الكثير منهم، ولكنهم في حاجة إلى البسمة؛ فهي الشيء الذي افتقدوه حقا، وأنا سأعيدها لهم.

أشاحت أسيل بيدها، وقد بدأت تفقد صبرها هي الأخرى: لسنا هنا لنتحدث عما يريده الناس، نحن نتحدث عن حياتك، وما ستفعل بها.

قال رامز: هاأنت قلتِها: حياتي، وما سأفعل –أنا- بها.

قال شريف: حياتك، وحياتنا واحد، وواجبنا أن نحرص على اتخاذك لقرارات صحيحة لا تدمرك.

أضافت أسيل: لأننا نريد الأفضل لك.

قال رامز: وهل الأفضل بالنسبة لكما أن أقضي حياتي في عمل شيء لا أحبه، ولا أطيقه؟! أقضي نهاري في تأمل عقارب الساعة حتى ينتهي الكابوس، فأعود لمنزلي وأفعل ما أحبه، لأن وقت فراغي قد جاء؟ لماذا لا أفعل ما أحبه دائما؟!

قال شريف: ممثل كوميدي، هذا ليس عملًا. إنه ليس أي شيء على الإطلاق.

فقال رامز: ربما كان هذا ما أريده.. أريد أن أكون لا شيء؛ فـ"لا شيء" خير مما فعله قادتنا العظام.

صاح شريف: لقد سئمت من الجدال معك؛ لذلك سأخبرك بشيء واحد.. ستبقى هنا، ولن تذهب لأي مكان، أوتفعل أي شيء.

فقال رامز: آسف جدا يا والدي، ولكن لدي عرضًا اليوم، وسأذهب.

حدق فيه شريف مذهولا، وقالت أسيل: أنت ستنفذ ما قاله والدك، ولن تذهب.

ولكن رامزقفزبسرعة نحوالباب، وفتحه، وغادرقائلا: آسف.

أغلق الباب خلفه، وركب سيارة أصدقائه قائلا: بسرعة؛ فلدينا عرض لنلحق به.

انطلقت السيارة بهم، وبقي شريف وأسيل، والصمت ثالثهما. نهضت أسيل وسارت للداخل تتلهى بأعمال المنزل، وبقي شريف مكانه لعدة دقائق، ثم نهض وغادرالمنزل.

وصل رامز إلى المكان، فقال صديقه الأول: كيف تتوقع أن ترسم البسمة على وجه الجمهور وأنت عابس هكذا؟

وقال الثاني: كل النجوم لم يوافق أهلهم في البداية، ولكن ما إن استمعوا لهم حتى دعموهم بكل قوتهم.

قال رامز: وأين أهلي ليستمعوا لي؟

ظهر صاحب المكان، فصافحهم، وقال رامز: شكرا جزيلا لك يا سيدي على سماحك لنا بتقديم العرض هنا، لقد كان حلمنا منذ زمن بعيد.

فقال المالك : لا عليك يا صديقي، لقد قطعت وعدا، منذ ملكت هذا المكان، أن أمنح الفرصة لمن يستحقها، وأنت لديك موهبة جميلة تستحق أن تعرض وأن يستمتع الناس بها.

فقال الصديق الأول: شكرا لك.

صمت رامزلحظات يستجمع كلماته، ثم سأل الرجل:

- لماذا لا يرى والداي ما تراه؟

قال المالك بابتسامة مشجعة: سيفعلان يا بني، لا تتعجل الأمر.

فتنهد رامز، وأومأ برأسه قائلا: شكرا لك.

نظر المالك في ساعته، وصفق بيديه قائلا: والآن هيا، فالجمهور مستعد لكم.

ذهب رامز وصديقاه خلف الكواليس، فجهزوا أنفسهم، ثم خرج صديقه الأول إلى المسرح الضخم، فصفق له الجمهور وشجعه؛ فانحنى قائلا: شكرا لكم، شكرا لكم.

اعتدل مكملا: شكرا لكم على حضوركم اليوم، أحب أن أفكر أن الجماهير العريضة التي أراها اليوم قد جاءت من أجلنا، لمشاهدتنا، ودعمنا، وليس من أجل المشروبات المجانية التي يقدمها الفندق.

ضحك الجمهور، فأكمل: لا أخفي عليكم، لقد جئت لهنا لأن المدير وعدني بعشاء مجاني بعد العرض، وأنا أعرف أن الطعام والشراب والخدمة هنا أفضل ما يمكن. وبالمناسبة، هذه ليست دعاية إجبارية للفندق إطلاقا، ولم يؤكد عليّ المدير أن أقول هذا، ولم يكررها ثلاثة مرات قبل العرض.

ضحك الجمهور، فقال: دعوني أخبركم بقصة، عندما كنت صغيرا، سألت أمي لماذا لديك شعر أبيض في رأسك؟ فنظرت لي نظرة اللوم التي تجيدها كل الأمهات، وقالت: لأنك كلما فعلت شيئا سيئا ظهرت شعرة بيضاء في رأسي؛ فهززت رأسي في تفهم، وقلت: لهذا رأس جدتي كله أبيض الشعر!

ارتفع صوت رامز من الداخل: هل تشعر بالضيق من كل شيء، في كل مكان، في المنزل تضايقك زوجتك، في العمل يضايقك رئيسك، في الشارع يضايقك الآخرون؟.. حسنا، استرخ، واسمح لنا أن نسحبك بعيدا عن كل هذا.. اسمح لنا أن نأخذك بعيدا، بعيدا.. اطمئن سنعيدك قبل موعد نومك، حتى لا تغضب زوجتك.

قال الصديق الأول:

- كلما شعرت بالضيق من حياتك، تذكر.. هناك عشرات الأشخاص يطلقون النار على رؤوسهم يوميا، ثم يشعرون بشعور جيد في اليوم التالي.

ظهر الصديق الثاني على المسرح، فصفق له الجمهور، فقال: كم مدير معنا الليلة؟

رفع البعض أيديهم فقال: حسنا، دعوني أخبركم بحقيقة قد لا تعرفونها.. موظفوكم لا يحبونكم. أعلم أنكم تجدون هذا صعب التصديق، ولكن موظفيكم لا يحبونكم، وهذا ليس بالأمر الجديد، بل يبدأ من البداية المبكرة جدا، من مقابلة العمل، يعرف الجميع أنني أكره مقابلة العمل جدا، والآن سأخبركم بالسبب. كمهندس، يكون عليَّ الاستعداد الجيد للمقابلة، ومراجعة الكثير من المواضيع، وتجهيز أفضل ثيابي. تدخل الغرفة، فتصافح المحاور الذي يشملك بنظرة من رأسك إلى قدميك، كأنه يتفحص عبدا، وينادي النخاس، أقصد المنظم: المهندس فلان. يقول المحاور: لماذا لم تحضر ببذلة؟ ألم يخبروك؟ فترفع الكيس الأسود المجاور لك قائلا: لقد أحضرت بذلة كما أخبروني، فينظر لك المحاور في غباء، فتقول: لقد قالوا: أحضر بذلة؛ ولكنهم لم يقولوا أن عليَّ ارتداءها.

يقول المحاور، حسنا، والآن عرِّف نفسك؛ فأهُمُّ بالكلام، ولكنه يقول لا تحكي لي، ولكن عرف عن نفسك بطريقة الحيوانات.. أخبرني أي حيوان يشبهك؟ فأقول له الإنسان، فيقول ماذا؟ فأقول نعم، أليس الإنسان حيوانًا ناطقًا؟.. يسألني عدة أسئلة متعلقة بالهندسة، ولكنها معقدة، فلا أعرف إجابتها، فيقول الرجل: المهندسون لدينا يجب أن يعرفوا الكثير. كيف تتوقع أن تعمل، وأنت لا تعرف شيئا، فأقول له: دعني أخبرك بقصة: ذات مرة ركب عالم قاربًا، فقال للبحار: هل تعرف الكيمياء، أو الأحياء، أو الفيزياء، فقال البحار: لا، فقال العالم: وماذا تعرف إذا؟ سيقتلك جهلك. عندها بدء القارب يغرق، فقال البحار ساخرًا: هل تعرف "السبحاء"، و"الهرباء" من أسماك "القرشاء"، فقال العالم: لا فقال: ستلتهمك "القرشاء" الجاهلة.

قال المحاور: هل تعرف السباحة، فقال البحار: اطمئن، إذا كنا معا، فلن أسبح وأتركك: فسأله العالم: لماذا؟، فقال: لأنني لا أعرف السباحة.

يسألني المحاور: حسنا، كيف يمكنك حمل فيل بيد واحدة؟

أفكر لحظات، وأقول: مشكلة، ولكن عليك أن تحضر فيلا ذا يدٍ واحدة.

- كيف يمكنك أن تسقط بيضة على أرضية خراسانية، دون أن تكسرها؟

- بأي طريقة، فالبيضة لن تكسر الأرضية الخراسانية أبدا.

- هل يمكنك أن تمضي سبعة ليال بلا نوم؟

- بالطبع ،فالأمر بسيط، سأنام بالنهار.

- حسنا، أريد إجابة سريعة.. إذا قام ستة رجال ببناء جسر في شهر، فكم يستغرق رجلان لبناء الجسر؟

- لا وقت، لأن الجسر تم بناؤه.

أخرج من الغرفة، فأسمع الرجل يقول: لا ترسل لي المزيد من الأغبياء، فأبتسم.. لقد انبهر بذكائي، فلم يعد يطيق رؤية الأغبياء.

انتهى الثاني، فصفق له الجمهور، وظهر رامز على المسرح، فحيًّا الجمهور وقال: كثير من المشكلات بين الرجال، والنساء بسبب الرجال بالطبع، هكذا قالت كل النساء.. وبدلا من أن يصمت الرجل، فإنه يصر على الجدال، فهو لا يعرف أن المرأة يجب أن تكون صاحبة الكلمة النهائية في كل جدال، وكل كلمة يقولها بعدها، يفتح بها الباب لجدال جديد.

مثلا.. عندما تريد الخروج من المنزل، تقول: أنا ذاهب لأشتري كذا، فتقول الزوجة: هل أنت خارج؟ سآتي معك، فتقول حسنا، فتقول الزوجة: هل تريدني أن أتي معك؟ فتقول: نعم، فتقول الزوجة: حسنا، سآتي طالما أنك تريدني أن أتي معك؛ ولكني سأقوم بالاستحمام سريعا، وأغسل أسناني،

وأتزين، ثم نخرج. فتجلس أنت بائسا تبكي حالك، وهي تغني في حوض الاستحمام.

تقافز رامز على المسرح محاكيًا بؤس الرجل المنتظر لزوجته بشكل مضحك، ثم عاد فوقف يقول: أتعرفون.. هذا يقودنا إلى اختلاف جوهري آخر، فالرجل يعتقد أنه يستيقظ على أفضل صورة ممكنة، وكأن هناك جني طيب يرعاه في نومه، فيجذب ملابسه، ويرتديها بسرعة وهو يغني لنفسه، وقد يغسل وجهه أو يكتفي بمسحه بيده، ثم يسرع للخارج، فإذا لمح انعكاسه في المرآة، قال: يالوسامتك وجمالك!! كيف لا تصطف النساء خلفك؟!..

ناوله صديقه الأول مرآة، وبدءا معًا بعض الحركات الساخرة، ثم عاد رامز يكمل: أما المرأة، فتستيقظ شاعرة بالضيق، كأن هناك جني شرير يشوهها أثناء النوم، فتنهض في تكاسل تنظر لصورتها في المرآة، وتبكي أياما كانت فيها أجمل، وكان جسدها أفضل.. تسير للحمام في تكاسل، وتقضي عدة ساعات، ثم تخرج فتقضي مثلها في اختيار الثوب، والتزين، ثم تهم بالخروج، ولكنها تنظر للمرآة فلا يعجبها شكلها، فتعيد كل شيء من البداية.

ارتفعت أصوات النساء الحادة من كراسي المشاهدين مستنكرة ضاحكة، فأشار لهن رامز أن يهدأن، وينتظرن القادم، وقال: من المعروف أيضا أن الرجل لا يقلق بسبب المستقبل، حتى يتزوج.. أما المرأة فتقلق بشأن المستقبل حتى تتزوج.

تعالى صياحهن، حتى بدأ يضحك هو نفسه معهن، مستمتعا بالتجاوب الأكثر مما توقع.. أشار بيده مجددا، وقال: حقيقة أخيرة: تعرف المرأة كل شيء عن أطفالها الصغار، حياتهم، أسرارهم، تعرف كل شيء.. حتى ما لا يعرفوه هم عن أنفسهم، أما الرجل فيتساءل عن كنه الأقزام الصغار الذين يركضون في المنزل، يأكلون طعامه، وينفقون أمواله.

صفقت النساء هذه المرة، وتعالى صياح الرجال في مرح، وتراجع رامز إلى

الخلف، ليقف مع زميليه، وغنى الأصدقاء الثلاثة أغنية ختامية، وسط مشاركة وتصفيق الجمهور، ثم حيُّوا جمهورهم، وغادروا المسرح.

ما لم يعرفه رامز، أن آخر شخص يتوقعه كان هناك يصفق له، والده شريف. وعلى بعد عدة صفوف، كانت أسيل مختبئة أيضا، تشاهد العرض، ثم انسحبا سريعا قبل أن يراهما.

هنأهم المالك وأشاد بهم، ثم انصرف ثلاثتهم، وعرض زميلاه عليه توصيله للمنزل، ولكنه أصر على السير بمفرده، فهو يحتاج للتفكير، وتهدئة أعصابه، قبل مقابلة والديه. واصل سيره في الطريق و...........

(لا يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة!)

ارتسمت العبارة في رأس رامز وهو يتأمل الأضواء الخلفية للسيارة الهاربة، تاركة إياه ملقى في منتصف الطريق والدماء تنزف من مختلف أجزاء جسده المحطم، ساحبة حياته معها.

يملؤه عدم التصديق.. لا يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة، لا يمكن أن ينتهي الأمر..

"فأنا لم أقم برحلة حول العالم، لم أقدم عرضا في باريس، لم أزر....، لم....، لم....، لم أحقق أيًا من أحلامي الكثيرة.."

لن يصبح القائد المغوار الذي أراده والده أن يكونه، ولن يصبح الطبيب الذي يقدسه المرضي كما أرادت أمه.. لن يصبح أي شيء سوي ذكري باهتة.

تمتد إليه قبضة الألم وتعتصر جسده بمنتهى القوة، مؤكدة له أن ما يشعر به هو عين الحقيقة. البقع السوداء تعزو عقله وتقتحم المشهد أمامه، فيغلق عينيه لثانية، ثم يفتحهما ثانية، ولكن الظلام يظل سيد المشهد.

كان عائدا إلى المنزل، حاملا حقيبته على كتفه، يصفر لحنا منغما، ويشعر أن المستقبل مشرق أمامه، والحياة لا يمكن أن تكون أفضل.. وفي اللحظة التالية، الحياة تنسحب من جسده، هكذا دون أية مقدمات!

رأى الزهرة البيضاء ملقاة بجواره، وقد أصبحت حمراء؛ بعد أن تشربت دمائه.. سعاد، لابد أنها تنتظره في شرفتها كما تعودت؛ حيث يمر بها قبل عودته للمنزل، فيلقي لها بالزهرة، فتبتسم له، ثم يتبادلان كلمات قليلة قبل أن تختفي في غرفتها.

"سيطول انتظارك اليوم يا عزيزتي؛ لأنني لن أعود. لن نشتري ذلك المنزل الرائع في الحي الهادي الجديد، حيث يمكننا أن نراقب أطفالنا يكبرون.

لن نشيخ معا، ونجلس سويا بجوار نيران المدفأة، بينما محمود وسارة – أحفادنا- يجذبان آذان الكلب النائم تحت أقدامنا".

يري الموت قادما نحوه، يمشي الهوينى.. يحاول أن يزحف مبتعدا، ولكن جسده لا يطاوعه، يتمتم بكلمات خافتة.. ثم يغلق عينه!

واصل قائد السيارة انطلاقه، وهو يصرخ:

- لقد صدمت أحد الأشخاص،... يا إلهي......... يا إلهي.........

لم يتمكن من مواصلة القيادة؛ فضغط فرامل السيارة، والتقط هاتفه، وأجرى اتصالا سريعا.. لم يعرف ما قال، ولكنه فقد الوعي خلاله، وتعالى صوت الطرف الآخر:

- سامح، سامح، أين أنت؟

***

- لقد قتلت ابني.

اقتربت السيدة المخيفة من سامح، وهي تنطق العبارة بصوت كالفحيح؛ فتراجع للخلف، ولكنه اصطدم بالحائط، فالتصق به متمنيا أن يعبره للجهة الأخرى. اقتربت السيدة منه، ورفعت البلطة الضخمة التي تقطر دما.. كانت منكوشة الشعر، حمراء العينين، طويلة الأظافر، ممزقة الثياب، كأنها جثة خارجة من المقابر للتو. اقتربت منه مكملة: والآن ستلحق به.

هوت بالبلطة على رأسه؛ فغطى وجهه بيده صارخا: لا.

واستيقظ من نومه على يد "حياة" - زوجته- تهزه وتناديه: سامح، سامح.

اعتدل جالسا وهو يلهث بشدة، فربتت على كتفيه قائلة: لا بأس يا عزيزي، أنت بخير، أنت بخير.

قلب سامح بصره في الغرفة ليتأكد أنه هنا.. بحث عن السيدة المخيفة، فلم يجدها، فزفر في قوة، فسمع صوتها قادما من جانبه: أنت قتلت ابني.

وقبل أن يتحرك، دفعته أرضا، وقفزت فوقه، واعتصرت عنقه بيديها، فاستيقظ صارخا بمنتهى القوة، وقفزت حياة تتطلع للمكان حولها بحثا عن عدو غامض، ثم ربتت على كتفيه قائلة: لا بأس يا عزيزي، أنت بخير.

تطلع سامح للغرفة حوله، وقال باكيًا: لا أستطيع النوم لدقائق، إلا وأجدها عند رأسي!

فضمته حياة قائلة: كل شيء سيكون بخير.

استكان سامح معها، وشعر بدفئها يطرد الخوف من روحه، فقال: أحبك يا حياة، أنت حياتي.

ربتت حياة على ظهره قائلة: وأنت حياتي.

نظرت للساعة الكبيرة المعلقة على الحائط.. لم يكن الفجر قد حان بعد، ولكنها قالت: ومن الذي يحتاج إلى كل هذا النوم؟

نهضت من الفراش، وجذبته من يده مكملة: دعنا نجلس لنتحدث، كما كنا نفعل، حتى يحين وقت ذهابك إلى عملك.

نهض سامح، وسار خلفها.. جلسا على مقعدين في ركن الغرفة، وظلا يتبادلان النظرات دون كلام. نهضت حياة، ثم عادت بكوبي عصير، وضعتهما أمامهما، ثم سألته بابتسامة: كيف يسير العمل؟

- بخير؛ كل شيء بخير.. لقد أتممنا صفقة شركة العال بنجاح.

- رائع، يجب أن نخرج للاحتفال بهذه المناسبة.

ظلا يتحدثان حتى أشرقت الشمس، فجهز سامح نفسه، ليخرج إلى عمله، فمر بوالده الجالس في الصالة يشاهد التلفاز، ويهذي بكلمات غريبة، وزجاجات الشراب الفارغة متكومة بجواره؛ فلما رآه ناداه قائلا:

- تعال يا سامح.. تعال لأخبرك ما فعلت بأمك.

تجاهله سامح، وأسرع للخارج؛ فقد سمع هذه القصة مئات المرات، وليس لدية القدرة على سماعها مرة أخرى. تبدأ القصة بوالده منير، نجل رجل الأعمال الشهير ممتاز منير واحد، وقد بدأ منير العمل في إحدى شركات والده بعد تخرجه، وهناك تعرف على درة، فتاة رقيقة من أسرة بسيطة تعمل في الشركة لتعول عائلتها. منذ اللحظة الأولى، شعر منير بدرة تقتحم قلبه، وتتربع على عرشه، ولكن والده كان له رأي آخر... ثار، وهاج، وسبه، ولعنه: كيف يتزوج منير ممتاز من هذه الفتاة؟!!

- لأنني أحبها.

- هذا الحب ما هو إلا كلام فارغ، لن تتزوج هذه الفتاة.

- ولكن.........

- لقد انتهينا، لن تتزوجها

لم يكتف ممتاز بهذا، بل طردها من العمل، ثم استخدم اتصالاته ليجعلها تغادر المدينة بأكملها. ولكن منير، الذي ورث عناد والده، سعى خلفها، وتزوجها رغم إرادته. حاول والده إنهاء الزواج بكل الطرق، ولكنه لم يستطع؛ فلم يجد أمامه سوى طرد منير، واستغل اتصالاته ليفسد فرصه في الحصول على عمل.. أي عمل، في أي مكان..

- أنت شاب رائع، وفي ظروف أخرى، كنت سأوظفك فورا، ولكن....

لا يحتاج أن يكملها، فمنير يعرف، لا أحد يتحدى والده. ولكنه سيفعلها، لن ينكسر أمامه ولن يحقق ما قاله: ستعود لي نادما على ما فعلت.

انتقل منير للحياة مع درة في شقة بسيطة خارج المدينة.ثم استخدم كل مدخراتهما لشراء تاكسي يعمل عليه، لتأمين مصروفاتهما. كانت درة تبكي عندما تراه يهبط من التاكسي متعبا، بعد يوم عمل طويل، فيحتضن كفيها قائلا: لا أريد رؤية دموعك، فهي أكثر ما يقتلني؛ أما هذا العمل فهو لا شيء، فأنا مستعد للذهاب إلى نهاية العالم من أجلك.

فتقبله درة قائلة: أحبك يا منير.

أخبرته درة أنها حامل؛ فشعر منير بنفسه يطير من السعادة.. أخذ يهتف:

- سأصبح أبا.

زاد من فترات عمله ليلبي احتياجاتها، ويوفر للمولود القادم -الذي لم يعد يطيق صبرا على شوقه- كل ما يحتاجه. وضعت درة طفلا جميل، وقالت:

- سنسميه سامح، ليذكرنا دائما بالمسامحة

حمل منير طفله، ورفعه عاليا قائلا: سامح منير ممتاز، مرحبا بك في عالمنا.

ذهب به إلى والده، فقال والده: هل جئت نادما على ما فعلت؟

- لقد جئت لأريك حفيدك سامح.

قربه منه، فأشاح والده بوجهه بعيدا عنه، وقال: أتمنى أن يكسر قلبك، كما فعلت معي.

عاد إلى درة، التي هدأته، ثم نسي كل شيء مع اشتعال الحرب، وأصبح كل ما همه هو النجاة من هذا الجحيم المشتعل. حاول الاتصال بوالده، ولكنه فشل.. ذهب إليه، فعرف أنه غادر للخارج بعد يومين من اشتعال الحرب. ظل يتنقل من مكان لآخر، يبحث عن أمان قد ولّى بعيدا.. يخرج متخفيا للحصول على ما يمكنه، ثم يعود مسرعا ويغلق البيت، وينكمشون معا في أقصى أركانه.

يحلم بالطعام والشراب، بمائدة عامرة مثل التي توضع في منزل والده يوميا، يمد يده ليأكل، ولكن درة توقظه، وتخبره أن سامح مريض جدا، ويجب أن يذهبا به للطبيب. لم يوافق منير، لعلمه بما يحدث في الخارج، ولكن بكاء سامح الذي لم ينقطع، وارتفاع درجة حرارته؛ أقنعه بالخروج معها، ليذهبا للطبيب. ركبا سيارة التاكسي، وقادها متخفيا، وسط الشوارع التي اختفت معالمها ورسمت الحرب لوحاتها على كل شبرا منها، حتى وصلا للطبيب، الذي فتح لهم بعد طول توسل. كشف على سامح، وكتب لهم بعض الأدوية، وصرفهم سريعا.

جلست درة في المقعد الخلفي، لتتمكن من حمل سامح وتهدئته، وواصل منير القيادة، ليجد أسوأ كوابيس حياته يتحقق أمامه، كمين ذبح أمامهم، وقد أوقف إحدى السيارات. حاول الرجوع، ولكن رجلين ملثمين مسلحين أشارا له بالتقدم، فسار للأمام، وتوقف خلف السيارة المتوقفة.

قواعد كمين الذبح بسيطة للغاية.. لديك فرصة واحدة، فهم يصطحبون ركاب السيارة للخارج فردا، فردا.. يسألونهم سؤالا واحدا، إذا أجابه إجابة صحيحة، يتركونه يمضي، وإذا أجاب إجابة خاطئة، يحصل على رصاصة في رأسه. يبدو الأمر بسيطا.. لا، ليس كذلك، لأنه لا أحد يعرف الإجابة الصحيحة، فهناك أكثر من فرقة تقيم كمائن للذبح، ولا أحد يعرف

الإجابة التي يريدونها، فما تتركك إحدى الفرق لتمر بإجابة، إلا وتذبحك الأخرى من أجلها.

انطلق قائد السيارة الأخرى، فعرف منير أنه قد قال الإجابة الصحيحة، التي يدفع نصف عمره ليعرف ما هي. نظر عبر المرآة، فوجد درة وقد احتضنت سامح، والدموع تترقرق في عينيها. تمنى أن يقول لها ألا تخاف، ولكن كيف يقول هذا وهو يشعر بالشلل يزحف على جسده، وبقلبه يوشك على الوثب خارج صدره؟ تقدم نحو الكمين، فقالت درة: اعتني بسامح من أجلي.

توقفت السيارة، وبجوارها رجلان مسلحان. قال الأول: هل أنتما معا؟

فقالت درة: لا، لقد أشرت له في الطريق، وركبت معه، وحملت طفله كي يمكنه القيادة.

فقال الرجل الأول: حسنا.

قال الثاني: هل......

وقبل أن يتم سؤاله، صاحت درة: يحيا القائد العظيم، ويسقط الخائن العميل و....

صمتت نهائيا، وسكنت حركتها، مع العين الثالثة التي أضيفت إلى جبهتها، وتدفقت الدماء؛ لتغطي وجه سامح، وتتناثر؛ لتصيب منير الذي صرخ بقوة:

- ما هذا الذي تقولين؟!

أوشك على فقدان الوعي، وقال الأول: خائنة عميلة.

تطلع الرجل الثاني إليها في ازدراء، وقال: آسف لأنك رأيت هذا، فنحن ما خرجنا لترويع الآمنين، بل خرجنا لصيد الخونة من أمثالها.

قالها وبصق في اشمئزاز، ففتح رجلان الباب وسحبا جثتها، فتعالى بكاء سامح، فقال الثاني: خذ طفلك الصغير يا رجل، حتى لا يتلوث بدمائها.

حمله الأول، ووضعه بجوار منير قائلا: يجب أن تعدنا أن تربيه، ليصبح رجلا يخدم وطنه، وليس خائنا مثل هذه المرأة.

انتزع منير الكلمات من حلقه انتزاعا، فشعر بها تمزق روحه تمزيقا: أعدك.

سمح له الرجل بالعبور، بعد أن ربت على كتفه قائلا: آسف لأننا أفسدنا سيارتك بدماء الخائنة.

انطلق منير بسيارته، لا يرى شيئا أمامه، فقط يريد الابتعاد عنهم، يريد الابتعاد عن كل شيء، يتمنى أن تخرج روحه، لتحلق بعيدا عن هذه الأرض الملوثة. لقد قامرت درة بحياتها لتمنحه فرصة النجاة، فلو قالت الإجابة الصحيحة، يقول مثلها وينجو معا، ولو كانت الأخرى، فإنها تمنحه الفرصة لينجو بقول عكسها، أو قد لا يسأله الرجل؛ فهو يعرف أنه سيقول عكسها، فيتركه. قامرت بحياتها، وخسرت للأبد.. لن تكون بجواره بعد الآن، بل لن يحصل على الفرصة ليواري جسدها التراب، ويدعو لها، سيصير جسدها طعاما للكلاب الليلة، ومن أجل ماذا؟ من أجله هو، وذلك الأحمق الصغير! ذلك ال...... الصغير، سبب كل شيء، لو لم يكن معهم، لما قامت درة بالمقامرة بحياتها بهذه الطريقة، بل لقامت بالإجابة على سؤال الرجل، وحصلت على فرصتها للنجاة، بل لو لم يمرض لما اضطرا للخروج في هذا الوقت، ولكانا آمنين في منزلهم. نظر لسامح ،الذي هدأ بكاؤه، بل وابتسم له، فهم بإلقائه من نافذة السيارة، ولكن صوت درة تردد في عقله:

- اعتني بسامح من أجلي.

قاد سيارته حتى المنزل، ولكنه لم يقو على فتح الباب والدخول بدونها. ظل في السيارة، حتى طرق أحدهم على الزجاج، فصرخ بمنتهى القوة، فتراجع الرجل بعيدا عن السيارة، ثم اقترب ثانية وتحدث إليه. كان أحد العاملين لدى والده، وقد كلفه بإحضار منير وعائلته للخارج منذ بداية الحرب، ولكن الرجل لم يستطع العثور عليه إلا الآن، لكثرة تنقله.

سافر منير وسامح للخارج، ولكن والده عرف الحقيقة بمجرد رؤيته، ابنه

منير لم يعد موجودا، لقد مات مع زوجته في كمين الذبح، أما هذا الذي لا يكف عن الشراب والهذيان وصب اللعنات على الجميع،..عليه، وعلى ولده سامح، وعلى نفسه، وحتى على درة، فليس حيًّا. حاول مساعدته بكافة الطرق، ولكنه فشل؛ فتركه يعيش حياته كما يريد، غائبا عن الوعي أغلب اليوم، ولا يكف عن سرد ما حدث على ابنه سامح، وصب اللعنات عليه لأنه المسئول عما حدث لأمه. حاول والده إبعاد سامح عنه، فأعلنها صريحة:

- إذا لم تكف عن التدخل في حياتنا، فسأقتل سامح، وأقتلك أيها العجوز الأحمق، ثم أقتل نفسي لأقوم بمطاردتك في الجحيم.

عرف الأب أن ابنه قد جن تماما، وأنه سيفعلها؛ لذلك كف عن التدخل في حياته، ولكنه حرص على الاعتناء بسامح، ومنحه ما يريد بعيدا عن والده، فنشأ سامح حائرا، مشوشا، معقدا، يحمل وزرا لم يفعله، ولكن والده يذكره به طوال الوقت، ويصب اللعنات عليه من أجله. جده حاول تعويضه بأفضل طريقة من وجهة نظره، منحه المال، الكثير من المال. كان ضائعا كريشة في مهب الريح، أو قطعة خشب تطفو وسط الأمواج، فتلقفه أصدقاءه، ودعوه إلى حفلاتهم وعرفوه على أقرب أصدقائه، المخدرات.. فقط جرعة صغيرة، ويسبح في عالم آخر عالم من السعادة الخالصة، بعيدا عن والده المجنون، وجده الأحمق، و ذنوب لا يعرف عنها أي شيء ولا يعرف كيف يكفر عنها. أصبحت أخلاقه أكثر حدة، ولم يعد يهتم بما يقوله والده، بل صار يرد له الصاع صاعين، ويصيح به:

- لو لم تكن جبانًا خائبًا، لما ماتت. لماذا لم تفعل أنت ما فعلت؟ لأنك جبان. أيها الجبان، لا تحدثني عما فعلت، بل اذهب، واقتل نفسك لتريح الجميع منك.

حاول جده مساعدته، فترك المنزل، وهرب بعد سرقة مبلغ كبير، وانتقل للإقامة عند أصدقائه، حيث يمكنه الاحتفال طوال الوقت كما أخبروه. كان يقود السيارة بسرعة، ويطرق بيديه على المقود، مرددا كلمات أغنية أجنبية عالية، ويستمتع بأنفاس سيجارته المحشوة بأجود الأنواع -كما أخبره

صديقه- حين ظهر شخص أمامه فجأة، فلم يستطيع عقله المشوش اتخاذ القرار المناسب، فصدمه، وأطاح به بعيدا، ورأى دماءه تغطي زجاج السيارة الأمامي. واصل القيادة صارخا:

- لقد صدمت أحد الأشخاص........ يا إلهي!.......... يا إلهي!.......

لم يتمكن من مواصلة القيادة، فضغط فرامل السيارة، ثم التقط هاتفه وأجرى اتصالا سريعا. لم يعرف ما قال، فقد الوعي خلالها، وتعالى صوت الطرف الآخر: سامح، سامح، أين أنت؟

حينما أفاق، كان يرقد في المستشفى، وجده يجلس على مقعد بجواره. تطلع إليه قائلا: لقد صدمت شخص يا جدي.

أمسك جده بيده قائلا: لا تخف يا بني، كل شيء سيكون على ما يرام.

وبالفعل، أهتم جده بكل شيء، فأخفى جميع آثاره، ولكن سامح ظل يسأل عن الشخص الذي صدمه، فقال جده: ما حدث قد حدث، يجب أن تنساه، وتستمر بحياتك.

أدخله مصحة خاصة في الخارج، ولكنه كان يقضي أغلب يومه في التفكير في الشخص الذي صدمه، وما قد يكون حدث له.. ترى هل مات؟ هل نجا؟ من هو؟ أين هو الآن؟ وماذا فعلت عائلته؟. حتى نجح في الحصول على معلومات عن الحادث باستخدام أحد الهواتف المحمولة الحديثة، التي قام أحد النزلاء بتهريبها للداخل، حيث يحظر على المرضي القيام بأي اتصالات، أثناء الفترة الأولى من إقامتهم في المستشفى. وجد أخبارًا عن الحادث، وعرف أنه صدم شابًا يدعى رامز شريف، وأن الشاب قد مات.

مات... مات... مات... شعر بالكلمة تتردد في أعماقه عشرات المرات بدوي مرعب، أفقده السيطرة على نفسه، فلم يشعر بنفسه إلا وهو يقطع شريانه بسكين صغيرة، سرقها من غرفة الطعام، وجلس بجوار الفراش، يراقب الدماء النازفة من ساعده، ويهمس: آسف.... آسف جدا يا أمي.... آسف جدا يا رامز....

رأى أمه، التي لم يعرفها إلا من خلال الصور، قادمة نحوه، فرفع نحوها عينين تبكيان دما، وصرخ: لماذا؟ لماذا فعلتِ هذا؟ لماذا يحدث هذا لي؟ أنا لم أفعل شيئا.

مسحت أمه علي رأسه بيدها، فرأى الدماء تعود لجسده ثانية، ورأى رامز قادما نحوه، فقال: أنا آسف جدا، أنا لم أرك، أقسم أنني لم أرك.

لم يتكلم رامز، فرفع سامح يده النازفة قائلا: لقد فعلت الأمر الصحيح، حياة مقابل حياة.

اقترب رامز منه، ومسح على رأسه؛ فعادت باقي الدماء إلى جسده؛ فصرخ: لماذا تفعلان هذا؟! لماذا تعيداني إلى هذا الجحيم؟! أنا لا أريد أن أعود.

قالت أمه: حياتك لم تنتهِ بعد، مازال لديك الكثير لتقوم به.

قال سامح: أي كثير،؟كل ما أفعله هو الندم على ذنوب لم أفعلها، وذنوب لا أستطيع التكفير عنها.

خرج الصوت من رامز ووالدته في نفس الوقت: يمكنك تكريم الأموات، بمسح آلام الأحياء.

- ماذا؟!

- يمكنك تكريم الأموات، بمسح آلام الأحياء.

شعر رامز بصوتهما يبتعد، وصورتهما تهتز وتبهت؛ فأغمض عينيه وفتحهما، ولكن المشهد تغير تماما.. وجد نفسه في حجرة خاصة، والأطباء حوله، فاستجمع قوته، وقال: لماذا؟!! دعوني أذهب..

تلا ذلك عدة جلسات خاصة، مع معالجين متخصصين، حكى خلالها أشياء كثيرة؛ ولكنه لم يذكر الحادثة ووفاة رامز. أخبره المعالجون أن ما حدث لم يكن خطأه، وأن عليه الاستمرار بحياته، وعليه أن يعرف أن والدته أحبته، وضحت بحياتها راضية من أجله، ولو وضعت في الموقف نفسه، فستفعلها ثانية من أجله، وأن عليه أن يستقيم بحياته من أجلها.. عليه أن

يحبها كما أحبته، ويفعل ما يجعلها سعيدة، فهي تراه الآن، وقلقة عليه؛ فعليه أن يخبرها أنه بخير.

نفس الأسطوانة المشروخة الباهتة التي يسمعها دائما، فلا تزيده إلا بؤسا على بؤسه.. أنا لم اختر المرض في تلك الليلة.. أنا لم أدفعهم للنزول في تلك الليلة والذهاب إلى هذا الطبيب بالذات، ليمرا بالكمين.. أنا لم أفعل شيئا.. أنا استيقظ كل يوم وأسال لماذا.. لماذا لم أمت في تلك الليلة؟ لماذا لم أمت مثل مئات الآلاف الذين ماتوا في الحرب؟!.. لماذا نجوت؟! لأعيش في هذا الجحيم المقيم! يا رب أرسل لي علامة، لأعرف ماذا أفعل.

ما لم يعرفه سامح أن العلامة كانت بجواره، وقد قررت القدوم للقائه في تلك الليلة، متمثلة في تلك الفتاة الرقيقة حياة، نزيلة أخرى في المصحة، لم يلاحظها من قبل؛ لأنها لا تفعل أي شيء، أي شيء على الإطلاق. إذا جلست في مكان، لا تتحرك حتى يأتي من يأخذها.. وإذا دخلت غرفتها، لا تخرج، حتى يخرجوها، ويدخلوها ثانية.. لا تأكل حتى يطعموها. وعلى الرغم من أنها من أقدم النزيلات، إلا أنه لا أحد يعرف أي شيء عنها، فهي لم تتحدث قط.

سمع سامح الطرقات على باب غرفته؛ ففتح ليجدها واقفة أمامه، تتطلع إليه بعينين زائغتين، وتتحرك شفتاها بلا صوت، كأنها لا تستطيع الكلام. ظل سامح يحدق فيها هو الآخر، فقد رأى في عينيها نظرة يعرفها جيدا. نظرة يراها دائما، كلما نظر في المرآة.. نظرة من يحمل هما عظيما، ذنبا عظيما لم يفعله، ولا يعرف كيف يهرب منه. تجمد الموقف بينهما لدقائق، حتى خرج صوت الفتاة: أريد أن أعرف كيف فعلتها!

- ماذا؟

- لقد حاولت كثيرا، ولكنني لم أستطع، لم أمتلك الشجاعة أبدا لفعلها، رغم أنني أفكر فيها طوال الوقت.

لم يتكلم سامح، فأكملت الفتاة: أنت امتلكت القوة لتحرر نفسك، لتقطع شرايينك وتنهي حياتك، ولكنهم لم يفهموا؛ لذلك أعادوك ثانية؛

لأنهم لا يفهمون.

ترقرقت الدموع في عينيها، وأكملت: أنا آسفة جدا من أجلك.

لم يجد سامح ما يقوله، فكلما هم بقول شيء، شعر أنه أحمق، فظل صامتا يتطلع إليها وهي تكمل: أرجوك اخبرني، كيف أتحرر من ألمي أنا الأخرى!

لم يعرف سامح كيف خرجت العبارة منه: أخبريني عما يؤلمك أولا.

صمتت الفتاة للحظات، تطلعت خلالها إلى عينيه، ففهم أنها تحاول التأكد من موقفه، ثم قالت: أنا ابنة داغر الأسود، وهذا الوجه ليس وجهي.

- ماذا؟

سمعا موسيقي خافتة، ثم ظهر المشرف، وأخبر الجميع أن يعودوا لغرفهم، فقد حان وقت النوم. سبه سامح في نفسه، وهو يرى الفتاة الرقيقة تغادره لغرفتها. دخل غرفته، وأغلق الباب وجلس على الفراش، وصورتها لا تفارق عينيه: أنا ابنة داغر الأسود، وهذا الوجه ليس وجهي.

ابنة داغر الأسود، سفاح الحرب الأهلية، الذي تسبب في مقتل آلاف الأشخاص، قبل أن يختفي، قبل نهاية الحرب بقليل، فلم يعرف أحد ماذا حدث له. البعض قال إنه قتل، وقالوا إنه هرب، بل وقالوا إنه كان الشيطان ذاته، وقد تلاشي بعد إتمام مهمته ورؤيته لأنهار الدم. تابع المنتقمون عائلته، فقتلوا كل أقاربه باستثناء زوجته وابنته الصغيرة، فقد هربتا للخارج، حيث ماتتا في انفجار حافلة، وأخذتا معهما عشرة أشخاص آخرين، وليسمي البعض ما حدث بضربة داغر الأخيرة. كيف نجت الفتاة من الحادث؟ وماذا تعني بأن هذا الوجه ليس وجهها؟!

تذكر وجهها الرقيق؛ فسأل نفسه: كيف عاشت هذه الرقيقة هكذا، مطاردة بذنب والدها الأسود، يتبعها الجميع دون أن تعرف لماذا. لابد أنها تستيقظ كل يوم، وتسأل لماذا، ولكنها لا تحصل على إجابة؛ فكل ما ستحصل عليه هو رصاصة في رأسها، لو عرف أحد أنها هنا. شعر بهمومه

تتلاشى في همومها، وبتفكيره كله ينصب عليها، وعلى ما يمكن أن يفعله من أجلها، فهو مستعد لفعل أي شيء من أجلها. استدعاه المشرف في تلك الليلة، وسأله عن أحواله، ثم سأله: عن ماذا تحدثت حياة معك؟

- من؟

- تلك الفتاة التي كنت تحدثها قبل موعد النوم.

- اسمها حياة؟ إنه أسم جميل.

- عن ماذا تحدثتما؟

صمت سامح للحظات، ثم قال: لا شيء.

- ماذا تعني بلا شيء؟

- لقد تحدثنا عن لا شيء.

نهض المشرف من مقعده، وجلس أمامه قائلا: اسمعني جيدا.. حياة هنا منذ فترة طويلة، لم تتحدث خلالها قط، وأنت أول شخص تتحدث معه؛ لذلك أحتاج أن أعرف ماذا قالت، لأستطيع مساعدتها.

- لقد أخبرتك، لقد تحدثنا عن لا شيء، وأنا لا أعرف شيئا.

ثم نهض، وعاد لغرفته، وهو يتمتم:

- حياة! يا له من اسم لفتاة، كل ما تبحث عنه هو الموت!!

لم يستطيعا التحدث سويا بحرية، إلا قليلا؛ فقد وضعت الإدارة عينًا عليهما، يراقبهما في كل ما يفعلان. حكي لها سامح عن حياته، وحكت له هي عن حياتها، وهروبها مع والدتها للخارج، حياتهما بهويتين مزيفتين، وكيف نجت من الانفجار يوم الحادثة. جلست حياة بجوار إحدى صديقاتها، وأخذت منها عقدا يحمل صورتها واسمها لترتديه قليلا، وانفجرت الحافلة، وماتت الصديقة، ونجت هي، ولكن تشوه وجهها، حددوا هويتها من العقد،

فأخذها أقارب صديقتها، وأجروا لها عدة جراحات تجميل، لتستعيد وجهها، الذي ليس وجهها.

عرفت فيما بعد أن الطبيب، الذي أجرى اختبار الحمض النووي وأخبر عائلة صديقتها أنها ابنتهم، قد تلاعب بنتيجة الاختبار، عرفت السبب حين أخبرها أن والدها بطلا، وأنه يحبه لما فعل، لذلك أنقذها من أجله. كانت أول وآخر مرة يحدثها أحدهم هكذا عن والدها.

لم تتكلم، أو تصحح الخطأ، فقد عرفت أن هذه هي البداية الجديدة التي تريدها. كانت تعرف كل شيء عن صديقتها حياة، ولكنها قررت أن تظل صامتة، لا تتحدث إلا قليلا جدا. ظنوا أن الأمر بسبب الحادثة، ولكنها في الحقيقة لم يكن لديها ما تقوله، فما ظنته بداية جديدة، أصبح سجنا جديدا.. سجنا في منزل لا تعرفه، وفي حياة ليست حياتها، وبوجه ليس وجهها؛ لذلك لم تجد أمامها سوى طريق واحد لتسرق لحظات من السعادة من الحياة القاسية، المخدرات، صديقتها التي لم تخذلها يوما. اكتشف أهلها، فأرسلوها للمصحة، ومازالت تبحث عن خلاص لا تجده، من ذنب لم ترتكبه. قال سامح: سنفعلها ثانية، وهذه المرة سنذهب سويا، لنمنح بعضنا القوة التي نحتاجها.

تأخر التنفيذ كثيرا، بسبب العين التي تتابعهما، ولكنهما تمكنا من الحصول على ما يريدان، ثم جلسا في غرفة سامح ليقوما بالأمر. قال سامح:

- الآن نذهب.

قالت حياة: الآن نتحرر.

ولكن أحدهما لم يتحرك، أو يفعل أي شيء.. ظلا يتطلعان لبعضهما لفترة قصيرة، ثم احتضنا بعضهما، ليشعر كل منهما بشيء يتحرك داخله لأول مرة، وشعور غريب عنهما بالسكينة والأمان يجتاحهما معا.

في الصباح، طلبهما المشرف، وأخبرهما أنهم تابعوا ما فعلا، وأنهما قد

ساعدا بعضهما البعض على تجاوز مرحلة كبيرة من مراحل العلاج، وإذا استمرا هكذا فسيخرجان خلال فترة قصيرة. قالت حياة: لا أريد أن أخرج، لا أريد العودة إلى سجني ثانية.

فقال سامح: لن تعودي إليه، فأنت ستأتين معي إلى حياتنا الجديدة، حياة بلا ألم.

تزوج سامح وحياة بعد خروجهما بفترة قصيرة، وانتقلا للعيش مع جده في فيلته. فرح والده كثيرا بحضور شخص جديد، يمكنه أن يخبره بما فعله سامح بوالدته، بينما بدأ سامح العمل في شركة جده، حيث ترقى سريعا، وأكثر هو وحياة من الأعمال الخيرية، فلم يسمعا بأي عمل خيري إلا وشاركا فيه، وكان يردد دائما: يمكنك تكريم الأموات بمسح آلام الأحياء.

ولكن الكابوس القديم عاد لزيارته ثانية.. بقيت حقيقة أنه قتل رامز تطفو في عقله مهما فعل. قد يمكنه الخلاص من ذنب والدته، بإقناع نفسه أنه لم يفعلها؛ ولكن كيف يتخلص من ذنب ارتكبه بإرادته الحرة. فلا يمكنه القول إنها المخدرات، فهو قد اختارها، فكل ما حدث بسببها يعد من اختياره. احتاج بشدة لشخص يتحدث معه، ولكنه لم يجد، فلا يمكنه التحدث مع أحد كما أخبره جده، ولا يمكنه التحدث مع حياة، حتى لا يعيد فتح جراحها القديمة، لذلك لم يبق سوى حل وحيد: مستمع.

دخل على الموقع الخاص بالمستمعين، فوجد أمامه مفاجأة كبيرة.. أسيل، والدة رامز، تعمل كمستمعة. طلب مستمعة أخرى، تحدث معها، ولكنه لم يستطيع محو أسيل من تفكيره. هل يفعلها؟ هل يطلبها، ويخبرها بما حدث؟ ولكن كيف يفعلها؟ كيف يخبر أمًا أنه قتل ولدها؟ كيف؟

عاد إلى الشراب ثانية، ثم طلب أسيل في لحظة ضعف، وأخبرها بكل شيء، عرف أنه ملعون لفعلته هذه؛ ولكنه شعر بالراحة قليلا بعد التحدث مع أسيل والبكاء بين يديها. سب نفسه كثيرا، وعنفها، ثم طلب أسيل ثانية: ليعتذر لها عن دعوته الأولى.

كان يذبل بسرعة كبيرة، وعادت الكوابيس تلاحقه عن امرأة مخيفة - يعرف جيدا أنها أسيل- تطارده، وتخبره أنه قتل ابنها، وأنها ستقتله لما فعله. لم يخبر حياة بالحقيقة.. أخبرها أنها كوابيس من طفولته، وحكايات والده المرعبة.

تأكد سامح من شيء يعرفه جيدا، حاول الآخرون إقناعه بعكسه: الذنب لا يموت أبدا. قد يكمن لبعض الوقت، فتظنه ذهب، ولكنه يعود ثانية.. يعود أقوى مما كان. لم يعد الانتحار شيئا سيئا كما كان، بل شعر سامح أنه مستعد له أكثر من أي وقت مضى، ولولا خشيته على حياة لفعلها، وأنهى الأمر.

وصل إلى شركته، دخل غرفة مكتبه، وفتح موقع المستمعين، فوجد صورة أسيل أمامه، ومازالت نفس العبارة تعلوها منذ فترة:

- غير متاح.

أغلق الموقع، وشرد ببصره للخارج، وقال:

- ترى أين أنت يا أسيل؟، وماذا تفعلين الآن؟

***

-٥٧-

- براءة تنتظرك يا رائف.
- سأحاول الحضور.
- يجب أن تحضر، لقد بكت كثيرا لأنك فوَّت حفلتها السابقة.
- حسنا، حسنا.. قبلها نيابة عني، وأخبرها أنني سأحضر.
- رائع، أحبك يا أخي الجميل.
- وأنا أيضا أحبك يا أختي الجميلة.

أغلق رائف الهاتف، ووضعه بجواره مفكرا.. من الجيد أن يدعوه أحد باسمه، الذي أوشك على نسيانه: رائف، فقط رائف، ليس الرجل، ولا صانع الفجوات، ولا المعلم، ولا السم.. رائف، من الجيد أن يشعر أن لديه حياة مثل الآخرين، حتى لو كان هذا لدقائق قليلة، يعود بعدها لكونه أحد الحراس السبعة، وللوفاء بقسمه الذي أقسمه منذ زمن طويل: ألا يتكرر ما حدث ثانية، ألَّا ترى الأرض هذا الهول ثانية.

تطلع إلى صورة براءة المعلقة على الحائط أمامه؛ فعندما ينظر إليها وإلى ابتسامتها الجميلة، يشعر بأمواج من الهدوء والسكينة تجتاح شاطئ الحياة المقفر، وتطرد الخوف والقلق الذين استوطنا داخله. يشعر أن هناك أملًا أن يكون الغد أفضل.. هناك أمل أن نخرج جيلا نقيا، لا نسقيه بسمومنا، ولا يحمل آلامنا وهمومنا وسمومنا.. هناك أمل، هناك براءة.

أخرج رائف ألبوم صور الحرب، وأخذ ينظر للصور، ويقرأ التعليقات المكتوبة تحتها، ويتمتم بين الحين، والآخر: لن يتكرر.. لن يحدث ثانية.

توقف عند صورة من معسكر للاجئين خارج الحدود، لطفل قضى نحبه من شدة الجوع. نزلت دموعه فوقها، وتمتم: أسف جدا يا مروان، لم يكن

هناك ما نفعله، ولكنني أقسم لك أن ما حدث لن يتكرر ثانية.

يتذكر رائف هذا اليوم جيدا، يسمع صرخات والدة مروان تتردد في أذنيه.. صرخات حادة ضعيفة من امرأة أنهكها الجوع والعطش، قبل أن تسقط ميتة بجواره.

فرت عائلة رائف عبر الحدود أثناء الحرب، ثم انتقلت إلى (مخيم المنصور) ظنا منهم أن الحال سيكون أفضل. ولكن ما لم يعرفوه أنهم يفرون إلى هلاكهم، مثل المستغيث من الرمضاء بالنار؛ فقد كانت القوات تحاصر المخيم، وتمنعهم من الخروج منه. حتى عندما أرادوا العودة إلى وطنهم ثانية، عندما رأوا أن ما يحدث عبارة عن عملية بطيئة لقتلهم، قال قائد القوات:

- أنتم هنا، وستظلون هنا، حتى نخبركم بغير ذلك.

تحكمت القوات في كل ما يدخل للمخيم، وأحيانا كثيرة كانت ترفض المعونات التي تأتي إليهم، أو تسرقها.. كما رفضت دخول قوافل الإغاثة للمخيم، بحجة تهريب السلاح للاجئين، وأنهم لا يريدون قتالا في أرضهم. حاول بعض الرجال الاعتراض، ذهبوا للقائد، واحتد النقاش بينهم، فأخرج القائد سلاحه، وأطلق الرصاص على ثلاثة منهم قائلا: يجب أن تكونوا شاكرين أننا سمحنا لكم بالعيش في أرضنا، بعد أن جئتمونا هاربين مثل الكلاب.

توسلت مجموعة منهم للقائد، ليسمح لهم بالخروج للعمل في أي شيء؛ ليحصلوا على بعض الطعام لعائلاتهم، فقال لهم: تريدون أن تدمروا وطننا، كما فعلتم بوطنكم.

زادوا في توسلهم، وأقسموا أنهم لن يفعلوا شيئا، بل سيعملون، ثم يعودون لعائلاتهم، وعرضوا عليه أن يأخذ نصف ما يحصلون عليه، فقال: لقد أخبروني منذ البداية أنكم حيوانات عجماء، لا تفهم إلا العصي.

أمر بجلد سبع منهم، ليكونوا عبرة للباقين؛ فلا يفكر أحدهم في التفكير ثانية.

كان رائف يقضي وقته جالسا في الخيمة مع والده وشقيقته أمل وأمه وشقيقه الأصغر مجدي، لا يتحركون إلا عندما يعلن القائد عن توزيع الطعام أو الماء، فيهرعون للحصول على حصتهم؛ وهي مناسبة لا تتكرر كثيرا، ودائما لا يحضرون ما يكفي الجميع. يعود من لم يحصل على شيء لينام على فراش الجوع والعطش، أما من يحصل على حصة، فإنه لا يستريح، بل يصبح عذابه مضاعفا، فأمعاؤه تتقطع وتحترق من الجوع والعطش، لكنه لا يجرؤ على تناول حصته.. يتطلع إليها بكل الشوق، يشير إليها، ولا يلمسها، فهي تمنحه أمانا نسبيا، فذهابها يعني أن يصبح مثل البقية، جائعا عطشا، وليس لديه أي شيء. قد تغلبه نفسه؛ فيتناول رشفة صغيرة، أو كسرة خبز، ولكنه يعود فيلوم نفسه ويعنفها على ما فعلت.

اشتد الحال، فقرر والده التحرك مع قليل من الرجال الآخرين. قرروا التسلل للخارج، والحصول على بعض الطعام والشراب والعودة للمخيم. وبالفعل خرجوا، والتقوا ببعض قوافل الإغاثة، الذين منحوهم طعاما، وشرابا ودواء، وأخبروهم أنهم هنا منذ فترة، ولكن القائد لا يسمح لهم بالاقتراب. حملوا ما استطاعوا، وجاء معهم اثنان من القافلة، ولكنهم وجدوا رجال القائد في انتظارهم، قبضوا عليهم وأخذوهم للقائد، فقال: كان يمكنني القبض عليكم أثناء خروجكم، ولكنني تركتكم تذهبون وتعودون، ليكون الدرس أكبر وأفضل؛ ليس لكم وحدكم، بل أيضا لجرذان الإغاثة الواقفين في الخارج.

وبصق مكملا: أية إغاثة تريدونها مع ما نقدمه لكم هنا؟!!

أشار لرجاله؛ فقتلوا رجلي الإغاثة، وقال: أعيدوهم لقوافلهم، وأخبروهم أن حيوانات المخيم قتلتهم، وسنقوم بشنقهم في الصباح.

احتجز رجال المخيم، وقام بنصب المشانق في ساحة المخيم، وجمع الباقين لمشاهدة عملية الشنق، ورجاله ينهالون بالضرب على كل من يصرخ أو يبكي أو يتفوه بأية كلمة. لن ينسى رائف رؤيته والده يصعد درجات السلم القصيرة، ويقف، فيضع أحدهم الحبل في رقبته.. حاولت والدته تغطية

وجهه بيدها، ولكنه أزاحها بعيدا، فهو يريد أن يرى.. يريد للمشهد أن يحفر بداخله؛ فلا ينساه أبدا. وفي تلك اللحظة، عندما جذب الجندي الذراع، أقسم ألا يتكرر هذا ثانية.. لن يكونوا ضعفاء هكذا ثانية.

كان الشجار والصراخ هما لغة الحوار الأساسية، وتحية الصباح والمساء بين المقيمين في المخيم. ولكن رائف لم يكن يكرههم، بل كان يشفق عليهم. كان يقول لنفسه: هولاء الأشخاص ليسوا أشرارا، إنهم يفعلون ما يفعلون ليستطيعوا البقاء أحياء، ولا يمكنك أن تكره شخصا لمحاولته البقاء حيا.

بالطبع كان منطق القائد ورجاله مختلفا تماما. كانوا يكرهونهم لمجرد وجودهم، ويعتبرون بقاءهم أحياء هو تحدٍ سافر لإرادتهم، ولولا ضغوط خارجية شديدة، لقاموا بإبادتهم جميعا. ولكن ذلك لم يمنعهم من تحين كل فرصة ممكنة ليتعاملوا مع أقل الأخطاء بمنتهى القسوة. لذلك، كان رائف يقضي وقته مع عائلته داخل خيمتهم الصغيرة، ولا يغادرونها إلا للضرورة الشديدة.. لا يحتكون بالقاتلين، ولا باللاجئين، الذين زادت حدة العنف بينهم كثيرا، ولأتفه الأسباب، وكان هذا مصدر تسلية رجال القائد، فلم يتدخلوا أبدا لفض شجار، بل كانوا يراهنون على المتشاجرين، ويضربون كل من يحاول الفصل بينهم، وإذا لم يعجبهم القتال، يعيدونهم ثانية للقتال، ويجبرونهم على المواصلة.

استيقظ رائف على بكاء شقيقه الأصغر، ومحاولات والدته اليائسة لتهدئته. ولكنه كان مريض جدا، ودرجة حرارته مرتفعة للغاية، وشقيقته تبكي بجوار أمها من شدة الجوع، وأمها تمسح على رأسها قائلة: صبرا يا بنيتي، سيحضر الطعام قريبا.

ولكن الطعام لم يحضر، وزادت حالة الطفل سوءًا؛ فحملته أمه وذهبت تبكي وتتوسل لأحد الجنود، فنظر لها الجندي في ازدراء وسخرية، ثم قال: لا يوجد بيطرين هنا؛ فخذي حيوانك الصغير واذهبي.

بكت والدته، وانحنت لتقبل قدم الجندي، ولكنه صفعها بمنتهى القوة،

فألقاها أرضا، وسقط الطفل من يدها. فلم يتمالك رائف نفسه، وانقض على الجندي وركله في ساقه بكل قوته، فصفعة الجندي صفعة أدمت فمه وألقته أرضا، ثم ركله في صدره، فشعر بأحشائه تقفز في فمه. هم الجندي بركله ثانية، ولكن والدته وضعت شقيقه أرضا، ونامت فوقهما، وهي تتوسل للجندي، الذي ركلها في صدرها وبصق عليهم، وسار مبتعدا يتمتم: حيوانات قذرة.

عاد رائف لخيمتهم يبكي جراحا داخله؛ أما خارجه، فقد كان صلبا يخبر والدته أنه بخير، وأن كل شيء سيكون بخير. نام على ساقها، فغلبه النعاس، فرأى والده والرجال يقتادونه لحتفه الأخير، ثم جُذِب الذراع، وسقط والده.. يهتز جسد أبيه لحظات، ثم تسكن حركته، ويسمع رائف نفسه يقسم ألا يتكرر هذا.. لن يكونوا ضعفاء هكذا ثانية.

استيقظ من نومه، فوجد أخاه قد هدأ ونام، وكذلك تتكوم شقيقته عند قدميه، وقد نامت تئن بجوعها. وقبل أن يسأل والدته عما فعلته لشقيقه، جاءته الإجابة على هيئة صراخ من السيدة المقيمة في الخيمة المجاورة، أن أحدهم قد سرق دواء طفلها الصغير المريض. رأى الدموع تنهمر من عيني والدته، وتسيل على وجهها المتورم، وتضم طفلها لجسدها بقوة. جلس بجوارها، وضم رأسها إليه قائلا: لا بأس؛ لقد فعلت ما عليك فعله، ولا يمكن أن يلومك أحد.

لا يمكن أن يحكم أحد على ما تفعله الأم لتنقذ أولادها.. ولكن كان للقائد رأي مختلف، فقد قال: لدينا سارق في المخيم، ويجب أن نجده.

أخرجوا الجميع من خيامهم، ودخل رجاله لتفتيشها، لا يعرفون عما يبحثون ولا يهتمون. انتهوا، فقال القائد: ستعودون إلى خيامكم الآن، وأي شخص سأسمع صوته، سأقوم بشنقه.

عادوا إلى خيامهم، يتساءلون عما يعنيه، فوجدوا الإجابة في انتظارهم على هيئة كارثة رهيبة.. لقد قام رجاله بسكب مياههم القليلة، وتحطيم

زجاجاتها، ثم أخذوا طعامهم القليل، وسحقوه بأقدامهم في الرمال. عضوا أيديهم من الألم حتى أدموها، وكتموا الصرخات في أحشائهم، التي يمزقها الجوع، والعطش، والحسرة، والألم.. وبعد أيام جمعهم القائد، وقال: هناك وفد هام قادم لزيارتكم، أريدكم أن تنسوا أصولكم الحيوانية، وتحاولوا التصرف مثل الآدميين، كما علمناكم.

قام رجاله بتوزيع طعام، وشراب، ودواء، وكساء جديد عليهم، وقال القائد: إياكم!

كلمة واحدة قالها؛ ولكنهم فهموا معناها جيدا. ورغم ذلك، غلبتهم عادتهم، فأخفوا الطعام والشراب والدواء في كل مكان.. في خيامهم، وفي حفر في الخارج، وفي كل مخبأ ظنوه جيدا، ثم اصطفوا، ومر بهم الوفد الأجنبي، ورئيسته تتحدث بلغة لم يفهموها، فتولى أحد رجال القائد الترجمة لها. قال: إنهم يشكرون القائد، ويدعون له؛ لشكره على ما يفعل لهم. إنهم يقولون إنهم سعداء للغاية، أسعد مما كانوا في أوطانهم، ويريدون شكر القائد العظيم.. يقولون إنه مسح آلامهم بيده الحانية، فكان لهم الأب، والأم، والصديق، والصاحب.. إنهم لا يعرفون كيف يشكرونه، ولا ما يفعلون ليعبروا لهم عن امتنانهم لما فعله لهم.

كان يتحدث ويتحدث، دون أن تسأل.. وإذا وجهت لأحدهم سؤالا، فإنه يجيبه مباشرة، ودون أن ينظر لهم.. ومهما كان السؤال، فإنه يجيبه بأكوام من المدح، يلقيها على القائد العظيم، تفنظر السيدة إلى الأطفال، وإلى أجسادهم التي أكلها الجوع والمرض، وتقول: وماذا عنهم؟

- نحن نوفر أفضل السبل للعناية اللازمة بالأطفال، لأن القائد العظيم يؤمن أنهم بناة المستقبل، وهكذا هو قائدنا بعيد الرؤية، يفكر في المستقبل دائما.

انتهت الزيارة، فصافحت رئيسة الوفد القائد، وشكرته على مجهوده العظيم في العناية بالمخيم، ثم غادرت، فجمعهم القائد قائلا: لن أطلب منكم

شيئا؛ ولكني أخبركم أننا قد وزنَّا كل شيء قبل أن نعطيه لكم، وسنقوم بوزنه ثانية، ونعوض فارق الوزن من أجسامكم.

انطلقوا يحفرون الأرض، ويخرجون كل شيء، ويضعونه في كومة كبيرة، ويضعون معه أرواحهم، وأرواح أطفالهم، فشكرهم القائد على أمانتهم قائلا: يبدو أنه مازال بكم بقايا من الآدمية بعد كل شيء.

أمر القائد بتوزيع بعض الأشياء عليهم، ثم أشعل النار في الباقي أمام أعينهم، حتى أن بعضهم هم بإلقاء نفسه في النار؛ لإنقاذ ما يمكن، لولا أن منعه الآخرون، وسقط البعض أرضا وقد عجزت أقدامهم عن حملهم، وهم يرون حياة أطفالهم تتلاشى أمامهم بمنتهى البساطة.

كل شيء قليل ملوث في مخيم المنصور.. حتى الهواء نفسه؛ فإذا تنفست عليك أن تسحب نفسا عميقا؛ فأنت لا تعرف هل ستجد نفسا آخر أم لا. سار رائف بعيدا عن منطقة الخيام، فأبصر ثلاثة في مثل سنه، أو أكبر قليلا يجلسون في حلقة، ممسكين أيديهم سويا، ويرددون شيئا لم يسمعه، فاقترب منهم، فسمعهم يحكون قصصا عن أهوال الحرب، التي عاشوها، أو التي سمعوها.

كانوا يرددون القصة سويا في نفس الوقت، مغمضين عيونهم، وتهتز أجسادهم، ففهم رائف أنهم لا يحكون القصة، بل يرددونها ليحفروها داخلهم، ليروها أمامهم متجسدة في كل لحظة، ثم يقسمون ألا يتكرر هذا ثانية، وألا يكونوا ضعفاء ثانية.

اقترب رائف، وجلس بجوارهم، فلم يغيِّروا جلستهم، بل ضموه وسطهم، وأمسكوا يديه، فحكى قصة عائلته ومعاناتها، وهروبهم ليأتوا إلى جحيم المنصور. حكى لهم عن شنق والده أمام عينيه، وعما فعلته أمه لأخيه الصغير. انتهى، فصمتوا للحظات، وعادوا يرددون القصة ثانية معه.. انتهوا، فرددوها مرة أخرى، وقال أحدهم: يجب أن تتذكر دائما، ولا تنسى أبدا.. يجب ألا تفارق صورهم عينيك، أو تفارق أصواتهم أذنيك.. يجب أن

نتذكر دائما.

لم تكن جلساتهم منتظمة، ولكن رائف حرص على حضورها قدر إمكانه، وهناك سمع الكثير من القصص، فعرف أنه -على الرغم من معاناته- لم ير سوى جزءا صغيرا من الحرب. هناك عالم كامل من الوحشية لم يسمع عنه شيئا، ولم يتصور أنه موجود.

سمع الكثير من القصص عن المجازر الجماعية، والدفن الحي للمواطنين، وحواجز النهب، والقتل، والاغتصاب، وكمائن الذبح، والمعارك المشتعلة طوال الوقت، تحصد من المواطنين أكثر مما تحصد من المقاتلين.. سمع قصصا عن الأنفاق التي حفرها المواطنون؛ ليهبطوا إليها للاختباء من القذف الجوي، وعلم المقاتلون بها، فتظاهروا بقيامهم بالقصف، فهرع المواطنون للنفق، فقاموا بإغلاقه عليهم، وتركوهم محتجزين تحت الأرض، وذهبوا.

سمع قصصا عن السجون، ومعسكرات الخطف، وحوادث التعذيب جعلته يدرك أن من مات أسعد حظا بكثير ممن نجا. فالضرب، والحرق، والكي، وقطع الأطراف، والاستخدام كأهداف لتعلم الرماية تبدو كلهوِ أطفال بالنسبة لما يفعله المقاتلون بمن يقع في أيديهم.. سمع قصصا عن محاولات الفرار للخارج، وعمليات النصب التي يتعرض لها الهاربون على يد المهربين، أحيانا يكتفون بسرقة أموالهم، وأحيانا يتم ذبحهم وإلقاء جثثهم في الماء، مع الإبقاء على النساء طبعا، للتمتع بهم فيما بعد.

النساء! شعر رائف بشعره يشيب مع القصص التي رووها عما يحدث للنساء في الحرب، من خطف وتعذيب وتشويه، في معسكرات الاغتصاب المقامة لمتعة المقاتلين.. وعلى الحواجز المقامة في الطرق، حتى لم تعد النساء تجرؤ على الخروج للشارع؛ فصعد المقاتلون لمنازلهم، واختطفوهم بعد قتل أهليهم. حكوا قصة وفاء وما حدث لها.. كانت خارجة من منزلها لشراء بعض الأشياء الهامة مع والدها، فمرا بعدة حواجز تطلب منهما رؤية هويتهما، أو تأخذ منهما بعض النقود، أو تكتفي بسبهما وإهانتهما.. حتى مرا بالحاجز

الأخير، الذي كان حاجزا متحركا.. تطلع أحد المقاتلون لوفاء بنظرة إعجاب، فقال القائد: تريدها؟

- نعم.

فالتفت لوالدها قائلا: سنأخذها.

اعترض والدها، فانهال المقاتلون عليه بالضرب، حتى مات أمام عينيها، ثم حملوها ووضعوها في مؤخرة سيارة ضخمة مع عدد من النساء الباكيات، فجلست وفاء تبكي بجوارهم، فسبهن المقاتلون، وأخبروهن أنه قد حان الوقت ليدفعن ثمن ما فعلن، أخذوهن إلى معسكر ضخم، وأدخلوهن في غرفة واسعة كريهة الرائحة، لكثرة عدد النساء الموجودات بها، إذ لا يسمح لهن بالخروج لقضاء حاجاتهن، بل يقضينها على أرض الغرفة في أحد الأركان، رأت وفاء علامات التعذيب على أجساد النساء اللاتي كان بعضهن عاريات، وقد اصطبغت أجسادهن بالدماء. اقتربت وفاء من إحداهن متوقعة على نفسها، لتغطية جسدها. سألتها عما يحدث.. ولكنها لم تكد تلمسها، حتى قفزت المرأة في الهواء، وصرخت بكل قوتها: لم أعد أستطيع.. أرجوكم، كفى.

لم يهدأ صراخها، حتى دخل أحد المقاتلين وانهال عليها بالضرب، فسكت صراخها وراحت تئن في ضعف، قبل أن تفارق الحياة، وسط نظرات الحسد من باقي النساء!

بدأت أصوات البكاء والأنين المكتوم تعلو، مع اقتراب خطوات الأقدام من الباب، الذي فتح ودخل بعض الرجال. اقتادوا وفاء ومعها الفتيات اللاتي أُحضِرن بالأمس إلى مكان آخر، جاءتهم امرأة أجبرتهم على الاغتسال وارتداء ثياب أخرى، ثم صففت شعورهن، وعطرتهن، وسط صيحات المقاتلين وإشاراتهم إليهن قائلين: سأتزوج هذه الليلة.

سرن معهم، فمروا بمنطقة أخرى، محتجز فيها عدد من النساء العاريات، مصفوفات بطابور للعرض، والمقاتلون يتطلعون إليهن،

ويتحسسون أجسادهن، ويتحدثون معهن بمنتهى البذاءة، ومن تفكر في عدم الرد، فعليها التفكير في زميلتها المصلوبة بجوارهن. عرفت وفاء فيما بعد أنه سوق لبيع وشراء النساء، وأخبرتهن المرأة أن هذا جزاء من لا يرضى عنها القائد، فهو يحب تذوق النساء أولا، أما من يرضى عنها، فإنه يبقيها هنا، ويمنحها لرجاله.

وصلت وفاء إلى منزل آخر، وجلست في صالته، فدخل القائد أولا، تطلع لهن للحظات، ثم أشار لإحداهن، فاقتادوها لغرفته، ثم دخل كبار رجال المعسكر، فاختاروا النساء اللاتي يريدون، واصطحبوهن لغرفهم، وسط بكائهن وصراخهن، الذي يزيد الأمر متعة،؛ على حد تعبير القائد.

أصيبت وفاء بالخرس التام بعدما حدث، ولم تعرف قصتها إلا عندما كتبتها قبل وفاتها بقليل، بعد أن تم إنقاذها من المعسكر على يد مقاتلين من جهة أخرى.

حكى الأولاد عن بلدتهم الصغيرة المسالمة، التي احتلها المقاتلون من الفئة (أ)، معلنين أنهم قد حرروها، فنزل الأهالي للاحتفال معهم بالتحرير؛ خوفا منهم. ولكن مقاتلين من الفئة(ب)، قذفوا البلدة لأيام طويلة، حتى أجلوا الفئة (أ) عنها، بعد قتال شديد اشترك فيه الأهالي مرغمين، ثم دخلوها واحتفلوا ومعهم الأهالي بتحرير البلدة. ولكن مقاتلين الفئة (ج) قذفوا البلدة، حتى أجلوهم عنها، ثم أعملوا سلاحهم في الأهالي الخونة، الذين خانوا محرريهم من الفئة (أ)، وتحالفوا مع الخونة من الفئة (ب).

جمعهم القائد ذات يوم، وصفَّهم في ساحة المخيم، وأمامهم امرأة ذابلة، يغطي شعرها وجهها، وبجوارها طفلان صغيران، وأمامهم بقايا طفل آخر.

أشار القائد نحوها قائلا: انظروا إلى هذه الحيوانة الواقفة أمامكم؛ لقد فعلت فعلة تأنف الضواري منها. هذه المرأة المتوحشة التهمت جسد طفلها الصغير مع طفليها الآخرين، فأي شيطانة تفعل هذه الفعلة الرهيبة!!

ثم أشار نحوهم مكملا: عرفتم الآن لماذا نعاملكم هكذا؟ لآن هذا ما تستحقونه أيتها الحيوانات الحقيرة.

- بل أنت الحيوان الحقير.

ارتفع الصياح من وسط الصفوف؛ فاعتدل القائد مذهولا، وقال: فليتقدم الذي قال هذا، أو أشنقكم الآن.

- بل أنت الحيوان.

علا الصراخ من أكثر من حنجرة هذه المرة؛ فأشار القائد لرجاله، فانهالوا عليهم بالضرب. ولكن الرجال لم يصرخوا هذه المرة، بل التمعت أعينهم ببريق آخر وهم يستقبلون ضربات الجنود، ثم يشتبكون معهم في القتال بأيديهم وأسنانهم، مطلقين عنان غضب عنيف طال حبسه في صدورهم، وحان وقت خروجه. فر القائد مسرعا وهو يشعر بفداحة خطأه وعدم تقديره لما أثار فيهم بهذا المشهد. واقترب رائف من المرأة، التي لم تتحرك من مكانها قائلا: لا بأس، لقد فعلتِ ما عليك فعله لإنقاذ عائلتك، ولا يمكن أن يحكم أحد على امرأة تسعى لإنقاذ عائلتها.

لم تتحرك المرأة؛ فأكمل: ابنك الصغير يقول شكرا لك. شكرا لك لأنك اعتنيتِ بأخوتي. شكرا لك.

انتهى العراك بمقتل عدد من اللاجئين، قبل انسحاب الجنود للخارج، تاركين جرحاهم خلفهم، يتوسلون للاجئين لتركهم، فتركوهم وعادوا لخيامهم. في اليوم التالي، أرسل لهم القائد بعض المعونات؛ ولكنهم فهموا أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، وأنه يدبر شيئا لهم. ولكن المفاجأة الأكبر حدثت.. لقد أنهى الرئيس الجديد الحرب، وأمر بعودة اللاجئين فورا إلى وطنهم. عرف رائف فيما بعد أن القائد تم تعيينه كمبعوث للسلام الدولي.

بعد عودته لمنزله، التقى بالثلاثة الآخرين، وجلسوا يسردون قصص الحرب في جلسة طويلة، ثم قال رائف: لقد انتهى الجزء الأسهل بانتهاء

الحرب، والآن يبدأ الجزء الصعب، وهو الوفاء بالقسم الذي أقسمناه، ألا يتكرر هذا ثانية أبدا.

ومنذ هذه اللحظة، وهو يعمل بكل قوته للوفاء بهذا الوعد، ومعه الحراس الثلاثة، ثم ارتفع عددهم إلى سبعة، صاموا عن كل ما في الدنيا، إلا شيئا واحدا، وهو الوفاء بقسمهم.

دقت الساعة الكبيرة؛ فنظر رائف لها، ثم أخرج هدية صغيرة من درج مكتبه، وسار للخارج. استقل سيارته إلى حفل ابنة شقيقته، وهو يردد قصصا من الحرب طوال الطريق. دخل الحفل فصافح الجميع، واحتضن الصغيرة التي راحت تقبله قائلة: لقد كنت أنتظرك.

- أحبك يا صغيرتي.

- وأنا أيضا.

تركته، وذهبت تلعب مع أصدقائها، فوقف يتطلع إلى الحفل، ويردد القصص، فوقفت شقيقته بجواره قائلة: أتمنى أن تكف عن العبوس لبعض الوقت، وتحاول تجربة الابتسامة، إنها جيدة للغاية.

- لا يمكنني أن أبتسم، وأنا أعرف أن أحد أفراد عائلتي يتألم.

أشارت نحو الطفلة قائلة: عائلتك كلها هنا، وكلها سعيدة.

- أنت شقيقتي، ولكن عائلتي تمتد لتشمل الجميع؛ حتى الذين لم يولدوا بعد، ولن أهدأ حتى يكونوا جميعا آمنين سالمين في أوطانهم.

صمتت للحظات، هزت خلالها رأسها، ثم قالت: أتمنى أن أعرف هذه التعاويذ الغامضة التي ترددها طوال الوقت.

- أنت لا تريدين أن تعرفي.

ارتشفت من كوبها، ثم قالت: لماذا ترددها دائما؟

لأننا يجب أن نتذكرهم طوال الوقت، ولا ننساهم للحظة واحدة.

- ألفا في خدمتك يا سيدي.

تطلع يوسف إلى ألفا، الذي انتصب واقفا أمامه، وخلفه ثلاثة آخرون قدمهم بأسماء العميلان (و) و (ر) والعميلة (ى). أشار له يوسف بالجلوس، فجلس أمامه حاسوبه قائلا: آخر المعلومات لدينا تشير أن شريف اختفي من منزله، بعد أن أطلق فيروسا مدمرا، مسح كل البيانات لديه، ثم أنطلق مع زوجته إلى جهة مجهولة، فشلنا في معرفتها، ولكننا نعمل حاليا على عكس تأثير الفيروس للحصول على البيانات التي حذفها.

قال (ر): لقد قمنا بفحص المعلومات التي أرسلها لنا شريك شريف، ونعتقد أن هناك جزء ملفق من هذه المعلومات.

قالت (ى): الجزء المؤكد هو أن شريف هو من سرق الملف؛ لا أحد يعرف كيف، فلم يتمكن الخبراء من إعادة محاكاة ما فعله، ثم أرسله لشخص آخر، القرصان المعروف باسم ريان، وتم عرض الملف للبيع.

قال (ر): وقد قام أحدهم باختراق المنظم اكس، وأوقف المزاد قبل انتهائه بثوان معدودة، وقام بحذف نسخة البرنامج الموجودة لدى ريان، ولكننا فشلنا في معرفة هويته، وقام ريان بتفعيل برنامج للطوارئ حذف كل بياناته قبل هربه، مازلنا نحاول استعادتها.

سألهم يوسف: هل لديكم احتمالات عن هوية هذا الشخص؟

قالت (ى): لم نستطع التوصل لها بعد.

قال (و): هناك احتمال، ولكنه بعيدا للغاية.

قال يوسف: ما هو؟

قال (و): أن شريف نفسه هو الذي اخترق المنظم، وأوقف المزاد.

قال (ر): لا يمكن؛ فلماذا يخترق شريف المنظم لإيقاف مزاد قام بتنظيمه؟

قال (و): لهذا قلت إنه احتمال بعيد، ولكن الطريقة التي تم بها الأمر تشير إلى شريف.

قال يوسف: حسنا، واصلوا العمل، وأخبروني عندما تتوصلون لجديد.

سار يوسف نحو حجرته الخاصة، وجلس على مقعده مفكرا.. لن تنتهي الغرائب من هذا العالم، فهو الذي شعر بالدهشة لتكلفته بمهمة الدكتور أحمد؛ لأنه ليس لديه جريمة لتوصيله بها، مثل الرجال الذين يطاردهم عادة في الخفاء، عبر تحريك القطع، يتم تكليفه بقيادة فريق مطاردة مباشرة لهارب من المكتب التاسع. لا يعرف ما هو الأغرب: وجود خائن في المكتب التاسع؟ أم حصول هذا الخائن على نسخة من برنامج المستمعين؟ أم تكليفه بهذه المهمة؟.. لا ريب أن مهمته القادمة ستتعلق بشيء أغرب، لا يمكنه التفكير فيه.

تلقي يوسف زيارة خاصة من الضخمين، أخبراه أنه مطلوب، فذهب معهما لمقابلة صانع الفجوات، الذي أخبره أن مهمة دكتور أحمد قد انتهت، وأن لديه مهمة أخرى من أجله، فقال يوسف: ولكن المهمة لم تنتهِ؛ فأحمد ما زال حرا.

فقال الرجل: لقد انتهت عملية الدكتور أحمد.

وناوله ملفا آخر قائلا: هذه مهمتك الجديدة.

لم يتمكن يوسف من القبض على أحمد، ولكن الساحر أخبره أن هذا ليس فشلا، فمهمته لم تكن القبض عليه، وإنما دفعه في طريق معين، وعلى أحمد الاختيار، هل يسير فيه أم لا، وأن حقيقة عدم اختيار أحمد لطريق الخيانة تجعله سعيدا.

كانت هذه هي الفكرة التي قرر يوسف استخدامها ضد أحمد، للإيقاع به ومسح تاريخه كله؛ الخيانة. فعند إعلان خيانة أحمد، سيتبرأ الجميع منه،

ومن أفكاره كلها، بل ربما يسارعون لاعتناق أفكار الجانب الآخر، ليثبتوا أنهم ليسوا مثله خونة لوطنهم. ولكنه لا يستطيع تلفيق التهمة لأحمد، يجب أن يجعله يفعلها بإرادته، ليستحق كل ما يحدث له بعدها. جمع يوسف كل المعلومات اللازمة عن الشبكات التي يتابعون عملها، توقف عند ديفيد وما يحاول فعله، وتوافق أهدافه ظاهريا مع ما يسعى إليه أحمد: لنرى إلى أي مدى ستذهب؛ لتدمير المستمعين يا دكتور أحمد.

جمع يوسف كل المعلومات اللازمة، وبدأ تحركه بإخراج نادر من المعادلة عن طريق حادثة تبدو مفتعلة، يعلنون بعدها عن نقله إلى المستشفى في حالة خطرة، في حين أنه في السجن لما فعله. بهذه الخطوة حرم ديفيد من عينه داخل فريق أحمد، وأرعب أحمد وفريقه الذين ظنوا أن عملية صيدهم قد بدأت وعليهم أن يتحركوا بسرعة؛ وكذلك ظن ديفيد، فعرف أنه يجب أن يتحرك بسرعة، ومع السرعة يقل التفكير، وتكثر الأخطاء، وهذا ما يحتاجه.

علم عبر عميلة في شبكة ديفيد أن ديفيد يجهز لعملية ضد المستمعين، ولكنه يحتاج إلى شخص يفعل الهجوم من الداخل. أرسل دعوة خاصة لأحمد لزيارة مركز المستمعين في وقت قريب، تلقفها ديفيد، ووافق عليها سريعا قبل أن يراها أحمد، ثم انطلق ليقابل أحمد، ويعرض عليه الهجوم القادم، هجوم النبضة.

حانت لحظة الاختبار والاختيار الحقيقي.. قام بوضع المعلومات الخاصة بنادر في طريق بيلسان، وألقى بمعلومة أخرى عن ديفيد في طريقها، يمكنها بتتبعها الوصول إلى حقيقته.. ووقف ينتظر. هل سيغض أحمد بصره، ويكمل عمله مع ديفيد، أم سيتراجع، ويخرج من الأمر.

اختار أحمد.. ذهب لنيروز، وأخبره بكل شيء، وتعاون معه للقبض على ديفيد وأعضاء شبكته، وبهذا يتحقق الجزء الأول من خطة يوسف: القضاء على شبكة ديفيد نهائيا. لا يعرف نيروز أن يوسف هو صاحب فكرة جعل النبضة تخرج بالملف المحتوي على مكان وسام، وهو من قام بإعداد

الفيروس الذي سرق بيانات شبكة ديفيد كلها مع عدد من الخبراء، ولكن بقي الجزء الثاني من خطته.. أحمد أصبح حرا، بعد أن جاءته فرصة الخروج من كل شيء. ولكنه خالف الاتفاق، وسعى لتهريب وسام، ليبدأ جولة جديدة من القتال، غير عالم أنه يسير في الطريق الذي توقعه نيروز بالضبط، وينتظره في نهايته. قام بإعادة القبض على وسام ثانية، وحصل على النسخة المتبقية من برنامج وسام، ثم كانت المفاجأة له شخصيا؛ لقد حصل أحمد على عفوا شامل مرة أخرى. صحيح أنه لم يتعاون مع ديفيد، ولكنه ارتكب ما يكفي لوضعه في السجن لفترة طويلة، فكيف يحصل على العفو؟!!

وقبل أن يتلذذ نيروز بنصره، صفعته كارثة كبرى.. هناك خائن في المكتب التاسع، سرق ملف المستمعين، وعرضه للبيع في مزاد خاص، وكادت العملية تتم، لولا تدخل غامض، أوقفها قبل نهايتها بثوان معدودة. شعر بالحياة تفارق جسد نيروز عند سماعه هذه الكلمات، لا يستطيع وصف ما شعر به نيروز في هذه اللحظة، قام نيروز بكتابة استقالته فورا، ولكنه لم يوقعها.. مازالت أمامه مهمة أخيرة. كلف أفضل رجال العمليات الخاصة، القائد ألفا، بصيد شريف. منحه كل المصادر الممكنة، وأعطاه إشارة البدء، كانت آخر المفاجآت من نصيبه هو. إيقاف عمله على مهمة دكتور أحمد، وتكليفه بقيادة فريق ألفا لصيد شريف.

بدأ العمل، فبدأت المفاجآت.. لا أحد يعرف كيف نجح شريف في سرقة البرنامج. أكد له الخبراء أن ما فعله مستحيل تماما. يستحيل على أي شخص الوصول إلى قلب النظام كما فعل شريف، كما أن كل المعلومات التي لديه تشير إلى أنه ليس خائنا أبدا، بل هو واحد من أفضل رجال المكتب التاسع، وسجله نظيف بالكامل، دون نقطة سوداء واحدة، فكيف يصبح خائنا فجأة دون سبب؟.. وحده شريف يملك هذه الإجابة، ويجب أن يصل إليه ليعرفها. سمع طرقات على باب غرفته؛ فاعتدل قائلا: ادخل.

دخل ألفا، وتطلع إلى يوسف قائلا: لقد وصلتنا معلومات هامة للغاية.

- من أنت؟

- أنا الرجل الذي سيساعدك للوصول إلى هدفك؛ تدمير المستمعين.

لم يصدق أحمد نفسه وهو يسمع هذه العبارة؛ فها هو نيروز يسعى خلفه بخطة أخرى، ليوقع به مرة أخرى. ولكنه قد أخذ كفايته من القتال، والهرب، ومن المستمعين. قال: ماذا تريدون هذه المرة؟

قال شريف: أنت الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتي للحصول على ما أريد، وهذا سيساعدك في تدمير المستمعين كما تريد و......

قاطعه أحمد قائلا: أخبر نيروز أنني أخذت كفايتي منه، ولست مستعد لتكرار الأمر.

- أنا لا أعمل لنيروز.

- ماذا؟!

- لقد كنت أعمل لديه، ولكنني الآن هارب، والجميع يسعون خلفي.

- ماذا؟!

قالها أحمد، وانهار على مقعده، وغطي وجهه بيديه متمتما: يا إلهي!

- يمكننا مساعدة بعضنا البعض؛ للحصول على ما نريد.

ثم أشار نحو بيلسان قائلا: انظر إلى ما فعلوا بها.

فجذبه أحمد من يده، وسار به للخارج قائلا: لقد أوضحت نفسي من قبل؛ أنا لا أتعامل مع الجواسيس.

دخل، ودفع الباب في وجه شريف لإغلاقه..

ولكن الأخير وضع قدمه في الطريق، وقال:

- لدي دليل على أنك كنت محقا، المستمعون يمكنهم التذكر.

- لقد كنت مخطئا، المستمعون لا يمكنهم التذكر.

- استمع لي، لدي دليل حقيقي على أنهم يمكنهم التذكر.

صمت أحمد للحظات، ثم دفع الباب بقوة قائلا: لا أهتم.

دفع شريف الباب قائلا:

- لدي نسخة من برنامج المستمعين، وسأمنحها لك إذا ساعدتني، يمكنك أن تفعل بها ما تريد.

تجمد أحمد في مكانه للحظات، ثم قال:

- أخبر نيروز أنه قد أحسن اللعب هذه المرة؛ ولكنني لن أخدع ثانية.

قالها، ودفع الباب فأغلقه في وجه شريف، الذي ظل يتطلع إليه لحظات، ثم قال:

- أعرف أنك لا تصدقني، ولا يمكن أن ألومك على هذا، ولكني سأمنحك دليلا على صحة كلامي.

دفع بقصاصة ورقية من أسفل الباب مكملا:

- ستجد عنوانًا إلكترونيا في هذه الورقة، امنحه لأحد رجالك، وسيتأكد لك مما ذكرته. ولكن يجب أن تسرع؛ فلا اعتقد أن لدي الكثير من الوقت.

التقط أحمد الورقة، وجلس على مقعده بجوار بيلسان، يتطلع إلى العنوان مفكرا. هل يمكن أن يكون الأمر حقيقيًا؟ نسخة من برنامج المستمعين! ودليل على أن المستمعين يتذكرون! موجودين في الخارج الآن، بل ويسعون نحوه بكل بساطة!.. بعد كل ما فعله، وكل ما حدث له، يأتيه

الحل بهذه السهولة، وليس مجرد حل مؤقت، أو نظرية مجنونة مثل المرة السابقة، بل حل نهائي، ينهي كل شيء!.. لقد كانت بيلسان محقة عندما أخبرته أن يهدأ، وسيكشف الحل عن نفسه. لقد فعل يا حبيبتي، لقد كشف الحل عن نفسه، وسننهي كل شيء.......

- أحمد.

سمع صوت بيلسان الضعيف ينطق اسمه؛ فقفز بجوارها، وأمسك يدها قائلا:

- أنا هنا يا عزيزتي.

- ماذا حدث؟ أين الباقون؟

قبل أحمد جبهتها قائلا:

- لا تقلقي يا عزيزتي، كل شيء سيكون على ما يرام.

***

-٦٠-

- أريد خروج آمن لي، ولبيلسان، وبدر، ودجى، ووسام، ونادر، وعلاء.

نطق أحمد بالعبارة، وهو يواجه ألفا، الذي قال: أنت تعرف أنه لا يمكننا منح الخروج الآمن لوسام؛ ليس بعد ما فعله.. وكذلك الأمر بالنسبة لنادر؛ فقد تعاون مع ديفيد لتنفيذ مخططه، أما بالنسبة لبدر ودجى فقد حصلا على خروجهما الآمن بالفعل، وكذلك أنت.

وصمت لحظة تطلع خلالها إلى عيني أحمد مكملا: لذلك دعنا نتحدث عما تريده حقا.

- وما هو؟

- بيلسان؛ تريد الخروج الآمن لبيلسان، لتتمكنا من عيش الحياة الهادئة التي تريدها، وسأمنحك ما تريد، فنحن لا نهتم ببيلسان، ولا بما فعلته. شريف هو كل ما نريده حاليا.

قال أحمد: أين نيروز؟ أريد أن أتحدث معه.

- لا يمكنك التحدث مع نيروز؛ ولكنني المسئول عن هذه العملية الآن، وأؤكد لك أنك ستحصل على ما تريد، بمجرد أن يكون شريف في قبضتنا.

- حسنا، هذه مشكلتك أنت، فقد أخبرتك بكل ما لدي، وأريدك أن تنفذ ما أريد الآن.

- كنت أتمنى أن أنفذ لك ما تريد، ولكننا نحتاجك معنا، فلا يمكننا إتمام العملية بدونك.

- ماذا؟! لقد جئت إليكم لأنني لا أريد التورط في المزيد من القتال، لقد أخذت كفايتي منه.

وصمت لحظة، ثم أكمل: ولماذا تريدني معكم؟ ما الذي يمكنني عمله، ولا يمكن لفريقك عمله أفضل مني؟

- لا يتعلق الأمر بما لا يمكننا فعله، ولكن شريف يثق بك وحدك، ولهذا سعى إليك، فأنت الوحيد الذي سيتحدث معه، ويخبره بما يريد، ولماذا يفعل هذا؟.

- ولكن........

قاطعه ألفا قائلا: نحن لا نطلب الكثير يا دكتور أحمد، كل ما عليك فعله هو الاتصال بشريف، ترتيب لقاء معه في مكان سنحدده لك، وسنكون هناك بجوارك.. وعندما يأتي، عليك أن تتحدث معه، وتعرف كل ما يمكنك معرفته عنه، وعن الذين يعملون معه. بعدها سنخرج نحن لنلقي القبض عليه، وتذهب أنت مع بيلسان في طريقكما.

- تجعل الأمر يبدو في غاية السهولة.

- إنه كذلك بالفعل. لا أريدك أن تفكر في شريف، أو فيما ستفعله معنا.. أريدك أن تفكر في بيلسان، وفي حياتك معها في منزلك الهادي، حيث يركض أطفالكما حولكما، ويضحكون في سعادة وسرور.

همهم أحمد بكلمات غير مفهومة، فأشار ألفا نحو الشاشة الكبيرة، التي أظهرت صورة لمنزل صغير، حوله حديقة خضراء، تجلس بيلسان على مقعد فيها، والمقعد المجاور لها فارغ. قال ألفا:

- أنظر، ها هو منزل أحلامك أمامك، وبيلسان قد سبقتك إليه، وكل ما عليك فعله هو الانضمام إليها.

***

-٦١-

- لا أعرف سر هذا الطفل الأعمى الذي يتجول حولنا، ويلقي بسهامه في كل مكان، لتصيب الشخص الخطأ، في المكان الخطأ، في الوقت الخطأ، ثم ينظر إلينا راضيا عما فعله بنا، عن الانقلاب الذي أحدثه في حياتنا، ثم يتركنا غارقين في حيرتنا، ويذهب بعيدا للبحث عن فريسة أخرى.

ضغط شريف زر الإطفاء؛ فتوقف صوت هند المنبعث من الهاتف، ووضعه في جيبه مفكرا.. ترى كيف حالك الآن يا هند؟ هل أنت راضية الآن، أم تلعنين اليوم الذي رأيتني فيه؟ تلعنين اليوم الذي قررت فيه أن تكوني صديقة لأسيل.. يتمنى أن يذهب إليها الآن، ويقف بجوارها، ويتحدث معها.. ماذا سيقول لها؟ لا يعرف.. لقد أصبح لا يعرف أي شيء؛ مثلها!

يجب أن يركز تفكيره الآن على ما يفعله؛ فلو خرج من هذا الأمر حيا، وهو احتمال مستبعد للغاية، فسيكون لديه الوقت للتحدث عن كل شيء، وإصلاح ما فعله. أما الآن، فعليه معرفة خطوته التالية، لتخرج أسيل سالمة من كل هذا. دخل إلى غرفة العمل، فوجد أسيل جالسة تطلع إلى الشاشات، وخالد يعمل على الأجهزة؛ فلما رآه قال: نحن نتعرض لهجمة شرسة للغاية، من عدد كبير من المخترقين التابعين للحكومة، ولعدد من الجهات الأخرى.

لم يعلق شريف، وقالت أسيل: كيف وصلوا إلينا؟ لقد أخبرتنا أن هذا المكان آمن تماما.

قال خالد: لم يصلوا إلينا، ولكنهم نجحوا في اختراق قناة الاتصال الخاصة، واستعادة آخر الرسائل التي تبادلتها مع شريف، فعرفوا أنه معي، ولكن أحدًا لم يتمكن من معرفة مكاننا الحالي.

قالت أسيل: هل تعتقد أنهم سيعرفونه؟

هز خالد رأسه نافيا، وقال: لا، فنحن خارج الدنيا، ولا يمكن لأحد الوصول إلينا.

قالت أسيل: ولكنك أخبرتني أنه لا يوجد مستحيل.

قال شريف: اطمئني يا أسيل.

همست أسيل بشيء لم يسمعه، فقال: هل تلقينا ردًا من أحمد بعد؟

قال خالد: لا؛ ولكن أحدهم تفحص العنوان الإلكتروني الذي منحناه له.

قال شريف: جيد جدا.

قالت أسيل: هل أنت متأكد أنه يمكنك الثقة في أحمد؟

قال شريف: لا يمكنني الثقة في أحد حاليا، ولكنني أثق أن أحمد يريد تدمير المستمعين أكثر من أي شيء آخر، وأنا سأمنحه ما يريد.

قال خالد: المنظم إكس غاضب للغاية لإفسادك عمله؛ وقد وضع جائزة على رأسك بالفعل، وخمن من انضم له للبحث عنك؟

قال شريف: ريان؟

فقال خالد: بالضبط، إنه يسعي خلفك بكل قوته.

قالت أسيل: لماذا يكرهك إلى هذه الدرجة؟

قال شريف: ليس الأمر شخصيا، إنه يحاول الحصول على ما يريد، ولو سحق الآخرين للوصول إليه.

ومضت إحدى الشاشات، مع صوت خافت انبعث فجأة، فقال خالد:

- لدينا رسالة جديدة.

ضغط عدة أزرار؛ فانفتحت نافذة حوارية، تحمل رسالة من أحمد، قرأها خالد: رأيت ما تقصد. أصدقك الآن، يجب أن نتقابل.

ثم عنوان، وموعد للقاء.

تطلع إليهما خالد للحظات، ثم قال:

- لا يمكنك أن تذهب.

قال شريف:

- لن أذهب؛ سننفذ خطتنا التي اتفقنا عليها بالضبط. التغيير الوحيد أننا سنرسل لأحمد رسالة بالعنوان الجديد، وموعد اللقاء، وعليه أن يقابلنا هناك.

ظهر القلق على وجه أسيل، فقال شريف:

- ليس الأمر أنني لا أثق به، أو أتوقع شيئا ما، ولكنني يجب أن أكون حذرا.

قالت أسيل:

- أتمنى أن ينتهي هذا الكابوس.

***

-٦٢-

لقد انهار كل شيء بمنتهي السرعة.. تحطمت حياة المسكين أمامه، واستحالت غبارا تذروه الرياح في يوم عاصف. رامز مات في حادث سيارة، وفر القاتل، فانهارت أسيل، وقطع شريف شريانه ليلحق به، ولكن تم إنقاذه بمعجزة، أشكر الله عليها، فلا يمكنني تخيل فقدانه بهذه الطريقة، حتى لو لم يكن معي.

- شريف.... شريف....

أفاق شريف من خواطره المطعمة بصوت هند، على صوت خالد، الذي قال: لقد اخترقت نظام المراقبة في المجمع التجاري، ويمكنني أن أرى كل شيء.

- جيد.

- الأمور مستقرة في المجمع، ولكن لا يوجد أثر لأحمد حتى الآن.

تطلع شريف إلى ساعته قائلا: لم يحن الوقت بعد، واصل المراقبة، وأخبرني عندما تراه.

- حسنا.

غرق شريف في خواطره، وتطلع إلى سقف غرفة التخزين الصغيرة التي اختبأ بها في انتظار أحمد.. ترى هل سيحضر، أم سيتراجع عن الأمر؟ يجب أن يحضر، ويساعده؛ لينتهي من هذا الأمر. يجب أن يفعلها من أجل أسيل، إنها لا تستحق العيش في هذا الجحيم، فأسيل الجميلة الرقيقة يجب أن تكون هناك، تتجول بين الأزهار، وتغني مع الطيور، لا هنا، تحاول الوصول إلى قاتل مجنون عبث بعقلها وأفسد حياتها.

لا يعرف ما سيفعله عندما يصل إلى هذا القاتل.. متأكد أنه سيقتله، ولكنه لا يعرف كيف سيفعلها.. هل سيقتله مباشرة؟ أم يتحدث معه أولا ويخبره بما فعله؟ هل سيجعله يتوسل من أجل حياته أولا، أم يحطم رأسه مباشرة؟

- لقد وصل أحمد.

نهض شريف مع سماعه العبارة، وواصل خالد: إنه يتجه نحو نقطة اللقاء.

خرج شريف من الغرفة، وسار نحوها وهو يضع قبعة على رأسه، ويخفضها حتى لا تلتقطه كاميرات المراقبة، مع علمه أن خالد يشوش عليها. اقترب من المكان المقصود، أمام أحد المحلات الشهيرة.. واصل سيره، فرأى أحمد واقفا هناك، يتظاهر بالتطلع للمعروضات. وقف بجواره قائلا:

- سعيد جدا أنك جئت يا دكتور أحمد.

- لقد أخبرتني أن لديك شيئا هاما.

وصمت لحظة تطلع خلالها إلى شريف، ثم أكمل:

- لا يمكنني أن أغفر لهم ما فعلوه ببيلسان.

- سيدفعون ثمن ما فعلوه يا دكتور.

تلتفت أحمد حوله، ثم قال:

- ماذا تريدني أن أفعل بالضبط؟

- أعرف أنك من قام بالهجوم الأول على مركز المستمعين، بمساعدة بيلسان، وفريق من المخترقين.

- نعم، ولكن هذا الهجوم فشل، ولم نحقق شيئا.

- بالعكس يا دكتور أحمد، لقد نجح الهجوم، ولدي دليل على ذلك.

- لقد أخبرتني بهذا سابقا، ولكنك لم تخبرني ما هو دليلك.

- أحد المستمعين الذين شهدوا الهجوم تذكر بالفعل، تذكر أشياء سمعها في جلسات استماعه.

خرج صوت أجمد عاليا رغما عنه:

- إذا كان ما تقوله حقيقي، فهذا سيغيركل شيء. سيعني أنني كنت محقا منذ البداية، سيعني......

رأى شريف شفتي أحمد تتحركان دون صوت، كأن الكلمات تتقافز عليهما؛ ثم غلبه انفعاله فصمت. انتظره شريف حتى هدأ قليلا، ثم قال:

- ولكن المشكلة أن المستمع لم يتذكر كل شيء بوضوح، بل مجرد فلاشات مظلمة، دون أن يتمكن من رؤية كل شيء. أعتقد أن هذا بسبب عدم اكتمال تحميل البرنامج الخاص بكم؛ أليس كذلك؟

- نعم، لقد قاموا بإيقاف تحميل البرنامج قبل منتصفه، ولكننا ظننا العملية قد فشلت.

- لقد نجحت؛ وأريد مساعدتك للقيام بتفعيل البرنامج على هذا المستمع ثانية، ليتذكر كل شي، فتثبت أنك كنت محقا، وأحصل أنا على ما أريد.

- وما الذي تريده؟ ما الذي لدي المستمع، ويدفعك لعمل كل هذا؛ لجعله يتذكر؟

صمت شريف للحظات، ثم قال:

- لا يمكنني أن أخبرك، ولكنه أمر في غاية الأهمية بالنسبة لي، فأرجو أن تساعدني يا دكتور أحمد؛ لجعل المستمع يتذكر.

- من هو هذا المستمع؟

تردد شريف للحظات، وتلفت حوله، ثم قال: إنها زوجتي.

تلفت أحمد حوله، ثم قال: هل هي هنا؟

شعر شريف أن هناك شيء ما خاطئ؟؟ هناك شيء آخر يحدث هنا. ولكنه تجاهل شعوره قائلا: إنها.........

احترقت باقي الكلمات، وطار غبارها من على شفتيه. لقد خدعه أحمد! دفع أحمد، الذي اصفروجهه، قائلا: لقد خدعتني!

- آسف.

انطلق شريف يعدو، سمع صوت خالد عبر جهاز الاتصال: إنهم خلفك.

- يجب أن تجد لي مخرجا آمنا.

واصل شريف عدوه وسط الزحام، تلفت خلفه، فرأى رجلين يعدوان خلفه، فقال: إنها عملية سرية للغاية، لن يكون لديهم أكثر من خمسة رجال في المكان. هناك اثنان خلفي، يجب أن تجد الثلاثة الباقيين.

واصل العدو؛ فظهر أحدهم أمامه صائحا: توقف.

ولكن شريف واصل العدو نحوه، وركله بكل قوته، وواصل الهرب. نهض الرجل، ركض خلفه، فقال خالد: ثلاثة خلفك، وآخر يتجه نحوك من الجهة اليسرى، سيصل لموقعك بعد خمس ثوان.

انحرف شريف، وركض بعيدا، فتعثر بسبب سرعته، وسقط أرضا، فمرت رصاصة من فوقه، واصطدمت بالجدار. نهض شريف مسرعا، واختبأ خلف أحد الأعمدة قائلا: لقد انتقلوا إلى المرحلة الثانية، لم يعودوا يريدونني حيا.

- يمكنك الخروج الآن؛ أمامك مسافة قصيرة، حتى السلم المتجه إلى الدور السفلي.

- أطلق إنذار الحريق.

- حسنا.

مرت ثوان، ثم دوى صوت الإنذار، فأسرع المتسوِّقون نحو المخارج، فركض شريف وسطهم قائلا: أين هم الآن؟

ولكنه لم يحصل على إجابة؛ فقال:

- خالد.... خالد... أين أنت؟

أجابه الصمت التام، فانتزع السماعة الصغيرة من أذنه، وألقاها أرضا.. لقد وصلوا إلى قناة الاتصال.

واصل ركضه، هبط للطابق السفلي، فرأي البوابة أمامه على بعد أمتار قليلة.. أسرع نحوها، فسمع الصيحة من خلفه:

- توقف.

واصل ركضه، فقال الصوت:

- توقف، أو أطلق النار.

تجمد شريف مكانه، ثم استدار ببطء؛ ليواجه العميل الذي يصوب سلاحا نحوه قائلا: لقد انتهى كل شيء.

ثم رفع جهاز الاتصال إلى فمه قائلا:

- لدي شريف.

لم يعرف شريف كيف فعلها؛ ففي أحواله العادية، لم يكن شريف يتحرك بمثل هذه السرعة أبدا، على الرغم من كل تدريباته. أما مع ما يحدث، فقد رأى شريف يد الرجل ترتفع نحو فمه، كأن الأمر يتم بالعرض البطئ، فركض نحوه، والقي بجسده أرضا؛ ليبتعد عن فوهة المسدس، ثم قام مسرعا ليلكم الرجل في بطنه؛ فانثنى ألما، فلكمه في وجهه؛ ليسقط أرضا، ثم ركل المسدس بعيدا، وأسرع للخارج وسط الزحام. قفز داخل سيارته المتوقفة، وانطلق مسرعا.

حاول الاتصال بخالد من السيارة، ولكن دون فائدة. واصل القيادة، رأى سيارة سوداء قادمة خلفه بمنتهى السرعة، فضرب على المقود أمامه. إنه يعرف طرقهم جيدا.. لن تنتهي المطاردة إلا به، أو بجسده بين أيديهم. فكر يا

شريف، فكر، أنت كنت واحدا منهم، وتعرف أساليبهم جديا، لذلك لديك طريقة للهرب، بالتأكيد لديك، يجب أن تكون لديك طريقة.

واصلوا وراءه، واقتربت سيارتهم منه، فرأى أحدهم يحمل بندقية الكترونية، ويستعد لإطلاقها نحو سيارته. لو أصابت طلقتها السيارة، فستتعطل على الفور. انحرف ليتفادى الطلقة التي أصابت الأرض خلفه، وواصلت قدمه اعتصار دواسة الوقود، وظهرت سيارة أخرى أمامه، ولمح أحدهم يصوب بندقية نحوه. انحرف بسرعة، ولكن الطلقة أصابت الإطار الخلفي للسيارة؛ فمالت على جانبها، وعوت بشدة، ثم واصلت انطلاقها، وقد فقد سيطرته عليها. اصطدمت بسيارة أخرى متوقفة، وانقلبت، وزحفت حتى اصطدمت بواجهة إحدى العمارات الشهيرة.

أوقف الرجال سيارتهم، وأسرعوا نحو السيارة المقلوبة، وعجلاتها تدور في الهواء بلا فائدة. اقتربوا منها بحذر، ثم فتح أحدهم بابها، ليفاجأوا أن السيارة فارغة، وأن شريف قد اختفى بلا أثر!

***

-٦٣-

تناولت إيزابيل درويد جواز سفرها من موظف الأمن، الذي ابتسم لها، ثم سارت للخارج، حيث انتظرتها سيارة خاصة، أسرع قائدها بفتح بابها، وهو ينحني في احترام. ركبت السيارة، فأغلق الباب، ثم احتل مقعد القيادة، وانطلق بالسيارة:

- هل من أخبار عن ديفيد؟

- لا يا سيدتي.

زفرت إيزابيل بقوة، ثم التقطت سيجارة من علبتها، وضعتها في فمها، وأخذت نفسا عميقا زفرته بقوة، محاولة طرد الأفكار من رأسها. لقد اختفى ديفيد دون أثر، ولا تعرف ما حدث له. كل ما أخبرها به أنه يقوم بعملية خطيرة هنا، دون تفاصيل أخرى. حرص على التواصل معها بشكل دائم، فهو لا يستطيع تركها، ولو للحظات قليلة، كما يقول، ويتمنى لو كان بجوارها، ولكن يجب أن ينهي هذا الأمر؛ يقول ديفيد: معك وحدك أشعر بالأمان، لا يمكن لأي شيء أن يحدث لي طالما أنني معك.

تذكر إيزابيل يوم قابلته لأول مرة.. كانت جالسة في الحديقة مع أصدقائها، تخبرهم عن الملل القاتل الذي يحيط بها ويمتص الحياة منها. قدم أصدقاؤها الكثير من الاقتراحات، فهزت رأسها في ملل، فعندما تملك ثروة تقدر بالمليارات، لا يبقى هناك جديد لتفعله. ولكن الجديد كان قادم نحوها.. قادم في صورة ديفيد، الذي دخل الحديقة راكبا على جواد أبيض، مثل فارس هارب من إحدى الحكايات القديمة، ثم جذبها من يدها، ووضعها خلفه على الجواد، ولكزه، ليعدو بهما، قبل أن يتحرك طاقم الأمن، الذي تصر على بقائه بعيدا عندما تجلس مع أصدقائها.

تمسكت إيزابيل بديفيد صارخة: من أنت؟

لم يجب، ورأت سيارات الحرس قادمة خلفهم، فصاحت: هل أنت مجنون؟

- نعم.

- ماذا؟!

- أنا مجنون بك.

كانت هذه هي البداية لفصل جديد في حياة إيزابيل، لم تشعر فيه بالملل أبدا، فمع ديفيد يغدو كل شيء مختلفا، كل شيء مجنون، كل لحظة معه هي جرعات مكثفة من السعادة، والحب، والجنون. قدمها ديفيد إلى عالم جديد تماما.. عالم الألم. علمها المتعة التي تكمن في الألم، اللذة التي تشعر بها عندما تجرح نفسك، وتراقب دماءك تنساب بعيدا عنك. في حفل عيد ميلادها، اصطحبها إلى قبو سري، مؤكدا لها أنه قد أحضر لها هدية خاصة للغاية. كشفت إيزابيل الغطاء عن هديتها، فوجدت امرأة موثقة في مقعد حديد، وفمها مكمم، فالتفتت إلى ديفيد متسائلة، فقال:

- إنها لك؛ يمكنك أن تفعلي بها ما تشائين.

- ماذا؟!!

جذبها ديفيد نحو منضدة مستطيلة، مملوءة بأدوات الجراحة قائلا:

- هذا لا يشبه أي شيء فعلتيه من قبل.

ثم وضع سكينًا صغيرًا في يدها مكملا: اذهبي.

ترددت إيزابيل؛ فدفعها نحوها، وأمسك يدها، ووضعها على جسد المرأة قائلا: هيا، افعليها.

مررت إيزابيل السكين على جسد المرأة، التي راحت تتلوى محاولة التخلص من قيودها، دون فائدة. أحدثت جرحا سطحيا، فأمسك ديفيد يدها، ثم مررها بالسكين على جسد المرأة؛ ليحدث جرح أعمق قائلا: هكذا.

تراجعت إيزابيل للخلف، تنظر للدماء المتفجرة من المرأة، التي أصبحت

أكثر هياجا، وقال ديفيد: هل تحبين أن أفك الكمامة عن فمها؛ لتسمعي الصراخ؟ إنه يجعل الأمر أكثر متعة.

- لا.

- لماذا ترتجفين هكذا؟ لقد ظننت أن هذا سيجعلك سعيدة.

- أنا سعيدة، ولكنني فقط متوترة، فأنا لا أعرف......

أشار ديفيد إلى المرأة قائلا: ربما يساعدك أن تتعرفي عليها، اسمها جيسكا، وهي أم عزباء لطفل وحيد، اسمه سام في العاشرة من عمره، وجيسكا تعتقد أنه لا يستطيع الحياة يوم واحدا بدونها.

غطت إيزابيل وجهها بيدها قائلة: لماذا فعلت هذا؟

فاتجه ديفيد نحو المرأة قائلا: فعلت ماذا؟ جعلتها بشرا بالنسبة لك؟ ألم تعرفي أنها بشر من البداية؟ أم أنك ظننتها كائنا شبيها بالبشر؟!!

- ليس الأمر هكذا.

- أنت تشعرين بالخوف، ولكن صدقيني.. القوة والنشوة ستشعرين بهما، عندما تأخذين حياة هذه المرأة بيدك.. هما شيء لم تشعري بمثله من قبل.. ستشعرين أنك إله يأخذ الحياة.

حل الكمامة عن فيه جيسكا، فعلا صوت صراخها واستغاثتها، وقال ديفيد: افعليها الآن يا حبيبتي؛ الآن.

لم تستطع إيزابيل فعلها، فذبح ديفيد المرأة أمامها، وتأمل الدماء المتدفقة من عنقها قائلا: تعالي لنغتسل بدمائها، ونشعر بالحياة تغادر جسدها؛ لتحل في جسدينا.

ظلت إيزابيل تفكر في المرأة، وما فعله ديفيد المجنون، وقررت أنها لا تريد أن تراه بعد الآن. نعم، لا يجب أن تراه.. لن تراه،..... ومع أول اتصال من ديفيد، قفزت نحو الهاتف كأنها تقفز نحو روحها، وتصلي أن تكون هناك

ضحية جديدة. تقدمت إيزابيل نحو المرأة المقيدة، تهمس لنفسها: يجب أن تفعليها، يجب أن تفعليها.

مدت يدًا مرتعشة، وبدأت تذبح المرأة، التي زاد هياجها بشدة؛ فشعرت بالهياج ينتقل إليها، فذبحتها بسرعة، وأخذت تطعنها بالسكين وهي تلهث بشدة، حتى أمسكها ديفيد، وجذبها للخلف قائلا: كفي، لقد ماتت.

تطلعت إلى المرأة قائلة: لقد ماتت، للأسف!

لم تنس النشوة، والقوة، والطاقة الذين شعرت بهم يتدفقون داخل جسدها. شعرت أنها تكتشف نفسها ثانية.. تعرف المعنى الحقيقي لحياتها.. تندهش من عيشها كل هذه الفترة دون أن تفعل هذا. أتقنت فنون التعذيب، وتعلمت كيف تستخلص الحياة قطرة قطرة من ضحيتها، وسط صراخها وتوسلاتها، التي تزيدها شراسة؛ فتزيده تعذيبا حتى يفارق الحياة بين يديها، فتغتسل بدمائه وتأكل أجزاء من جسده أحيانا، على نحو أرعب ديفيد نفسه كما تعتقد. لقد أيقظ الوحش الكامن في أعماقها، ولا تعتقد أن أحدا يمكنه ترويضه.

ولكن ديفيد حمل لها مفاجأة جديدة.. أخبرها أن ما تفعله هو جزء ضئيل جدا من المتعة، وأنه مازال هناك الكثير في انتظارها، فصاحت:

- ماذا؟!! مازال هناك الكثير، كيف؟!!

فقال ديفيد: اقتل شخصًا واحدًا، فأنت قاتل، اقتل مليونا؛ فأنت غازٍ، اقتلهم كلهم ؛فأنت إله. هكذا قال جين روستاند.

أعطاها نسخة من ألبوم صور الحرب قائلا:

- هذا مثال بسيط لما فعلناه من قبل، ومعا يمكننا إعادته ثانية.

لم تنم أو تتذوق الطعام أو تنهض من مكانها، لثلاثة أيام. التهمت ألبوم صور الحرب مرة تلو الأخرى، غير مصدقة ما تراه. يجتاحها شعور عجيب بالسكينة، والرضا، والنشوة، والقوة. أن ترى كل هذا يحدث، وأنت جالس

بعيدا، تعرف أنك من فعلت كل هذا، فتشعر أنك قد أصبحت أكبر من الحياة ذاتها، فقد أصبحت لك ألف عين، وألف قدم، وألف ذراع تمسك ألف سلاح، لتقتل ألف رجل في لحظة واحدة.. أنت مطرقة القدر التي هوت على هؤلاء البؤساء فسحقتهم. طلبت ديفيد، فلما جاءها، قالت له:

- أنا، وكل ما أملك ملكا لك، لنفعل هذا.

احتضنها ديفيد في سعادة قائلا:

- لنفعلها.

وقد فعلا معًا أشياً وأشياء، ولكن ديفيد الآن اختفى دون أثر، وكل ما تعرفه هي معلومة صغيرة، ذكرها عرضيا في حديثه.. اسم شخص سيقوم معه بالعملية:

- دكتور أحمد

***

-٦٤-

- يمكنك الخروج الآن. أمامك مسافة قصيرة حتى السلم المتجه إلى الدور السفلي.

- أطلق إنذار الحريق الآن.

- حسنا.

نطق خالد بالكلمة، وعمل بسرعة.. دوت صفارات إنذار الحريق في المجمع التجاري، فقال: سترى البوابة أمامك مباشرة.

لم يتلق إجابة، وظهرت على الشاشة إشارة فقد الاتصال. حاول خالد ثانية دون فائدة، فغمغم: لقد قطعوا الاتصال.

ثوان، وأظلمت الشاشات أمامه؛ فأدرك أنه قد طرد خارج نظام المراقبة أيضا. جاهد ليدخل ثانية، ولكنه لم يستطع. إن من يفعل هذا محترف حقا. برز خاطر آخر في رأسه؛ فعمل بسرعة؛ ليتأكد أنهم لم يصلوا إلى موقعه أيضا. لا، لم يصلوا إلى موقعه، لقد قطعوا الاتصال وطردوه خارج النظام، ولكنهم لم يصلوا إلى موقعه بعد. ولكنهم سيصلون، يعرف جيدا أنهم لن يتوقفوا حتى يصلوا إليه، لقد رأى هذا يحدث للكثيرين قبله. إن ما أبقاه آمنا طوال الفترة السابقة، أنه لم يتورط في أي شيء معهم. كان حريصا على البقاء خارج الدنيا، أما الآن فقد تورط في أخطر أمر ممكن: عميل هارب من المكتب التاسع، ومعه بيانات سرية للغاية. لم يعد خارج الدنيا، لقد أصبح في قلب الدنيا، في المركز الذي يسعى الجميع نحوه.

- أسف جدا يا شريف.

همس بالعبارة، ثم قام ليجمع أغراضه.. يجب أن يخرج من هنا سريعا، فإذا قبض المكتب التاسع عليه، فإنهم سيرسلونه إلى حيث لن يعود ثانية.. إلى خارج الدنيا حقا. لقد ظن أن مساعدة شريف ستكون أمرا ممتعا، مثل

الأيام الخوالي، ولكنه الآن يرى الوجه الحقيقي لما تورط فيه. لقد حاولوا قتل شريف مباشرة، وسط عامة الناس والزحام، ولا يشك أنهم سيفعلون الأمر ذاته معه. جمع أغراضه في حقيبة واحدة، ثم جلس أمام الجهاز ليفعِّل الفيروس الخاص؛ ليمسح كل شيء.. وقبل أن يفعلها، جاءه صوت ألفا من خلفه: لما العجلة أيها السهم؟

انتفض خالد في مقعده، وأسرع في عمله، ولكن العميلة (ى) جلست بجواره، وأزاحت يده عن الأجهزة قائلة: اسمح لي.

جذبه ألفا، ثم دفعه إلى مقعد آخر قائلا: الآن ستخبرني بكل شيء.

لم يتكلم خالد، فقال ألفا: ستخبرني بكل شيء، أما كيف ستفعلها، فهو أمر يرجع إليك أنت.

قالت (ى): لقد استعدت الاتصال مع شريف، ولكنه لم يدخل القناة بعد.

قال خالد: لن تتمكنوا من القبض على العقل أبدا.

قال ألفا: انتبه جيدا لكلامك؛ فنحن لم نحسم بعد أمر اشتراكك في عملية التجسس الجارية.

ردد مذهولا: تجسس!!

قالت العميلة (ى): بالطبع تجسس؛ فماذا تسمي عميل خاص يسرق ملفات سرية، ويعرضها للبيع.

قال ألفا: أعتقد أنك تعرف جيدا ما سيحدث له، ولكل من ساعده.

قال خالد: ولكن شريف لم يفعلها، إنه ليس جاسوسا.

قال ألفا: نحن نعرف جيدا أن شريف هو الذي سرق البيانات، و..........

قاطعه خالد قائلا: نعم، هو الذي سرقها، ولكنه لم يعرضها للبيع، بل هو الذي أوقف عملية البيع قبل إتمامها.

ضاقت عينا ألفا وهو يسأله: ولماذا سرقها؟

هز خالد رأسه نافيا.. لا أعرف:

ثم غطى وجهه بيديه وتعالى بكاؤه، وقال: يا إلهي! ماذا فعلت؟

أخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة، فاقترب ألفا منه، ليسمعه جيدا، فنهض خالد بسرعة؛ ليصدم ألفا برأسه في ذقنه، وحاول لكمه، ولكن ألفا تفادى لكمته، ولكمه بقوة ألقته في مقعده ثانية، يعوي من الألم، ويبصق دما، قال ألفا في أسى مفتعل ساخر: كنت أتمنى ألا تفعل هذا.

قالت العميلة (ى): الجميع يظن أن لديه فرصة.

تحدث ألفا عبر جهاز الاتصال لثوان، ثم قال: أين شريف؟

خرج صوت خالد ضعيفا وسط تأوهاته: لا أعرف، لقد فقدت الاتصال به، ولا أعرف أين هو.

قال ألفا: ولكنه سيعود هنا؟

قال خالد: لا أعرف.

نفخ ألفا في قبضته اليمنى، ثم ضربها براحة يده اليسرى قائلا: لا تختبر صبري كثيرا.

غطى خالد وجهه بيده صائحا: أقسم لك أنني لا أعرف أين هو.

قال ألفا: أين زوجته أسيل؟

قال خالد: لا أعرف، لقد غادرت معه، ولا أعرف مكانها.

قالت العميلة (ى): لم تظهر أسيل في المجمع اليوم.

التفت ألفا نحو خالد الذي قال:

- أقسم لكما أنني لا أعرف مكانها، لقد غادرت معه، ولا أعرف أين ذهبت.

قال ألفا:

- حسنا.

ثم التفت نحو العميلة (ى) مكملا:

- هل توصلت إلى شيء؟

قالت:

- لا شيء حتى الآن:

تحدث ألفا عبر جهاز الاتصال لعدة دقائق، ثم أغلقه عندما أشارت العميلة (ى) للشاشة قائلة:

- انظر.

كانت إحدى الشاشات تظهر أسيل تتجه نحو المنزل، فقال ألفا:

- جيد.

أغلق خالد عينيه، واعتصر مسندي المقعد بكل قوته، وهمس:

- تراجعي يا أسيل، تراجعي الآن.

***

-٦٥-

- اهربي.

كانت هذه هي الكلمة الوحيدة التي تركها لها شريف على قناة الاتصال المؤمنة، قبل أن يختفي ويتركها ضائعة بدونه، لا تعرف ماذا تفعل، ولا إلى أين تذهب، فقد اصطحبها شريف معه للقاء أحمد، وأخبرها أن تنتظر في سيارة أخرى على بعد مبان قليلة من المجمع التجاري، حيث سيدخل هو أولا للتأكد من الأمر..

- كن حذرا.

قال شريف: سأفعل.

أخبرها أنه سيوقف الاتصالات معها حتى يكمل لقاءه مع أحمد، فيخبرها أين تقابله في رسالة عبر قناة الاتصال الخاصة، التي يجب أن تدخلها كل خمس دقائق بحثا عن الرسالة، ولا تمكث فيها أكثر من ثلاث ثوان، حتى لا يتمكن أحد من تتبعها. قالت: أنا خائفة جدا، هل أنت متأكد مما تفعله؟

- إنها مجرد احتياطات؛ لأتأكد أنك بخير.

بقيت في السيارة تتطلع إلى ساعتها، وتدخل القناة وتخرج سريعا حتى عثرت على الرسالة: اهربي.

ظلت أسيل تدور بالسيارة، لا تعرف إلى أين تذهب، أو ماذا تفعل، فمنذ بدأ الأمركان شريف يتولى كل شيء، ويخبرها أنه سيفعلها؛ لكنها الآن وحيدة، كورقة في مهب الريح. لم تفكر في هذا من قبل؛ فعلى الرغم من أنها تعرف خطورة ما يفعلان، إلا أنها لم تفكر أبدا أن شريف يمكن يذهب ويتركها. أين هو الآن؟ وماذا حدث له؟ هل هرب منهم؟ أم قبضوا عليه؟ أم..........لا تستطيع التفكير في هذا الخاطر؛ بالتأكيد شريف هرب منهم، إنه الأذكى،

والأفضل، دائما كان كذلك.. لابد أنهم يتجرعون خيبتهم الآن بعد أن انساب من بين أيديهم مثل الزئبق.

حاولت الاتصال به، على الرغم من تعليماته المشددة بألا تتصل به أبدا، ولكنها لم تتلق إجابة. واصلت القيادة.. لابد أنه يتابع عملية البحث الآن، ويجب عليها ألا تزعجه، لقد أخبرها أنهم قد اقتربوا جدا من القاتل، وقريبا جدا سيدفع الثمن، ثمن كل شيء.

شعرت بضيق شديد في صدرها. هناك جبل يجثم عليه. وغلبتها دموعها، وهي تراقب السائرين حولها، وأطفالهم في أيديهم، يتقافزون حولهم في سعادة وسرور.. رأت نفسها تسير هناك مع شريف، ورامز يسير أمامهم فتسرع نحوه قائلة: انتظريا رامز.

ولكن شريف يجذبها للخلف قائلا: دعيه.

تتراجع لتسير بجواره، فيشير إلى السماء قائلا: هل تذكرين سيرنا معا تحت النجوم؟ هل تذكرين هذا النجم؟ لقد كان شاهدا في أول مرة أخبرتك فيها أنني أحبك.

- وكيف تعرفه؟

- لأنه ينظر إلى بحسد وحسرة في كل مرة يرانا معا.

- نجم في السماء يحسدك!!

- بالطبع؛ فلدي أجمل نجمة على الأرض.

مسحت دموعها، وقادت السيارة نحو منزل خالد؛ فهو المكان الوحيد الذي تعرفه الآن، وتعتقد أن شريف سيأتي إليه بعد أن ينتهي مما يفعله، أو كما تأمل، ستجده ينتظرها هناك. توقفت أمام المنزل، ثم صعدت الدرج حتى باب الشقة. دقته، ووقفت تنتظر. خيل إليها أنها سمعت صرخة مكتومة، ثم فتح الباب؛ فوجدت شخصًا غريبًا أمامها. تراجعت للخلف، ولكنه أمسك يدها قائلا: مرحبا بك يا سيدتي.

سحبها إلى الداخل، وأجلسها على مقعد بجوار خالد الذي همس: أنا آسف.

سألت أسيل ببرود من لم يعد يهمه شيء: من أنت؟

فقال ألفا: القائد ألفا من العمليات الخاصة، ومهمتي هي القبض على زوجك.

جذب ألفا مقعدًا، وجلس أمامها قائلا: أين شريف؟

كرر ألفا السؤال ثانية، دون إجابة، فقال: يبدو أنك لا تقدرين خطورة ما فعله زوجك. لقد سرق ملفات هامة، وعرضها للبيع؛ لذلك دعيني أخبرك أن التجسس هو أقل التهم التي ستوجه إليه، وما لم تريدي أن نعتبرك شريكته، فيجب أن تبدئي بالحديث الآن.

قالت أسيل: شريف ليس جاسوسا، ولم يفعل أي شيء.

قال ألفا: إذًا أخبريني أنت بما يحدث.

قالت أسيل: لا أستطيع.

نهض ألفا من مقعده، ثم مال نحوها قائلا: بل تستطيعين، وستخبريننا بكل ما نريد معرفته.

نهضت أسيل، وتطلعت إلى عيني ألفا قائلة: تظن نفسك مخيفا؟ حسنا، أنا لست خائفة منك، ولن أخبرك بأي شيء؛ لم يعد شيء يخيف.

ظلا يتبادلان النظرات لثوان، ثم ابتعد ألفا قائلا: لقد أضعتِ فرصتك الأخيرة للخروج، فأنا سأصل لشريف بمساعدتك، أو بدونها، وسأحرص أن تكونا في زنزانتين متجاورتين.

تراجع للخلف وتحدث عبر جهاز الاتصال، ثم قال: العميل (و) سيأخذك الآن، أما نحن فسنحضر زوجك، ونلحق بك.

لم تعرف أسيل متى ولا كيف ظهر العميل (و) خلفها. سارت معه للخارج، بينما تسأل العميلة (ى): ماذا فعلت أيها الأحمق؟

فقال خالد: لم أفعل شيئا.

قال ألفا: ماذا هناك؟

فأشارت العميلة (ى) إلى الشاشة قائلة: لقد قام بإيقاف الحماية على الموقع، انظر إلى كل هذه العلامات، لقد قام عدد من المخترقين بتحديد موقعنا، وأعتقد أنهم في الطريق إلى هنا.

ابتسم خالد قائلا: لم ترهذا، أليس كذلك؟

رماه ألفا بنظرة جعلته ينكمش مذعورا، ثم تحدث عبر جهاز الاتصال، وقال: الفرقة (ج١٢) في طريقها إلى هنا.

أشارت العميلة (ى) إلى الشاشة قائلة: لقد ظهرت إشارة شريف مجددا.

قال ألفا: حاولي فتح قناة الاتصال معه.

قالت العميلة (ى): إنني أحاول، ولكنه لا يستجيب.

قال ألفا: سأذهب إلى هناك، وأحضره بنفسي.

وقبل أن يتحرك ألفا، دوى انفجار عنيف في الخارج، فدفع خالد أرضا، وقفز نحو العميلة (ى) صائحا: انخفضا.

انطلق الرصاص عبر النوافذ، فعدا خالد على أربع، وفر للخارج بسرعة، قبل أن ينتبه له ألفا. قالت العميلة (ى):

- كم كنت أفتقد القتال!

***

-٦٦-

انطلق شريف يعدو بسرعة داخل أروقة المبنى الشهير، والدماء تنزف من جراح متفرقة في جسده. وصل للباب الخلفي، فدفعه وقفز خارجا وهو يتطلع خلفه. لا أحد خلفه. جيد، هذا يمنحه دقائق قليلة للفرار قبل وصولهم. أسرع نحو إحدى السيارات المتوقفة. فعالج قفلها بأداة صغيرة، ثم استقلها هامسا : آسف جدا، ولكنها حالة طوارئ.

انطلق بالسيارة لعدة دقائق، ثم تركها، وسار على قدميه عدة شوارع، ثم سرق سيارة أخرى، وانطلق مبتعدا. جاهد ليسيطر على نفسه، ولا يضرب رأسه في مقود السيارة أمامه حتى يشجها. لقد خدعه أحمد.. خدعه، واتفق مع نيروز للقبض عليه.. أعدوا فخهم بإحكام، وسار هو نحوه مثل الغر الساذج.. كيف حدث هذا؟! كيف لم يرهذا قادما؟! لماذا وثق بأحمد، وهو لا يعرفه؟! هل ظن أن كونهم أصحاب قضية واحدة سيوحدهم؟! يا له من أحمق! لقد شهد تمزق الوطن في حرب طاحنة، بين أصحاب قضية واحدة، تُدْعَى "مصلحة الوطن"!

وأسيل، ترى ماذا فعلت الآن؟ أين ذهبت بعد تلقيها رسالته؟ لا يستطيع الاتصال بها؛ فربما يراقبونه. إن أسيل تعرف جيدا أنهم وحدهم في هذا الأمر، ولا يمكنها الذهاب لأي مكان، لذلك فأنها ستعود بالتأكيد إلى المكان الوحيد الذي تعرفه، إلى منزل خالد. قاد السيارة نحو منزل خالد، وعقله يعمل بسرعة للحصول على حل آخر، فمهما حدث لن يتخلى أبدا عن سعيه نحو القاتل، ولو وضعوا خلفه كل قوتهم.. لن يوقفه شيء عن النظر إلى جثته، ولو كان هذا آخر ما يفعله في حياته. أوقف السيارة على بعد عدة شوارع من المنزل، حاول الاتصال بخالد ثانية، لا إجابة، ولكن هناك أمر آخر.. لقد زالت الحماية عن موقع خالد، هناك أمر آخر يحدث.. عمل على جهازه، حتى تمكن من اختراق الموقع. يمكنه الآن الاستماع لما يحدث في الداخل!

هناك عدة أشخاص يتحدثون، بينهم أسيل، وهناك شخص يستجوبها. لقد قبضوا على أسيل، لقد عادت إلى منزل خالد كما توقع، ولكنهم قبضوا عليها. قبضوا على أسيل، آخر شيء كان يتصور حدوثه أن يتم القبض على أسيل، ويظل هو طليقا.

- تظن نفسك مخيفا؟ حسنا، أنا لست خائفة منك، ولن أخبرك بأي شيء؛ لم يعد شيء يخيف.

- لقد أضعتِ فرصتك الأخيرة للخروج، فأنا سأصل لشريف بمساعدتك، أو بدونها، وسأحرص أن تكونا في زنزانتين متجاورتين.

- العميل (و) سيأخذك الآن، أما نحن فسنحضر زوجك، ونلحق بك.

يجب أن ينقذها قبل أن تصل إلى المقر، فلو وصلت لن يمكنه فعل أي شيء. عمل على هاتفه للحظات.. سيطلق إشارته في مكان آخر لتشتيتهم. بحث ببصره، حتى عثر على سيارة المكتب التاسع، فاقترب منها بحذر، ونظر داخلها.. كانت فارغة، عالج قفلها الإلكتروني بسرعة، ودلف داخلها، واختبأ في المقعد الخلفي. جاء العميل (و)، ومعه أسيل، وضعها في المقعد الأمامي مقيدة اليدين، ثم دار حول السيارة، واحتل مقعد القيادة، وانطلق بالسيارة. سكن شريف لدقيقة، ثم نهض بسرعة منقضًا على العميل (و) من الخلف، ولكنه تجاوز المفاجأة بسرعة ودفع شريف بعيدا، وهو يسيطر على السيارة المنطلقة، ثم يوقفها، ويفتح الباب لينزل مواجهًا شريف. حاولت أسيل مهاجمته، فدفعها لتصطدم بالسيارة في عنف، ثم لكم شريف في وجهه، فتراجع للخلف، والدماء تتفجر من أنفه، ولكنه عاد ولكم العميل (و) في صدره، ثم لكمه في وجهه، ولكنه تفاداها، ولكمه في وجهه ثانية، وقال:

- ستدفع ثمن ما فعلت أيها الخائن.

حاول شريف لكمه؛ ولكنه دفعه بعيدا مكملا:

- هل هذا أفضل ما لديك؟

استجمع شريف قوته، ونهض ثانية.. لا يمكنه أن يخسر، لا يمكنه، فهذه المرة تخص أسيل. ولكن العميل (و) استقبله بلكمتين متتاليتين في وجهه، فسقط شريف، وشعر بالرؤية تهتز أمامه، والعميل (و) يقول:

- ألم يعلموك القتال في قسم الخونة؟

- صاروخ!

صرخت أسيل بالكلمة، فالتفت العميل (و) قائلا: ماذا؟

أصاب الصاروخ الأرض خلفهم، ولكن الانفجار دفع السيارة لتقفز في الهواء، ثم تنقلب مرتين، وتزحف لعدة أمتار، قبل أن تتوقف على سقفها، والنيران تشتعل بها.. مرت لحظات، قبل أن يستجمع شريف بقايا طاقته، ويجذب أسيل.. كانت تنزف من عدة جراح في وجهها وجسدها، وفي الخلفية سمع شريف صوت معركة بالأسلحة تدور، فبصق وراءه، ثم حمل أسيل، وسار مبتعدا. ولكنه فوجي بالعميل (و)، وقد خرج من وراء السيارة زحفا، ليمسك قدمه قائلا:

- لن أتركك تنجح بالذهاب

ركله شريف في وجهه صارخًا:

- لست جاسوسا.

فقد العميل (و) وعيه، وأسرع شريف خطاه مبتعدا بأسيل، وهو يهمس لها:

- اطمئني يا عزيزتي، كل شيء سيكون على ما يرام.

***

ارتشف ياسر شوقي من قدح العصير الموضوع أمامه، والتفت إلى زوجته قائلا: شكرا لك

فابتسمت له، وهزت رأسها، ثم سارت للداخل، وعاد هو يقرأ الأوراق الموضوعة أمامه. كانت تتحدث عن الحياة في ملاجئ الأطفال أثناء الحرب:

- الحياة في ملاجئ الأطفال أثناء الحرب هي الجحيم بعينه، بالنسبة للأطفال وللمشرفين معا. فبالنسبة للأطفال، يتم جمعهم معا في حجرات ضيقة سيئة التهوية، ولا تحتوي على أسرة كافية أبدا. يفترض أن يقوم الأطفال بالتبادل على الأسِرة، ولكن الذي يحدث أن الأطفال الأكبر حجما والأقوى يحتلون الأسرة بصفة دائمة، وعلى من يريدها مواجهتهم. وليس هذا حال الأسِرة فحسب، بل ينطبق الأمر على كل شيء: الطعام، والشراب، والحلوى القليلة، والدواء، والكساء.

أطفال الشوارع هم الأسرع تكيفا، فهم قد اعتادوا الحياة القاسية.. حياة الخطف، والجري، والنوم في الطرقات؛ لذلك لا يبدو الأمر سيئا بالنسبة لهم، بل ربما هو أفضل، إلا في وجود أطفال أقوى يأخذون كل شيء منهم. أما بالنسبة للأطفال الذين اعتادوا العيش في منازلهم، توقظهم أمهاتهم بقبلة على جبينهم، وتعد لهم الإفطار الذي يريدونه، وحين تضعهم أمهاتهم في أسرتهم، تظل بجوارهم تغني لهم، أو تحكي لهم قصة حتى يناموا، فتقول: ليلة سعيدة يا صغيري. الوضع إذًا مختلف.. فبينما كانت الأم تدور خلفه بالطعام حتى يأكل، ففي الملجأ لا أحد يهتم، بل إذا لما يأكل يكون أفضل؛ لأنه يعني المزيد للباقين، الذين سوف يضربونه، ويأخذون طعامه، ويتركونه يتضور جوعا. وإذا كانت والدته تهرع نحوه كلما ظهر خدش صغير في جسده، فهنا لا أحد يهتم به، ولو سقطت أطرافه، أو سقطت رأسه عن جسده. وإذا كان والده

ينظر أسفل فراشه كل ليلة بحثا عن أشباح، فهنا عليه التعامل مع أشباح حقيقة، للأطفال الذين ماتوا في نفس البقعة التي يرقد بها، بل ربما يتقلب، فيضع يده على رأس، أو ذراع، أو قدم تبحث عن صاحبها، فيكتم صراخه، فالصراخ معناه استيقاظ الأطفال الآخرين ليبرحوه ضربا.

أما المشرفون، فكان عليهم التعامل مع الأطفال الذين يزداد عددهم طوال الوقت، بإمكانيات محدودة للغاية، لا تكفي نصف الموجودين؛ لذلك عليهم التعامل مع صراخ الأطفال وشكواهم الدائمة من نقص الطعام، والشراب، والدواء، والكساء، وحتى نقص الهواء نفسه.

والأطفال ليسوا ملائكة، كما يظن البعض، بل يمكنهم أن يكونوا أوغاد حقيقيين. وحتى حين توفر الطعام، ينهض طفل قائلا إن هذا الطعام سيء، "ليس مثل الذي تعده والدتي". فيكتم المشرف غضبه حتى لا يحطم رأسه بالطبق الموضوع أمامه.. والدته على الأرجح جثة هامدة، تنهشها الكلاب الجائعة، وهو هنا يخبره أن الطعام ليس مثل الذي تعده والدته، فلتشكر الله أنك حصلت على طعام، وهناك غيرك تحول إلى طعام.

هناك أيضًا الشجار الدائم على أي شيء، وكل شيء، دون اعتبار لأي شخص، فيحصل المشرف الذي يفض الشجار على نصيب كافٍ من الضرب من الطرفين المتشاجرين، بالإضافة إلى شجار المشرفين أنفسهم، فهم في النهاية بشر، ولهم احتياجاتهم أيضا.

لماذا هم هنا؟ لن يخبرك أحدهم بالإجابة الحقيقية، فهي تكمن تحت أكوام من إجابات أخرى مثل: نحن نؤدي واجبنا المقدس.. إن رعاية هؤلاء الأطفال مسئولية كبيرة، ويجب أن نقوم بها.. هؤلاء الأطفال هم مستقبلنا الحقيقي؛ لذلك يجب أن نرعاهم ونعتني بهم.. يجب أن نكون اليد التي تمسح الآلام الأطفال.. وأطنان من الكلام، ولكن الحقيقة أنهم هنا لأنهم يشعرون بالأمان وسط الأطفال، فلا أحد

يهاجم ملاجئ الأطفال، حتى أن البعض كان يهاجم المشرفين، ليأخذ الأطفال إلى ملجئه الخاص، حيث يشعر بالأمان هو ومن معه.

لذلك، هرب البعض عندما بدأ الهجوم على ملاجئ الأطفال، وصمد الحقيقيون فقط، الذين يؤدون واجبهم المقدس فعلا.

قطع ياسر قراءته، عندما دخلت زوجته قائلة: هناك من يريد مقابلتك لأمر هام، ولكنهم......

فهم ياسر ما تريد قوله، فأسرع للداخل. وجد شريف وأسيل في انتظاره، في حالة سيئة للغاية، فسألهما: ماذا حدث؟!

قالت أسيل: لقد جئت إليك؛ لأنني أعرف أنك الوحيد الذي سيعرف ما نشعر به حقا، وتفهم ما نمر به.

كرر سؤاله: ماذا يحدث؟

قالت أسيل: لا أستطيع أن أخبرك، ولكننا نحتاج مساعدتك، فأنت الشخص الوحيد الذي يمكننا اللجوء إليه.

تطلع ياسر إليهما.. إنه يعرف أسيل جيدا، أما زوجها فقد قابله مرتين فقط. هناك أمر ما يحدث معهما، يمزقهما من الداخل، يمكنه رؤية هذا في أعينهما الذابلة. إنهما يمران بألم عظيم، ولم يلجئا إليه إلا لضرورة قصوى............ لا يمكنه التخلي عنهما، لا يمكنه التخلي عنهما بعد أن جاءا يطلبان مساعدته. سأل ياسر: كيف يمكنني مساعدتكما؟

قال شريف: نحتاج إلى مكان للبقاء فيه ليومين على الأكثر، وبعض الأشياء الأخرى.

قال ياسر: حسنا، اكتب لي ما تريد، وسأحضره لك.

نهض من مكانه، وسار للخارج، فتبعاه حتى سيارته المتوقفة. ركباها معه، فقال ياسر: اطمئنا فزوجتي لن تخبر أحدا أنكم كنتما هنا.

تبادل شريف وأسيل النظرات، قال ياسر: سنذهب إلى شقتي الأخرى، يمكنكما البقاء فيها كما تريدان، وسأحضر لكما ما تريدان.

تمتم شريف: شكرا لك.

قالت أسيل: كنت أعرف أنك لن تخذلنا، أقول دائما إنك بطلي.

قال ياسر: تعلمين جيدا أنني يمكنني الشعور بك، فكيف يمكنني التخلي عنك مع ما تمرين به؟!

قال شريف: شكرا لك.

بدا ياسر كأنه يكلم نفسه، لا يشعر بوجودهما وهو يقول شاردًا:

- أعلم أنكما تمران بألم عظيم، تشعران به يمزق روحيكما، تتمنيان أن تصرخا، ولا تستطيعان، ويواصل الألم جلد روحيكما وأنتما تبصران العراقيل الضخمة في طريقكما نحو المستحيل. تتمنيان أن تتركا كل شيء، أن تستسلما، ولكن لا يمكنكما، فهناك صورة رهيبة أمامكما، تحجب كل شيء عنكما، فلا تريان إلا هي، فتواصلان السير نحوها، وسط الأنياب، والمخالب التي تمزقكما فلا تهتما، فقط تريدان الوصول إليها.

قالت أسيل:

- مرة ثانية تعرف ما أشعر به أفضل مني.

قال ياسر:

- لا أعرف كيف هذا؛ ولكنني واثق أنكما تسعيان نحو أمر يتعلق بابنكما رامز.

***

-٦٨-

- يمكنكم الذهاب.

نطق ألفا بالعبارة، وناول أحمد وبيلسان أوراقهما مكملا: صحيح أن الأمر لم يكتمل، ولكنك نفذت جزءك من الاتفاق.

تناول أحمد الأوراق قائلا: آسف.

قال ألفا: لا عليك؛ ولكني لا أريد أن أراك ثانية.

احتضنت بيلسان كف أحمد قائلة: لن ترانا ثانية، فأمامنا حياة نعيشها سويا.

قال ألفا: أتمنى لكما كل السعادة، والتوفيق.

صافحهما، ووقف ينظر إليهما وهما يغادران، ثم عاد إلى الداخل قائلا: ماذا لدينا؟

قال العميل (ر): تم القبض على رجال المنظم اكس الذين هاجموكم في منزل خالد، والذين هاجموا سيارة العميل (و)، وهناك فريق ينطلق الآن للقبض على المنظم اكس شخصيا.

أضافت العميلة (ى): كما تم القبض على عدد من القراصنة الخطرين الذين سعوا نحو البرنامج.

قال العميل (ر): وجود هذا البرنامج في الخارج جذب الكثيرين نحوه، لو استمر الأمر هكذا، فستنتهي قائمة التهديدات.

قال ألفا: الأخبار الجيدة أولا، حسنا.. أعطياني الأخبار السيئة.

قال العميل (ر): لم نتمكن من القبض على شريف، كما هربت أسيل، وكذلك فعل خالد أثناء القتال، والعميل (و) مصاب، ولن يمكنه المواصلة.

قال ألفا: إذا فليس لدينا أي شيء.

قالت العميلة (ى): لقد عدنا إلى المربع الأول ثانية.

- خطأ!

نطق بها يوسف، ثم نهض من مقعده، وسار نحوهم قائلا: يمكننا إيجاد خالد بمنتهى السهولة، ولكنه لن يفيدنا بشيء، لذلك سنركز سعينا خلف الهدف الأصلي.

قال ألفا: وكيف سنجده؟

قال يوسف: لن يمكننا العثور عليه، فهو موجود بمكان آمن حاليا، عند آخر شخص يمكننا التفكير به. ولكنني أعرف خطوته القادمة. سيقوم بالاتصال بأحمد ثانية.

صاحت العميلة (ى) متعجبة: بعد ما حدث؟!!

قال يوسف في رصانة: سيقوم بالاتصال به، فلدى أحمد شيء يريده بشدة.

تساءل ألفا: هل نخبر أحمد؟

قال يوسف: بالطبع لا، سنترك الأمر يتم دون أي تدخل منا.

هز ألفا رأسه مقتنعًا..

- حسنا.

سار يوسف للداخل، ففتح قناة الاتصال الخاص، وكتب:

- أريد كل ملفات الاستماع الخاصة بأسيل.

***

-٦٩-

تطلع شريف إلى أسيل، التي غرقت في النوم، بعدما حقنها بالمهدئ الذي أحضره له ياسر، ثم تركها في هدوء، وجلس أمام جهاز الكمبيوتر. لقد اعترض بشدة عندما اقترحت أسيل أن يذهبا لياسر، وصاح بها:

- الطفيل لن يساعدنا، بل سيلتقط الهاتف، ويبلغ عنا مباشرة.

- إنه ليس طفيلًا، أنا من أعرفه عن قرب، وهو رجل رائع، فدعك مما تتسمع من آخرين. ثم أن لا أحد يعرف أننا هاربان.

- وصولنا إليه في هذه الحالة يفضح أمرنا بشدة.

- ولهذا سيعرف ما نمر به، وسيساعدنا.

- لا يمكنني أن أثق به.

- ولكنك تثق بي، وأنا أعرفه جيدا، وأثق به.

وصمتت لحظة، ثم قالت: كما أنه لا يوجد أمامنا حل آخر.

عرف شريف أنها محقة، فمع الفريق الذي يتبعه لا يمكنه الذهاب لأي مكان دون أن يجدهم خلفه؛ ولكن أحدا لن يفكر أنه موجود عند ياسر شوقي، في قلب العاصمة. لقد ظن أن الأمر قد انتهى حتى إنه رأى جثة القاتل أمامه، ولكن دكتور أحمد خانه، وأفسد كل شيء. باعه لنيروز مقابل شيء لا يعرفه، ولكنه يتمنى أن يستحق هذا الشيء ما سيفعله به، فهو مخطئ تماما لو يظن أنه فعل فعلته، وسيخرج بمنتهى البساطة. سيجعله يساعده، سيجعله يتمنى أن يجعله يساعده، وبعدها سيدفع ثمن كل لحظة خوف شعرت بها أسيل وهي في قبضتهم، ثمن كل لحظة ضياع شعر بها بدونها.

- سأريك كيف يتم الأمر.

همس بها، وهو يستعرض معلومات أحمد الشخصية، ثم معلومات بيلسان، وأكمل:

- لا تنسَ أنك أنت الذي بدأت.

واصل العمل، وأمامه صورة جثة ابنه رامز، وصورة أسيل وهي مقيدة داخل قفصها الضيق.. شعر بالفكرة تختمر في رأسه، وحان وقت تنفيذها.. فكرة لم يكن ليفكر فيها أبدا، ولكنه سيفعلها من أجلهما. ذهب إلى شبكة الأوامر السرية الخاصة بصديقة فارس، وعمل قليلا حتى تمكن من الدخول إليها، ثم أضاف مهمة جديدة هامسا:

- آسف يا فارس.

تطلع إلى صورة أخرى على الشاشة..

- آسف، ولكن لا يوجد طريق آخر.

سمع صوتًا يدوي داخل رأسه:

- لقد تم مسخك.

***

-٧٠-

تطلع فارس إلى العائلة الجالسة حول مائدة الغداء، عبر منظار بندقيته الخاصة. تبدو عائلة طبيعية هادئة: رجل، ووالدته، وزوجته، وابنته الصغيرة، يتناولون طعامهم في منزلهم. ولكنه تعلم جيدا ألا يناقش الأوامر؛ فقط ينفذ ما يطلبون. أحكم تصويب بندقيته، وضغط الزناد، فانطلقت طلقة خاصة عبرت النافذة، ثم استقرت في منتصف المنضدة أمامهم، فتراجع الجميع مذعورين، وخرج صوت شريف من الطلقة الغريبة:

- فليثبت الجميع في أماكنهم.

هم هشام بالتحرك، ولكن الرصاصة التالية مرت بجوار أذنه مباشرة، حتى أنها جرحتها، ودوَّى الصوت ثانية: فليثبت الجميع في أماكنهم.

همت ريهام بالقيام، ولكن رصاصة أخرى أصابت المنضدة أمامها مباشرة، وعاد الصوت يقول: الحركة القادمة ستكون الأخيرة.

صرخت جيانا الصغيرة وهمت بالنهوض، ولكن والدتها صاحت بها أن تبقى مكانها، وقال الصوت: ليثبت الجميع في أماكنهم، ولن يتأذى أحد.

تمالك هشام نفسه، وقال: ماذا تريد منا؟

قال الصوت: اثبتوا في أماكنكم، وسأخبركم بما تفعلون.

قال هشام: لا يتحرك أحد من مكانه، لا يتحرك أحد حتى نعرف ما يحدث.

قالت غمام: يا إلهي! سيقتلوننا.

تطلعت ريهام إلى الرصاصة المستقرة أمامها، ثم قالت: لو أرادوا قتلنا، لكنا أموات قبل أن نعرف.

تعالى بكاء جيانا، فقال الصوت: يمكن للصغيرة أن تذهب إلى والدتها.

قال هشام: دعها تذهب، أرجوك.

قال الصوت: يمكن للصغيرة الذهاب إلى والدتها، ولكن خطوة واحدة للخارج، وستكون الأخيرة.

تحركت جيانا ببطء، ثم ارتمت على صدر والدتها، التي احتضنتها وهمست في أذنها: لا تخافي يا صغيرتي.

قال الصوت: التقط الهاتف الموضوع أمامك، واتصل ببيلسان.

قال هشام: ماذا؟!

قالت غمام من بين أسنانها: بيلسان، دائما بيلسان؛ إنها السبب في كل ما يحدث لنا.

سألت ريهام: لماذا بيلسان؟

قال الصوت: اتصل ببيلسان الآن، ولا تحاول فعل أي شيء آخر، وإلا خسرت أحد أفراد عائلتك.

التقط هشام الهاتف بيد مرتعشة، ثم اتصل ببيلسان قائلا:

- أنا أتصل بها.

قال الصوت:

- أخبرها بما يحدث.

مرت لحظات، ثم جاء صوت بيلسان، فصرخ هشام:

- أنقذينا يا بيلسان.

***

وضعت بيلسان الملابس داخل حقيبة السفر، واتجهت نحو الخزانة، لتحضر المزيد، قائلة: لا أصدق أننا خرجنا من هذا الكابوس أخيرا.

قال أحمد: سنذهب؛ لنعيش الحياة التي نريدها.

جلست بيلسان على طرف الفراش قائلة: لقد مرت عليّ أوقات ظننت فيها أننا لن نخرج أحياءً أبدا.

- أنا آسف يا بيلسان لكل ما حدث، فأنا الذي تسببت في كل هذا.

احتضنته بيلسان قائلة: كل هذا لا يهم الآن، لقد انتهى الكابوس.

وصمتت لحظة، ثم قالت: كيف أقنعت نيروز بمنحنا عفوا شاملا بعد كل ما حدث؟

صمت أحمد للحظات، ثم قال: لقد ساعدته في بعض الأمور.

عقدت حاجبيها متسائلة: أية أمور؟

أشار بيده لتكف عن السؤال، وقال: لا أريد التحدث عنها الآن، أريد التحدث عن رحلتنا، وكيف سنجعلها رائعة.

فتحت فمها لتقول شيئا، لكن شيئا في عينيه جعلها تتراجع وتقول: حسنا.

دق جرس الهاتف؛ فتطلعت إليه بيلسان قائلة: إنه هشام.

ضغطت زر الإجابة قائلة: هشام.

جاءها صراخ هشام: أنقذينا يا بيلسان.

صاحت: ماذا؟ ماذا يحدث؟

قال هشام: هناك شخص ما يطلق علينا الرصاص.

صرخت بيلسان: ماذا؟! هل أنتم بخير؟

صاح أحمد: ماذا يحدث؟

قال هشام: نحن بخير حتى الآن، ولكنه يقول اتصلوا ببيلسان.

سمعت غمام تصيح بشي ما لم فتهمه، فقالت: أنا في طريقي إليكم.

قال هشام: لا تتحركي من مكانك، ولا تحاولي فعل أي شيء، فهو سيصل إليك.

صرخت بيلسان: من هو؟

قال هشام: يقول إنكم تعرفون من هو.. أحمد يعرف من هو.

قالت بيلسان: أحمد!

قال هشام: يقول إنه سيصل إليك، ويخبرك بما تفعلين. افعلي ما يقول يا بيلسان، وإلا قتلنا جميعا.

قالت بيلسان: لا تقلق يا هشام، سأخرجكم جميعا، لن يؤذيكم أحد.

أغلق هشام الهاتف، ولكن بيلسان ظلت تتحدث: هشام... هشام.... سأخرجكم جميعا.

قال أحمد: ماذا يحدث؟

- هناك شخص ما يحتجز عائلتي، ويقول إنك تعرفه.

- ماذا؟! أنا لا أعرف ....

قاطعته بيلسان في رجاء: ماذا فعلت يا أحمد؟ لماذا منحك نيروز العفو الشامل؟

صرخ بها: لقد أخبرتك؛ لقد ساعدته في بعض الأمور، وأنا لا أعرف من الذي يحتجز عائلتك.

أصدر هاتفها نغمة قصيرة، فالتقطته، وتطلعت إليه.. كان هناك مكالمة قادمة على قناة اتصال مؤمنة، ففتحت الاتصال؛ فوجدت شريف أمامها، سألته بيلسان: من أنت؟

قال شريف: زوجك يعرف من أنا.

تطلع أحمد إلى الهاتف قائلا: شريف!

قال شريف: نعم شريف، الذي ظننت أنك قادرعلى خداعه والخروج سالما.

صرخت بيلسان: ماذا يحدث؟

قال شريف: اسألي زوجك، وسيخبرك بكل شيء.. والآن أريد أن أخبرك أن عائلتك بخير.. حتى الآن. فإذا أردتِ يظلوا كذلك، فعليكما أن تنفذا كل ما أقول، هل تفهمان؟

قالت بيلسان: ماذا؟! سنفعل كل ما تقول، ولكن اترك عائلتي خارج هذا.

قال أحمد: اتركهم، وسنفعل كل ما تقول.

قال شريف: حقا؟! تريدني أن أصدقك بعد ما فعلت!

قالت بيلسان باكية: فقط اترك عائلتي تذهب، وسننفذ كل ما تريد.

قال شريف: سأرسل لكما عنوانًا، وعليكما أن تكونا به بعد ساعة واحدة، ومعكما البرنامج. وإذا حاولتما فعل أي شيء، أي شيء، فلا تسأليني أنت تحديدًا يا بيلسان عن عائلتك.

قالها، وخرج من المحادثة؛ فانهارت بيلسان أرضا، وتمتمت:

- يا إلهي! ماذا يحدث؟

ثم التفتت نحو أحمد صارخة:

- ماذا فعلت؟!

تردد أحمد في صمته مقتربا من الانهيار؛ لكنها صرخت به ثانية:

- ماذا فعلت؟

حكى لها أحمد اتفاقه مع ألفا؛ لتسليم شريف الذي هرب منهم..

فقالت بيلسان في حيرة:

- أنت فعلت هذا.. أنت السبب فيما يحدث!

رد أحمد بصوت مرتعش:

- لقد فعلت هذا لأضمن سلامتك، وخروجك من هذا الأمر.

- هذا الأمر.. هذا الأمر الذي وضعتني فيه منذ البداية!

- ماذا؟

- لقد طلبت منك عشرات المرات أن نخرج ونترك كل شيء؛ ولكنك واصلت اندفاعك الأحمق، دون أن تستمع لي؛ فانظر ماذا فعلت بنا الآن!

اقترب منها أحمد، ومد يده ليربت على كتفيها، ولكنها دفعته بعيدا قائلة:

- ابتعد عني.

تراجع أحمد للخلف مذهولا.. كان هذا ما لم يتخيل أن يراه من بيلسان يومًا.. هو من أدى بها إلى إبعاده عنها بكل هذا الغضب. حاول أن يتمالك نفسه قائلا:

- ماذا سنفعل الآن؟

قالت بيلسان في هدوء مصدوم، بعد أن أخذت نفسا عميقا:

- نفعل! لم يعد هناك "نحن" من هذه اللحظة. سنذهب إليه لأنه يريدنا معا، ولا أريد أن أراك بعدها.

أغمض عينيه والحزن يأكل ذاته، وقال في يأس:

- تعرفين يا بيلسان.. تعرفين ومتأكدة أني لم أرد لهذا أن يحدث.. لقد كنت أريد الأمان لك فحسب.

- "آسف جدا"!.. هكذا أنت دائما، تفسد كل شيء، ثم تقول إنك آسف جدا. لماذا لا تقول هذا لعائلتي، التي تواجه الموت الآن؟ عائلتي التي آوتني، وربتني، وحمتني، ثم هذا ما أفعله بهم.. أجلب الموت إلى بيتهم! ولكن هذا لا يهم؛ فأنت آسف جدا!

سارت للخارج، وتبعها أحمد مفرغا تفكيره وإرادته، ونستسلما لما تفعله هي به؛ فالتفتت نحوه قائلة من بين أسنانها:

- لو حدث لهم أي شيء، فلن أسامحك أبدا، هل تفهمني؟ لن أسامحك أبدا.

***

-٧٢-

تطلعت بيلسان إلى المبنى الذي أخبرهم شريف أن يقابلوه عنده. قال أحمد: لقد نجحنا في الهروب من المراقبة.

- جيد.

قالتها بيلسان في جمود، وسارت نحو المبنى، فجذبها أحمد من ذراعها قائلا: دعيني أدخل أولا؛ لا أثق في أحد؛ أرجوك!

ولكن بيلسان أفلتت ذراعها من يده قائلة: أتركك تذهب وحدك؛ لتفسد كل شيء. إنها عائلتي أنا هذه المرة.

سار أحمد بجوارها قائلا في خذلان: لقد فعلت هذا من أجلك أنت يا بيلسان. أنت لا تعرفين ما حدث لي، عندما ظننت أنني فقدتك.. لقد كان شعورا لا يوصف.

لم تجب بيلسان، وكأن قلبها قد انغلق أمامه. وصلت المبنى، فدخلت المصعد، الذي انغلق عليهما، وقالت: ذكرني ثانية، لماذا أصابتني الرصاصة؟

حاول أحمد أن يقول أي شيء، ولكنه لم يجد، فغلفهما الصمت حتى وصلا إلى الشقة المطلوبة، وفتح شريف الباب قائلا: ادخلا.

خطوا إلى الداخل، فقال أحمد: نحن هنا؛ عليك أن تترك عائلة بيلسان الآن.

تطلع إليه شريف للحظات، ثم قال: أنت شخصيا لا يمكنك أن تطلب أي شيء، بعد ما فعلته.

قالت بيلسان: أنا هنا، وسأفعل ما تريد. فقط دعهم وشأنهم.

تجاهلها شريف، ووجه كلامه لأحمد: لقد لجأت إليك لأنني ظننت أنك الوحيد الذي سيفهمني، ويساعدني. ولكنك خنتني بمنتهى البساطة، وكدت

تُفقِدني أسيل.. هل تفهم ما فعلت؟! لقد كدت تُفقِدني أسيل!.. يمكنني أن أمزقك الآن لما فعلته بها.

قال أحمد وروحه تصرخ مع الكلمات: لم أستطع.. افهم.. إنني لا أستطيع التعامل مع خائن.

صاح شريف: أنا لست خائنًا!

صاح أحمد: قل هذا لرجال المكتب التاسع الذين يلاحقونك، و.........

- اخرس.

صرخت بيلسان بالكلمة في وجه أحمد؛ فنظر إليها مذهولا، ثم صمت وأشاح بوجهه عنهما معًا، وهو يشعر أن الجميع يمزقه بلا رحمة. واصلت بيلسان والدموع تترقرق في عينيها: أنا لا أهتم من أنت، ولا ما فعلت.. أنا هنا لأفعل ما تريد.. أي شيء تريده، سأفعله الآن، فقط مقابل أن تترك عائلتي.

تراجع شريف للخلف، وجلس على أحد المقاعد قائلا:

- الأمر معقد.. كل الأمور تعقدت معًا.. أحمد لا يفهم، ولا يمكنني الشرح؛ على الأقل في الوقت الحالي. أنتِ أيضًا.. هل تظنين أنني سعيد بما أفعله بعائلتك؟.. لم أرد لهذا أن يحدث، لم أرد لأي شيء من هذا أن يحدث.. إنني أتمنى أن يتلاشى كل هذا الآن، وأن أعود إلى منزلي آمنا مع زوجتي.

مسح دمعة هاربة من عينه مكملا: ولكنني لا أستطيع، يجب أن أنهي الأمر.

اقتربت بيلسان منه قائلة في إشفاق: يبدو لي أنك تحمل ألما عظيما!

قال شريف: أشعر أنني ملعون.. لقد شاهدت كل شخص أحببته يموت أمامي، دون أن أفعل شيئا.. أبي، أمي، عمي، ابني الذي لم يبدأ حياته.. وحتى هند التي أحبتني دون أن أعرف، كادت تفقد حياتها بسببي. والآن زوجتي أسيل، آخر من تبقى لي تنهار كل يومٍ بما تحمل من ألم، ولا أعرف ما أفعل.....

غلبته دموعه، فتجرأت بيلسان واقتربت أكثر، وربتت على كتفه قائلة:

- ونحن أيضا مثلك، نحمل آلاما عظيمة.. كلنا كذلك.. لقد رأيت والديَّ يعذبان حتى الموت. كنت محظوظة؛ فحذف عقلي ما رأيت، لكن أحيانا تعود لي ومضات من الذاكرة، أرى خلالها وجهيهما الصارخين، فأصرخ أنا الأخرى.. أظل أصرخ، حتى لا أستطيع تحمل المزيد. ولكنها حياتنا، ولا يمكننا تغييرها.

قال أحمد: نحن أطفال الحرب، نحمل ألما شديدا، ليس ألمنا، ولكنه ألم حيوات كثيرة زهقت، وحياة قصيرة، يجب أن نحياها بلا أمل.

غلفهم الصمت للحظات، ثم قالت بيلسان: ماذا تريدنا أن نفعل؟

قال شريف: كما أخبرته سابقا، أريده أن يجعل مستمعا يتذكر.

قالت بيلسان: حسنا!

دوى صوت الإنذار؛ فقفز شريف نحو الكمبيوتر، وتطلع إليه، ثم نظر إلى أحمد في شراسة: لقد فعلتها ثانية!

صاح أحمد: أنا لم أفعل شيئا!.. اسألها.. لم أفعل شيئا هذه المرة!

صاح شريف في جنون: هناك من يقتحم المبني.

صاحت بيلسان بأحمد: ماذا فعلت؟

فصاح أحمد بها وقد فقد سيطرته على كل هذا الكبت: أنا لم أفعل شيئا، أقسم لكما.. لقد كنتِ معي في كل لحظة منذ اتصل بنا؛ فهل رأيتني أفعل شيئا؟!.

قال شريف وهو يسرع بجمع بعض الأشياء: يجب أن نخرج من هنا.

تجمد أحمد في مكانه، وتفجرت الدماء من موضع رصاصة أصابته، وسقط أرضا. أسرعت بيلسان نحوه هاتفة: أحمد.... أحمد....

ولكنه دفعها بيده قائلا: اهربا، أخرجها من هنا يا شريف.

قفز أول المهاجمين عبر النافذة؛ فضغط شريف أحد الأزرار، فعم الظلام، ثم جذب بيلسان، وأسرعا للخارج عبر باب خلفي يؤدي إلى شقة أخرى، ومنها إلى أخرى، حتى عبرا البناية الملاصقة من داخل الشقق، ثم هبطا السلم سريعا، وبيلسان تصيح: أحمد، يجب أن نعود له.

قال شريف: لا يوجد ما يمكننا فعله لأجله.

هبطا إلى الشارع، وواصلا عدوهما، ولكن الصيحة دوت من خلفهما: توقفا.

تجمد الاثنان مكانهما، وتقدم أحد المهاجمين منهما، مصوبا سلاحه نحوهما، وتحدث عبر جهاز الاتصال: لدي اثنان.

اندفعت سيارة مسرعة، فصدمت المهاجم، وأطاحت به بعيدا، ثم فتحت أسيل الباب قائلة: أسرعا.

دفع شريف بيلسان داخل السيارة، والتقط جهاز الاتصال من المهاجم، ثم قفز داخل السيارة، التي انطلقت بها أسيل بسرعة. استمع شريف لجهاز الاتصال، ثم قال: لا أحد خلفنا.

انهارت بيلسان علي مقعدها تنادي باسم أحمد، فقال شريف: اطمئني، إنهم يريدونه حيًّا.

سألته في لهفة: من هم؟

قال شريف: لا أعرف بالتحديد؛ ولكنهم يريدونه حيًّا، وهذا جيد.

- إذًا فسيكون بخير؟

لم يجب شريف، فنظرت إليها أسيل في تعاطف:

- سيكون بخير.

***

خطا شريف إلى داخل الشقة، تستند إليه بيلسان، وخلفهما أسيل تسير حاملة جهاز الكمبيوتر الخاص ببيلسان، والذي أحضره شريف قبل هروبه من المنزل الآخر. ساعدها شريف على الجلوس، واتجه نحو جهاز الكمبيوتر الخاص به، وجلس يعمل عليه، فجلست أسيل بجوار بيلسان تربت عليها قائلة في حنان: سيكون بخير.

انهمرت الدموع من عيني بيلسان، وقالت:

- لقد أخبرته أنني لا أريد أن أكون معه بعد الآن.. كنت قاسية جدا؛ وهو لا يستحق ذلك.. إنني مستعدة لدفع عمري كله لأكون معه ثانية.

ابتسمت لها أسيل قائلة: كلنا نقول أشياء لا نعنيها في غضبنا، وهو يعرف جيدا أنك تحبينه، ولا تقصدين ما قلتِ، وسوف تخبريه بهذا بنفسك عندما تقابليه ثانية.

ثم ربتت على كتفها مكملة: كل شيء سيكون على ما يرام.

حدقت بيلسان في وجه أسيل لثوان، ثم قالت: أنا أعرفك.... أنت.... أنت الملاك الهامس! هكذا كانوا يدعونك في مستشفي الأمل.

ابتسمت أسيل، فواصلت بيلسان:

- أذكر الليلة الثانية لي في المستشفى.. لقد جئت إليَّ، وهمست في أذني وأنا نائمة أن كل شيء سيكون على ما يرام، ولكنني هربت من المستشفى في اليوم التالي؛ فقد كنت خائفة للغاية.

قالت أسيل: لقد كنت محظوظة بخروجك قبل القذف.

قالت بيلسان: آسفة جدا على ما حدث لوالدتك.

خطا شريف نحوهما قائلا: لقد قمت باختراق إشارة جهاز الاتصال الذي حصلنا عليه، وأرسلتها إلى المكتب التاسع، سيقومون بتتبعها إلى مكان أحمد.

قالت أسيل: أخبرتك أنه سيكون بخير.

قالت بيلسان: وماذا عن عائلتي؟

جلس شريف بجوارهما قائلا: لقد أصدرت إشارة التراجع للعميل، عائلتك بأمان الآن.

زفرت بيلسان وهي تقول في ضعف: حمدا لله.

مط شريف شفتيه، وهو يبحث عن كلام يشرح الموقف به أكثر.. قال:

- أنا آسف جدا لما حدث. لم أكن أنوي إيذاءهم أبدا، ولكنني كنت خائفا من أحمد.

وصمت لحظة، ثم أكمل: أنت حرة للذهاب الآن، ولكنني أريدك أن تفعلي شيئا واحدا من أجلي قبل أن تذهبي.

سألته بيلسان: ما هو؟

قال شريف: أريدك أن تستمعي لأسيل؛ ويمكنك بعدها أن تفعلي ما تشائين.

قالت بيلسان: لا أعرف ماذا أفعل.. فجزء مني يتمنى أن ينهض ويمزقك الآن، وجزء آخر يطلب مني أن أساعدك.

قال شريف: لا تفعلي شيئا، فقط استمعي لأسيل.

جلس شريف أمام جهازه واضعا رأسه بين كفيه. وبدأت أسيل تقص على بيلسان كل ما حدث منذ البداية.

***

-٧٤-

فتح أحمد عينيه؛ فوجد نفسه في غرفة ضيقة، مقيد على مقعد حديدي مثبت بالأرض، وبجواره طاولة عليها الكثير من الأدوات، وهناك حارس ضخم يقف بجواره. تلفت أحمد حوله مندهشا، وصاح: أين أنا؟!

كانت هناك ضمادة بدائية موضوعة على جرح الرصاصة في كتفه، والألم يمزقه، فأغلق عينيه ثانية، وهو يصدر أنات خافتة. قال الضخم في جاهز إرسال يمسكه: لقد استيقظ.

لحظات، وفتح الباب، وعبرته سيدة، اتجهت نحوه مباشرة، فتعجب أحمد، وسألها: من أنت؟

قالت السيدة: ألم يخبرك ديفيد عني؟

غمغم أحمد: ديفيد!

فقالت في نفاد صبر: أنا إيزابيل، خطيبة ديفيد.

- وماذا تريدين مني يا خطيبة ديفيد؟

قالت إيزابيل: أين ديفيد؟

صمت أحمد للحظات، ثم قال في سخرية من كل شيء: ظننت أنك خطيبته، لا أنا.

نظرت إليه وقد رفعت حاجبها، وظلت تتأمله لدقيقة، ثم قالت وهي تعبث بأظافرها المطلية بالأصفر الفاقع: لقد أخبرني أنه يقوم بعمل معك؛ لذلك سأسألك ثانية، أين ديفيد؟

صاح بها: وهل أخبرك أن هذا العمل يتضمن رعايتي له، ومعرفة مكانه في كل وقت؟ أنا لا أعرف مكانه.

كان واضحًا لها أنه قريب جدا من الانهيار؛ ولم يكن هذا ما تريد، فلو فقد عقله، فستفقد الخيط المتبقي لها للعثور على ديفيد. سارت إيزابيل نحوه، ثم وضعت يدها على كتفه قائلة:

- لقد أخبروني كثيرا عن شخصيتك المرحة. إنني أشعر بالشفقة مما سأفعله بك لو استمر مرحك أكثر من ذلك. لذا، أتمنى أن تخبرني بما أريد؛ لتوفر على نفسك الألم.

ثم مالت نحوه مكملة: أم أنك تعتقد أنك قادر على تحمله؟

هز أحمد رأسه نافيا، ثم قال وهو يضحك:

- لن أخبرك عن قدرتي على تحمل الألم، فهي غير موجودة.. كما أنني خائف منك للغاية، فأنت امرأة مخيفة.. ولذلك، أعدك أنني سأصرخ.. سأصرخ كما لم تسمعي أحدًا يصرخ من قبل. ولكنني لن أخبرك بشيء في النهاية..

علا صوته في حدة مكملا: فأنا لا أعرف أين ديفيد!

لم يكن أمامها إلا أن تكذِّب ما تراه بعينها، باحثة عن أمل أخير أن تعثر على خطيبها، فوقفت أمام طاولة الأدوات، تتخير منها قائلة:

- ولكنني أعرف أنك تعرف، وسنرى من المحق.

أمسكت سكينًا صغيرًا قائلة: يمكنني فعل الأعاجيب بهذه السكين.

سارت نحوه، ووضعت السكين على جسده قائلة: الفرصة الأخيرة لتخبرني بما أريد.. فبمجرد أن أبدأ، لن أستطيع التوقف مهما بلغ صراخك.

توسل أحمد: أرجوك، لا تفعلي، أرجوك، لا تفعلي.

قالت إيزابيل: أين ديفيد؟

قال أحمد: لا أعرف مكانه.. ولكنك محقة في أنني عملت معه في بعض الأمور، وسأخبرك بكل ما أعرفه عنها.

قالت إيزابيل من بين أسنانها:

- تحاول كسب المزيد من الوقت؟ محاولة جيدة، ولكن لن يصل أحد لك هنا.

بدأت تشق جلده بالسكين مكملة:

- لقد استنفذت صبري، لذلك سأجعلك تتوسل لي: لتخبرني ما أريد، وهل تعرف ماذا؟ لن أتوقف.

صرخ أحمد بكل قوته، وإيزابيل تجرح جسده بالسكين، ثم تنقلها لمكان آخر. مرة، ومرة، ومرة.. وأحمد –كما وعدها- يصرخ كما لم يصرخ أحد من قبل.. يصرخ بكل ألمٍ عاشه ولم يصرخ معه، وكبت صرخته داخله طوال عمره. دوت الصيحة من خلفها :

- توقفي.

وقبل أن تلتفت، كان هناك من يدفعها أرضا، ويلصق رأسها بالأرض، لترى حارسها الضخم ممدد بجوار المنضدة، تم قيد يديها خلف ظهرها، ثم دفعها لتنهض وتسير للخارج. كان آخر ما رآه أحمد هو أحدهم يحل قيوده، فهمس:

- بيلسان.

ثم فقد وعيه.

***

-٧٥-

- ولكن المشكلة أن المستمع لم يتذكر كل شيء بوضوح، بل مجرد فلاشات مظلمة، دون أن يتمكن من رؤية كل شيء، أعتقد أن هذا بسبب عدم اكتمال تحميل البرنامج الخاص بكم، أليس كذلك؟

- لا يمكنني أن أخبرك، ولكنه أمر في غاية الأهمية بالنسبة لي، فأرجو أن تساعدني يا دكتور أحمد؛ لجعل المستمع يتذكر.

- إنها زوجتي.

ترددت العبارات في عقل يوسف، وهو يستمع إلى تسجيلات جلسات استماع أسيل. الآن فقط، كل شيء يأخذ مكانه الصحيح، ويفهم لماذا فعل شريف ما فعله. يبدو أن الغرائب لن تنتهي من هذه المهمة؛ فعلى الرغم من تقرير مركز المستمعين أن برنامج وسام لم يكن ليجعل المستمعين يتذكرون أبدا، حتى لو تم تحميله بالكامل، فإن شريف يقول إن زوجته تتذكر، بل ويراهن بحياتهما على ذلك؛ ولذلك سيفترض أنه محق، فما هو الشي الذي سمعته أسيل، ويفعل شريف كل هذا لرويته.

كانت التسجيلات كثيرة، ويجب أن يسمعها يوسف بنفسه، فلا يمكنه طلب المساعدة من الباقين، حفاظا على سرية المستمعين، والمحركين. في عمله كمحرك، كان يوسف يستمع إلى الأجزاء الهامة فقط من التسجيلات، الأجزاء التي تخص العمليات التي سيقوم بها؛ أما الآن فهو يستمع إلى التسجيلات كاملة، حتى وجد نفسه يقول: الآن أعرف لماذا يتطلب الأمر برنامج خاصًا جدا؛ لجعل المستمعين يستمعون.

كانت هناك الكثير من الأحاديث الفارغة حول الكثير من الأشياء. يستدعي الشخص المستمع، ثم يظل يتحدث بلا توقف، دون أن يؤلمه فكه. هناك شخص استدعى أسيل، وظل يعد أمامها ابتداء من الواحد بلا توقف،

ليرى إلى كم يمكنه الوصول؛ والمدهش أن هذا ليس أكثرهم مللا!

أضاءت شاشة هاتف يوسف، فتطلع إليه.. كانت كادي تطلبه للمرة الثالثة، فالتقط الهاتف، وتحدث إليها: كادي، كيف حالك يا أميرتي؟

- أنا بخير، ولكنني غاضبة منك.

- تعرفين أنني لا يمكن أن أتحمل غضبك، سأموت عندها.

- حسنا، لقد سامحتك.

- شكرا لك يا أميرتي، كنت أعرف أن قلبك الجميل لن يغضب مني.

- ولكنك لا تجيب اتصالاتي.

- لقد أخبرتك من قبل، أنا في العمل.

- أنت تعمل طوال الوقت.

- بالطبع، فالعمل لا ينتهي.

- حسنا، ولكنك ستأتي إلى حفلتي المدرسية؛ أليس كذلك؟

- أعدك أنني سأحاول القدوم، ولكن العمل كثير جدا.

- ستأتي إلى الحفل، أو لن اشترك فيه.. لن اشترك إلا وأنت معي.

- حسنا، حسنا.........

بتر عبارته مع الصوت الذي انبعث من الجهاز أمامه: أنا قتلت ابنك.

قال يوسف: سأكلمك لاحقا.

انهى المكالمة، وأغلق الهاتف، وألقى به بعيدا، وهو يستمع إلى الصوت الذي تصاعد ثانية: أنا قتلت ابنك.

***

-٧٦-

- هل ستتمكن بيلسان من فعلها؟

انفجر السؤال في عقل أسيل، وتناثرت شظاياه في كل مكان داخل رأسها، وهي تتطلع إلى شريف وبيلسان المنهمكين في العمل على البرنامج؛ للوصول إلى أفضل نتيجة ممكنة. تقول بيلسان إنها لا تملك نسخة من برنامج وسام، وكل ما تعرف هو أجزاء من الصورة أثناء عملها معه، ونظرة سريعة ألقتها على النسخة الأولى من البرنامج، قبل أن يقتحموا المكان، فتهرب وتترك كل شيء، ولذلك فهي تحتاج معاونة شريف؛ لكتابة نسخة جديدة من البرنامج.

أحيانا تتمنى لو أنها لا تتذكر؛ ولكنها تعود، وتخبر نفسها أن التذكر لم يكن المشكلة، بل المشكلة في القاتل الذي حرمهما من ابنهما، ثم عاد ليخبرها بما فعل بمنتهى البساطة. تتمنى لو يمكنها مشاهدة خزامي سامي في هذه اللحظة؛ لتبعد تفكيرها عن الأفكار التي تخنقها، لتشغل تفكيرها عن هذا القاتل السرابي الذي يطاردانه، وكلما اقتربا منه، تجده يهرب من بين أيديهم، ويتركهما في وضع أسوأ من ذي قبل؛ كأنه يكمل ما بدأه في تحطيمهم.

نظرت إلى شريف، الذي تصبب عرقا، تتمنى أن تكون هذه هي النهاية حقا. إنها تعرف ما يعانيه شريف مع كل ما يحدث. إنه في قلب جحيم داخل جحيم داخل جحيم، يبحث عن القاتل مع كل هذا الألم الذي يأكله حيًا.. يضطر إلى مخالفة كل ما أقسم عليه يوما، ويموت ألف مرة من أجلها.. تتمنى لو هناك ما تستطيع فعله لمساعدته.. لو علمت أن تحطيم رأسها، سيخرج صورة القاتل منها، ويتمكن شريف من رؤيتها لفعلت. يجب أن تصل إلى هذا الشخص.. تعتقد أنها قادرة على التهام عنقه فعليا، دون أن تشعر أن هذا يكافئ ما فعله، لذلك ستذهب خلفه، وتطارد روحه، وتقتلها ثانية.

أفاقت من أفكارها على صوت شريف: لقد انتهينا.

جلس بجوارها قائلا: هل أنت مستعدة؟

هزت أسيل رأسها قائلة: لننتهِ من هذا.

قالت بيلسان: هذه النسخة ليست مثل التي استخدمها وسام، لذلك أعتقد أنك ستشعرين ببعض الألم و....

قاطعتها أسيل قائلة: هل ستجعلني أتذكر؟

قالت بيلسان في تردد: أعتقد.

ردت أسيل في حسم: إذن، فأنا لا أهتم، لنفعلها.

قام شريف وبيلسان بتثبيت خوذة متصلة بالكمبيوتر على رأسها، وثبت شريف جهازا آخر؛ لمراقبة إشاراتها الحيوية، ثم تطلع إلى عيني أسيل، التي دمعت، ثم أمسكت بيد شريف مكملة: مهما حدث، لا تنهِ العملية حتى أراه.. هل تفهمني؟ مهما حدث، لا تنهِ العملية.

ربت شريف على يدها قائلا: سأفعل.

ضغطت يده وهي تلح في رجاء: عدني

صمت للحظة، يفكر في جدوى كل ذلك، لكنها جذبت يده مؤكدة عليه بإيماءة مشجعة، فقال أخيرًا: أعدك!

أغمضت أسيل عينيها، وتمتمت بكلمات خافتة، وبدأ شريف، وبيلسان العمل. قال شريف: سأقوم بتفعيل نسخة أصغر من برنامج مكان سعيد أولا؛ لتتمكن أسيل من الدخول لذكرياتها، وبعدها تقومين بتفعيل برنامج التذكر.

هزت بيلسان رأسها، فبدأ شريف بالعمل، وهو يراقب إشارات أسيل الحيوية، التي بدأت في الانخفاض، وراقبت بيلسان عدًا تنازليًا على جانب الشاشة، حتى وصل للصفر، فقالت:

- الآن.

كان الانتقال أكثر عنفا هذه المرة.. شعرت أسيل بوعيها ينتزع انتزاعا من داخل الغرفة، ثم يلقي بها إلى مكان مظلم لا تعرف أبعاده، ولا ترى فيه أي شيء؛ فظلت مكانها، حتى سمعت خطوات قادمة نحوها، ثم أضاء المكان أمامها، فرأت رامز قادما نحوها. أسرعت نحوه، ولكنه أشار إليها قائلا:

- توقفي.

ثم أشار للظلام المخيم حولهما مكملا: انظري إلى ما فعلت.

تطلعت إلى الظلام حولها، فقال رامز: لقد أخبرتك أن تتراجعي، ولكنك لم تفعلي، والآن انظري إلى ما فعلت.

قالت أسيل: وأنا أخبرتك أنني لن أتوقف حتى أصل إليه، ابتعد من طريقي.

صاح رامز: أنت تقتلينه.

- هذا ما أريده بالضبط.

- أنا لا أتحدث عنه، أنا أتحدث عن شريف.

تجمدت أسيل في مكانها، فواصل رامز: هل ترين ما فعلتِهِ به؟ أنت نفسك تظنين أنك لم تعودي تعرفينه؛ لم يعد شريف الذي تزوجته!

صرخت أسيل: أنا لم أفعل أي شيء، بل فعلها هو؛ وأنا سأصل إليه، وأجعله يدفع الثمن.

تلاشى الظلام من حولها، ورأت نفسها أمام الممر، فسارت فيه حتى غرفة المكتب، ثم دخلت؛ لتجد الرجل جالسا على مقعده، وظهره لها. جلست على المقعد أمام المكتب، وبدأ الرجل يتحدث بحديث خافت، لم تسمعه أسيل، ولم تهتم، بل راحت تصرخ داخلها مع اهتزاز الرؤية أمامها:

- استدر أيها الوغد، استدر الآن.

ازداد اهتزاز المشهد أمامها، وبدأ الرجل يستدير بمقعده ببطء، ويهمس: أنا قتلت ابنك.

وفي الواقع، كان جسد أسيل يهتز بشدة، وإشاراتها الحيوية تنخفض، فقالت بيلسان في قلق: يجب أن نخرجها الآن.

فأشار شريف قائلا: انتظري، يجب أن نمنحها المزيد من الوقت.

وهمس: هيا يا أسيل، افعليها من أجل رامز.

ضغطت بيلسان بعض الأزرار، وتصلب جسد أسيل كأنها تتعرض للصعق، فقال أحمد: أوقفي العملية الآن.

أخرج المحقن من حقيبة أدوات طبية احضرها ياسر مع باقي الأشياء، وأعده سريعا، ثم غرسه في ذراع أسيل، وأفرغ محتواه، ثم أراح جسدها على الأريكة، وجلس بجوارها ينتظر. مرت دقائق، ثم بدأت أسيل تفيق، لترى عيني شريف القلقتين:

- كيف حالك؟

فتحت أسيل عينيها أكثر في دهشة، فغشيهما الضوء، فأغمضتهما ثانية للحظات، ثم فتحتهما ببطء قائلة:

- بخير.

أمسك شريف يدها في صمت، فسألت بيلسان السؤال الذي لم يجرؤ على قوله:

- هل تذكرتِ؟

***

-٧٧-

- بيلسان، أنقذ بيلسان.

همس أحمد بالكلمات، وهو يهذي على سريره داخل المستشفى الخاص بالمكتب التاسع، ثم أكمل: آسف يا بيلسان، أنا لم أقصد أن أؤذي أهلك.. كنت أحاول إنقاذك.

تطلع يوسف إليه للحظات، ثم نقل بصره إلى الطبيب الذي قال: لقد حقنته بالمحقن الذي أحضرته؛ فصار على هذه الحالة.

- جيد.

قالها يوسف، ثم أشار للطبيب، فخرج، فاتجه نحو فراش أحمد قائلا:

- دكتور أحمد، أين بيلسان؟

- بيلسان... لا أعرف أين بيلسان.

- بيلسان في خطر يا أحمد، ويجب أن تخبرني أين هي؛ لأتمكن من مساعدتها.

- لا أعرف.. أطلقوا عليَّ الرصاص.. أخذوني بعيدا.. تلك المرأة تريد ديفيد.. بيلسان.. لا أعرف أين هي، ربما هربت معه.

- مع شريف؟

- ششش.. لا تخبر أحدًا.. سيقتل شريف عائلتها.

- عائلة بيلسان بخير يا أحمد؛ لقد تأكدنا من وصولهم إلى مكان آمن، فلا يمكن لأحد إيذاءهم.

- بيلسان.. أهلك بخير.. اطمئني، أخيرًا.

- وأين هي بيلسان؟

- لا أعرف.

- ولكن يمكنك الوصول إليها.

لم يجب أحمد، فقال يوسف:

- يمكنك الوصول إليها، وستخبرني كيف؛ لأتمكن من إنقاذها.

بدأ مفعول العقار ينزاح، وبدأ أحمد يعي الحوار الدائر مع يوسف أكثر.. كرر يوسف كلامه وهو يراه يفيق، ويحاول الجلوس، ففتح أحمد عينيه وهز رأسه طاردًا ذلك الإحساس بالخواء وفقدان الإرادة، الذي جعله العقار بهما يتكلم دون مقاومة. زفر بقوة، ثم قال: أعرف الكود الخاص بالكمبيوتر الخاص بها؛ يمكنك استخدامه؛ لتحديد مكانها.

- أعطني إياه بسرعة.

أملاه أحمد الكود، فشكره يوسف وقبل أن يغادر الغرفة مسرعا، ناول الطبيب محقنا آخر قائلا:

- احقنه بهذا، واجعله مستعدا، فهم يريدون مقابلته بعد قليل.

***

- هل ترى ما حدث؟ لو لم يكن بسببك؛ لكانت والدتك حية الآن، وكنت أنا أعيش سعيدا معها، بعيدا عنهم، بعيدا عنك، وعن جدك الأحمق.

انهى منير قصته بهذه العبارة، فقال سامح: هل انتهيت؟

ردد والده بنبرة متصاعدة: هل انتهيت؟! هل انتهيت؟!.. تسألني هل انتهيت؟! يا لك من وغد! ألا تطيق سماع ما فعلته؟!

خرجت حياة من غرفتها، وجذبت سامح من يده قائلة: هيا يا سامح، ستتأخر على العمل.

فقال والده: لا أعرف كيف تطيقين الحياة معه، وأنت تعرفين أنه سيضحي بك في أقرب فرصة.

ثم شرب من زجاجته، ومسح فمه بيده مكملا: لابد أنك جاحدة حمقاء مثله.

سارت حياة نحو الباب وهي تجذب سامح خلفها؛ فقال سامح: أخبرتك من قبل أننا لن ننتقل لمكان آخر، فأنا لا أستطيع ترك والدي.

أومأت حياة موافقة: أعرف، ولكن أحيانا أشعر أنني لا أستطيع تحمله.

- إنه يتألم ألما لا يمكن تصوره.

وصمت لحظة تطلع خلالها إلى عينيها، ثم قال: وأعتقد أنني قد أصير أسوأ منه بكثير، لو فقدتك.

- أحبك يا سامح.

- أحبك يا عزيزتي.

غادر سامح المنزل، فوجد الحارس الضخم ينتظره أمامه، فسار معه نحو السيارة، وركب في المقعد الخلفي بجواره. قاد السيارة ضخم آخر، وانطلقت

سيارة أخرى خلفهم. يشعر سامح بالحارسين يجثمان على صدره، ولكنها تعليمات جده المشددة، حيث يظن أنه دومًا في خطر؛ فهكذا أخبره أحد أصدقائه، في أحد المواقع الهامة: هناك من يستهدف سامح.

يظن جده أن الكوابيس التي تطارده، هي تحذير من عقله الذي يشعر بالخطر، وهو لن يترك أي شيء يحدث له.. لن يخذله كما فعل مع والده. والحقيقة، أنه على الرغم من الضيق الذي يشعر به، هناك شعور بالراحة والأمان يتسلل إلى قلبه عندما يكون وسط الحراس، فلن تجتازهم السيدة ذات الفأس بسهولة لتصل إليه.

أخرج مظروفًا صغيرًا من جيبه، وقرأ الورقة التي كانت داخله.. كانت تقرير المحقق الخاص الذي استأجره للبحث عن أسيل، ولم يستطع معرفة أي شيء؛ كل ما عرفه أنها اختفت مع زوجها، ولا أحد يعرف مكانهما.

- ترى أين أنت يا أسيل؟

***

- هل تذكرتِ؟

تجمد الموقف تماما بعد نطق بيلسان للعبارة. أغمضت أسيل عينيها، وخفضت وجهها لأسفل قائلة: لا أعرف.

ثم خبطت بيدها على جبتها بقوة مكملة: لا أعرف كيف يعمل هذا العقل؟ ولكنه يحجب عني ما أريد!!

أمسك شريف يدها واحتضنها، وقالت بيلسان: هل عرفتِ من هو؟

انهمرت الدموع من عيني أسيل، وقالت: لا أعرف.. لقد نظرت إلى وجهه، ولكنني لم أعرف من هو. أعتقد أنني لو رأيته ثانية سأعرفه.

قال شريف مترفقًا: لا بأس يا عزيزتي.

قالت بيلسان: هل رأيت أي شيء مميز في المكان؟

ظهرت علامات التفكير على وجه أسيل، ثم قالت: أيضا لا أعرف!.. كانت غرفة مكتب عادية، لا شيء مميز فيها.

جلست بيلسان بجوارهما، فقالت أسيل: لقد أفسدت كل شيء، أليس كذلك؟

زفرت بعنف، وأكلمت: لقد حصلت على فرصة أخرى، ولكنني أفسدت كل شيء.

قال شريف: اهدئي يا أسيل. ما حدث ليس خطأك، برنامج المستمعين قوي جدا، ولا يمكن اختراقه.

قالت أسيل: المستمعون، وبرنامجهم، دائما المستمعون، وبرنامجهم،....

قال شريف: ششششش.. سنجد حلا آخر؛ فاهدئي.

قامت أسيل من مكانها، فشعرت بتصدع في رأسها، وجلست ثانية وهي تقول: لم يعد هناك حل آخر، لقد انتهى كل شيء.

قال شريف: لا يا أسيل.. ليس بعد كل هذا. فقط استرخي الان، وسأجد حلا آخر.

قالت أسيل: يجب أن نعيد المحاولة.. أنا واثقة أنني سأعرف هذه المرة.. سأعرف من هو.

قالت بيلسان: لا يمكننا إعادة المحاولة، لقد كان لدينا محاولة واحدة.

صاحت بها أسيل في جفاف: أنت لا تعرفين أي شيء.. هيا يا شريف، سنعيد المحاولة بدونها، فنحن لا نحتاجها، ثم نهضت تترنح، وجذبت يده مكملة: هيا يا شريف.

جذبها شريف لتجلس ثانية، ثم قال: لا يمكننا.

صاحت أسيل: ماذا تعني بأننا لا يمكننا؟

قال شريف: لم نتمكن من كتابة البرنامج الأصلي؛ لذلك كانت لدينا محاولة واحدة، ولا نعرف ماذا سيحدث لو تعرضت له ثانية.

قالت بيلسان: ربما ستموتين، لو تعرضت له ثانية.

قالت أسيل: وكيف اعتقدت أن هذا الأمر سينتهي؟ أنا مستعدة لأموت مقابل معرفة القاتل.

رد شريف في حزم: وأنا لست مستعدا لخسارتك.

ساد الصمت لبرهة، ثم قطعته بيلسان: لن تعرفي شيئا.. سيقتلك البرنامج دون أن تعرفي أي شيء؛ فعقلك لن يحتمل.

قالت أسيل وقد اختلطت حروفها ببكائها: ماذا تعنين؟ هل هذه هي النهاية؟ هل سنتوقف بعد كل ما فعلنا؟ ونترك القاتل ينعم بحياته! مستحيل، لا أستطيع التصديق أنه قتل ابننا، وحطم حياتنا، ولا يوجد ما

يمكننا فعله.

قال شريف وقد بدأ يفقد صبره: أخبرتك أنني سأجد حلا.

قالت أسيل: ليس لديك أي شيء، فلو كان لديك شيء لم تكن لتجلس هكذا؛ كنت ستنهض لفعله.

كاد يرد، فوضعت بيلسان يدها على كتفه، وسارعت ترد هي: كان والدي يقول :عندما تتعقد الأمور، فإن الحل سيكشف عن نفسه.

غلفهم الصمت لدقائق، إلا من صوت بكاء أسيل.. ودموع بيلسان، التي جذبتها دموع رفيقتها لتُخرج هي أيضا بعضا من آلامها.. وزفرات شريف وهو يدور حولهما مثل نمر حبيس، باحثا عن شيء ما. التفت فجأة نحو بيلسان قائلا: أنا آسف.أرجو أن تبلغي عائلتك بأسفي؛ فأنا لم أكن يومًا هذا الشرير.

قالت بيلسان: لا عليك.. أنا الآن أفهم.

جذبها شريف من يدها قائلا: شكرا لك على كل ما فعلته من أجلنا.. شكرا لك؛ يمكنك المغادرة الآن.

قالت بيلسان غير فاهمة: لا بأس؛ سأبقى........

قاطعها شريف قائلا: من فضلك غادري، فنحن نريد أن نبقى وحدنا لبعض الوقت.

احمر وجهها غيظًا وحيرةً وحرجًا؛ لكنها قبلت رأس أسيل، وهمست في أذنها: كل شيء سيكون على ما يرام.

ثم انصرفت، وهي تغمغم: أتمنى أن تجدا ما تبحثان عنه.

عاد شريف إلى أسيل.. جلس بجوارها، ثم احتضنها، ومسح على رأسها، فاحتضنته، وشعر كلاهما بالسكينة والهدوء يسريان في جسديهما، وكل شيء حولهما يتلاشى؛ فلا يشعر أحدهما إلا بقرب الآخر.

***

-٨٠-

جلس شريف على رأس المنضدة، يتطلع إلى طبق الطعام الموضوع أمامه، ثم إلى الطبق الموضوع أمام المقعد الفارغ قائلا: لقد كنت رائعا اليوم يا صديقي.

قالت أسيل: لقد كدت أن أفقد وعي من شدة الضحك.

قال شريف: لقد أخبرتك أنه رائع، فلقد ورث هذا من أبيه.

قالت أسيل: حقا، لا أتذكر أنك جعلتني أضحك هكذا من قبل.

ماذا عن المرة التي أخبرتك فيها عن الكسول، الذي حكم عليه بالدفن حيا، فلما وضعوه في الحفرة، سألوه ماذا تريد قبل أن تموت؟ قال أريد ماء، فقالوا اخرج، واشرب فنظر للمياه قائلا: أخرج؛ لأشرب، ادفنوني أفضل.

كتمت أسيل ضحكها، وقالت: ليست مضحكة؛ رامز يقول إنها ليست مضحكة.

قال شريف: لا تخش منها يا صديقي؛ يمكنك قول الحقيقة.. إنها مضحكة، أليس كذلك؟

- إنه يقول إنها ليست مضحكة.

قال شريف: بالطبع أتينا لرؤيتك؛ هل ظننت للحظة واحدة أننا سنتركك في يومك المميز؟ لقد أوشكت أن أصرخ بالجماهير: هذا هو ابني.

- أنت رائع يا صغيري، ومهما كان الذي تريد فعله بحياتك، فنحن نثق بك وندعمك.

- بالطبع يمكنك فعل ما تريد، وستجدنا خلفك دائما.

أضاء الجهاز خلف شريف، مع صوت متقطع، معلنا دخول شخص

للمنزل.. ولكن شريف لم يتحرك؛ بل واصل الكلام:

- أتمنى أن تتعلم أسيل كيف تكون مرحة مثلنا؛ بدلا من كونها كئيبة هكذا.

- أنت لست كئيبة، أنا مرحة للغاية.

ظهر يوسف في الصالة، فتطلعا إليه دون أن يتحركا، فسار نحوهما، ثم جذب المقعد الفارغ، وجلس عليه، فسأله شريف: من أنت؟

قال يوسف: يوسف حمزة، قائد الفريق المكلف بالقبض عليك.

قال شريف: جيد.

قال يوسف: جيد! هذا هو كل ما لديك لتقوله، ألن تدافع عن نفسك؟!

هز شريف رأسه نافيا، ثم قال: لا؛ فمهما قلت، لن يفهم أحد.

قال يوسف: ولكنني فهمت يا شريف.. أنا أعرف بالضبط ما تشعر به، ولماذا فعلت كل هذا.

قالت أسيل: لا أعتقد أنك تفهم، لا أحد يفهم ما نشعر به.

أخرج يوسف صورة زوجته وابنته، ووضعها أمامهما قائلا: السبت، الثاني عشر من مايو، الساعة الثالثة، وخمس وأربعين دقيقة، خسرت زوجتي، وطفلتي الوحيدة في حادث، بسبب سائق مخمور، فر هاربا، ولم يعثر عليه أحد. كنت أتحدث معهما على الهاتف، وسمعت صوت الحادث.. سمعت كل شيء.

قال شريف: زوجتك، وطفلتك!

قال يوسف: أنا أعرف جيدا ما تشعر به، كونك في هذا الموقع الهام، تحمي دولة كاملة، وتساهم في القبض على أذكى وأخطر الجواسيس وزعماء المنظمات الإجرامية، ثم تفشل في حماية عائلتك، في القبض على سائق شاحنة مخمور، يملك ذكاء صرصار الحقل.

قال شريف: لا تستطيع أن تنظر إلى نفسك دون أن تلعنها ألف مرة على ما فعلت.

قال يوسف: والأسوأ في حالتك أنه قد عاد ثانية.. عاد؛ ليخبرك بما فعل، وليذكرك بأنك لا تستطيع الوصول إليه، مهما فعلت.

قالت أسيل: لم يكتفِ بما فعله، بل جاء ليخبرني في وجهي أنه قتل ابني. أنا مستعدة للتضحية بحياتي للوصول إليه، وجعله يدفع الثمن.

قال يوسف: أعرف جيدا ما تشعرين به؛ ولا يمكنني أن أخبرك كم مرة فكرت مثلك.. كم ليلة قضيتها وأنا أفكر فيما سأفعله بهذا الشخص عندما أقابله.. كم مرة شعرت بملمس دمائه على جسدي، وبمذاق لحمه في فمي.

سألته أسيل في لهفة: وهل وجدته؟

قال يوسف: نعم؛ وجدته.

قالت أسيل: وماذا فعلت؟

صمت يوسف للحظات، ثم قال: أنا أفهم جيدا ما فعلته.. أنت لست خائنًا، لقد فعلت ما عليك فعله، ولا يمكنني أن ألومك، ولكني لا أعتقد أن الآخرين سيفهمون هذا، فما فعلته يظل جريمة لا يمكن غفرانها.

قالت أسيل: لا نحتاج غفرانكم، نحتاج أن نصل إليه.

قال شريف: يقولون: في سعيك نحو الانتقام، احفر قبرين، أحدهما لك؛ وهذا جيد لي. ولكن ما لم يقولوه، أنهما سيكونان لك أنت، وزوجتك، ويظل عدوك آمنا في بيته!

خيم الصمت للحظات، وقالت أسيل: ماذا ستفعل؟

قال يوسف: لست مثل الآخرين؛ ولذلك لدي شيء لكما.

ثم أخرج ظرفين ورقيين، وضعهما أمامهما مكملا: في الظرف الأول، ستجد كل ما تريد عن الشخص الذي قتل ابنك.

مدت أسيل يدها نحوه بسرعة، فجذبه يوسف بعيدا، ثم أكمل: أما في الظرف الثاني، فستجدان هويتين جديدتين من الفئة الأولى، يمكنكما استخدامهما للخروج من هنا، والذهاب لأي مكان.. تتركان كل شيء، وتخرجان.

سأله شريف وعيناه –هو وأسيل- معلقتان بالظرف في ذهول: كيف عرفته؟

تطلع يوسف إليهما للحظات، ثم قال: يمكنكما اختيار واحدًا فقط. فلو اخترتما الأول، فثقا أنكما لن تخرجا حيين.

تبادل شريف النظرات مع أسيل، ثم جذب الظرف الأول قائلا: كما قالت أسيل من قبل؛ لقد متنا يوم مات رامز.

أمسك يوسف طرف الظرف وقال: هل أنت متأكد؟

قال شريف ونظره ثابت على الظرف في يده: لم أكن متأكدا من شيء في حياتي، مثلما أنا الآن.

نهض يوسف من مكانه، ووضع الظرف الآخر في جيبه قائلا: حسنا.

- لدي شيء من أجلك.

قالها شريف، وناول بطاقة ذاكرة ليوسف مكملا: هذه هي النسخة الوحيدة الموجودة من برنامج المستمعين في الخارج، وستجد كل التفاصيل عن كيف حصلت على البرنامج، وكل ما حدث بعدها.

التقطها يوسف قائلا: أنت رجل صالح يا شريف.. أتمنى لو تقابلنا في ظروف أفضل.

صافح شريف، ثم سار للخارج؛ فأسرع شريف خلفه، ثم تحدث معه لثوان خارج الشقة، قبل أن يعود لأسيل، التي سألته: ماذا هناك؟

قال شريف: كنت أشكره.

قالت أسيل: أعطني الأوراق، أريد أن أعرف من هو.

-٨١-

خطا سامح داخل شركته، وخلفه حارساه.. سار في الممر الممتد أمامه، حتى وصل إلى مكتبه، فدخله، وجلس على مقعده، وأرجع رأسه للوراء، وتطلع إلى الحارس الذي وقف في ركن المكتب قائلا:

- يمكنك الانتظار في الخارج، فلن يحدث شيء هنا.

ولكن الحارس ظل صامتا في مكانه، فأضاف سامح: بالطبع، لن تتحرك.

بدأ يعمل على الجهاز أمامه.. هناك من يريد قتله، ولا يعرف لماذا؛ ولكن عمه يخبره أنه حصل على معلومة مؤكدة: هناك من يريد قتله؛ لذلك سيتصرف وفقا لها، حتى يثبت العكس. حاول التركيز فيما يفعله، وصرف فكره عن أسيل؛ ولكنه لم يستطع؛ كان يرى صورتها أمامه وهو يخبرها:

- أنا قتلت ابنك.

تتداخل معها صورة والده، وهو يقول: أنت قتلت أمك.

رأى الضخم يتحدث عبر جهاز الاتصال المثبت في يده، ثم أسرع نحوه قائلا: هيا بنا بسرعة.

- ماذا يحدث؟

- هناك من يهاجم الشركة؛ يجب أن نذهب للغرفة الآمنة.

- ماذا؟!

- إنه في القسم الآخر، ولكنه قادم إلى هنا.

- من هو؟

دفعه الضخم أمامه، ثم ضغط على زر في الحائط؛ فأنزاح جزء منه كاشفا عن غرفة صغيرة، دفع سامح داخلها، ثم وقف يتطلع للخارج

للحظات، والتفت ليدخل، ولكن الباب أغلق بسرعة، فأخذ يدقه بقبضته، وسامح يدقه من الداخل هاتفا: ماذا يحدث؟

شعر بحركة؛ فالتفت بسرعة؛ ليجد شريف يهبط من سقف الغرفة، ثم يقف أمامه، ولكمه في وجهه بكل قوته، فدفعه للخلف؛ ليصطدم رأسه بالحائط، ويسقط أرضا، وقال شريف: لقد قتلت ابني.

أخرج شريف مسدسه، وصوبه نحو سامح، الذي انهمرت دموعه، وتمتم بهمهمات خافتة؛ كأنها صلاة لأحد الآلهة القديمة، فهم شريف منها كلمات قليلة: أمي.... رامز.... قتلتني....

انفتح باب الغرفة، فوجد شريف ثلاثة حراس يصوبون أسلحتهم نحوه، وصاح أحدهم: ألق سلاحك الآن.

ارتسم شبح ابتسامة على وجه شريف، وضغط زناد مسدسه، فانطلقت الرصاصة؛ لتستقر في رأس سامح، وأطلق الحراس رصاصاتهم؛ لتصيبه في صدره، وتنتزعه من مكانه، وتضرب به حائط الغرفة بمنتهى القوة، ثم سقط أرضا؛ لتمتزج الدماء الخارجة من جسده بدماء سامح، وعلى وجهيهما تعبير واحد، ابتسامة رضا.

***

-٨٢-

تطلعت أسيل إلى الحديقة الخضراء الممتدة أمامها، والمرضى المتجولين بثيابهم المميزة، والأطباء بثيابهم البيضاء، بينما تسألها الطبيبة الشابة الواقفة أمامها: كيف حالك اليوم؟

التفتت أسيل نحوها قائلة: لا أعرف.

- كيف تشعرين؟

- لا أعرف.

جلست الطبيبة بجوارها قائلة: لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام.

عادت أسيل تتطلع إلى الحديقة، وإلى المتجولين فيها قائلة: شعور غريب جدا، أن يكون عقلك صفحة بيضاء تماما، لا تعرف من أين تبدأ حياتك، أو كيف سارت، أو أي شيء عن ماضيك!.. لا تعرف من كنت، ولا كيف تحيا.. لا تعرف أي شيء على الإطلاق.

- لقد كان حادثًا رهيبًا، ويجب أن تكوني شاكرة كونك مازلت حية.

ثم ربتت على كتفها مكملة: ولكنك لست وحدك، فنحن هنا، نعتني بك، حتى تصبحي أفضل، وثقي أنك ستصبحين أفضل.

ثم أخرجت ورقة جيبها، وبدأت تقرأ: اسمك دعاء ياسين، تعملين كمهندسة في شركة فاندوم العالمية، تعيشين وحدك في شقة بالحي السابع، بجوار مقهى ستار، حيث تحبين تناول قهوتك الصباحية. تعرضت للحادث وأنت في طريقك للعمل، انقلبت سيارتك على الطريق، فتم نقلك للمستشفى، حيث ظللت في غيبوبة لتسعة أشهر، ثم استيقظت فاقدة للذاكرة، فقامت الشركة بإرسالك إلى هنا.

لم تتلكم أسيل، ولكن وجهها تغيَّر، فسألتها الطبيبة: ماذا هناك؟

قالت أسيل: لا أعرف! فقط، صياغتك للأمر بهذه الطريقة يجعل حياتي تبدو نوعا ما..... فارغة! أعرف أنني لا أتذكر شيئا؛ ولكنني أشعر أن هناك المزيد.

قالت الطبيبة: بالطبع لم تكن حياتك فارغة، لقد عشت حياة رائعة من النجاح والتألق، فقد كنت نجمة الشركة وحصانها الأسود.

- لا أعرف......

نهضت الطبيبة قائلة: لا تقلقي يا دعاء، ستكونين بخير.

سارت الطبيبة مبتعدة، حتى قابلت يوسف، الذي تطلع إلى أسيل، ثم التفت إلى الطبيبة يسألها: كيف حالها اليوم؟

- ستكون بخير.

- جيد.

قالها يوسف، وسار مبتعدا، فنادته الطبيبة قائلة: سيد بيتر.

التفت يوسف نحوها، فقالت الطبيبة: سأحتاج إلى باقي ملفات دعاء.

- سأرسل لك كل ما تريدين.

- شكرا لك.

سار مبتعدا، وهو يتذكر حواره الأخير مع شريف. لقد أسرع نحوه بعد أن خرج، وقال: أنت لم تمنحني الاختيار؛ أليس كذلك؟

تطلع إليه يوسف صامتا للحظات، ثم قال: أسيل!

قال شريف: إنها لم تفعل أي شيء، فقط تذكرت ما رأت، وهذا لم يكن بيدها؛ بل كان بسبب الهجوم على المركز. إنها لا تستحق هذا العذاب، بل تستحق أن تكون سعيدة.. تستحق بداية جديدة، بعيدا عن كل هذا.

- أعرف هذا. أنت اخترت حياتها، وستحصل عليها، اطمئن يا شريف، ستفعل.

- هل ستفعل هذا؟

- أعدك أنني سأهتم بها، وأرسلها بعيدا عن كل هذا.

- وهند؟

- إنها بخير. لقد غادرت المستشفى، وعادت لبيتها، واطمئن، لا أحد يسعى خلفها.

عانقه شريف قائلا: شكرا لك، شكرا لك.

غادر يوسف المستشفى، وركب في المقعد الخلفي لسيارة متوقفة، انطلقت به. لقد انتهت المهمة، وهناك أسئلة كثيرة لم يحصل على إجابتها، ولكن الأمر جاءه: لقد انتهت المهمة.

قال الساحر:

- أنت تعرف هذا منذ اللحظة الأولى. نحن جزء من شيء أكبر، ولا أحد يرى الصورة الكاملة.

***

-٨٣-

تطلع الشاب إلى البطاقات الموضوعة أمامه، والتي تحمل صور شريف، وأسيل، وهند، وأحمد، وبيلسان، ووسام، ويوسف، وأيمن، ونيروز، وديفيد، وإيزابيل، وريان، وخالد، وبدر، ودجى، والساحر، ورائف، وعدد آخر من الأشخاص. قال الأشيب الجالس أمامه:

- نحن لا نتلاعب بحياة أحد، أو نخدعه.. بل ندفع بالاختيارات أمامه، ونتركه يفعل ما يريد، دون تدخل منا.

- ولكنكم تعرفون كل شيء.

- بالطبع، نحن نعرف.. فنحن نرى كل شيء.

أشار الأشيب بيده؛ فعرضت الشاشة أمامه صورة لغرفة صغيرة، جدرانها مغطاة بالشاشات الضخمة، ويجلس أربع أشخاص بطريقة متعاكسة متقابلين بالظهر، يتطلعون إلى الشاشات، التي تتحرك الصور عليها بسرعة تبلغ أضعاف السرعة العادية. يضعون خوذات تخفي نصف وجوههم، متصلة بجهاز خلفهم.

ثم ابتعدت الكاميرا عن الغرفة، لتظهر مشهدًا علويًا لعدد كبير جدا من الغرف المتماثلة، وقال:

- هؤلاء هم القراء؛ يرون كل شيء، ثم ينقلون ما رأوه إلى العقل، الذي يحلل كل شيء، ويعرف ما تريد وما ستفعل، قبل أن تعرف أنت، ثم تذهب المعلومات الخارجة إلى الكتَّاب، الذين يعدون البطاقات التي تحوي كل شيء.

قال الشاب: وماذا عن المستمعين؟

- المستمعون جزء هام جدا من نظامنا؛ وليسوا كل نظامنا.

- ولكنه تضرر كثيرا مع ما حدث مؤخرا.

- حقا؟!

- أعتقد.. لقد تم اختراقه، وسرقة برنامجه الأصلي، وعرض للبيع.

- تقول هذا؛ لأنك لا ترى الصورة الكاملة؛ فدعني أوضح لك الأمر. البعض يظن أن القوة تكمن في تحصينك، وبناء الأسوار حولك، فلا يستطيع أحد اختراقها. ولكنهم مخطئون؛ فالقوة الحقيقية أن تكون هناك، في الخارج، وسط الجميع، ولا يجرؤ أحد على النظر إليك.

ثم ألقى بمجموعة من البطاقات أمامه مكملا:

- هؤلاء هم كل الأشخاص الذين سعوا نحو المستمعين يوما، أو الذين طاردوا برنامج المستمعين عندما ظهر في الخارج. هل تعرف ماذا حدث لهم؟ لقد اختفوا جميعا؛ فماذا يخبرك هذا؟

أضاءت شاشة صغيرة أمام الشاب، عليها بعض تعليقات المخترقين على اختفاء ملاحقي البرنامج، قرأها سريعا، ثم قال:

- يقولون إن اللعنة تأخذ كل من يحاول الاقتراب منه، وأن أحدا لن ينظر نحوه ثانية.

- وهذه هي القوة الحقيقية.

- يمكننا أن نشكر وسام؛ فهو من بدأ الأمر.. وشريف؛ فهو الذي أخرج البرنامج!

- حقا!.. مازلت لا تفهم. لقد كنا نحن من أوحى لوسام بإكمال السير في هذا الطريق، كجزء من اختبار النظام. فلا يكفي كونك الأفضل، يجب أن تحافظ على هذا دائما، أن تواجه اختبارات طوال الوقت.

- ولكن وسام فشل في إعداد البرنامج، فكيف تذكرت أسيل؟!

- لدى الحراس محركون، ونحن لدينا الأشباح الهامسة.. لا تحرك شيئا، ولا تتلاعب بأحد.. ولكنها تهمس فقط للشخص بما يفعل.

- كيف؟

- يوما ما ستعرف.

- لم تجب سؤالي، كيف تذكرت أسيل؟

ظهر على وجهه شبح ابتسامة وهو يقول:

- لم تتذكر أسيل شيئا. لقد وضعنا الصورة في رأسها؛ لنبدأ كل شيء.

- ماذا؟!! مستحيل!!

أشار الأشيب إلى البطاقات الموضوعة أمامه قائلا:

- حقا!!

- وماذا عن شريف؛ كيف حصل على البرنامج؟

- أعتقد أنك تعرف ما حدث. لقد سهلنا له الحصول على ما ظن أنه البرنامج. كان أخذه هو اختيار شريف، ولكن برنامج المستمعين الحقيقي، لم يغادر مكانه أبدا.

- من المؤسف أن خسر حياته.

- شريف رجل صالح، وجندي مخلص، مستعد للتضحية بحياته من أجل الوطن. لقد كان هو الاختبار الحقيقي للمستمعين. إذا تمكن النظام من النجاة من شريف بكل قدراته؛ فلن يستطيع أي شخص آخر اختراقه.

- شريف رجل صالح!.. تقصد كان.. كان رجلًا صالحًا.

هز الأشيب رأسه، ولم يعلق، فقال الشاب:

- لماذا تم عقاب البعض، وتم ترك البعض يذهبون؟

- لقد أخبرتك: أنت لا ترى الصورة الكاملة.. لا يوجد ثواب وعقاب، كل ما يحدث جزء من الصورة الكبيرة.

هز الشاب رأسه قائلا:

- لا أستطيع تصديق ما اسمع. لقد استغرقت الكثير من الوقت، لأصدق بوجود الحراس، والمحركين، وأنت تخبرني الآن أنهم ليسوا الطبقة العليا، بل هناك أنت.. لا أعرف بما أدعوك. لدينا القراء، والكتاب، والأشباح الهامسة، ماذا لدينا أيضا؟

- لا أعرف.

- ماذا؟! ظننتك قمة الهرم!

- قد أكون كذلك، وقد يكون هناك من يحركني أنا الآخر.

خبط الشاب جبهته بيده قائلا:

- ما هذا؟! كيف يعمل هذا النظام الرهيب؟! بل كيف يوجد هذا النظام؟!

نهض الأشيب من مقعده، فبدأت الشاشة تعرض مشاهد من الحرب، ثم خطاب الرئيس الجديد، الذي أنهى الحرب، ثم مشاهد من الفرح الذي عم البلاد، ثم صورة من الحياة اليومية للمواطنين في العاصمة الآمنة، وقال الأشيب:

- البعض يريد أن يصدق أن الحرب انتهت بما فعله الرئيس، ولكن الحقيقة أن الحرب لم تنتهِ، إلا لتبدأ أخرى، أقوى، وأخطر، وأشرس، اتحد فيها الجميع ضدنا، من الداخل، والخارج، ليعيدونا إلى أسوأ من الحالة التي كنا عليها. مع كل خطوة نأخذها للأمام، هناك من يحفر ألف حفرة أمامنا، يبني ألف جدار في وجهنا، يدفعنا للخلف بكل طريقة ممكنة.

- لم أتصور الأمر على هذا النحو.

- هل تعرف كم مرة أوشكت الحرب على الاشتعال ثانية؟ لولا فضل الله - سبحانه وتعالي- ثم مجهود رجالنا.

هز الشاب رأسه في تفهم، وواصل الأشيب:

- الأمر الذي يجمعنا معا، هو أننا جميعا أقسمنا ألا يتكرر ما حدث.. ألا نكون ضعفاء ثانية، وهذا ما نفعله. ولكن أعداءنا يتطورون كذلك، لذلك نجمع كل ما يمكننا لمواجهتهم. حتى ما يبدو لك متناقضا، أو غير مفهوم، هو من أجل هدفنا.

- لأنني لا أرى الصورة الكاملة.

- لا أحد يرى الصورة الكاملة.

صمت الشاب للحظات، ثم قال:

- لدي سؤال أخير، من يحرس الحراس؟

** تمت بحمد الله **

يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ